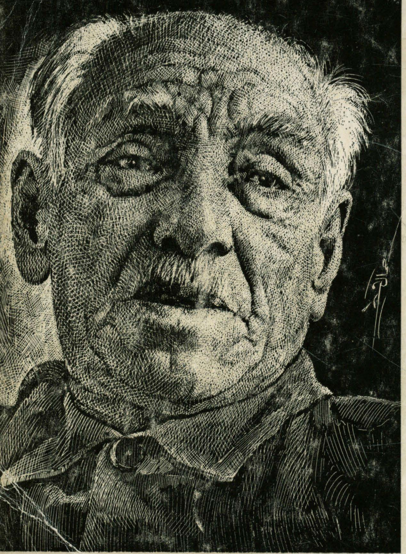
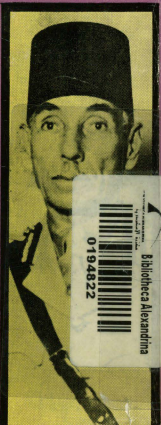
بطل لا ننساه

عزيز المصري وعصره





تأليف: محمّد صبيح

منشورات: المكتبة العصريّة، صيدا - بيروت

محمد صبيح

بطل لا ننساه

عزيز المصري وعصره

منشورات المكتبة العصرية
بيروت - صيدا

مقـــدمـــة

اتصلت بيني وبينه أسباب كثيرة ، فيما بين الثلاثينات والخمسينات . جلست اليه في بيته – بعين شمس ثم الزمالك .

كانت تشدني اليه طاقته البارعة في الحديث ، وثقافته الواسعة المحيطة ، وحبه للقراءة الى درجة الفهم ، وتجاربه الخصبة الغنية ، وركوبه من المخاطر ما تعجز عنه فرقة من أشجع الرجال ، ووفاؤه النادر ، وسخاؤه وكرمه في غير تظاهر وعلي قلة ما لديه .

ولم يكن عزيز المصري يكترث كثيراً لأصحاب المناصب أو الجاه ولذلك كان لا يتصل بأحد منهم إلا اذا طلب منه أحد رد ظلم أو التشفع في حق. ويفضل على مجالسة هؤلاء « الكبار » ، الشباب الذي يرى فيه ماضيه ، ويرى فيه مستقبل هذه الامة . . . وكان المئات من الشباب الذين ترددوا عليه وسمعوا منه ، يسمعون منه وصية لا يمل من تكرارها : اقرأوا . . اقرأوا .

كانت زوجته في الولايات المتحدة ، تلح عليه في ان يطلب منها شيئا لا يوجد في مصر . فكان طلبه الوحيد (آخر كتاب) في علوم السياسة والفكر والشخصيات المعاصرة والبطولات الغابرة . وكان يجيد القراءة والحديث بالعربية والتركية والانجليزية والفرنسية والالمانية ، ويعرف الاسبانية والايطالية .

جاءت في عرض الحديث ذات مرة سيرة الاسكندر المقدوني فاذا به يبدي من دقائق التفاصيل عن حياته ، وكأنه تخصص في دراسة هذا البطل الافريقي . فاذا عرضت مأساة العرب في الاندلس ، فهو مفيض ، ومقنع . وقد كانت اسبانيا ، احد المنافي التي اوصلته اليها مطاردة الانجليز . وما اروع قصصه وأحاديثه عن الامامين السنوسي ويحيى حميد الدين ، وقد زينت بالفكاهة البارعة والحركة التمثيلية الرشيقة .

روى انه كان في جغبوب يباحث الامير السنوسي في الحرب الليبية ضد ايطاليا ، فدخل ساقي القهوة ، وقدم للامام فنجالا ، أخذ منه رشفة ثم مد

يده به لعزيز ، فدهش صاحبنا ان تكون ضيافته بقية من فنجال . فتناوله وسكب البقية في هدوء ، بجواره ، واعاد الفنجال للساقي . واذا بالحضور في مجلس الامير يتولاهم وجوم وضيق شديد . فان أفضل التكريم ان يناول الامير باقي ما يشربه من قهوة لضيفه .. ولم يكن عزيز يعلم بهذا التقليد .. وبعد جهد سويت هذه المشكلة ، بتدخل من مصطفى كمال ، وأنور على ما اذكر !! قلت له :

ــ واذا كنت تعلم بأمر هذا التقليد فماذا كنت تصنع ؟ قال على الفور :

ــ اسكب الفنجال .. من يدريني بان الامير لم تكن اسنانه مريضة بالبايوريا او غيرها !

ثم يضحك ضحكة صافية ينتقل بعدها الى قصة اخرى في جبال البلقان ، أو بطاح اليمن ..

وكان عزيز المصري لا يحب الافاضة في الحديث عن زملائه العراقيين في جمعية « العهد » من امثال نوري السعيد وجميل المدفعي وطالب النقيب وتوفيق السويدي والسعدون والهاشميين طه ويسن . وان كان دائما يثني ــ ولكن في اقتضاب ــ على يسن الهاشمي .. وهو يرى فيهم اخلالا بمواثيقهم معه ، مع ان الجمعية التي تجمعهم اسمها « العهد » .

وحدث ان تمكنت من الحصول على نسخة من الطبعة النادرة الضخمة لكتاب « أعمدة الحكمة السبعة » للجاسوس الانجليزي المعروف لورنس . وحملتها اليه ، فرحا ، وأنا اقول : لقد كتب عنك كثيرا .

ولدهشتي وجدته القى نظرة سريعة على المجلد ، ثم قال :

لعلك انفقت مبلغا كبيرا في سبيل الحصول على هذا الكتاب ، فقلت :

ــ أجل .. فقال

ــ خسارة .. هذا رجل « نصاب » !

ولم أفهم حقيقة هذه الكلمة الا بعد سنين طويلة بعد ان تكشفت اسرار هذا الداعية النصاب ، والعميل الصهيوني المستتر .

ومضت الايام ، وجمعت بيننا مغامرات ، وضمتنا سجون في محن الحرب العالمية الثانية وما بعدها ، مما سنفصله في حينه . فلما اذن الله لرحلة هذا المجاهد الفذ الى انتهاء .. هذا الرجل العبقري الذي عاش في دنيانا غريبا ، ومات غريبا ، انتويت ان اعطيه بعض حقه على قوميتنا العربية ووطننا المصري بتأليف كتاب عنه ، يكون قبسا من نور لاجيال لم تعلم الكثير عن البطولة الحقة في اروع صورها ...

في هذه الفترة اتصل بي صديق يشرف على اصدار كتب تعينها الدولة،

وطلب مني كتابا يضيفه الى سلسلة اعلام الاسلام . قلت له :

ـ ليس من عادتي الا لضرورة ـ ان اصدر كتبي عن طريق ناشر . فانا اتولى هذا الامر بنفسي ، كلما وجدت لدي طاقة على ذلك . ولكن في ذهني الان كتاب عن « عزيز المصري » ، اتمنى ان أدونه ويصدر فورا .. فهل يرضيك هذا ؟ قال :

ـ سأرد عليك غدا !!

ومضى غد ، وكثير مثله . ثم لقيني صدفة ، وقال وهو أسوان محزون النفس :

ـ لم يوافقوا يا سيدي !

ولم اعلق ، ولم اسأل من هم الذين لم يوافقوا في ذلك الوقت على صدور كتاب عن عزيز المصري . ولكني لمت نفسي لاني عرضت مثل هذا الكتاب على آخرين يتولون العناية بصدوره ..

ولكل شيء ميقات ، يعلمه الله .. وقد شاء الله أن يصدر هذا الكتاب ، وان اخط سطوره ، وانا اتأهب للسفر الى بيروت ، فعسى ان يشهد النور هناك .

محمد صبيح

القسم الأول

قصر يلدز

سِرّه وسِحره

في شارع عبد العزيز

كان أمير المؤمنين السلطان عبد العزيز يزور مصر ، وكان الخديوي اسماعيل حاكم مصر في ذلك الوقت ــ ابريل سنة ١٨٦٣ ــ شديد الهم عظيم الكرب ، يتمنى ان تنتهي هذه الزيارة بسلام . فهذا أول واحد من خلفاء آل عثمان يزور مصر بعد السلطان سليم .

نزل السلطان العثماني في سراي القلعة ، التي شهدت من قبله ملوكا وسلاطين عظاما امثال صلاح الدين ، وبيبرس ، وسليم الاول ، وبونابرت ، ومحمد علي .

وكان من برامج الزيارة أن يستقبل السلطان علماء مصر وأعيانها . وحتى لا يحدث أي خطأ في المراسم ، فقد اجريت من قبل تجارب وتجارب ، ولا سيما مع وفد العلماء ، وقد وكل الى قاضي القضاة التركي ان يعلم هؤلاء المشايخ الاجلاء كيف يمثلون في حضرة « بادشاه » اميرالمؤمنين ، سلطان البرين ، وخاقان البحرين ، وخادم الحرمين .. الخ .

واقتصر في وفد العلماء على اربعة : الشيخ العروسي شيخ الازهر ــ والشيخ السقا من العلماء والمتصوفين ، والشيخ العدوي العالم الورع التقي .. وكان السلطان يقف في قاعة القلعة الكبرى على منصة مرتفعة ، بينها وبين باقي القاعة حاجز . وقضت التعليمات للعلماء بأن كل واحد منهم اذا دخل من الباب ، ووقعت عيناه على جلالة السلطان ان ينحني انحناء عظيما ويسلم بكلتا يديه بحيث تمسان الارض ثم ترتفعان فوق الرأس في حركات سريعة متعاقبة ، وهو ما يسمى بالتمنيات . ثم يقف الواحد منهم ويسير في خطى منتظمة حتى باب الحاجز ، ويكرر الانحناء والتسليم ، ثم

يقف ويعود بظهره القهقرى ووجهه للسلطان حتى اذا وصل الباب استدار ، وسار كما يسير كل الناس •

وكان الخديوي اسماعيل يقف وراء السلطان ، ويقول له ــ بالتركية طبعا ــ اسماء ومناصب الزائرين • وتم كل شيء طبقا للنظام ، حتى اذا جاء دور رابع العلماء الشيخ العدوي ، لم يفعل كما درب ، فما ان وصل الى الحاجز الفاصل حتى تجاوزه ، وصعد الى المنصة التي كان السلطـان وحاشيته واقفا عليها ، وواجه السلطان بعين ثابتة ، وقال :

السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله •

وهنا وثب قلب الخديوي اسماعيل من صدره ، واحمر وجهه حتى حاكى لون الدم ، وهم بان يتحرك ويدفع الشيخ العدوي يلقيه على ظهره • ولكنه لمح ابتسامة لطيفة على وجه السلطان عبدالعزيز • فتريث على وجل •

وانطلق الشيخ العدوي ، بالعربية ، يعظ السلطان ، ويبصره بمـا يجب عليه نحو الاسلام ونحو المسلمين ، وان جزاءه عند الله بمقدار قيامه بالمسؤولية واحسانه لادائها ، وعقابه بمقدار اهماله لها • ثم ألقى ســلام الاسلام على السلطان وحياه واستدار بظهره وخرج منتصب القامة ثابت الخطى ••

كل هذا قلب كيان الخديوي ولعن في سره من أشار عليه باختيار هذا الشيخ بين الذين يمثلون بين يدي أمير المؤمنين • وراح يعتذر له عن سقطة هذا الشيخ الابله ، فاذا السلطان يطلب ترجمة ما قال ، ثم قال : انصدره انشرح لهذا الشيخ كما لم ينشرح لانسان • ثم أمر ــ لدهشة الخديوي البالغة ــ بان يهدي الشيخ العدوي خلعة شاهانية ، وألف جنيه !!

* * *

وتخليدا لهذه الزيارة وتكريما للسلطان ، اطلق اسمه على شارع من اهم شوارع القاهرة في ذلك الوقت ، وهو « عبدالعزيز » وكان سكان هذا الشارع ، شديدي العناية ، بانباء السلطان ، فلما نقلت اليهم قصــة الشيخ العدوي ، ابهجتهم ، وسرت خاطرهم ، وكانت الاسر تتندر بها • فاذا قال قائل : السلام عليك يا أمير المؤمنين • فزع شخص أشد الفزع لأنه كان يمثل في السهرة دور الخديوي الذي روعته هذه التحية •

ومن بين سكان هذا الشارع اسرة يطل مسكنها على حدائق شريف الواسعة التي كانت تمتد من شارع عبد العزيزحتى تصل الى شارع محمد علي ، وكانت اشجارها الباسقة وزروعها الوفيرة ، وخضرتها الدائمة تنافس حدائق الازبكية ، التي لا تبعد عنها كثيرا .

كانت هذه الاسرة ، تحمل اسم كبيرها ــ الشيخ علي المصري ــ من أعيان البحيرة ومزارعيها . وقد اطلق عليه لقب المصري ، تمييزا له عن جار تركي اسمه الشيخ علي أيضا .. وكانت زوج الشيخ علي سيـدة شركسية ، تمتاز بالجمال والاناقة . ولكنها ككل السيدات الذين استقرت أسرهم في مصر ، كانت شديدة التعلق بموطنها ، وكانت دائمة التحـدث عن بلادها وروعتها ، ولا سيما عن عاصمة الخلافة « اسلام بول » أي موطن الاسلام ، وقد حرفت فيما بعد الى « اسلمبول » أو « استنبول ». فاذا جاءت سيرة السلطان عبد العزيز ، وحادثته مع الشيخ العدوي أشادت بحب السلاطين للعلماء وتكريمهم لهم، مما لم يكن يفهمه أو يقدره الخديوي اسماعيل .

ورزق الشيخ علي من زوجه هذه بابنة كانت قرة عينه .. وبعـد سنوات قليلة ــ ١٨٨٠م ــ على وجه التحديد رزق بابن ، أصرت الام على أن يسمي عبدالعزيز ، على اسم السلطان ، الذي يحمل شارعهم اسمه ، وكان الاسم الكامل للوليد الذي تمناه الابوان : عبد العزيز علي المصري.

ولم تكن الإنباء التي ترد الي شارع عبد العزيز من الاستانة العلية، والى اسرة الشيخ علي ، مما يسر الخاطر ، أو يبهجه . فلم تمض على زيارة السلطان لمصر أربعة عشر عاما ، حتى انتزع من قصور الخلافـة ، ومن عرشه الكبير الى سجن ضيق ، قطع له فيه شريان ، تسربت منه قطرات دمه مع آخر انفاس الحياة ، ويتولى من بعده السلطان مراد ، ثم ما يلبث ان يخلع ، ويوافيه الموت الخفي الذي كان من نصيب كثير من اسلافـه ، ويتولى عبد الحميـد الثاني عرش السلطنة ، وبنـاء على ضغط الدول الاجنبية ، كان من أهم فرماناته ، خلع خديوي مصر اسماعيل ، وتوليـة ابنه توفيق مكانه . ولم يكن قد مضى بين الحفلات الرائعة التي أقامهـا استقبالا لعبد العزيز ، وبين سقوطه هو اكثر من ١٦ عاما .

ومهما كانت المآسي التي صاحبت اصحاب التيجان والعروش في الاستانة وفي القاهرة ، فان اسرة الشيخ علي ، كانت تستقبلها بالدهشة والحسرة ، ولكن عنايتها بطفليها ، كانت سلواها وأنسها •

وما ان بلغ عبد العزيز الصغير سن التعليم حتى نال منه في المدرسة، وفي المدارس الخاصة أو في عناية•وكان تعليمه الثانوي في المدرسة التوفيقية بحي شبرا • وكانت مدرسة الطبقة الراقية في ذلك الوقت • وكان حينما يذهب اليها بدوكار ، وهو عربة يجرها جواد مطهم احسن تزيينة ،وسائقه يلبس رداء أزرق على طريقة سائقي الاعيان في ذلك الزمان •

وكانت المدرسة التوفيقية تعنى باللغة الانجليزيــة ، لان الانجليز كانوا قد احتلوا مصر عام١٨٨٢ ، أي بعد عامين من ميلاد الطفل عبدالعزيز، وبسطوا يدهم على كل مرافقها • وقد مكنتهم الاعوام العشرة التى تولى فيها توفيق بن اسماعيل منصب الخديوية من بسط نفوذهم ونشر لغتهم فقــد كان الخــديوي أطوع لهم من بنـــانهم • وكـــان رئيس النظـــار مصطفى فهمي باشـــا يتبع نفس السيـــاسة •• كـــل شيء يطلبـــه المستشارون الانجليز فهو أمر واجب النفاذ • ولا بأس من تعلم اللغـــة الانجليزية في المدارس ، ولكنها كانت لغـــة كثير من المواد الدراسيـــة العادية • فالطبيعة والكيمياء والتاريخ الطبيعي والجغرافيا والتاريخ كانت تدرس بالانجليزية ، وترك للغة العربية المواد الرياضية • وهذا الى جانب اللغات الثلاث العربية والانجليزية والفرنسية ، والرسم والخط •

وكان فتانا عبد العزيز علي قصير القامة ، وكثيرا ما عيره زملاؤه بقصره ، فعوض هذا النقص باقباله على الرياضة البدنية ، حتى أصبـــح قادرا على منازلة أطول الاولاد قامة ولسانا ، والتغلب عليه • وقد أفاده شغفه بالرياضة البدنية في مقتبل عمره ، اذ ظل على حيوية فائقة بعـــد ان تجاوز الستين ، فكان يصعد الى الدور الثامن وثبا على السلالم ، ويرفض استعمال المصاعد الكهربائية ــ لانها أدوات الضعفاء العاجزين •

واذا كان تعليم الانجليزية اقحاما وقسرا في المدارس الثانوية المصرية، هو من سياسة الاحتلال الجديد على مصر ، فرب ضارة نافعة •• ذلك ان أي لغة أجنبية يتعلمها التلاميذ في الصغر باتقان ، انما هي ذخيرة نافعة في الحياة ، وطاقة حقيقية يطل منها الشباب على دنيا الحضارة •• هي لغـــة

المستعمر ، ولكنها في نفس الوقت لغة دونت بها الآداب والعلوم بانواعها ..
ولهذا فلا بأس على فتانا ان تعلم الانجليزية على هذا النحو في المدرسة التوفيقية ، واطراف من اللغة الفرنسية ، وتعلم التركية على يدي والدته : تعلمها كتابة وقراءة وحديثا . كما تعلم اللغة العربية ، التي كان حرص المدارس على العناية بها هو نوع من المقاومة المستترة لسلطة الاحتلال .

ولقد سمع عبد العزيز من اسرته ، كيف هزم جيش عرابي في التل الكبير ، وان كان أبوه الشيخ علي دائم الفخر بمديرية البحيرة التي أوقفت تحصيناتها ، ومقاومة أهلها الجيش البريطاني في الاسكندرية فلم يستطع أن يتقدم الى خط كفر الدوار ، وقد انشأه المهندس القدير محمود فهمي. وصمم أهل رشيد ، وأهل البحيرة ، أن يكرروا مع الانجليز ١٨٨٢ ، ما فعله أجدادهم مع حملة فريزر عام ١٩٠٤ . فما كان من وولسلي وجيشه الا أن عدلوا عن خطة الاقتحام من هذه المنطقة ، الى أقصى الشرق من الدلتا ، الى منطقة التل الكبير ، ولم يكن أحسن دفاعها ، ولا فطن عرابي والبارودي وفهمي الى حقيقة القوات الانجليزية المهاجمة ، وهي تزيد عن ثلاثة أمثال القوات العرابية ، الى جانب معداتها الحديثة ، فكانت الهزيمة التي هزت مصر من أعماقها ، وأوردت السجون والمنافي اعز أبناء مصر وطنية ، وان لم يكونوا أقدرهم عسكرية ..

فلما تولى عباس الثاني منصب الخديوية عام ١٨٩٢ افرج عن سجناء الثورة العرابية والمنفيين منهم ، عدا من كان محكوما عليهم بالسجن المؤبد. فعاد الى مصر عبدالله النديم وآخرون .

ويتذكر عبد العزيز فيما روي له من أحداث السنوات الاولى لميلاده ، أن مندوب السلطان عبد الحميد الذي قدم لتسليمه فرمان التولية ، لم يتقاض الا خمسة آلاف جنيه رسم اصدار الفرمان ، في حين أن العادة جرت على دفع سبعة آلاف جنيه بالزيادة للمندوب نفسه .

ويتذكر عبد العزيز ابن الشيخ علي المصري فيما روي له — أيضا — أن السلطان عبد العزيز ، حين عاد من زيارته لمصر تبعت اسطوله سفينة مصرية محملة بالالطاف والهدايا للسلطان وحاشيته ، وزيادة في « محظوظية » جلالته . أما الصدر الاعظم فقد كانت هديته ٦٠ ألف جنيه

بالتمام والكمال ! فلما تولى عبد الحميد العرش ، اكتفى برسم الفرمان ، خمسة آلاف ، وهو يشبه رسم « الدمغة » هذه الايام .

ويذكر عبد العزيز فيما روي له عن أنباء مصر في حداثته الاولى ، أن الخديوي عباس زار الاسكندرية ورافقته حاشيته الى منطقة سيدي بشر ، وقد اكتنزوا ٤٥ حمارا ، وفي آخر منطقة الشاطىء ، شاهد عباس لسانا ممتدا الى البحر ، مع شاطىء جميل ، أعجبه منظره ، فقرر انشاء قصر له في المنطقة ، فكان ميلاد قصر المنتزه في هذه الناحية .

وتعي ذاكرة عبد العزيز أيضا ، انشاء الجمعية الخيرية الاسلامية تحت رياسة الخديوي وكان من اعضائها سعد زغلول والشيخ محمد عبده وقاسم أمين ..

وتعي أيضا موكبا حزينا شاهده فتانا ، وكان في الخامسة عشرة من عمره — سنة ١٨٩٥ — وهو تشييع جثمان الخديوي اسماعيل الذي كان منفيا في تركيا ، وكان اسمه ملء السمع والبصر ، فاذا به نتيجة لاسراحه يجد نفسه ، شبه وحيد ، وشبه غريب في الاستانة . واذا به يقف في « غليون » بميناء « اسلام بول » يستقبل حفيده مع بعثات شرف ، وكان قادما لمقابلة السلطان ..

وقد حدثت في اثناء هذه الزيارة حادثة تعبر عن طبيعة العصر ، وجو الحياة في تلك الايام ..

فقد تاق عباس الثاني الى مقابلة ثائر العصر العظيم وحكيم الامة الاسلامية جمال الدين الافغاني الذي كان عبد الحميد يبقيه ضيفا عليه « بالاكراه » .. وحتى لا يثير عباس أي ريب فقد أرسل يستأذن السلطان في مقابلة جمال الدين . ولكنه لم يأذن له . وذات يوم بينما كان عباس الثاني ممتطيا جواده يتنزه في حدائق « الكانمد خانة » اذا بالافغاني يسير منفردا في نفس الحديقة . وقد عرفه الخديوي ، فنزل عن جواده ، وقدم نفسه للافغاني وتحدثا ساعة من زمن .

وعلى مائدة عشاء شاهانية ، كان الخديوي ضيف شرف على يمين السلطان عبد الحميد ، وكلما وجه كلاما لعباس كان هذا يقف ، ويؤدي التحية العسكرية ، ثم يجيب على السلطان ، حتى أتلف عليه شهيته

للطعام ، ونقلت القصة الى القاهرة وكانت مما تندرت به مجالسها وسهراتها •• ولكن المهم انه في نهاية المأدبة عند استئذان المدعوين في الانصراف ، دعا عبد الحميد السيد جمال الدين لافغاني وقال له وهو يسدد نظراته اليه :

ــ هيه ••أتريد أن تجعلها عباسية ؟

والسلطان بهذا يشير الى المقابلة التي تمت بين عباس والافغاني في الحديقة !! فرد جمال بجرأته المعروفة وقد أدرك ما يرمي اليه السلطان :

ــ ان الخلافة ليست خاتما في اصبعي أضعه في أي مكان أريد !

وطبعا لم تتكرر المقابلة بين خديوي مصر وثائر الشرق ، فقد كانا تحت رقابة عين احد من عين الصقر •• انه عبد الحميد « ظل الله في الارض » كما كان يسمى ، والذي ستدور بينه وبين فتانا الصغير ــ عبد العزيز المصري ــ احداث وأحداث ، كانت مستورة في علم الغيب ويدخرها القدر لما هو مقبل من الايام •

وتناقلت الدوائر النسائية التركية قصة ، كان لها أعظم الوقع في أوساطها ، ما لبثت أن انتقلت الى دوائر الرجال ومؤداها ان السلطان عبد الحميد أوعز الى عباس الثاني أن يخطب ابنة السلطان وكانت هذه مفاجأة للخديوي الشاب ، لم يدر كيف يبت فيها ، حتى تدخل « ابو الهدى الصيادي » ، وهو الشيخ العربي ، الذي كان صاحب سلطان علىالسلطان بدعوى انه يعرف في قراءة النجوم ، ويستطلع انباء الغيب • وقد حذر ابو الهدى السلطان من هذا الزواج، لان عباسا اذا أنجب من بنتالسلطان ابنا ، فقد يسعى الانجليز الى نقل الخلافة اليه ، باعتباره من نسل السلاطين ، وبهذا يسيطرون على المنصب الاسلامي الخطير ، بحكم سيطرتهم على القاهرة !!

واقتنع السلطان عبد الحميد ، وعدل عن هذه المصاهرة الخطرة •

وبقية احاديث القاهرة ، أواخر القرن الماضي ، كانت تدور حول الانجليز ، واصطدامهم المستمر مع عباس الثاني • مرة عندما أقصى مصطفىفهمي باشا عن رياسة مجلس النظار ، وقد ظل في منصبه سنين طويلة ، وقد فوجيء الانجليز بهذا الاقصاء ، وأصر كرومر على ألا يتولى

مرشح عباس ، وان يتولى رياض باشا الوزارة • ومرة أخرى وليست أخيرة ، عندما أبدى عباس ملاحظة على مستوى تدريب وحدة من جنود الجيش المصري في أسوان • وكان سردار الجيش هو كتشنر المعروف • وقد أصر كرومر والسردار على الا يعود عباس الى القاهرة ، وحول قطاره الى الفيوم ، مالم ينشر بيانا كله مدح وثناء على الضباط الانجليز الذين يعملون في الجيش المصري •• وان ينشر البيان في الصحف العربية والانجليزية والفرنسية •••••• وقد كان !

❋ ❋ ❋

وأخذ عبد العزيز المصري ، شهادة البكالوريا بتفوق ، وقرر أن يلتحق بالمدرسة الحربية ليكون ضابطا ، عسى أن يتمكن من ايقاف الانجليز عند حدهم ، وان يثأر لهزيمة التل الكبير • فقد كانت هذه أحلام سنه ، وأحلام لداته من شباب مصر في ذلك الوقت •

وتقدم للمدرسة الحربية ، فرفضته ، لان قامته أقصر من الطول المقرر للضباط ، حسب المواصفات التي وضعها الانجليز للالتحاق بهذه المدرسة ••

وصاحت امه في غضب تصف قائد المدرسة الذي رفض ابنها قائلة :

ـ خرسيس •• ادب سيس •• عبد العزيز يذهب الى الاستانة العلية • أقاربنا هناك • ويدخل مدرسة حربية اكبر من مدرسة القاهرة •

وتأهب عبد العزيز للرحلة الى البلاد التي ظل كل أيامه ولياليه يسمع من والدته عنها الغرائب والعجائب ، يشجعه اتقانه للغة التركية ، ووجود أقارب له من أسرة والدته هناك •• فالى هناك !

❋ ❋ ❋

ظل الله ...

وصل عبد العزيز علي المصري الى الاستانة العلية ، وكان اقارب والدته واصدقاء لوالده في استقباله ، وكان لهم من النفوذ ما يسمح بايجاد مكان في المدرسة الحربية لفتاهم القادم من مصر •

وكان عبد العزيز يلتهم كل شيء يراه بنظره وباسئلته التي لا تنقطع ،

ويطابق ما سمعه في القاهرة عن هذه المدينة العجيبة الرائعة ، على المشاهد الكثيرة المنوعة التي يراها ..

ما أعجب الخليط من البشر الذي كان يسكـن ، أو يزور مدينة الخلافة .. ان ازياء الناس كانت تدل عليهم ، ولكنها لا تدل على ما في صدورهم .. فهؤلاء أقوام من الاكراد قدموا من سفوح جبال أرارات بخناجرهم المزركشة ، وشواربهم الكثة ، وعمائمهم الملونـة .. وهؤلاء رهبان وقساوسة من كل المذاهب المسيحية : ارثوذكس ، وكاثوليك ، ويهود ، وأرمن ... وفي مشاجرةوقف واحدمن هؤلاء القساوسةأصحاب اللحى السود الطويلة يشاهد المعركة : كانت بين بلقاني وتركي .. وفي الزحام لاحظ الناس شيئا عجبوا له .. سقطت ذقن القسيس ، فاذا هو وجه روسي ، ولما أمسكوا به وجدوا تحت ثيابه بندقية ... انهجاسوس!

والاتراك عموما قوم يمتازون بالنظافـة ، ونساؤهم تتحجب وراء البشمك اذا خرجوا ، والمشربيات تحجب عنهم الانظار في منازلهم ، فهم قادرون على الرؤية منها ، دون ان يراهم أحد .. وهذا العدد الهائل من الدراويش الذين يعلقون على صدورهم أكداس المسابح ويطل شعـر رؤوسهم من تحت عمائمهم .. انهم ضربة لازمة في مدينة الخلافة . ولم يكن السلطان عبد الحميد يكرههم ، ولم يطلب جـلاءهم عن مدينتـه الكبيرة ، فقد تسلم من واحد منهم سيف عثمان ، في مسجد بايزيد ، وهو شارة السلطنة بل ان للسلطان من كان يستشيره منهم في الطالع ، ويفتيه في الخطأ والصواب كما تدل عليه الافلاك والنجوم .

والاجانب في عرباتهم المطهمة ، وقبعاتهم العالية يمرقون في الشوارع المزدحمة : فيهم رجال الاعمال الذين يتوقون الى امتياز بترول فيالعراق ، او سكة حديد الى الكويت ، أو استغـلال منجـم في اليمن ، ومنهـم دبلوماسيون يمثلون دول العالم الغربي ، وأكثرهم عدو مستتر للامبراطورية العثمانية ، وأقلهم صديق ، وكلهم طامع في جزء من تركة الرجل المريض ، كما اسميت دنيا العثمانيين في ذلك الوقت . أما النصابون والمحتـالون وتجار الرقيق الابيض ، وتجار الخناجر المسمومة فحدث عنهم ولا حرج .

فاذا مضيت في تحليل العناصر السكانية التي تتراءى أمامك فـلا

يخطئك ان ترى وفودا قادمة من بيروت ، أو دمشق ، أو بغداد ، أو البصرة ، أو مكة ، أو حائل ، أو أبها . أو صنعاء ، أو سواكن ..والقاهرة كذلك وبقية المدائن المصرية . وكان من عادة أثرياء القوم في انحاء الامبراطورية العثمانية أن يكون مضيفهم المفضل في دار الخلافة ، ولا سيما أن كثيرا من هذه الاسر كانت تصهر الى أسر تركية ، لما تميزت به السيدات التركيات والشركسيات من جمال واناقة وتقاليد رائعة في الحياة البيتية ...

وكان التجار في الاستانة ، يتبعون طريقة طريفة في عرض سلعهم وطرفهم على الاسر ذات الثراء ، ولا سيما قصور الأمراء والأصهار ، وكان كثير منها مقاما على شواطيء البوسفور الاوربية والاسيوية .. كانوا يذهبون الى المنحدر الرملي على الشاطيء ، ويعرضون ما لديهم من سجاجيد فاخرة وأقمشة رائعة ، وعطور وأدوات زينة ، وأثاث منازل وغيرها .. فتقبل السيدات من وراء المشربيات ، ينظرن ، فاذا راق لهن شيء أرسلن القهرمانات لاحضاره .. واذا أفلحت القهرمانة في شراء شيء لسيدتها نالت هدية مناسبة .

وكان سكان عاصمة الخلافة ، يقلون قليلا عن مليون نسمة ، وهو رقم ضخم اذا قيس بمقاييس أواخر القرن الماضي ..

* * *

عزيز .. بعد عبد العزيز

وما أن وصل عبدالعزيز المصري ، حتى أخذ يستجلي معالم المدينة الكبيرة ، ويفتنه كل شيء فيها ، ولا سيما مساجد اياصوفيا ، وبايزيد ، والسلطان أحمد ، وهذا البسفور الرائع بحدائقه وقصوره ..

وكان مكانه معدا في المدرسة الحربية ، وقد سره ان وجد كثيرا من شباب العرب التحقوا معه بالدراسة . وتوثقت صلاته بهم جميعا ، كما توثقت بالشباب التركي الذي كان يغرم بدوره بالدراسات العسكرية ..

وقد سمع عبد العزيز ، ما أدهشه ، وأفزعه من أبناء السلاطين وقصصهم التي تكاد تشبه الخرافة . وما من سؤال وجهه عن شيء الا أثار

رواية قد يكون الخيال أقل غرابة منها •• ولأن اسمه عبد العزيز فقد كـان يلقي باله كثيرا الى تاريخه ، وما يروى عنه من أنباء ••

حدث مرة ، وهو يسأل عن مجموعـة رائعة من السفن التجاريـة مربوطة الى شاطيء البسفور في نظام ، وتبدو جديدة ، أو كالجديدة •• سأل : لماذا لا تبحر هذه السفن وتركب البحار السبعة ؟

وكان الرد :

ـ هذه من مخلفات عهد عبدالعزيز •• انهـا لعبة الصدر الاعظـم محمود باشا نديم في عهده ؟

ـ وكيف كان ذلك •• اني لم أعد افهم منكم منذ اليوم •

فرد محدثوه من الشباب التركي ، وقد سمعوا القصة من أهلهم ولا شك :

ـ كانت والدة السلطان عبد العزيز والسلطان نفسه آية فيالاسراف وتبذير المال •• كانت الوالدة تشتري خمسين فستانا فييوم واحد وتهديها الى سيدات وجواري القصر • وفي كل يوم كانت عربتها ذات الخيـول الاربعة تنهب الارض ذاهبة الى حيث يأمر الصدر الاعظم بملئها باكيـاس النقود •• ونضبت الموارد • واذا الفرج يأتي عن طريق شركة «وابورات» أي سفن تجارية عرضت على حكومة الخلافة أن تقدم للحكومـة سفينـة كل مدة معينة ، وتتقاضى ثمنها على أقساط • وتم الاتفاق ، وما أن كانت السفينة تصل ، حتى يدخلها « خواجات » وبعد وقت كانت تخرجصناديق ثقيلة جدا ، كبيرة جدا ، لتودع في سفن اخرى معدة للابحار •• وتبـين أن الصدر الاعظم ـ لحاجته المستمرة والملحة الى المال ـ كان يبيـع موتورات ، السفن الجديدة ، ومعداتها بثمن بخس يتقاضـاه سلفا •• وتبقى السفينة هيكلا خارجيا فقط !!

وأفزعت هذه القصص ، وأمثالها كثير ، الفتى المصري ، فقـرر ان يتخلى عن اسم عبد العزيز ، ويكتفي باسم عزيز ، فهو من الآن : عزيـز علي المصري •

واذا كان السلطان عبد العزيز بخلعه ، قد قرب اليوم الذي أصبح فيه عبد الحميد الثاني سلطانا للعثمانيين ، وخليفة للمسلمين • فان وفاته

أفادت عبد الحميد ، بعد خمس سنين من توليه ، لكي تزيح من طريقه أقوى رجال تركيا . وهو مدحت باشا ، وبعض أعوانه ، بل السلطان عبد المجيد الذي حكم ثلاثة أشهر ثم اصابه الجنون ومات .. ذلك أن عبد الحميد وجه لهم تهمة قتل عبد العزيز ، وأقام في قصر يلدز محكمة كان يشرف عليها من وراء ستار ، وحكمت بالاعدام على عدد من الرجال الافذاذ . ولكنه قبل شفاعة الدول الاجنبية فيهم ، فأرجأ اعدامهم حتى يصلوا الى منفاهم في الطائف من مدن الحجاز واختار أميرا من الاشراف آل يمون ليقتل هؤلاء الرجال .. مقابل توليه امارة الحجاز وتزع آل زيد ، وقد تردد أميرهم في تنفيذ أمر الاغتيال .

وربما كان مفهوما ، أن يحقد سلطان على زعيم مثل مدحت باشا لانه كان يعارض السلطان المطلق لملوك آل عثمان ، ويطالب بدستور ينفذ .. وربما كان مفهوما أيضا أن يصل هذا الحقد الى حد الاغتيال ، فانافتراس آل عثمان بعضهم لبعض ــ وهم أقارب لحما ودما ــ لا يجعل شيئا مستغربا عليهم .. ولكن المشهد التالي ، يعد من الامور المستغربة حقا ..

ففي عام ١٨٨٣ تلقى أمين السلطان رسولا قادما من مكة ، وقال ان معه هدية ثمينة لامير المؤمنين هي تحفة من العاج مصنوعة في اليابان .وان أمير الحجاز يطلب أن تفتح الهدية لاول مرةأمام السلطان . وأبلغتالرغبة. وعلى الرغم من تشككك عبد الحميد في كل شيء يتصل بأمنه الشخصي ، الا أنه وافق على أن يفتح الطرد أمامه . وفتح طرد العاج الياباني .. فماذا وجد فيه ؟.. رأس مدحت باشا أعظم رجال تركيا في القرن الماضي!!

مذابح الارمن :

وفي السنوات العشر الاخيرة ، روعت أوربا بأنباء حملة تأديبية عنيفة نظمها السلطان بنفسه على بلاد الارمن لقمع حركتهم الوطنية . ولارهاب أي ولاية عثمانية تفكر في تحدي سلطته وسيادته عليها .. واذا كانت بلاد البلقان قد تعودت على الثورات ، فان أوروبا المسيحية كانت وراء هذه الثورات تمدها بالسلاح وبالمال ، وأيضا بالرجال المحاربين .. وهكذا استقلت اليونان وغيرها . ولكن بلاد الارمن كانت في اطراف الاناضول الشرقية . لا منفذ لها على أحد . وكانت روسيا تستطيع

مساعدتها ولكن تحرك الثورات اليسارية فيها لم يجعل لها شهية لعراك خارجي ــ وكان ذلك عام ١٨٩٤ .. وكان حصاد حركة القمع مئات الالوف من الارمن كبارا وصغارا وقوى لا حصر لها أبيدت .. وتنفيسا عن غضب الارمن وألمهم العظيم ، فقد قرروا أن يمدوا ثوراتهم التي خابت في موطنهم الى الاستانة نفسها . فقام بعض أفراد منهم بهجوم بالقنابل على البنك العثماني أكبر بنوك تركيا في ذلك الوقت .. وردا على هذه الحركة فقد نظم ــ السلطان الاحمر ــ هجوما على حي الارمن ، وكانت خسائر الارواح والاموال فيه كثيرة ، وحدث ذلك في عام ١٨٩٦ أي بعد حملة أرمينيا نفسها بعامين .. وثارت في أوروبا ضجة كبيرة عطفا على الضحايا . ولكن كما هي العادة فان الجراح تلتئم بالنسيان بعد فترة .. والدليل على ذلك ما حدث بعد عامين ــ أي في وقت وصول عزيز المصري الى الاستانة.

ولعل من طرائف رد الفعل لمذابح الارمن هذه القضية الصحفية التي حدثت وقائعها في باريس . فقد كان عبد الحميد شديد المتابعة ؛ لشباب تركيا الفتاة الذين هربوا الى العواصم الاوربية ، وأخذوا ينشرون ضده ، في صحف يصدرونها ، الكثير من مقالات الهجوم اللاذع . وكان يعمد أحيانا الى تكليف سفرائه بشراء مطابع هذه الصحف . ووصل به تفكيره الى دفع السفارة التركية في باريس الى اقامة الدعوى على محرري جريدة « بشورت » بتهمة اساءة السمعة . وتولى الدفاع عن شباب تركيا الفتاة المحامي المشهور كليمانصو الذي أصبح رئيسا لوزراء فرنسا بعد عشر سنوات من هذه الاحداث .

وجاء في حكم المحكمة ما يأتي :

« لما كانت هذه المقالات تحوي تهجما على شخص السلطان الذي وصف بانه مخادع سفاح ، وسوط عذاب من الله على الناس ، وملك متعطش للدماء ، ومستبد سفاك ، وطاغية ، وعار على المسلمين وذئب يرعى غنما ، وسلطان احمر .. الخ .

« .. غير انه نظرا لما يتمتع به المتهمان (خليل غانم وأحمد رضا بك من أعضاء تركيا الفتاة) من الشرف . وبسبب ما يكنه أحمد رضا ، وخليل غانم من العواطف الطيبة لفرنسا ، وثانيهما متجنس بالجنسية الفرنسية ،

وعطفا على المشاعر والآلام التي أثارتها فيهم مذابح أرمينية والتي كانت القوة الدافعة بهما الى كتابة المقالات الاتهامية ، وبالاشارة الى الحملة العنيفة للصحافة الفرنسية ضد السلطان • والمناقشات العنيفة في مجلس النواب ، عند حدوث تلك الاحداث ، كل هذه من شأنها ان تغفر للمتهمين تطرفات قلمهما ، وتدعو المحكمة الى التسامح •

« لهذه الاسباب

« حكمت المحكمة على كل من المتهمين بستة عشر فرنكا تعويضا

« وبوقف التنفيذ •••!! »

* * *

وجها •• لوجه

الجموع مصطفة ، ومتزاحمة على شاطىء البسفور ••• الشاطىء الذي يقع عليه قصر « ضولمة بغجة » • وكان عزيز المصري قصير القامة ، ولهذا التمس لنفسه مكانا في صف امامي ليشهد الحدث الذي ظلت عاصمة الخلافة مشغولة بالاعداد له أسابيع كثيرة ، وهو زيارة امبراطور الالمان — ولهلم أو غليوم الثاني ، وزوجه الامبراطورة •

كان اليوم يوم أحد ، والشهر شهر اكتوبر سنة ١٨٩٨ وقد مضى على منتصفه ثلاثة أيام ، والجو معقول •• وكانت مجموعة كبيرة من رجال الدولة أصحاب الازياء التركية البراقة تلتف في أدب واحترام ، وعلى بعد خطوات من سلطانهم عبد الحميد ، وأمامهم ميناء القصر يداعب ماء البسفور برقة •

ولاول مرة تقع عينا عزيز المصري — من بعد بعيد — على الرجل الرهيب ، الذي ظل جالسا على العرش العثماني ، حتى وقتنا هذا ٢٢ سنة قاوم فيها كل مؤامرات الاغتيال ، ودسائس الاوربيين التي كان أعظم هزائمه فيها انتزاع مصر العملي — لا الرسمي — من سلطته •

بدا عبد الحميد رجلا نحيلا أميل الى القصر ، يعلو رأسه طربوش واسع ، قيل انه كان مصفحا برقائق من صلب • وكان جسده ملتفا في عباءة سوداء ، وعيناه تنظران الى بعيد ، حتى ظهر اليخت الابيض ، . كأوزة هائلة سابحة ، في الماء • ومزق السكون فجأة صوت المدافع وطلقاتها

تدوي تحية وترحيبا • وانتقل الامبراطور ولهلم ، والامبراطورة اوجست الى البر • وبدا عاهل الالمان كأنه قطعة من الفولاذ الابيض ، يعلو وجهه شارب من النوع الذي يقف عليه الصقر كما يقولون •

وتعانق ممثل العسكرية البروسية في ذروتها ، والنزعة الاوربية في صلفها ، مع « ظل الله في الارض » • مع عبد الحميد الذي يدين لنفوذه الروحي مئات الملايين من المسلمين ، ويخضع لحكمه عشرات الملايين من الاتراك والبلقانيين والعرب ، والارمن وغيرهم •

ورددت شواطيء البسفور هتافات بالتركية كأنها هزيم الرعد • وزايل عبد الحميد بعض شحوبه ، فان لون بشرته بطبيعته كان أميل الى البياض الباهت ، وكان يتغلب عليه بمساحيق خفيفة • وسار الموكب السلطاني الامبراطوري قليلا ليستقل العربات المطهمة الفارهة الى قصر يلدز ••

قصر يلدز :

لم يسترح عبد الحميد ، عندما تولى العرش الى قصور السلاطين الذين سبقوه ، وقرر انشاء قصر على ربوة عالية ، أسماه « يلدز » أي النجمة يمثل كل ما ركب في طبع هذا العثماني الداهية من حذر والتماس للامان ••

لم يكن « يلدز » قصرا واحدا ، ولكن مجموعة من المباني (الكرملين في موسكو مجموعة من المباني كذلك ، وليس قصرا واحدا) يبدو في الظاهر ألا شيء يربطها • ولكن كانت هناك شبكة من الممرات السرية تربطها • وفي المدخل كانت تقوم مباني الحرس يواجه بعضها بعضا ، وهي من دور واحد وكل جانب مخصص لنوع من الحراس : العرب في جانب • والالبانيون في جانب •• واختلاف موطن الحراس يجعلهم يراقب بعضهم بعضا ، وكانت مباني القصور بعيدة عن الفخامة ، ولكنها تحقق هدفا واحدا •• وهو ان يكون السلطان داخل القصر في أمان • فاذا أراد مغادرته فهناك عشرات المسالك ، لا يعرفها غيره •• وكان أهم ما عني به السلطان في هذه القصور ان جعل أقساما منه مخازن زودت بكميات كبيرة من كل شيء•• من الطعام والاثاث والثياب والسجاد والسلاح والذخائر وأواني الخزف

الصيني • وكان الطقم الواحد منها يتكون أحيانا من ألف قطعة • كما كانت هناك غرف لايداع الاوراق والتقارير والوثائق، وهي بكميات لا حصر لها • فقد كان عبد الحميد يتحصن وراء تلال منها ، ويدير حكمه من وراء سطورها •

فلما تقررت زيارة امبراطور ألمانيا ، أوعز رجال عبد الحميد الى كبار رجال السلطنة أن يتقدموا ببعض ما لديهم من الطرائف والتحف فانهالت على يلدز كميات ضخمة جدا منها • والاتراك بالطبع كرماء • وقد رغبوا في أن يبدو سلطانهم أمام زائره عظيما ، ليس كمثله عظيم ••

وكان مما يميز يلدز حدائق فسيحة الارجاء ، نمت فيها أشجار الفاكهة والزيتون ، وأنواع الزهور والنباتات النادرة ، يسمع لمرور الماء في قنواتها خرير كأنه صوت الموسيقى • كما ان عبد الحميد أغرم بأنواع الحيوان ، فأنشأ حديقة له، وجلب لها من كل مكان كل ما هو نادر وغريب ، حتى لقد قيل ان اطعام هذه المجموعة السلطانية المتوحشة كان يتكلف عشرة آلاف جنيه في اليوم الواحد •

ومن غرائب المباني في مجموعة « يلدز » مجموعة من القهاوي التي انشئت على الطراز التركي • وكان السلطان في تجوله ، يجلس على واحدة منها ويطلب فنجال قهوة ويعد ويقدم له حسب نظام موضوع سلفا ••• وطبعا كان عبد الحميد هو « الزبون » الوحيد ، الذي لا يدفع ثمن مشروبه ، ولا « بقشيشا » •

وفي جانب من يلدز انشئت مصانع صغيرة ، للصيني والنسيج والسجاير ، وورشة للنجارة ، واخرى للحدادة •• وذلك ان عبد الحميد كان كثيرا ما يغير أوضاع الابواب والشبابيك في هذا المبنى أو ذاك ، حتى يضلل أي نظرة تعودت على التلصص ، أو اقداما تحاول المفاجأة ••

وتكريما لعاهل الالمان ، فقد أقام في حدائق يلدز قصرا جديدا ينزل فيه ، وللمرة الاولى عني بالزخارف ، وزوده بكميات ضخمة من التحف• وقد صنع فنانون من مدينة « بروصة » التركية سريرا للامبراطور وزوجه من الفضة الخالصة • وقد أشرف السلطان بنفسه على دقائق هذه الاعمال • وكان من أوامره ، وهو يراجع قائمة طعام ، طرد رئيس الطباخين (عشي

باشا) لانه ابتكر صنفا من الحلوى المثلجة ، اسماه « قنبلة » مثلجة . فان هذه الكلمة وأمثالها حذفت من القاموس التركي من زمن بعيد .

وسمع عزيز المصري عن كل هذه التفاصيل ، وهو يراقب موكب الضيف والمضيف الى قصر يلدز .. وتمنى لو أنه استطاع أن يزور يوما هذا القصر .. ويبدو وقتها ان باب السماء كان مفتوحا ، فبعد عشر سنوات كان عزيز يقود هجوما يقتحم أبواب القصر ، وذلك ليخرج السلطان من يلدز .. يخرجه الى الابد !

الخط الحديدي ..

لم تكن زيارة ولهلم الثاني للخليفة ، زيارة ود واخاء ، ولا سياحة لترويح النفس .. ولكنها كانت زيارة عمل .. فقد وجد الالمان ، ان لديهم فائضا من الانتاج الصناعي ، يمكن ان تكون الامبراطورية العثمانية سوقا له .. وان تعمير ساحة هذه المناطق المترامية الاطراف ، بشبكات الري ، وبالصناعات التي تتاح خاماتها سوف يجلب الخير لكل من الالمان والاتراك على حد سواء . وكانت عمدة مشروعاتهم مد سكة حديد الشرق من الاستانة الى بغداد والبصرة .

وبعد ان انتهت الرسميات الاولى في لقاء العاهلين طلب ولهلم ، أن يدور الحديث مع مضيفه عن غير طريق المترجم ، فهما يعلمان من اللغة الفرنسية ما يمكنهما من تبادل الحديث المباشر ، وعرض ولهلم لمشروعاته ، ولا سيما الخط الحديدي . وقد وعد عبد الحميد بالتفكير في المشروع والبت فيه قريبا . وأخذ الامبراطور يذكر السلطان بان العراق كانت الموطن القديم لحضارة من أعرق حضارات التاريخ ، وهي بابل .. وانها كانت في أيام العباسيين كعبة العالم ، وموطن أعظم ثرواته . وفي الوسع بالتعاون بينهما ، تحقيق الكثير في هذه المنطقة وغيرها ، ولا سيما بعدما ابتلع الانجليز مصر من ست سنوات مضت .

وعندما زار الامبراطور قصر « سراجليو » التاريخي ، حيث يحتفظ فيه بتراث العثمانيين العظماء ، ذهل الامبراطور من فخامة ما رأى . وكان أعظم ما هاله زمردة ضخمة ، كانت تتلألأ على عمامة السلطان سليم الاول . وما أن أبدى دهشته لبهائها ، حتى انتزعها عبد الحميد ، وأهداها له .

وقد تكرر حادث هذه الهدايا الثمينة ، حتى زادت قيمتها ــ فيما سجل التاريخ ــ عن ستة ملايين من الجنيهات .

وكانت الاستانة أثناء الايام العشرة التي أقامها الامبراطور في الضيافة ، مكان الاشاعات ، والحكايات . وقد وقر في ذهن رجال المال والاعمال الذين سبقوا هذه الزيارة وصحبوها ، والذين كانوا من الاصل موجودين بالعاصمة انتهازا للفرص .. وقر في أذهانهم أن السلطان لا بد منح امتياز الخط الحديدي للالمان . انطلقت من الاركان الروسية الاشاعات بان الحرب بين روسيا وتركيا لا بد واقعة اذا تم ذلك ، وأرسلت الاركان الانجليزية ان الاسطول البريطاني لا بد متحرك للحرب اذا حدث أمر كهذا ..

وكان الامبراطور قد مل انتظار موافقة السلطان على طلبه ، فقرر في لحظة استياء أن زيارته للعاصمة انتهت ، وانه راحل من الغد في طريقه الى القدس حاجا اليها .

وبعث عبد الحميد باحدى بناته الى الامبراطورة ، ومعها باقة زهور ، ولكن كلها مصنوعة من الجواهر الثمينة النادرة ، لكي تطيل مع زوجها الامبراطور أمد الزيارة .. ولكن صبر ولهلم كان قد نفد . فقبل الهدية ، وقرر السفر !.

الى القدس :

قدم الى طريق يافا القدس عشرات الآلاف من أبناء الشام وغيرهم ، لمشاهدة موكب الامبراطور ، وهو في طريقه للحج المسيحي . وكانت أغلبية الجموع من مسيحيي البلدان العربية . وعندما بدا الامبراطور للناس ، كان يرتدي زي الفرسان الصليبيين الذين قدموا من أوروبا قبل ثمانية قرون ، ولكنه وضع على رأسه عقالا عربيا ليجمع بين معنيين كانا يدوران في نفسه : أحدهما عنايته بمقدسات المسيحية في هذه المنطقة ، التي عني بها اسلافه ، والتي هلك في هذه الارض أكثر من مليونين من غزاتها . والثاني انه أراد ان يتوج زيارته بشعار العرب فوق رأسه .

وكان واضحا ان عقد الخط الحديدي الى بغداد الذي قدم ينشده ، هو عنده أهم من رفع راية المانية على القدس أو غيرها من مدائن المنطقة .

فهذا شعار العصر ، وهـذا ما صارت اليه البشرية علـى مر القرون •• مصالح مادية تتغلب على كل العواطف العادية •

وإذا كانت اعلام الصليبيين القدامى حملت شارة الصليب ، فقـد وجد ولهلم اعلاما اخرى ترتفع في طريقه مثل اعلام توماس كوك وولده !!

وزار الامبراطور كل مقدسات المسيحية في فلسطين ، واهدى كنيسة كاثوليكية ألف جنيه مع انه بروتستانتي • ولكن وقته لم يكن قاصرا على المتعة الروحية • فان الانباء جاءته بخلاف خطير وقع بين فرنسا وانجلترا في السودان ـ عند موقع فاشودة ـ وان نذر السوء تجمعت في الافق بين الدولتين • وتمنى ولهلم ان تزداد النذر سوءا وان تقـع حرب بـين الانجليز والفرنسيين من أجل فاشوده وغيرها ، حتى يخلو له الجو فيمضي في تنفيذ مشروعاته في الولايات العثمانية •

وأقلقت أنباء المشروعات الالمانية الانكليز أكثر من غيرهم، فحصلوا على موافقة السلطان في أن يقوم المهنـدس الانجليزي ولكوكس بدراسة لحوض الرافدين ـ دجـلة والفرات ـ لاقامة مشروعات ري توازي ماشرع الانجليز في اقامته باسوان ••

وزار ولهلم دمشق ، ووقف مترحما على صلاح الدين ، ووعد بان يرسل سيفا من ذهب يزين به قبر صلاح الدين • ولم يصل السيف حتى الآن •

وكان في نيته أن يزور مصر • ولكنه عدل عن هذه الزيارة ،ليعلـن للانجليز انه يسير في طريق ، وهم في طريق • وهذا على الرغم من أدوارد السابع الذي كان وليا لعهد انجلترا ، ثم ملكا عليها (وهو عم) ولهلـم الثاني •• عمه مباشرة !

وقد بدا من هذه الرحلة ، ومن التيارات العنيفه التي حركتها بـين دول الاستعمار ، ان صداما لا بد ان يقع بين هذه الدول الاوربية • وان موضوعه ، تركة الرجل المريض ، الذي كان اسمه الامبراطورية العثمانية •

ونسأل عن امتياز الخط الحديدي •• ونجيب بان ولهلم الثـاني (غليوم) عاد من رحلته ، ومعه وعد ببحث الموضوع • أما الامتياز فلم يصدر •• حتى الآن •

كشك مالطة :

وقبل أن نختم هذه المرحلة من حديثنا عن « يلدز » وسيده لا بد ان نلقي نظرة على « كشك مالطة » أو كشك الرعب ، الذي اقامه عبدالحميد بجوار حديقة الحيوان .

هذا المبنى ، خصصه عبد الحميد لاستجواب المشتبه فيهم ، والمتآمرين عليه . وقد جعله بقرب حظائر الحيوان ، حتى اذا انهال التعذيب على ضحية عبد الحميد وجواسيسه ، ضاعت أصوات الانين في أصوات الزئير المنبعث من الحيوان . وكانت في القاعة الرهيبة قنوات سرية يتسمع فيها عبد الحميد على استجواب المتهمين ، حتى يكون رقيبا على المستجوبين ، وعلى المتهمين في نفس الوقت .

* * *

عزيز المصري .. في يلدز

دخل فتانا عزيز المصري المدرسة الحربية ثم كلية أركان حرب وكان أول دفعته ، ممتازا بين أقرانه في الفنون الحربية الى جانب شغفه بالقراءة والاطلاع . كما أعطى وقتا كافيا لاتقان اللغات الاجنبية ، ولا سيما الانجليزية والفرنسية والالمانية ، التي كانت معظم دروسه العسكرية تدور بها ، الى جانب اللغة التركية .

تخرج عزيز ضابطا والحق باحدى وحدات الجيش الثالث ، وكان مقر قيادته في سالونيك ، وكان محمود شوكت باشا البغدادي هو القائد العام لهذا الجيش . وهو رجل اكتسب مهابة ضباطه ومحبة جيشه . فهو الى جانب صلابته العسكرية ، يؤمن بالافكار الحديثة ، وكانت تركيا الفتاة ، التي أصبحت جمعية الاتحاد والترقي ، تنشر بين الضباط ، وتنال عطف قائد كبير مثل شوكت .

وقد تميزت فترة دراسة عزيز العسكرية بتعرفه على عدد كبير من الضباط العرب الذين سلكوا نفس طريقه ، ونشأت بينهم ألفة حقيقية في الرأي والفكر ، والامل في عمل شيء جاد يحقق للبلاد العربية حرية أوفر ، ويدفع في نفس الوقت عن الامبراطورية العثمانية عوامل الانهيار . ونترك الآن الزملاء العرب فلهم دور كبير فيما بعد ، وتقدم قصة صداقة

نشأت بينه وبين واحد من زملائه في الكلية من الاتراك ، هو «انور» • وعلى الرغم من المناقشات الحامية الطويلة التي كانت تدور بين الشابين الا أن كلا منهما كان يظهر اعجابه وتقديره لزميله ، لما بين الاثنين من طباع مشتركة • فواحد متعصب لفكرة التتريك ــ أي مزيد من السلطةالمركزية على شعوب الامبراطورية •• وكان هذا هو أنور • اما عزيز ، فكان يرى ان ــ العثمانية تكون شعارا فقط ، وتترك الشعوب المنضمة تحت هذا الشعار تنمو وتزدهر ، وفي ذلك حياةأوفر وقوة طبيعية يستنداليها الوجود العثماني : احدهما كانت تطوف برأسه سيرة جنكيزخان ،وتيمورلنك • والثاني كانت تتجه مثله العليا الى سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، وأصحابه •••

وقدر لكلا الشابين أن يتزعم مدرسة فكرية تدور فيها أحلامه ،وان تصطدم المدرستان كما سنرى فيما بعد •

وكان هناك شاب ثالث هو مصطفى كمال ، لم يعبأ كثيرا بهذه المناقشات ، وان كان يصغي اليها فقط •

ونحن نرى الضابط « العثماني » عزيز يقود قوة عثمانية ، كلفت باخضاع تحركات ثورية مرة في الجبل الاسود (أحد أقسام يوجوسلافيا الآن) ومرة في ألبانيا • وفي خلال أربعة أعوام من الخبرة العملية في مواجهة التحركات الثورية ، نمت شخصية عزيز المصري ، وعرضته المخاطر التي واجهها لنوع من الفطنة النادرة ، التي أخرجته من مآزق كثيرة •• ومن ذلك حادثان : أحدهماعندما وقع في أسر قوة من الثوار ، وقد كلفوا اثنين منهم باصطحابه الى قاعدة عملياتهم ، فاستطاع في الطريق أن يتغلب عليهما بحركة سريعة من نوع « الجودو » وان يركب حصانا ينطلق به الى وحدته •• والحادث الثاني أنه قرر مرة أن يواجه مجموعة ثائرة ، فاذا به يضع كمائن في الطريق الى مقرها ، ويتوجه اليها ، ويقدم نفسه الى قواد هذه الثورة ، ويأخذ في مناقشتهم ، ويتحدث اليهم حديثا انسانيا ، يذيب ما بينهم وبين القوات التركية من جليد ، ويقول لهم انه لم يجئهم خوفا منهم ، فان قواته منتشرة في المنطقة ، وكلف أحدهم أن يذهب الى موقع كذا ، وكذا وسيجد ما ذكره صحيحا •

واقتنع الثوار ، وتوقف القتال ، وسلموا سلاحهم ، وتعهدوا بأن يقلعوا عن ثورتهم ما دامت حكومتهم في طريقها الى اعطائهم الحكم الذاتي .

وكانت تأتي تقارير عزيز الى قائده محمود شوكت باشا ، فيعجب به ، ويشجعه كثيرا حتى أصبح من أقرب الضباط الشبان الى نفسه .

وكانت الاحوال في الاستانة غير مطمئنة . فبعد ان ضغطت حركات الشعب على عبد الحميد كي يعيد الدستور ، ويجمع مجلس « المبعوثان» أي البرلمان ، وكان قد فضه ، اوقف نشاطه .

وتروي الدكتورة « آلما واتلين » ، انه لما بلغت السلطان عبدالحميد الانباء الواردة من مقدونيا ، باستخدام القوة لفرض الدستور ، أمر باستدعاء انور ونيازي من زعماء حركة الاتحاد والترقي لمقابلته ، فتجاهل الاثنان الامر العالي . وأمر السلطان بارسال الفرق الاسيوية لاخماد الثورة . ولكن جنود الاناضول ــ جنوده الاسيويين ــ رفضوا اطلاق النار على اخوانهم . وزاد في حيرته أن هذه القوة التي كان يعتمد عليها ، اشتركت في ترديد هتاف : الحرية . المساواة . الترقي . فما كان من عبدالحميد الا ان عقد مجلس الدولة في يلدز يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٠٨ ، حيث اجتمع رؤساء الوزارة السابقون والوزراء والقواد تحت رياسة الصدر الاعظم فريد باشا . وكان السلطان حاضرا الاجتماع ، ولكن من وراء ستار . والغريب ان رجلا واحدا هو الذي تجرأ على اعلان الدستور وهو الشيخ البيروتي ، فلكي السلطان ، أبو الهدى الصيادي .

وكانت طريقة عبد الحميد في قبول الدستور يوم ٢٤ يوليو ، تكشف عن مواهبه كسياسي وكممثل . فقد أعلن عن استعداده لرياسة جمعية الاتحاد والترقي . وشكر رجال تركيا الفتاة لانهم « فتحوا عينيه » الى أن الوقت قد نضج الآن لتنفيذ الدستور ، وهو الامر الذي أخفاه عنه مستشاروه الاغبياء ! ولبس الوردة الحريرية ، وزين بها سترته السوداء . وكانت شعار الحزب ! كما تبرع بنصف مليون جنيه لصندوق الحزب ووهب أحد قصوره ليكون مقر البرلمان ، وأمر باهداء مائتي جواد من أفضل جياد يلدز الى الضباط الفرسان في حركة تركيا الفتاة .

وكان هذا الانقلاب مفاجأة للناس الذين هتفوا لعبد الحميد من أعماق قلوبهم .

يروي المرحوم أسعد داغر ، وكان وقت هذه الاحداث في الاستانة ، مثله كمثل آلاف من شباب العرب في ذلك الوقت . قال : كانت الطريق غاصة بالجند استعدادا لمرور السلطان عبد الحميد ، من قصر يلدز الى دار البرلمان في جوار جامع أياصوفيا . وقد استأجرت غرفة مطلة على الشارع العام وجلست انتظر مرور الموكب السلطاني ، لارى ذلك الرجل الذي كان اسمه يلقي الرعب في النفوس .

وصل الموكب ، فهتفت الجماهير « بادشاهم جوق ياشا » أي سلطاني يعيش كثيرا . وكان السلطان جالسا في صدر عربة مكشوفة ، ممتقع اللون ، لا يميل بوجهه يمينا ولا يسارا ، ويده على قبضة سيفه . وجلس أمامه الصدر الاعظم . وذهب الموكب السلطاني ، ثم عاد ، وأنا لا أزال جالسا في الشرفة . اتأمل ذلك الاحتفال العظيم الذي لم يسبق لي ان شاهدت مثله . وأفكر في هذا السلطان الذي ظل اكثر من ثلث قرن الحاكم المطلق في بلاد جمعت بين القارات الثلاث . وكان في نظر الملايين من البشر ، « ظل الله في أرضه ، وخليفة رسوله » . وقد أصبح الآن بفضل فئة من المجاهدين ملكا دستوريا ، يأتمر بأمر الامة ، ويسير على ارادتها . ولكن سؤالا واحدا دار بذهني حينئذ وهو : هل يستطيع هذا المستبد العاتي أن يأتلف مع الدستور ؟؟

وأجابت الاشهر القليلة التالية على سؤال أسعد داغر . في ليلة ٣١ مارس سنة ١٩٠٩ وزع عبد الحميد مبالغ طائلة على جنود حامية الاستانة لاثارتهم على ضباطهم . وذلك لان معظم الضباط المثقفين كانوا ضد الحكم المطلق ، وأعضاء سريين في جمعية الاتحاد والترقي . وأطلق المال الفوضى من عقالها .. وأطلق الجنود على ضباطهم فأعملوا فيهم رصاصهم ، واقتحم بعضهم البرلمان ، وحطموا مقاعده ، واعتدوا على من وجدوه من النواب ، وقتلوا واحدا منهم هو الامير محمد ارسلان العربي ..

وهنا تحرك الجيش الثالث الذي يقوده محمود شوكت باشا من سالونيي وقرر مع ضباطه استرداد الاستانة ، ووصل الى بلدة سان

استيفانوا بالقرب من العاصمة ، وهرع النواب الى هذه الضاحية ، وهدد السلطان عبد الحميد انه سيقصف حي « بك أوغلي » وهو حي السفارات والاجانب من المدفعية الموجودة في مرتفع « يلدز » ، اذا تحـرك جيش شوكت الى العاصمة ..

وحدث حادث في هذه الفترة العصيبة غير موازين القوة ، فقد انضم الاسطول العثماني الى الثورة الدستورية . وبهذا زحف جيش شوكت على العاصمة ، ومن الصباح الباكر حتى قبيل الظهر ، كان قد تم اخضاع ثكنات المدينة ، وكان آخرها ثكنة « تقسيم » وتم حصار قصر يلدز وقطع عنه الماء والكهرباء . وكان الضباط الثلاثة الذين تولوا العمليات الحربية في المدينة هم : عزيز علي المصري ، وانور ، ونيازي .

وفي المساء اجتمع مجلس « المبوعثان » أي مجلس النواب وقرر خلع السلطان عبد الحميد ، وتولية محمد الخامس مكانه ، وكان المسكين قد ظل ثلاثين سنة سجين أحد القصور . لا يعلم عن شئون الدنيا شيئا .

يروي اسعد داغر عن هذه الاحداث ما يلي :

وضع الجنرال محمود شوكت باشا ، وأركان حربه خطة الزحف على اسطنبول بدقة تامة . فعهد الى انور بمحاصرة قصر يلدز ، ومنع السلطان من تنفيذ تهديده بضرب حي « بك أوغلي » ، وعهد الى مختار بك باحتلال ثكنة تقسيم . وقد قتل هذا القائد في المعركة .

وكانت مهمة عزيز علي احتـلال محطة اسطنبـول (السركجي) والاستيلاء على كوبري غلطة ، والثكنات القائمة على جانبيه ، والمنتشرة على طول الطريق الى قصر « ضولمة بغجة » . وقد وفق عزيز الى احتلال المحطة والكوبري والثكنات المجاورة له دون أن يطلق رصاصة أو تراق قطرة دم . وظل يتنقل من ثكنة الى ثكنة ، ويأسر ضباطها ، وهم في أسرّتهم الى أن بلغ الثكنة الواقعة على مقربة من قصر « ضولمة بغجة » ، وكـان القتال قد بدأ في جهات تقسيم ، وفي شمال المدينة ، فتنبهت حامية الثكنة ، وبادرت الى المقاومة ، فاضطر عزيز الى احتلالها بالقوة . وقد أتم المهام التي نيطت به كلها ،ثم سار لمعاونة انور في شمال المدينة ، واشترك بعـد ذلك في الاستيلاء على ثكنة تقسيم التي كان الدفاع عنها شديدا .

الليلة الاخيرة في يلدز :

في ٢٧ من شهر ابريل سنة ١٩٠٩ أعلن سكرتير السلطان أن اربعة مندوبين يرغبون في التحدث اليه باسم الامة التركية • وكان عبدالحميد وقتها في منزله المفضل بيلدز الذي كان يسمى « المابين الصغير » • ونظر عبد الحميد من ثقب في غرفته ليرى هؤلاء القادمين ويفحصهم كمأثور عادته ثم ظهر لهم وسأل :

ـ ماذا تريدون ؟ ماذا حدث ؟

وكان رئيس هذا الوفد الجنرال أسعد • فقال :

ـ لقد جئنا لنبلغكم ان الامة قد عزلتكم عن العرش • وقد وقـّـع شيخ الاسلام على القرار •

ظل عبد الحميد ساكتا برهة ، ولعله كان يرتجف من الداخل ، ثـم نطق بالكلمة التي نطق بها عبد العزيز من قبل :

ـ القسمة •• وكان ولده الصغير عبد الرحمن بجواره ، فأخـذ ينتحب ، فتمتم عبد الحميد :

ـ وحياتي •• وحياة أولادي • فأجابه الجنرال أسعد :

ـ ان الشعب التركي شعب نبيل ، ولك ان تثق به •

وهكذا تذكر عبد الحميد الحياة •• حياته وحياة أولاده ، مع أنـه لم تكن لان حياة قيمة في نظره • فكم أهرق من الدماء وأزهق من أرواح • ولو ان الانسان في قلبه ذرة من ايمان ، لما نسي الله ، وانه يمهل ولا يهمل •• كذلك الحال بالنسبة للطغاة على مر التاريخ ، حتى اذا جاءت ساعة حسابهم انهاروا ، وكأنهم اعجاز نخل خاوية • وما من شيء يجعـل هؤلاء المتجبرين يمعنون في ظلمهم غير استخذاء الناس امامهم • ولهـذا كان من أروع ما خلفه الاسلام لنا من حكم ، أن خير الجهاد عند الله كلمة حق أمام سلطان جائر •• فكلمة الحق اذا أجمع عليها الناس ، وجاءت في وقتها تحمي الناس ، وتحمي الحاكم نفسه •

أصدر عبد الحميد أمره الى خصيان القصر بجمع حقائبه ، دون ان يحدد ما يريد وما لا يريد ، فأخذوا بحركات هستيرية يضعون في الحقائب كل ما يصادفهم •

وقبل الظهر سُمع صوتان : مدافع تدوي باعلان تنصيب أخيه السلطان محمد رشاد مكانه •• وعربات جاءت في حراستها سيارتان مسلحتان لنقل السلطان الى سالونيك • وقد صعق السلطان لاختيار هذه المدينة منفى له • فقد وصفها أحد مؤرخي هذه الفترة ، بانها كانت الفراش الدافيء لهذه الثورة التي أطاحت بعرش عبد الحميد ، بعد ثلاثة وثلاثين سنة من تشبثه به •• ولكن سالونيك لم تكن كالطائف التي بعث اليها زعيم تركيا الاكبر ، كي يأتيه منها رأسه فقط في طرد كتب عليه تحفة عاج يابانية !! هل تذكر يا عبد الحميد ؟

وكانت وجهة هذا الموكب الصامت الحزين ، محطة سكة الحديد، حيث أعدت عربتا صالون ، كانتا ملكا للسلطان ، ولم يركبهما أبدا ، وصحبته ثلاث من زوجاته وأربع من سراريه وعشرون شخصا من حاشيته•

كان ركوب القطار في الساعة الواحدة صباحا ، ولم يتحرك الا بعد ساعتين ، وبعد عشرين ساعة (كانت سرعة القطارات بطيئة في ذلك الوقت) وصل عبد الحميد في مساء اليوم التالي والظلام يخيم على سالونيك •وكان القصر الذي أعد لاقامته مكونا من ثلاثين حجرة وسط حديقة كبيرة •

وكان عبد الحميد يقضي وقته في قراءة الصحف التي أخذت تنشر كلاما غريبا ظل ممنوعا أجيالا واجيالا •• الحرية •• الدستور •• حقوق الشعب الخ ••

وقامت لجان بجرد قصور يلدز ، وقد روعها ذات مرة أنها جردت غرفا ، ودونت مابها ، وبينما هي تهم باغلاق الابواب اذا باصوات تردد هتافا كأنه قادم من بعيد : يحيا السلطان •• يحيا السلطان • وكانت اللجنة على ثقة من انها لن تجد أحدا يمكن ان يردد هذا الهتاف ••• وساد الذعر برهة •• واذا بالامر يتكشف عن مجموعة من طير الببغاء دربت على هذا الهتاف « لمحظوظية » السلطان •• الذي كان !

ظل عبد الحميد في منفاه بسالونيك حتى عام ١٩١٢ ، حمل بعدها الى قصر « بير لربي » في الاستانة ، لان الحرب كانت قد اقتربت ، وخشي أن تمتد الى سالونيك• وهناك ظل أسيرا حتى وافته منيته في ١٠ فبراير سنة ١٩١٨ • وكان خروجه من يلدز وهو في عامه السابع والستين • ولعله

خلال السنوات التسع التي عاشها لم يغادره الامل في أن تتحول الامور الى مصلحته مرة أخرى ، ليحاسب من خلعوه . ولكن حساب الملك القدير كان أسبق .. وعدله كان في الانتظار ..

وقد انشد شوقي شاعر الاسلام العظيم قصيدة رائعة تسجل خلع عبد الحميد عن العرش ومطلعها :

سـل يلدزا ذات القصـور هل جاءها نبـأ البـدور ؟

* * *

وبينما أوراق عبد الحميد تبحث ، وجدت من بينها نسخ من جريدة الجوائب التي يصدرها الشدياق في الاستانة ، وقد تضمنت قرارا ، حملوها الى عزيز المصري ، فهو أولى الناس بالاطلاع عليه .

كان تاريخ الجريدة الاسبوع الاخير من اغسطس سنة ١٨٨٢ ،وكان نص القرار كما يلي :

« ان الدولة العلية السلطانية ، تعلن أن وكيلها الشرعي بمصر هو حضرة فخامتلو دولتلو محمد توفيق باشا . وأن أعمال عرابي باشا كانت مخالفة لارادة الدولة العلية . ثم التمس (عرابي) من جانب الخديوي العفو ، فعفا عنه . ونال أيضا من الحضرة السلطانية العفو العام . وان الشرف الذي ناله أخيرا من الحضرة العلية السلطانية (أي السلطان عبد الحميد) انما كان عن تصريحه بالطاعة لاوامر مولانا السلطان المعظم الخليفة الاعظم .

« وقد تحقق الآن رسميا ان عرابي باشا ، رجع الى زلاته السابقة ، واستبد برياسة العساكر بدون حق ، فيكون قد عرض نفسه لمسؤوليـة عظيمة ، لا سيما انه تهدد اساطيل دولة حليفة (انجلترا) للدولة العليـة السلطانيـة ..

« وبناء على ما تقدم يحسب عرابي باشا وأعوانه ، ليسوا على طاعة الدولة العلية السلطانية .

« وان اصرار الدولة العلية السلطانية بالنظر الى عرابي باشا ورفقائه وأعوانه ، يكون بصفة أنهم عصاة ، ويتعين على سكان الاقطار المصريـة حالة كونهم رعية مولانا ، وسيدنا الخليفة الاعظم ، أن يطيعوا أوامـر الخديوي المعظم ، الذي هو في مصر وكيل الخليفة ، وكل من خالف هـذه

الاوامر يعرض نفسه لمسؤولية عظيمة ، وان معاملة عرابي باشا ، وحركاته، وأطواره مع حضرة السادات الأشراف ، هي مخالفة للشريعة الاسلامية الغراء ، ومضادة لها بالكلية » !

ولم يكن هذا المنشور بخاف على العرب الذين عاصروا حرب الانجليز ضد مصر ، وما ترتب على هزيمة التل الكبير من ضياع استقلال هـذه البلاد العظيمة ..

ودارت بين جماعات المصريين الاحاديث والذكريات عما حدث من سبعة وعشرين سنة مضت ، وكيف استطاع اللورد دوفرين سفير بريطانيا في الاستانة ، أن ينتزع من السلطان عبد الحميد هذا القرار ، أو هـذه الفتوى . بل وقع معه معاهدة بان ترسل الخلافة ثلاثة آلاف جنـدي ، كقوة رمزية ، لا قوة محاربة ، لسحق الثورة العرابية ، على أن تتولى قوات انجلترا وحلفائها الاوربيين الباقي (كانت منهم وحدة تابعة للولايات المتحدة ، تقلها السفينة الحربية الامريكية لانكستر) .

وكانت مذكرات عرابي التي دونها في منفاه بجزيرة سيلان ، وعـاد بها الى مصر بعد ان شاخ ووهن منه العظم .. كانت مذكراته قد عرضت لهذه الفتوى الحميدية وقال ، وقال عنها :

« لما نشر منشور السلطان عبد الحميد بعصياننا ، ومن معنا بجرنال الجوائب ، ارضاء للانجليز ، أرسل منه مئات الالوف الى الهند ، والافغان والحجاز ، والعراق . والترك . ومصر . والمغرب الاقصى . وجميع بلاد الاسلام بواسطة ابو سلطان (سلطان باشا الذي كان رئيس مجلس النواب وخائن الثورة) ومن معه من المخدوعين كما أسلفنا .. وتذمر بعض أمراء العسكرية (قواد جيش عرابي) وقالوا : اننا اذن عصاة على السلطان ، مخالفون لكتاب الله وسنة رسوله ، ومن مات منا مات عاصيا ، لا أجـر له ، مثل الذين ماتوا من المصريين في قتال الدولة العلية . فنصحناهم بان هذا المنشور مخالف لاحكام الدين الاسلامي ، لأننا نقاتل أعداء المسلمين الذين يريدون أن يستولوا على بلادنا الاسلامية . وان الجهاد في سبيل حماية الدين والمال والوطن ، فرض واجب علينا ، وان سلطان المسلمين لا يسمح بمثل هذا المنشور ، وانما هو دسيسة انجليزية تمكنوا من انفاذها

بواسطة الرشوة . ولو فرض ، وصدر مثل ذلك المنشور من خليفة المسلمين لوجب على المسلمين خلعه لمخالفته لاحكام الدين .

ويستطرد عرابي :

الا أن تلك النصائح لم تؤثر في الذين يجهلون أحكام الدين مثل أحمد بك عبد الغفار قمندان السواري وعبد الرحمن بك حسن وعلي بك يوسف (خنفس) الذين أسرّوا الغدر والخيانة ، والحساب على الله !

وهكذا يشاء الله أن يكون واحد من أبناء المصريين من بين الذين حققوا نبوءة عرابي في خلع السلطان عبد الحميد .. ولكن بقيت المشاركة - أيضا - في خلع الاستعمار البريطاني من مصر نفسها ، الذي ساهمت انحرافات الخليفة العثماني في زرعه بمصر !!

وهكذا طويت صفحة قصر يلدز وبانيه ، وكشف سره ، وانتهى سحره .

وهكذا مضى عهد « المشروطية » وهي الكلمة التركية التي تعبر عن لفظ الدستور ..

فلنلق نظرة على « المشروطية » وما كان من شأنها ، وشأننا معها .

القِسم الثّاني

جمعيّة العَهد

مَهْدها ولحْدها وبَعثها

(برج بابــل)

كان السلطان رشاد ، في الخامسة والستين من عمره ، عندما أخرج من معتقله • وكان راضيا باقامته فيه ، شاكرا لاخيه عبد الحميد انه أبقى على حياته • ولهذا لم يصدق أول الامر ، انه في طريقه الى العرش ، اذ ان طعنة خنجر، بضعة أحجار كانت تودعه في قاع البسفور ! الى الابد ، وهو ما حدث لكثيرين من أفراد اسرته من قبل ••

اذن الى العرش •• والى قصر « ضولمة بغجة » الذي اكمله وسكنـــه السلطان عبدالعزيز • كان هذا الانتقال من الاعاجيب • واضيئت انوار هذا القصر ، بعد أن أظلم قصر « يلدز » وخرج منه آخر واحــد من الآلاف الستة الذين سكنوه أيام عبد الحميد بين نساء ورجال وبشر بين الرجال والنساء وهم الاغوات •

ودوت المدافع • ترحب بالسلطان رشاد ، وتسلم سيف عثمان في مسجد ايوب بالقرن الذهبي • وكانت أول حفلاته ، استقبالا كبيرا لاعضاء مجلس « المبعوثان » وقد بلغ عددهم نحو سبعمائة ، وهم يمثلون شتى انحاء الامبراطورية العثمانية ، بمختلف ازيائها ودياناتها • وعلى الرغم من أن معظم النواب كانوا يعرفون التركية الا أنها تركية تشوبها لكنة لغاتهم الاصلية من عربية أو يونانية أو بلغارية •

وكان اساس « المشروطية » أو الدستور ، هو نفس الاساس الذي وضعه عام ١٨٧٦ الشهيد مدحت باشا ، وأهم عناصره :

ـ الغاء منصب الصدارة العظمى والاستعاضة عنه برياسة مجلـس وزراء ورئيس الوزراء مسؤول بحكم منصبه امام المجلس •

ـــ تغيير اسم الامبراطورية التركية وجعله « الامبراطورية العثمانية» وبذا يصبح جميع الرعايا عثمانيين .

ـــ ضم ميزانية القصر الى ميزانية الدولة .

ـــ تطبيق القوانين المدنية .

ـــ قبول غير المسلمين مع المسلمين في مدارس الحكومة .

ـــ اللامركزية الادارية في الولايات .

ـــ الغاء الرقيق الابيض ، وحظر المتاجرة به ، واطلاق كل رقيق في انحاء الدولة وولاياتها .

ـــ يكون المجلس النيابي منتخبا من جميع السكان على اختلاف مللهم ونحلهم .

* * *

وقد استقبل الشعب ، أو على الاصح الشعوب في الامبراطورية العثمانية عودة المجلس النيابي ، وتطبيق « المشروطية » أي الدستور بفرح هستيري . وكأن حياتهم سوف تتبدل بين عشية وضحاها .والحقيقة التي ينبغي أن تقال ان عبد الحميد الثاني أدخل في ثلث القرن الذي حكم فيه تركيا اصلاحات قد تزيد عما ادخله اسلافه في ثلاثة قرون . فقد انشئت المدارس والمستشفيات ، ومدت الخطوط الحديدية الداخلية ، وتحسنت مرافق الري .. الخ . ولكن الناس لا يمكن ان تحس بنعمة أي اصلاح ، وحريتها مفقوده ، ولسانها معتقل في داخل أفواهها ، وكل انسان يعتقد أن جاسوس عبد الحميد يلازمه في بيته وعمله ، وفي جده ولهوه .. والقصص التي كانت تروي عن الساسة والكبار والصغار الذين كانت تلقى جثثهم في البوسفور بعد ان يلقوا مصرعهم، تجعل الحياة أثقل من ان تحتمل. واذا كانت البشرية كافحت قرونا ، وأجيالا متعاقبة ، فلكي تصل الى اقرار حق الانسان في أن يحيا حياته بغير أن يعتدي أو يعتدى عليه . وان يصان رزقه ، وكده في حدود الشرائع القائمة . والرزق بالذات ، من الامور التي احتفظ الله سبحانه وتعالى بتوزيعها على الناس بمقدار جهدهم أو جهد أسرهم . فقد قال تعالى : «نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا»[1] ولم يقل ان أمر رزق الناس وكل للسلطان عبد الحميد أو لمن

١) سورة الزخرف : ٣٢

هو أصغر منه أو اكبر ــ ان وجد بين الناس من هو اكبر ..

لقد أحس الناس في تركيا ــ فعلا ــ بان جديدا دخل على حياتهم في ظل « المشروطية » ، وفي ظل حاكم (السلطان محمد رشاد) ، سار سيرة البشر ، لا انصاف الالهة . فقد اكتفى بزوجتين . وارسل بناته الى المدارس العادية . بل الى كلية البنات الامريكية ، لكي تنشأ على غير طراز الحريم . وانتهت اللغة المضحكة التي كانت تصاغ بها الرسائل من السلطان أو اليه . واليك نموذجا لها نقتبسه من مذكرات نيازي وهو أحد ضباط الثورة الثلاثة الكبار في ذلك الوقت (أنور ــ طلعت ــ نيازي)

كان الضابط (قول اغاسي) نيازي قد اعلن العصيان ضد السلطان ، وانضم الى ثوار تركيا الفتاة ، بعد ان استولى على السلاح والمال في منطقة « مناستر » العسكرية بالبلقان . وترك وصلا بما استلمه .. وانضم له أول الامر مائتين من ضباط وجنود الجيش العثماني . ثم أخذ أمره يكبر ويعظم . وقد جن جنون السلطان وقواده لما حدث .

كتب قائد عام المنطقة وهو برتبة مشير ، الى قومندان منطقة مناستير يستحثه على تعقب العصاة والقضاء عليهم ، وقال له :

« أن عرض الخدمة ، ببذل الحياة في سبيل حضرة ظل الله ، وصيانة الدين المبين الاسلامي ، وشرفنا ومجدنا العسكري ، ووقاية حقوق السلطنة المقدسة السنية ، والخلافة المعظمة الاسلامية ، من كل شائبة ، لمن فرائض العبودية والمحبة ، ومقتضيات الديانة ... الخ » .

وقد أخفقت كل القوى التي ارسلت للقضاء على حركة نيازي . فلما أحس أنه في مركز القوة فعلا ابرق الى السلطان برقية ، تدل بدورها ، على لغة العصر ، وانه كان لا بد للثورة الشاملة ان تنتصر حتى ينزل « ظل الله » الى ارض الناس بشرا سويا .. ابرق نيازي الثائر الى السلطان عبد الحميد ، قائلا :

« الى الحضور الاقدس ، لحضرة ملجأ الخلافة ..

« نسترحم المساعدة بانفاذ القانون الاساسي الذي منح ، وأحسن الى التبعة والرعية ، بالايادات السنية المتقررة . وصدور الارادة السنية » وبما يجب في ذلك ، وقاية لصداقتنا وعبوديتنا من الخلل . ونعرض انه

اذا لم يصدر الفرمان الهمايوني ، بافتتاح مجلس المبعوثان الى يوم الاحد — بديهي — ان تحدث أحوال تخالف الرضاء الشهرياري ... الخ في ٩ تموز سنة ١٣٢٤ هجرية .

* * *

انتهت هذه اللغة المهينة لكرامة الانسان . واصبح الناس سواسية .. ولكن هل كان كذلك بالنسبة لضباط الثورة الذين أصبحوا سفراء ووزراء وحكاما ، وبيدهم الآن مفاتيح السجون ، والمحاكم العسكرية .. هـذا ما ستكشف عنه الايام القادمة ..

حـرب ليبيا :

عندما قامت ثورة ١٩٠٨ بقيادة شوكت باشا ، كان ولهلم الثانـي امبراطور المانيا يقول ان الثورة قام بها الضباط « الالمان » أي الذين تعلموا في ألمانيا . وهذا القول غير دقيق . ولكن الصواب ، هو ان الضباط الشبان منهم كانوا متأثرين الى حد كبير بالنظام العسكـري الالمانـي ، وبالثقافة الالمانية ، لمن كانوا ميالين منهم الى الاطلاع . وكان هؤلاء فـي الغالب الضباط العرب ، والنموذج الواضح لهم هو عزيز علي المصري .

وقد زاد من «ألمنة» ضباط الجيش ، أن النمسا كانت قد اقتطعت نهائيا مقاطعتي البوسنة والهرسك وكانت تركيا الفتاة تأمل استعادتهما ، وانجلترا التي استولت على مصر عام ١٨٨٢ ، بدأت تحرك في العالم العربي عوامل التحرك ضد السيادة العثمانية . وايطاليا بدأت حربهـا في ليبيا للاستيلاء عليها واليونان استولت على كريت .. وكانت المانيا من بين المجمـوعة الاوربية التي تعطف على العثمانيين ، ولهذا كان طبيعيا ان يتجه الضباط الشبان بعواطفهم اليها . وكان اسم الجنرال الالماني «ليمان فون سندرس» معروفا لكل تركي،اذ أنه كان المشرف على التدريب ثم قائد الجيش الاول.

وعلى الرغم من النزعات الشريفة للقائد محمود شوكت باشا ، الا ان غموضا كثيرا شمل اتجاهاته . فقد أمل العرب العثمانيون كثيرا أن يأخذ جانبهم ، وان يتطور حكم بلادهم ، فيصبح لهم فيه النصيب الأوفى ، مع وجود رابطة مـــع الدولة وهي مركز الخلافـــة . وشوكت باشا كان يسمى

البغدادي لانه ولد في بغداد ، وأبوه تركي هو سليمان فائق ، وقد عين وزيرا للحربية في أول وزارة تألفت بعد سقوط عبد الحميد • ثم تولى منصب رياسة الوزارة عام ١٩١٣ •• وفي الوقت الذي بدا من تصرفاته انه تركي متعصب قال عنه آخرون « منهم رشيد رضا » انه اكثر من عربي • وحسبنا ان نذكر ان اخاه حكمت سليمان (اصغر اخوته) تولى رياسة الوزارة في العراق عام ١٩٣٦ اذ أن قسما من أسرته كان باقيا في العراق •

نقول : بدأت العناصر العربية تتحرك ، وكان بدء تحركاته في اليمن وعسير • واليمن كانت تحكمها اسرة حميد الدين• وعسير كانت تحت حكم الادارسة وموقعها على تخوم اليمن الشمالية وجنوب الحجاز مباشرة •

وفي سنة ١٩١١ ـ واجهت حكومة الثورة امتحانا عسيرا عندما ارسلت ايطاليا جيوشها لغزو ليبيا ، ونزلت قواتها على ساحل طرابلس الغرب وبرقة •• ولم يكن في وسع تركيا ان ترسل جيشا ليقاوم هذا الغزو وكان الاسطول العثماني ضعيفا لا يقوى على قتال الايطاليين كما ان انجلترا كانت في مصر ، تحول دون المدد البري • وكان الحل هو امداد المقاومة الشعبية في ليبيا التي تزعمها الامير السنوسي بعدد من الضباط الاكفاء يتولون تنظيم المقاومة•وكانت هذه البعثة مكونة من عزيز المصري، وانور ، ومصطفى كمال ، (الذي اصبح اتاتورك فيما بعد) وجعفر العسكري • وانضم لهم من مصر عبد الرحمن عزام وصالح حرب وكانت البعثة الطبية المصرية برياسة الدكتور حافظ عفيفي •

وعلى الرغم من أن أنور كان له مركز كبير في جمعية الاتحاد والترقي ومصطفى كمال كان رئيس أركان حرب شوكت باشا في اثناء الثورة ، الا أن أحدا منهما لم يحاول ان ينافس عزيز المصري في زعامته لمجموعة الضباط ، ولا لقدرته الحربية الفائقة • وقد نظم المتطوعين ، وألهب حماسة الليبيين ، فكانوا ينخرطون في سلك هذا الجيش الشعبي ، وكلهم يدين للسيد أحمد الشريف السنوسي بولاء عميق • وعلى الساحل الليبي ، حيث نزلت القوات الايطالية ، لم تستطع أي قوة منهم ان تخطو خطوة واحدة الى الداخل ، والا افنتها قوات الثورة الليبية • ولم يستطع عزيز المصري وجماعته أن يلقوا بالايطاليين في البحر ، لان مدافع اسطولهم كانت تحمي

الشريط الساحلي الذي وجدوا فيه .

وبلغ من ضيق الايطاليين بهذه المقاومة التي لم تكن متوقعة ، انهم راحوا يهاجمون مراكز أخرى تابعة للسلطان العثماني ، محاولة منهم لتخفيف ضغط المقاومة في ليبيا ، وسحب ضباط القيادة من هناك . راحت سفنهم تقذف بيروت بقنابلها . وراحت سفن منهم الى عسير الثائرة تساعد الادريسيين في ثورتهم ضد الخلافة . وهاجموا جزرا تركية في بحر ايجة واستولوا عليها .

وحتى توقف الحكومة التركية هذه الحملات الايطالية البحرية المستمرة لجأت الى حيلة العاجزين ، فقررت منح ليبيا استقلالها !! وبهذا تركتها لمصيرها ، مطبقة قول بني اسرائيل لموسى عليه السلام : «« اذهب انت وربك فقاتلا .. انا ههنا قاعدون !(1)

وفي نفس الوقت عقدت معاهدة صلح مع ايطاليا . وحتى تضمن صمت مجلس « المبعوثان » ، قامت بحله ، واجراء انتخابات جديدة .. وكانت هذه الانتخابات مهزلة المهازل . اذ تدخلت السلطات الادارية بمختلف أنواع القمع ، فنجح جميع مرشحي جمعية الاتحاد والترقي باستثناء اربعة اعضاء فقط . ولم يستطع هذا المجلس ان يعمر اكثر من أربعة اشهر (كان ذلك عام ١٩١٢) . فان فضيحة الانسحاب من ليبيا هزت كيان الدولة هزا عنيفا جدا . فلا هي تابعت مسؤولية الحرب الشعبية، ولا هي واجهت الايطاليين بقوة منظمة ...

وهنا أدركت المجموعة العربية ، ألا أمان لهم مع هؤلاء العثمانيين . وأنهم مستعدون لبيعهم لدى أول أزمة تحدث . وبدأ تفكير عربي جديد .

كان أنور أول العائدين من ليبيا . وقد قام بدعاية واسعة لنفسه ، وانه صنع .. وصنع . وعاد مصطفى كمال باشا صامتا وبقي عزيز المصري بعدهما يواصل مسؤولية الحرب الشعبية . ولم يكن يعلم ان أنور ، قد امتلأ قلبه حقدا عليه ، وجزعا منه ان هو وصل الى مركز المسؤولية . فلما عقدت معاهدة الصلح مع ايطاليا . أو على الاصح معاهدة الخيانة الاولى للعرب، استدعى باقي الضباط العثمانيين من ليبيا . وكان عزيز المصري قد اعد

---

1) سورة المائدة : ٢٤

لمعركة هامة مع الايطاليين في ١٦ يونيو سنة ١٩١٣ ، ولم يأبه للصلح الذي عقد ، فهو يحارب الآن باسم السنوسيين.وقد انتصرعلى الجيش الايطالي ، انتصارا مؤزرا ، على الرغم من ضعف وسائله ، وضخامة القوة العسكرية للعدو . الا ان فنه العسكري ، وسرعة حركته ، وقدرته على المفاجأة اتاحت له هذا النصر ..

ولفتت هذه المعركة نظر الصحافة العالميـة ، فراحت تكتب عنهـا وقالت احدى المجلات العسكرية الالمانية ، أن هذا النصر على الايطاليـين يشبه معركة « كان » التي انتصر فيها هانيبال على الرومانيين . ودخلت هـذه المعركة في تاريخ المعارك الحربية . ولعل عمالقـة الحرب العالميـة الثانية ـ روميل ومنتجمري ـ استفادوا مما وقع عام ١٩١٣ .

وضغطت الحكومة التركية على عزيز المصري كي يعود ، بناء عـلى ضغط الحكومة الايطالية على الاتراك ، والا اصبحت معاهدة الصلح حبرا على ورق ، واستأنف الاسطول الايطالي قرصنته ضد الموانى العثمانية .

وعاد عزيز .. ولم يكن يدري أن سجل الكراهية الذي يجمعه لـه « صديقه » اللدود أنور زاد زيادة كثيرة .. وقد بدأ هذا السجل من خمس سنوات . من بدء قيام الثورة ضد السلطان عبد الحميد . فقد ذكرنا قبل أن الضابط نيازي اعتصب في مناستير ، واستطاع ان يسيطر عليها بـ ٢٠٠ واحد تابعوه . ونذكر هنا ان عزيز المصري قام بنفس العمـل ، ولكـن باسلوبه وهو أسلوب المباغتة . فقد كان مسؤولا عن منطقة « اسكوب » وفيها أعلن الثورة ، واستطاع بلطف مداخلته مع باقي قواته ، ومع الاهالي المقدونيين ، ان يجعلهم جميعا في جانبه ..

ولما قرر عبد الحميد قمع هذه الثورة بارسال قائد كبير من جانبـه مع قوات اضافية ، اسرع الى « اسكوب » كل من نيازي وأنور ، وعقدا مجلسا وجدا فيه أن وصول القائد الجديد ، لا بد سيغير مـن الموقف ، وأن خير وسيلة لضرب مقاومة السلطان في الصميم هي التخلص من هـذا القائد قبل أن يتولى مسؤولياته.وكان اسمه الفريق أول الشمسي باشا والي سالونيك ، وكان في استقباله حوالي ١٥٠٠ من العسكريين والمدنيين ، ومن بين هؤلاء كان احد رجال عزيز المصري متربصا ، يحيط به ١٥ آخرون من

الفدائيين . وما ان وجد فرصته حتى اطلق النار على الشمسي باشا أرداه قتيلا . وفي وسط الزحام تمكن الفدائي من الفرار بعد ان جرح جرحا متوسطا .

وكان قتل هذا القائد الحميدي الكبير ، سببا في كسر شوكة السلطان ، وعدوله عن سياسة مقاومة الثورة بالقوة المسلحة . فأخذ يستعمل الحيلة ، ودعا لمقابلته افرادا منهم ، فرفضوا ...

كان هذا جانب من نشاط الثوار ، ودور عزيز علي المصري وهو دور بارز ومذكور . ولم يكن هذا كل شيء في الملف الذي تجمع لدى أنور عن عزيز .. فهناك ورقة أخرى أخطر ، وأهم ...

لقد قام الامام يحيى حميد الدين بثورة كبيرة ضد الاتراك رغبة في تحقيق استقلال اليمن ، ووقعت بين قواته وقوات الاتراك معركة طاحنة في جيزان قتل فيها ٢٥ ألف جندي تركي ... وحارت حكومة الاستانة ، ماذا تصنع . ووجدت أن خير ما لديها من حلول ان تبعث بعزيز المصري الى اليمن .. فهو ضابط كفء ، واسع الحيلة ، وهو ايضا عربي . وفي وسعه أن يجد مع القوات الباقية ، الوسيلة التي يحطم بها ثورة الامام يحيى ...

وذهب عزيز المصري الى اليمن ، وأعطى نفسه حرية التنقل بين المعسكرين : معسكر الامام ، ومعسكر الاتراك . وتم الاتفاق على عمل هدنة بين الجانبين ، اعترف فيها الاتراك بسيادة الامام يحيى على صنعاء ، وألا يشهر اليمنيون السلاح في وجه الحامية التركية ، وكذلك يفعل الجانب الاخر ، ويعيش كل في موقعه تجمعهم رابطة تسودها المودة والرحمة .. هي رابطة الاسلام .

وكان هذا الحل أروع ، وأقوم ما يمكن الوصول اليه . وتجلت فيه مواهب عزيز السياسية الى جانب مواهبه الحربية .

هل يترك أنور الطموح ، هذا المصري ، يملأ جو الحياة في استنبول ، وقد يصل الى مركز المسؤولية الكبرى ، فيحقق مبدأ « اللامركزية » في حكم الولايات العثمانية ، ويقضي على مبدأ « تتريك » الولايات الذي كان يدين به أنور ؟ .

الطريق سهل .. انه الميراث العثماني التقليدي .. ادعاء مؤامرة ، وقضية تلفيق شهادات وحكم بالاعدام .. والاخراج سهل ، والعمل سهل .. وقد كان ..

ولكن قبل ان نصل الى هذه المرحلة يحسن ان نلقي نظرة على النشاط العربي في الاستانة قبل الحرب العالمية الاولى .

جمعيات عربية .. وجمعية العهد :

في سنة ١٩٠٩ انشأ الشباب العربي في « دار السعادة » كما كانت تسمى الاستانة ، ناديا اسمه « المنتدى الادبي » ليكون بمثابة رابطة ثقافية بين الطلاب العرب . ولكن ما أن أحس العرب بأن الثورة التركية بدأت تتنكر لأماني قومهم ، حتى تحول النادي الى العمل السياسي . وأحس الاتراك — عن طريق جواسيسهم — بروح التذمر بين المجموعة العربية ، حتى كثرت زياراتهم له ، وكان من الزوار الدائمين : أنور ، وطلعت ، وفتحي وغيرهم .

وكان من بين العرب المترددين على هذا النادي شخصيات تجلى دورها فيما بعد من أمثال : سليم الجزائري . وعبد الكريم الخليل ، ورفيق سلوم (مسيحي) واسعد داغر (مسيحي) وعارف الشهابي وسيف الدين الخطيب وشكري العسلي ، وعبد الوهاب الانجليزي ، وعزيز المصري ، وشكري القوتلي ، والامير عادل ارسلان ، وجعفر العسكري ، وسعيد حيدر ، ونجيب شقير ونخبة من آل الصلح والعظم ومردم .

وكان هذا المنتدى على صلة بحزب اللامركزية الذي انشأه في القاهرة رفيق بك العظم . كما كان على صلة بجمعيات مشابهة نشأت في بيروت والبصرة .

ولاحظ عزيز المصري بحكم وجوده في الوسط العسكري ان اتجاهات الضباط الاتراك من زعماء تركيا الفتاة ميالة الى استعمال الشدة مع العرب ، فقرر أن ينشىء تنظيما عسكريا سريا اسماه جمعية « العهد » يلتحق بها الضباط فقط .

تكونت هذه الجمعية السرية في ٢٨ اكتوبر سنة ١٩١٣ برياسة البكباشي عزيز المصري ، وكان من بين اعضائها الضباط : سليم الجزائري ،

ونوري السعيد ، وعلي النشاشيبي ، وياسين الهاشمي ، وطه الهاشمي ، وجميل المدفعي ، وتحسين علي ، ومولود مخلص ، وعلي جودت الايوبي ، وفئات غيرهم من الضباط العرب . وقد أقسم اعضاؤها الا يبوحوا بشيء عنها . وتحددت أغراض الجمعية على النحو التالي :

١ ـ جمعية العهد ، جمعية سرية ، انشئت في الاستانة ، وغايتها السعي للاستقلال الداخلي للبلاد العربية على ان تظل متحدة مع حكومة الاستانة مثل اتحاد المجر مع النمسا .

٢ ـ ترى جمعية العهد ضرورة بقاء الخلافة الاسلامية وديعة مقدسة بأيدي آل عثمان .

٣ ـ لما كانت الجمعية تعتقد ان الاستانة رأس الشرق وان الشرق لا يعيش اذا اقتطعتها دولة اجنبية فهي تعنى عناية خاصة بالدفاع عنها وتعمل للمحافظة على سلامتها .

٤ ـ لما كان الترك يؤلفون منذ ٦٠٠ سنة المخافر الامامية للشرق امام الغرب فعلى العرب ان يعملوا للحصول على ما يؤهلهم لان يكونوا القوى الاحتياطية الصالحة لهذه المخافر .

٥ ـ على رجال العهد ان يفرغوا قصارى جهدهم في انماء المزايا المحمودة وبث الدعوة للتمسك بالاخلاق الفاضلة ، فالامة لا تحتفظ بكيانها السياسي القومي ما لم تكن مجهزة بالاخلاق الصالحة القويمة » .

ولقد أحدث انشاء هذه الجمعية ضجة شديدة في دوائر الاستانة لما عرف به منشئوها من الصلابة والقوة ولانها ولدت في ظرف توترت فيه العلاقات بين الاتحاديين والشبيبة فلقيت تأييدا من الشبان والضباط العرب الذين التفوا حولها وأنشأوا لها فرعين في بغداد والموصل ، وهذا ما جعل الحكومة الاتحادية تخشاها وتحسب حسابها وتفرق رجالها قبل ان يشتد ساعدها .

وفي كتاب « ايضاحات » الذي اصدره جمال باشا (السفاح) قائد الجيش الرابع التركي ، وحاكم سورية ، نبذة مفيدة عن جمعية العهد . قال :

ان « عزيز علي » لما عاد الى الاستانة من حرب طرابلس الغرب رأى من

الموافق انقسام الجمعية القحطانية[1] الى قسمين : فجمعية العهد هي القسم الذي تأسس ليسعى وراء الاهداف العربية بين أفراد الجيش • وقد نظم الضابط سليم بك الجزائري نشيدا لجمعية العهد ، آخر مقاطعه :

يشعل نــار الحرب لدق عنــق الكلب !
ونيل عــز العــرب مــن أمــة تركيــة

ويقول عبد الغني العريسي احد أقطاب الحركات العربية ، في التحقيق الذي أجراه بعد ذلك جمال باشا (السفاح) : كانت جمعية العهد بأول أمرها لا تريد ان تخابر حزب اللامركزية (مقره في القاهرة) بوجه مــن الوجوه ، لانها تعد نفسها أقوى من الحزب في البلاد العربية بدرجات • لان القوة الاجرائية (أي التنفيذية) بيدها وكان حزب اللامركزية يسعى الى ضم جمعية العهد له ، ثم جاء زمن نظر فيه الفريقان الى بعضهما ، فوجدا نفسيهما اقوياء • فكان حزب اللامركزية ، يريد ان تذوب فيه جمعية العهد• وجمعية العهد تريد عكس ذلك • واشتد الخلاف بينهما زمنا • وقد أخبرني داود بركات (رئيس تحرير الاهرام بعد ذلك) يوم جاء الى بيروت قبــل دخول الدولة الحرب ، أن الطرفين اتفقا وأصبحا كيانا واحدا •

يقول اسعد داغر في مذكراته عن عزيز المصري في هذه المرحلة :

---

(1) تأسست هذه الجمعية في الاستانة بعد اعلان المشروطية الدستور بعام واحد ، وهي جمعية مدنية وعسكرية وغايتها نشر افكار ترقية العرب واصلاح حالهم ونهضتهم بأي وسيلة كانت . وكان من خطط الجمعية القحطانية ــ وهي عربية خالصة ــ ان من حــق أي عضو ان يلحــق عضوا آخــر دون استئذان . وعلامة تعارف الاعضاء ان يضغط العضو باحد اصابعه على يــد من يصافحه . فاذا تبادل نفس الحركة عرف انه « قحطاني » . وفي حالــة الجلوس يضع العضو اصبعي الشهادة الوسطى على الذراع الايسر لجليســه مع ثني بقية الاصابع ، وان يتم ذلك وكأنه بغير قصد . فاذا رد الاخر بنفس الحركة تعارف الجليســان على أنهما « قحطانيان » . كما كانت هناك وسيلــة ثالثة للتعارف نذكرها ايضا ، لندل على جو التحفظ الشديد ، والتقية التي كانت تحيط بالحركات العربية في بلاد الاتراك . كان العضو يقول عفوا في حديث « هاء » فاذا رد عليه محدثه «لام» . اجاب (الف) فيرد الاخر « لام » وبذا تكون حروف كلمة « هلال » مجزأة هي وسيلة التعارف واحيــانا (من باب التأكد) تكون كلمة ابو بكر ، هي التالية خشية ان يكون احــد الجواسيس عرف بسر كلمة هلال !

« عزيز علي هو أبو الفكرة العربية وحامل لوائها . فمن حق التاريخ عليّ أن اقول كلمة عنه ، وقد عرفته ورافقته مدة طويلة واستطعت أن أقدر فضله على الامة العربية ورجالها ، وعلي أنا بنوع خاص ، لانه هو الذي غرس فيّ الشعور الوطني ورباني على فهم الواجب والقيام به .

كان عزيز قدوة لجميع عارفيه في كل شيء . لم يذكر احد انه رآه يشرب الخمر أو يلعب الميسر أو يندفع وراء الملذات ، أو يكذب على أحد أو يخل بوعد أو يتملق كبيرا . وكان يوزع دخل املاكه في مصر على المحتاجين من الضباط والطلبة في اسطنبول . ويبذل كل جهوده لترقية اخلاقهم ومكافحة عيوبهم بكل رفق وكياسة . وينشر حوله الاخلاق الفاضلة ويعلم اصدقاءه آداب السلوك وحسن الذوق . بمثله الصالح أولا ثم بالقول والفعل .

وكانت علاقته بشبان المنتدى الادبي علاقة المعلم بتلامذته أو الأب ببنيه يبث فيهم الفكرة العربية والروح الوطنية والاخلاق الكريمة الفاضلة . ويعلمهم تاريخ العرب في مختلف أدواره موضحا ما في كل منها من مفاخر ، سواء في العلوم والفنون والأداب أو في السياسة والادارة والحرب ، وسائر مظاهر الحضارة من اكتشافات واختراعات . وحرص الى جانب ذلك على تنمية حسن الذوق في أولئك الشبان وتعليمهم آداب السلوك في المجتمعات الراقية . وكان يفعل ذلك كله بمنتهى الكياسة . وقد زرته مرة في غرفته وكان رباط رقبتي لا يتفق مع لون ملابسي ، ففتح خزانة ملابسه ، ودعاني الى اختيار الرباط الملائم لي . وكان يمزج الجد بالهزل ، فيتحدث عن الالوان وما يتلاءم منها وما يتنافر ، وعن الملابس التي اعتاد الناس ان يرتدوها في المناسبات الرسمية وشبه الرسمية ، وعن الموضوعات التي يحسن أو لا يحسن طرحها على بساط البحث في امثال تلك المناسبات والاجتماعات ، واني أعلن هنا بكل صراحة أن ما يتوهمه فيّ بعض أصدقائي من المزايا الخلقية أو الاجتماعية ، انما هو مستمد من عزيز علي المصري استاذي في الوطنية كما هو استاذي في الاخلاق والأداب الخلقية والاجتماعية .

وجد عزيز المصري ان علاقته بالجيش العثماني لن تعطيه الوقت

الكافي ، ولا حرية العمل السري في جمعية العهد وتنظيماتها . فارسل الى قيادة الجيش الرسالة التالية :

« الى وزارة الحربية الجليلة .

« لقد تركت الجيش العثماني ، ابتداء من هذا التاريخ . ولكن حياتي العسكرية الماضية لا تزال تربطني به برباط متين . فاذا نشبت حربٌ أو احتاج الوطن الى ابنائه ، فعلى وزارة الحربية الجليلة ان تطلبني من الكومساربة العثمانية بمصر محل اقامتي ، على ان تعين لي القوة التي أتولى قيادتها » .

وما ان تلقى أنور ، وقد أصبح أنور باشا ، هذه الرسالة ، حتى أدرك أن غريمه العنيد يوشك أن يفر من القفص ، ويذهب الى القاهرة حيث يتسع له مجال العمل ، دون قيد ، أو رقابة .أو جواسيس اتراك . وهذا لا يمنع ان يكون في القاهرة جواسيس آخرون ، يعملون لحساب الانجليز .. فهم السادة في أرض النيل !!

القبض .. والحكم بالاعدام :

استدعى أنور باشا زميله القديم عزيز المصري الى ديوان وزارة الحربية . فاشار عليه اصدقاؤه بألا يذهب ، فلا سلطان لهم عليه ، ما دام قد استقال . ولكنه قرر الذهاب ، لأن استقالته لم تقبل . وشاع نبأ الاستدعاء بين الضباط العرب . وما أن دخل عزيز الوزارة ، حتى كان اكثر من ثلثمائة ضابط عربي يرابطون في عقر داره ! فأخذ يتحدث حديثاً لينا مع عزيز ، ويطلب منه الرجوع عن استقالته ، ولكنه اصر ، فأصر انور باشا بدوره على رفضها !!

وخرج عزيز ، ليعلم بما حدث من زملائه . وقد سره هذا كثيرا بغير شك . ولكنه ادرك ان العاصفة تجمعت ، وأنها على وشك ان تهب .

واجتمع مجلس حربي عال تكوّن من أنور ، وطلعت ، وجمال ، وتدارسوا الموقف ، ووجدوا أن في استطاعة عزيز ان يقلب حكومتهم في أي وقت ما دامت وراءه هذه القوة الخطرة ، فقرروا أن يعملوا بسرعة ... وفي اجتماع موسع آخر ، عقد على جناح السرعة ، حدث ما يأتي :

في يوم ٢٤ يناير سنة ١٩١٤ عقد اجتماع خاص في دار وزارة الحربية

بالاستانة حضره الصدر الاعظم سعيد حليم باشا ومحافظ الاستانة العسكري احمد جمال باشا وذلك قبل أن يعين لوزارة البحرية ومدير الامن العام عزمي بك فدرسوا التدابير الواجب اتخاذها لمقاومة الحركة العربية خاصة وجمعية العهد عامة وقرروا المواد الاتية :

١ ــ اقصاء الضباط العرب المقيمين في الاستانة وعددهم كما ظهر من كشوف وزارة الحربية ٤٩٠ ضابطا ينتمي ٣١٥ منهم للعهد الى المناطق التركية ، وهي تراقية والاناضول فلا يعود في امكانهم القيام بأي عمل يساعد على زيادة الجفاء بين العرب والترك .

٢ ــ تولية القيادة في البلاد العربية الى الضباط الترك واقصاء الضباط العرب عنها والاستغناء عن خدمتهم فيها بقدر الامكان .

٣ ــ الاسراع في تنفيذ سياسة تتريك العناصر .

٤ ــ يعد احمد جمال باشا المنهاج اللازم لتتريك العناصر .

٥ ــ مقاومة الحركة الاصلاحية التي ظهرت في بيروت وباريس .

٦ ــ الغاء الاحزاب العربية كلها وتأليف شعبة سياسية في وزارة الداخلية تشرف على الشؤون العربية وتدبر الخطط اللازمة لمقاومة دعاة الانفصال وترقب حركاتهم بدقة زائدة .

٧ ــ اقصاء العرب الذين يعملون ضد الترك من الاستانة واستمالة من يمكن استمالته منهم .

٨ ــ تعزيز نفوذ جمعية الاتحاد والترقي في البلاد العربية والاكثار من المنتسبين الى أنديتها .

* * *

وتم فعلا نقل اكثر من ٣٠٠ ضابط عربي من الموالين لعزيز الى الاناضول وتراقية وغاليبولي . اما الضباط الذين توسموا فيهم عدم الولاء لعزيز وكانوا أيضا مجموعة كبيرة ، فقد منحوهم ترقيات استثنائية ، وارسلوا الى سورية والعراق لتعزيز الولاء للسلطة التركية .

وجاء دور عزيز المصري . ويروي اسعد داغر في مذكراته وقد حضر هذه الاحداث :

ففي يوم الاثنين ٩ فبراير ١٩١٤ بينما كان خارجا من فندق توكتليان دنا منه ثلاثة من رجال البوليس الملكي وطلبوا منه ان يصحبهم الى مركز البوليس باسطنبول .

وما كاد هذا الخبر ينتشر في العاصمة حتى قام له العـرب وقعـدوا وذهبت وفود كثيرة منهم الى مركز البوليس مستعلمين . فقابلهم المدير بكل اهتمام ، وأفهمهم ان عزيزا غير معتقل ، وانما هم يبحثون معه بعض الشئون العسكرية التي قد يستغرق بحثها النهار بطوله ..

وذهب الزهراوي الى منزل طلعت باشا ليقف منه على الحقيقة ، فقيل له انه غير موجود في المنزل ..

ولما لم يفرج عن عزيز في المساء قصد أحد الضباط العرب ، وأذكـر أنه جميل المدفعي الى المرحوم الزهراوي في فندق كروكر وطلب اليه معرفة السبب في اعتقال عزيز علي ومما قال له : « ابلغ الحكومة ايها الاستاذ أن دماءنا نحن العرب يجب أن تحفظ للدفاع عن الوطن . ولا تضطرنا الى اهراقها في سبيل الافراد » .

وفي ١٠ فبراير عقد مندوبو الاحزاب العربية وزعماؤها ومفكروهـا اجتماعا كبيرا بحثوا فيه الاسباب التي أدت الـى اعتقال عزيـز علـي . والوسائل التي يجب التوسل بها لانقاذه .

وذهب وفد منهم فقابل جمال باشا وطلعت بك وغيرهما ، فسمـع الوفد جوابا واحدا من الجميع هو ان عزيزا أخوهم وحبيبهم ، وأن وزارة الحربية لا تبغي منه سوى استجلاء بعض المعلومات العسكرية التي تتعلق بشئون الدفاع الوطني . وان الحكومة قررت تعيينه واليا على البصرة .

ووضع عزيز علي في غرفة فخمة بوزارة الحربية وسمح بزيارته النهار بطوله . وكانت غرفته والغرفة التي امامها غاصتين دائما بالضباط وغير الضباط من اصدقائه . وقد اتصل بهم ان عزيزا سيحاكم وتلصق به تهم ملفقة استعان الاتحاديون على اثباتها ببعض من كانوا في طرابلس الغرب ، وان غرضهم الحقيقي هو التخلص منه . فقامت قيامة العرب حينئذ في كل مكان وانهالت الاحتجاجات على الباب العالي من كـل صوب . وأبـدى الشريف حسين امتعاضه ، وانذر السيد طالب النقيب بأنه سينقض عـلى

الحكومة في جهات البصرة بالتعاون مع ابن السعود • وقامت في مصر حركة قوية للمطالبة بالافراج عن عزيز • فرأى الاتحاديون تجاه ذلك كلـه ان الاستمرار في محاكمته سيثير مشاكل هم في غنى عنها ••

التفكير في اغتياله ••••

وحدث يوما أني كنت في فندق كروكر مع نجيب شقير والدكتور سعد الخادم ، وقد جاء مع شقيقه عزيز الى اسطنبول للعناية به ، واذا بالدكتور ابراهيم ثابت مقبل علينا بوجه طلق يخبرنا بأنه آت من زيارة السجين • وأنه رآه على أحسن حال من الصحة والسرور ، وبعد ان مكث معنا نحو نصف ساعة هم بالانصراف فسأله الدكتور سعد : هل عزيز في حاجة الى شيء ؟ فذكر الدكتور ثابت أن عزيزا أعطاه رسالة وأوصاه بأن يسلمها الى يوسف ذو الفقار ليشتري له العلاج المذكور فيها ويبعث به اليه •

ولما أن وقع نظر الدكتور على ما سطر في الورقة حتى امتقع لونـه وتولاه الاضطراب ثم ناولنا اياها فقرأنا فيها ما خلاصته :

« زارني اليوم صديق من كبار الاتحاديين وأسر اليّ انه قر القرار على اغتيالي الليلة ، وسلمني مسدسا لأدافع به عن نفسي • »

وفي الحال ذهب كل منهم الى جهة للاجتماع بأصدقائه واتخاذ التدابير اللازمة لمواجهة الحالة • وقد اجتمعت أنا بسليم الجزائري وغيره فعهدوا اليّ أن أكتب الى السفارات الاجنبية والجنرال فـون ساندرس المفتش الالماني في الجيش العثماني أن في النية اغتيال عزيز في تلك الليلة والادعاء بأنه انتحر • كما عهدوا الى البعض بمحاولة تهريب عزيز من السجن ووضعوا سيارة تحت تصرفهم لهذا الغرض ، وقد أرسلوا رسولا الى بخارست للابراق الى الشريف حسين وطالب النقيب بالامر • وذهبت أنا الى غرفتي لتحرير الرسائل التي كلفت بكتابتها ، وقابلت فائز الخوري صدفة في الطريق ، وكنت أعتمد عليه ، فأوضحت له الحالة وطلبت اليه أن يعاونني في الكتابة ، واننا لكذلك ، واذا بالباب يفتح فجأة ويدخل علينا الامير عادل ارسلان ، فلما اطلعناه على ما نحن فيه أقبل على مساعدتنا • ولكن فائزا رأى الاكتفاء بقلمي وقلم الامير عادل ، وأخذ الرسائل التي كتبها هو وأحرقها كلهـا •

وأخذت أنا الرسائل التي كتبتها والتي كتبها الامير عادل وألقيتها في البريد .

وفي تلك الليلة نفسها ذهب سفير انجلترا بعد اجتماعه بالدكتور سعد الخادم ويوسف ذو الفقار الى الباب العالي وقابل الصدر الاعظم مقابلة طويلة بشأن عزيز .

وفي تلك الليلة أيضا اقيمت حفلة عشاء ساهرة في سفارة فرنسا وكان خبر عزيز قد تداولته الالسن ، وانتهى الى مسمع السيدات وفي جملتهن كريمة السفير . فلما اقبل جمال وأراد أن يسلم عليها أبت أن تبسط له يدها للتحية قائلة :

ــ أنا لا أمد يدي الى يد قاتل ..

فقطب جمال جبينه واتجه نحو الباب قاصدا الخروج ، ولكنه التقى بانور باشا داخلا فتبادلا بعض كلمات ثم عادا معا ..

ولا أستطيع ان أبت في صحة الخبر الذي نقله الضابط الاتحادي الى عزيز بشأن اغتياله ، ولكني اعلم انه لو كان صحيحا لاضطر الترك الى العدول عن تنفيذه . بعدما رأوا ان جميع المقامات الرسمية في اسطنبول قد اهتزت له وانه اثار ثائرة العرب في كل مكان . .

وزرت عزيزا في السجن عقب هذه الحادثة واخبرته بما جرى . ولما ذكرت له خبر الكتب التي أرسلت الى السفراء والى المفتش الالماني للجيش العثماني أغرورقت عيناه بالدموع وقال :

ــ كنت أفضل الف مرة ان اقتل على أن يدعى الاجانب الى التدخل لمصلحتي .

ثم قال : قد لا أعيش طويلا بعد الآن . واذا كان يشق علي أن أموت فذلك لاني لم أوفق الى الخدمة التي أريدها .

ضجة كبرى في مصر :

كان هذا يحدث في الاستانة . ولكن القاهرة لم تكن بعيدة عن مسرح الاحداث . فقد استغل الانجليز حادث القبض على عزيز المصري ، والحكم عليه بالاعدام استغلالا بارعا جدا .. فعزيز بعد تدخله في حرب اليمن ،

وبعد جسارته وقدرته التي تجلت في حرب ليبيا ضد ايطاليا ، أصبح بطلا قوميا . وكان الاتجاه الوطني المصري في ذلك الوقت ، هو مقاومة الاحتلال الانجليزي بالنفوذ التركي ، وكان الحزب الوطني والخديوي عباس الثاني من هذا الرأي . وعامة المصريين يعتنقونه ..

وما أن سقطت حكومة الاتحاديين هذه السقطة بازماعها اعدام بطل مصري ، بغير جريرة ، فمن الممكن تحويل العواطف القومية ضد الاتراك .. ولهذا لا نعجب اذا علمنا أن اكبر منبر كان يدافع عن عزيز المصري ، هو جريدة المقطم، الوثيقة الصلة بالسلطات البريطانية، وهي التي افتتحت اكتتابا لجمع اموال تساعد في الدفاع عن البطل المصري السجين في تركيا ، والذي يوشك ان يفقد حياته ...

ولكن سماح الانجليز ، برفع صوت المصريين والعرب عاليا دفاعا عن « عزيز » ، لا يعني تشويه هذه الحركة الشريفة ، التي عبرت عن نفسها بأقوى اسلوب . والتي فصلت نهائيا في موضوع التبعية لتركيا ، التي كان الدين ، ومركز الخلافة ستارا لها .... أصبح العرب جميعا طلاب استقلال عن الاتراك في سورية والعراق وشبه الجزيرة ، وعن الانجليز في مصر ، وعن الايطاليين في ليبيا ، وعن الفرنسيين في المغرب الكبير ..

وقد سجل لنا « سفاحنا » جمال باشا في ايضاحاتـه بعض البيانات النافعة ، عن اتجاه التيار القومي العربي ، الذي كان يعده جريمة الجرائم ، والذي نصب من أجله المشانق كما سنرى فيما بعد ..

أرسل رفيق العظم رئيس جمعية اللامركزية ، التي اصبحت جمعيـة ثورية استقلالية هذا الكتاب الى اعوانه في سورية :

« عزيز لا يزال رهين السجن ، ونحن نواصل السعي هنا لانقاذه .وقد أفمنا اجتماعا ثانيا ، وقررنا مراجعة اللورد كتشنر (المعتمد البريطاني في مصر) والتمسنا منه أن تتدخل الدول الانجليزية في المسألة ، وتصون حياة بطل برقة ، والرجاء منكم أن تشيعوا بين الناس بقدر الامكان ، ان قصد الحكومة ان تقتل الرجل ، لانه عربي ، يجاهر بضرورة الاصلاح في بلاد الناطقين بالضاد » .

* * *

وفي بيان آخر اذاعته الجمعية الثورية العربية ما يلي :

« مرت امامنا منذ عهد قريب حادثة اشتهر أمرها ، وعرفهـا القاصي والداني ، ألا وهي مسألة الحكم على عزيز المصري التي يجدر بكل صاحب نظر أن يتأمل في مكان العبرة منها » •

« نحن الذين قررت جمعيتنا ان نخاطب أمتنا المحبوبة ، بكلمتنا هذه، نعترف على رؤوس الاشهاد بأن غاية ما يمكن للمتصف بالتابعية العثمانية ، ان يخدم به هذه الدولة ، لا يمكن ان يزيد على ما خدمها به عزيز المصري • وكان الانصاف والمجاملة يقضيان على الاتراك بألا يقدموا ابنهم أنور عليه، لانه لا يفضله بشيء •• ولكنهم على خلاف مقتضى الانصاف والمجاملة ، رفعوا أنور من رتبة ضابط ، الى رتبة ناظر حربية • وبلغ بهم الحقد والحسد والبغض لفتى مصر ، عزيز ، الى حد أنهم لم يكتفوا بحرمانـه من المراتب العليا ، ولا بعدم مكافأته على ما أحسن اليهم به مدة عشرين سنة ، بل هم رفعوا برفع الحياء ، وصرحوا بما تضمره قلوبهم من البغض لابناء العرب ، فحكموا على هذا الشهم بالاعدام ، رغم توسل اكبر شيخ في الاسلام ،ورغم رجاء أعظم العظماء في مصر •• »

* * *

ونشرت جريدة التيمس الانجليزية مقالات عنيفة ضد الحكم باعـدام عزيز المصري ، قالت في واحدة منها : « ••• اذا أعقب الجور الذي أصـاب هذا الضابط العربي الباسل ، تدبير ، لا يمكن وصفه الا بأنه جريمة قتـل مرتدية رداء القانون • فان ذلك سيؤثر تأثيرا خطيرا في العلاقات بين الحكومة العثمانية ومصر ، ولعل هذا التأثير لا يقتصر على العلاقات بين تركيا ومصر وحدهـا » •

كان القبض على عزيز المصري في ٩ فبراير سنة ١٩١٤ ، وصدر الحكم باعدامه في ١٥ ابريل من نفس السنة ، ثم خفض الى السجن ١٥ سنة • ولكن زئير الرأي العام العربي ، والاسلامي (آلاف البرقيـات للسلطـات من الهند وايران والسودان وكافة البلاد العربية) ، والرأي العام الاوروبي ، كل ذلك حمل الحكومة التركية على الغاء هذه الاحكام في ٢١ ابريل سنة ١٩١٤ ، على أن يترك عزيز تركيا في اليوم التالي •

يروي أسعد داغر الذي شاهد ساعة الافراج عن عزيز قائلا :

« أعلن انه سيطلق سراحه بعد الظهر . فانطلقت الى وزارة الحربية وهناك وجدت موكبا مؤلفا من نحو ستين عربة في انتظار خروجه من السجن. وفي الساعة الرابعة مساء أفرج عنه بشرط ألا يمكث في اسطنبول سوى ليلة واحدة ، ثم يغادرها حيث يشاء .

واجتمعنا معه في تلك الليلة ، في مأدبة حضرها معظم اصدقائه . وفي اليوم التالي سافر الى مصر .

وخمدت الحركة بعد سفره ، واشتد الخوف من أن ينتقم الاتحاديون من أصدقائه ، واتجهت النية الى الشروع في عمل جدي في البلاد العربية» .

ونشطت الدعاية العربية نشاطا عظيما بعد خروج « عزيز علي » من اسطنبول ، وساد الاعتقاد بان ساعة العمل الجدي قد أزفت فقرر الاخوان مضاعفة الجهود لاستعجال هذه الساعة ، وتهيئة الجو لها . وجعلوا يقضون أيامهم ولياليهم في كتابة الرسائل، وتوزيع القصائدالحماسية ، وتبادل الآراء والمعلومات . وقد فتح خليل حمادي باشا ــ الوزير المصري الذي كانت الحكومة العثمانية قد استعارته لاصلاح وزارة الاوقاف العثمانية ــ باب داره على مصراعيه لشباب المنتدى العربي ، فاتخذوا منه ناديا سريا لهم . واذكر اني نقلت ووزعت في يوم واحد أكثر من مائة نسخة من قصيدة الرصافي التي جاء فيها : « سنطلب هذا الحق بالسيف والقتال » .

« سفاحنا » أحمد جمال باشا :

اذا كان هناك رجل واحدمسؤول عن دخول تركيا الحرب العالمية الاولى ، فهو « انور » . ولنزيد شخصيته وضوحا ، وقد رددنا اسمه كثيرا قبل ذلك فنذكر انه ولد عام ١٨٨١ (يصغر عزيز المصري بعام واحد) وتخرّج من كلية اركان الحرب عام ١٩٠٣ ، والتحق بجمعية الاتحاد والترقي واشترك في إسقاط السلطان عبد الحميد على النحو الذي ذكرناه ،وكوفىء على دوره بأن عين ملحقا عسكريا لتركيا في برلين . وقد بهره الجيش الالماني ، وما كان عليه من نظام وحسن تسليح .

وفي سنة ١٩١٣ ، قرر اقطاب جمعية الاتحاد والترقي ، ومنهم أنور ان يحكموا سافرين ، وكانت الوسيلة الى ذلك التخلص من الرجل الذي قادهم

الى الاستانة عام ١٩٠٨ وهو شوكت باشا الذي تولى رياسة الوزارة •• رصاصات وتزول العقبة • وقتل شوكت باشا ، وأسرع انور الى وزارة الحربية ، فقد كان وزيرها الجديد ، وانعم عليه بلقب باشا • وما لبث أن تزوج احدى أميرات البيت العثماني ــ بنت السلطان محمد رشاد مباشرة ! وصاح احد الاتراك : ما أغرب ما نرى ، لقد قتل انور « باشا » الجديد ، أنور الذي كنا نعرفه !

ولم يكن أحد من أقطاب هذا الحكم ، من كبار المعجبين بسياسة بريطانيا ، ولا سيما بعد ان لوت ذراعهم لكي يفرجوا عن غريمهم « عزيز المصري » وكانت روسيا عدوة تقليدية للاتراك • واذن فلم يكن هناك سبيل الا الى دول الوسط •• ألمانيا بالذات •

والسؤال الآن ، ولو انه جاء متأخرا اكثر من نصف قرن : لماذا لم تختر تركيا طريق الحياد ؟•• وهو نفس السؤال الذي يوجه متأخرا ثلاثين سنة لموسوليني : لماذا لم يختر في الحرب العالمية الثانية طريق الحياد • صحيح ان كل فريق من المتحاربين كان يبذل أقصى جهده ليجر معه حليفا •• ولكن أين هي المصلحة في الاشتراك في معركة بعيدة ؟ ان خطأ واحدا في الحساب قد يجر الوطن كله الى كارثة محققة • ويجر الذين دخلوا الحرب بغير روية ، ولا بصيرة الى مصير مفزع •

لقد هرب انور بعد هزيمة المانيا وتركيا الى بلاد القوقاز ، ثم الى روسيا ، فالتركستان ، محاولا تأليف جيش ينتزع به هذه المناطق من روسيا • وقتل في معركة خائبة على ايدي القوات الشيوعية التي كانت قد تولت الحكم ، ودفن في بخارى حيث كانت تدور معركته وكان ذلك في اغسطس سنة ١٩٢٢ •• دفن غريبا ، مجهولا ، لم تدمع عليه عين ، ولم يأس عليه انسان •• وكذلك الحال بالنسبة لموسوليني ، فقد علق بعد هزيمة ايطاليا من قدميه كما تعلق الذبيحة ••

أما كيف دخلت تركيا الحرب ، فقد حدث في ٢ اغسطس سنة ١٩١٤ معاهدة سرية مع المانيا تقضي بدخول الحرب ، وكان ثلاثة أشخاص فقط يعلمون بأمرها مع أنور ، وهم رئيس الوزراء سعيد حليم ، ووزير الداخلية طلعت ، وخليل رئيس مجلس النواب •

وكان وزير الحربية في هذه الوزارة احمد جمال باشا ، فعين قائـدا للجيش التركي الرابع ، ومقره دمشق ، وحمل مسؤوليـة الحكم في الشام كله ، والعراق ، والحجاز .. اما اليمن وعسير ونجد فما كان له سبيل عليها لانها كانت قد كافحت واستقلت تقريبا عن السلطان العثماني .

في دمشق :

كان جمال باشا ثعلبا ماكرا . فما ان وصل الى دمشق ، حتى بـدأ يتقرب من العناصر الوطنية ، والطبقة المثقفة . وكان زعماء الحركة العربية ، قد اتفقوا على أن يوقفوا نشاطهم المعـادي للاتراك ، مادامت الدولة قـد اشتبكت في معركة مصيرية ، وكتب عزيز المصري من القاهرة يوصي أعوانه في سورية بأن يؤازروا جهود الدولة العثمانية في هذه الحرب ...

ونبحث عن السر في هذا الانقلاب المفاجيء ، في اتجاهات وعواطف الحركة القومية العربية ، فلا نكاد نعثر له على مفتاح ، الا في الخوف مـن المجهول . فقد بلا العرب الانجليز في مصر ، وقد غدروا بها .. دخلوا على أساس اقامة شهر ، فطالت اقامتهم سنين وصلت الى ثلث قرن . ومأسـاة ايطاليا وفرنسا في ليبيا والمغرب معروفة .. اما الاتراك فقد بلاهم العرب ، وعرفوا طباعهم ، وأصبحت لديهم قدرة الآن على مواجهتهم للحصول على حريتهم منهم .. فضلا عن ان العاطفة كان لها وزنها .. وكان اسوأ شيء في دخول تركيا الحرب ، هو قيادة الاتراك التي وقعت في ايدي جمعية الاتحاد والترقي المصبوغ طريقها بالدماء وتزييف الانتخابات وقهـر الشعب بنفس اساليب السلاطين السابقين ..

واستقبل شعب سورية جمالا بحفاوة بالغة ، وقال في مذكراته :

« ان اهالي سورية أظهروا وطنية كبرى واخلاصا ، وقد امتلأ قلبي سرورا ، اذ رأيت ، وشعرت ان غالبية العرب تتوانى عن بذل ما يطلب منهـا من التضحيات في تلك الحرب لتحرير الخلافة الاسلامية ! »

وسافر الامير سعيد الجزائري ، وكان مقيما مع اسرته في سورية لمقابلة الشريف حسين في مكة ! وحضه على مؤازرة الدولة العثمانية في هذه الحرب ، ولم يتركه الا بعد أن أخذ منه وعدا قاطعا بذلـك على شرط ان

يسحب جمال باشا مندوبه في الحجاز الذي حاول تدبير مؤامرة لاغتيال الشريف حسين !

وكانت مهمة جمال في سوريا :

١ ــ اعداد الجيش بحيث يزحف الى قنال السويس ، ويطرد الانجليز من مصر .

٢ ــ المحافظة على طرق المواصلات البرية التي تربط تركيا بسورية ، وتربط سورية بالعراق ، وتربط سورية بفلسطين والحجاز .

الهزيمة .. ومن يدفع الثمن ؟

بدأ جمال ينفذ القسم الاول من مهمته، بأن يغزو مصر !! وكانت الخطة التي تفتق عنها ذهن الاتراك ، هي ان تدفع قيادتهم طابورا مسلحا كي يجتاز القنال . وما ان يعلم المصريون بوصول الطلائع التركية الى الدلتا ، حتى يهبوا في وجه الانجليز ، ويقضوا على وجودهم و .... ويتسلم الاتراك زمام الامر في مصر .

ولا يمكن أن تكون هناك خطة أكثر سذاجة من هذه الخطة ..

حقيقة كان المصريون يكرهون الانجليز . ولكنهم لم يكونوا في حاجة الى سيد جديد ، ولا سيما هذا التركي الذي أوقف نموهم ، وسلط عليهم سيف العذاب أربعة من القرون الطوال .. كان عباس الثاني الخديوي، قد عزله الانجليز عن عرش مصر ، أثناء زيارته لتركيا . وكان المصريون محزونين، لعزل الخديوي واعلان الانجليز حمايتهم على بلادهم، مولّية واحدا من قبلهم هو السلطان حسين .. وزعيم الحزب الوطني ، محمد بك فريد وبعض اركان هذا الحزب كانوا أيضا هاربين في تركيا وبلدان الوسط (ألمانيا) . وكانت الاشاعات تروج في مصر ، ان الخديوي عباس قادم على رأس جيش ، لطرد الانجليز من البلاد ، وكان الصبية يؤلفون مسيرات يهتفون فيها : الله حي .. عباس جاي .

هذا كان جو الحياة في مصر ..

وقد اعتمد جمال في زحفه على طابورين نظاميين ، واحد قادم من المدينة المنورة وآخر من دمشق ، يلتقيان في سيناء . وفي فجر اليوم الثاني من فبراير سنة ١٩١٥ ، هاجم الاتراك القنال وبعد قتال نهار كامل ، أدرك جمال انه

لا أمل له في العبور للضفة الغربية ، فانسحب مع قواته القهقرى الى بير سبع في فلسطين • وكان من بين هذه القوات المهاجمة فرقة من ابناء فلسطين وسورية ، وقد ذكر جمال في مذكراته أنهم كانوا مسؤولين عن التموين ، وأنهم أدوا واجبهم بمنتهى الامانة والبسالة •

وكما كان يصنع نابليون في حملته على فلسطين ، فقد كان يأمر على أثر الهزائم التي مني بها في هذه الجبهة ، ان تزين القاهرة ، وتطلق المدافع إيهاما للناس بالنصر !! وعلى نفس الاسلوب ، أمر جمال وهو مقيم في القدس أن تزين دمشق بالرايات والانوار ، ويستعرض الجيش استعراض الظافرين! ثم استدعى اثنين من زعماء العرب من سورية همـا الدكتور عبد الرحمن شهبندر ، وعبد الكريم الخليل ، وأكد لهما ان الجيش بخير ، وانه بسبيل اعداد حملة ثانية على مصر لانجاز المهمة •

وكانت جريدتا « المقتبس » و « المفيد » تواليان بث الدعوة التركية ، وكان يحرر الاولى منهما محمد كرد علي والثانية عبد الغني العريسي ،وهما من أقطاب الحركة الاصلاحية •

وسارت الامور في أعقاب الهزيمة التركية الاولى في تراخ، ولكن العرب بدأوا يتشككون في نوايا الحكومة التركية ، ودار بينهم الهمس ، وأخذ بعضهم يتصل بفرنسا ، لكي يأخذ لبنان وضعا خاصا، ويضيف الى حدوده بعض المناطق مثل منطقة بعلبك •

وزاد في تلبد الغيوم بين العرب وجمال باشا ، ان رفيق بك العظم رئيس جمعية اللامركزية في مصر ، كان يوالي كتابة الرسائل الى الزعماء السوريين واللبنانيين والفلسطينيين ، يحضهم على الثورة ، ويظهر ان بعض هذه الرسائل وقعت في يد الاتراك ، وكان يطلب منهم الرد على رسائله على عنوان فراش مسجد برلنتي هانم في شارع الدواوين ، وكان اسمه الشيخ حقي خلف !!

وكان تداخل الاتراك مع زعماء الحركة العربيـة في الشهور الاولى لقدومه ، وتلبينه لدعواتهم ، واستقبالهم في مقر قيادته •• كل ذلك مكنه من ان يجمع بنفسه معلومات كافية عن شخصياتهم •• وقرر ان يتحرك • فقد ذاع نبأ محاكمات عرفية عاجلة ، واعـدامات تمت في بيروت ، ودهش

الناس عندما طالعوا أسماء المجموعة الاولى من الشهداء • كانت القائمة تضم عبد الكريم الخليل ، وصالح حيدر ، ومسلم عابدين ، ونايف تللو ، والاخوين محمد ومحمود المحمصاني ، وعبد القادر الخرسا ، ومحمود العجم ، وسليم عبد الهادي ، ونور الدين القاضي ، وعلي الارمنازي •

وكما ورد في كتاب « الايضاحات » الذي اصدره جمال باشا ، فان التهمة التي اشتركت فيها هذه المجموعة ، كانت تدور حول اتصال حركة « اللامركزية » بهم ، أو اتصالهم بها •

كما أصدر جمال احكاما على بعض الفلسطينيين بالسجن المؤبد •

أما اعضاء « اللامركزية » واعضاء « العهد » ، فقد أصدر عليهم حكما غيابيا جماعيا بالاعدام ، ومعظمهم كانوا في مصر وقليل منهم كان في الخارج •

وفيما يلي طائفة من هذه الاسماء كمثال ، لا كحصر :

عزيز علي المصري ، وهو بطبيعة الحال هدف ثمين حاول اقطاب الاتحاد والترقي ، ومنهم جمال ، ان يخلصوا منه في تركيا فلم يتمكنوا •• والآن فليكن على رأس القائمة الجمالية الجديدة ثم :

رفيق العظم ، وحقي العظم ، والشيخ رشيد رضا ، وداود بركات ، وفارس نمر ، والدكتور شبلي شميل ، وخليل مطران • والامير خليل ابو اللمع ، وثلاثة من أسرة البستاني هم : نجيب وأمين ويوسف • واثنان من اسرة بولاد هما خليل وهنري • وميشيل لطف الله ، ونعمة الله غانم والشيخ يوسف الخازن والدكتور خليل مشاقة ، ويوسف سمعان صيدناوي ، ويوسف حبيب زنانيري ، وفؤاد الخطيب ، ورزق أرقش وانطون ارقش ، وعزت العابد ، وشكري غانم ، والامير مجيد ارسلان وغيرهم ••

ويقول أمين سعيد في كتابه عن الثورة العربية الكبرى ان هناك ثلاثة أسباب حدت بالاتراك الى اتخاذ طريق العنف الذي لا رجعة فيه وهي :

١ ــ ميل زعماء تركيا الى التخلص من الحركة العربية والقضاء عليها وهي في المهد وكانوا يعتقدون أن فرصة الحرب من الفرص السانحة التي لا يجود الزمان بمثلها ولذلك لم يحجموا عن اهتبالها •

٢ ــ ما أدركه الترك من نصر في الدردنيل على الحلفاء في تلك الايام فقد والى هؤلاء الهجوم وكانوا يعتقدون أنه لا بد لاساطيلهم من اقتحام

حصونه ودكها ثم مجيئهم بعد ذلك بالجيوش وانهزامها مما شجع الترك وقوى عزائمهم وجعلهم يعتقدون بأن الفوز سيكون في جانبهم وأنه يجب التخلص من أذكياء العرب ليعيشوا مرتاحين زمن السلم .

٣ ـ ما أثبتته الوثائق السرية التي نشرها البلاشفة في سنة ١٩١٨ من سجل وزارة الخارجية الروسية عن وجود صلة بين جمال باشا والارمن في تلك الايام وتوسيطه اياهم لحمل الحلفاء على الاعتراف به سلطانا على تركيا مقابل قضائه على الدولة فقد أراد ان يغتنم الفرصة فيقضي على الاحرار النابهين من أبناء البلاد . يؤيد هذا الاستنتاج ما صرح به عبد الكريم الخليل ساعة الاعدام وهو قوله « اني اعرف لماذا يقتلني جمال باشا » فقد قيل أنه أراد التخلص منه لانه وقف على جانب من خطته وكان يكتمها عن كل الناس .

ويميل أمين سعيد ـ رحمه الله ـ الى تحميل آل العظم في القاهرة مسؤلية هذه المتاعب ، من كثرة رسائلهم حتى بعد أن وهنت صلتهم بالجمعيات الوطنية . بل يزيد على ذلك انهم كانوا طامعين في مناصب ترضيهم بها تركيا فيكفوا عن هذا النشاط .

ونحن نبريء هذه العناصر الوطنية من أن تكون أهدافها رخيصة الى هذا الحد . فربما كان سوء تخطيط أو تدبير .. وربما كانت هناك خيانات من بعض عناصر مندسة في الاوساط الوطنية تتاجر بما تعلمه من أسرارها ، فهذا كله جائز ، ولكن السبب الاهم والاكبر ، هو ما ذكرناه ، وأكدته الحوادث بعد ذلك .. السبب هو أن الاتراك أحسوا ان قبضتهم على البلاد العربية ليست محكمة . وان سلوكهم طريق العنف الدموي ، بتصفية الزعامات الوطنية ، يتيح لهم فترة هدوء لازمة لهم ، حتى يتضح موقف الحرب العالمية في ميادينها الرئيسية .

وطريق الدماء منزلق لا يعرف التوقف . فقد قبض جمال على اللبناني يوسف الهاني . وأقامت زوجه حفلة استقبال لجمال باشا وأعوانه ودعت لها الطبقة الراقية في بيروت . وفي نهاية الحفلة ، ركعت امام جمال لكي يعفو عن زوجها الذي كان قد قبض عليه . ووعدها جمال خيرا . وفي الصباح كان الزوج المسكين مشنوقا في ساحة البرج .

وتوالت أوامر القبض والاعتقال والاعدام والنفي والسجن • وكـان جمال باشا يصدر بيانات باسماء ضحاياه على النحو الآتي :

« ومن الذين صدر عليهم حكم الاعدام ، وهم شفيق المؤيد ، والامير عمر ، وشكري العسلي ، وعبدالوهاب الانجليزي ، ورشدي الشمعـة ، ورفيق رزق سلوم ، اعدموا هـذا الصباح في دمشق • والآخرون (وهي قائمة جديدة طويلة جدا) أعدموا في بيروت ، وارسل المجرمون الآخرون الى منافيهم وسجونهم • وعلى هذا المنوال استقر الامن في سورية وفلسطين • وهما في حاجة اليه الى الابد » •

وفي الوقت الذي كان فيه جمال باشا يعامل العرب هذه المعاملة الاجرامية ، كان يتوسط للارمن في الاستانة بالحاح والحاف ، واستطـاع أن يبقي في ولايتي حلب وبيروت ١٥٠ ألف أرمني مهاجر ، وذلك كما ورد في مذكراته ، ولقد كان تنكيل الأتراك بالأرمن خطأ فادحا • وكان التنكيل بالعرب خطـأ آخر جنت منه تركيا العثمانية المر والحنظل كما سنرى •

الانجليز في الميدان :

لم تكن الحرب العالمية الاولى مجهولة الموعـد والظروف بالنسبـة للانجليز وحلفائهم • فقد قدروا وقوعها قبل موعدها بوقت كاف • ودرسوا احتمالاتها في شتى ميادينها ومنها ميدان الشرق الاوسط • وكانت لهم في القاهرة مراكز استطلاع قوية ، تمتد خيوطها الى آسيا العربية والى السودان والحبشة وغيرها • ووقع تحت نظرهم ــ طبعا ــ تطلعات العرب جميعا الى الحرية • ومحاولتهم استمالة الحركات الوطنية لهم • فان تعذر ذلك ، فلتفصل بين العرب والاتراك بكل وسيلة ممكنة • وما تداخلهم الملح المصنم بالافراج عن عزيز المصري من سجن الاتراك ومشانقهم الا واحدة من هذه المحاولات ، سواء رغب عزيز في ذلك أم كره ••

وكان الانجليز يقدرون ان تركيا سوف تدخل الحرب الى جانب الالمان ، لانها تعلم مدى تغلغل الالمان في حياة تركيا الرسمية والعسكرية •• ولهذا اليوم أخذت تعد عدتها •• ووجدت انجلترا ــ وهذا لا يخفى على أحد ــ أن الشريف حسين له وضع ممتاز في العالم العربي ، وأنه الشخصيـة التي

يمكن أن تقف في وجه خليفة المسلمين العثماني ، فيقبل مسلمو الهند موقفه ،وذلك :

١ ــ لانه من نسل رسول الله عليه الصلاة والسلام .

٢ ــ هو أمير الحرمين الشريفين : مكة والمدينة ، حيث نشأت الدعوة الاسلامية ، ونمت ، وسادت العالمين في وقت الراشدين ومن جاء بعدهم .

٣ ــ كان وهيب باشا القائد التركي لجيش الحجاز ، ومندوب حكومة الأستانة رجلا فظا غليظ القلب . وقد أشرنا الى أنه حاول مرة تدبير مؤامرة لاغتيال الشريف حسين.وذلك لأن تعليمات أنور باشا وزملائهكانت تقضي برد الشريف الى أصغر حجم ممكن أو تصفيته .

وبدأ الانجليز يمدون شباكهم . فكان الامير عبدالله كلما مر بالقاهرة ــ قبيل الحرب ــ قادما من الأستانة (كان عضوا في البرلمان التركي). زاره المعتمد البريطاني كتشنر ، أو خليفته ماكمهون ، أو السكرتير الشرقيستورز وذلك بترتيب من الخديوي عباس ، علىكراهة عباس للانجليز في الباطن . ولكن لعله كان يرتب هذه المقابلات لغرض في نفسه .

أخذ ستورز يكاتب الامير عبد الله . وكانت أول رسالة تقول :

« أمرني اللورد كتشنر وزير الحربية البريطانية (نقل من مصر الىهذا المنصب في أول الحرب) ان اكتب لسيادتكم لأسألكم فيما اذا كنتم ،وسيادة والدكم لا تزالون على رأيكم الأول الخاص بالدفاع عن حقوق العرب،وقد سبق له ان اجابكم بعدم امكان مساعدتكم في تحقيقها . فان في استطاعة حكومة جلالة الملك (البريطاني) ان تقدم لكم المساعدات اللازمة بسبب عزم الحكومة التركية على الدخول في زمرة الاعداء ، وخرق تقاليدالصداقة القديمة بين البلدين » .

وتلقى الامير عبدالله كتابا ثانيا جاء فيه :

« بما ان الترك عزموا عزما نهائيا على دخول الحرب في جانبالالمان ، وبما ان الفرصة سانحة لكم لتحقيق مطالب العرب ، فأنا آسف لترككم كتابي السابق بلا جواب . آملا الاسراع في ارسال الرد على سؤالي » .

وتوكل الامير عبدالله على الله ، واطلع والده الشريف حسين على الرسالتين ، فأجابه بقوله :

ــ اكتب له : الصيف ضيعت اللبن !!

وهذا رد غامض ، يحمل معنى الرفض ، وفوات الفرصة . ولكن اي رفض واي فرصة هذه التي فاتت !! ولكن مالبثت تركيا ان دخلت الحرب فبادر رونالدستورز بارسال الكتاب التالي :

« بما ان الترك دخلوا الحرب في جانب الاعداء ، فنحن على أتم استعداد لمساعدة شريف مكة في قضيته ، وتقديم كل ما يريد من مساعدة» .

وكان رد الشريف حسين هذه المرة متصفا بالفطنة والسداد . فقد قال يجيب على دعوة الانجليز : « ليس في استطاعتي أن أعمل شيئا قبل ان استشير العرب واسألهم رأيهم » .

وكانت خطة الشريف حسين انه ارسل ابنه فيصلا في رحلة استطلاعية الى الشمال ، يمر فيها بالمدينة المنورة ودمشق وحلب وينتهي الى الاستانة .

وحدث حادث يلعب القدر فيه لعبة المفاجأة . فقد ضاعت محفظة الاوراق الخاصة بالقائد التركي في الحجاز وهيب باشا ، وحملها أحدهم الى الشريف حسين ، وكان من أوراقها رسائل يقول فيها لحكومته : « من اللازم ارسال فرقتين على الاقل الى مكة ، لخلع الشريف حسين وتولية خلف له» .. وكانت هذه الاوراق مع فيصل في رحلته .

وصل الامير الى دمشق ، وقابله جمال باشا (السفاح) مقابلة فاترة ، ونزل في منزل آل البكري ، وظل أربعة أسابيع ، محل ترحيب كبير من رجالات دمشق . وكان مجلسه ــ بعد منتصف الليل ، وبعد ان يهدأ جواسيس جمال ــ يدور حول قضية الوطن العربي . وترتب على هذه المداولات نتائج هامة :

ــ انضم الامير فيصل الى جمعية العهد (فرعها المدني اسمه العربية الفتاة) وأقسم يمين الوفاء لمبادئها .

ــ عند عودة فيصل من الاستانة ، دفع اشتراكه في الجمعية ألف جنيه ذهبي ، من مبلغ خمسة آلاف جنيه أعطاها الاتحاديون للانفاق على فرقة متطوعين تساعد الاتراك في الحرب .

ــ اطلع الامير فيصل أركان جمعية العهد على رسائل ستورز ، التي تعبر عن رأي كتشنر وماكمهون .

ـ كتب رسالة الى مندوب خاص قام بها من دمشق الى المدينة المنورة ، كي ينضم اخوه الامير علي الى جمعية العهد • وان يقسم يمين الولاء لها •

وطبعا كان على الجمعية ان تطلع رئيسها الموجود في مصر ـ عزيز علي المصري ـ ومن معه من أركانها هناك على هذه التطورات ، وعلى مشروع ميثاق سوف يسلم لفيصل عند عودته من الاستانة • وقد ورد في هذا الميثاق كما اثبته جورج انطونيوس في كتابه يقظة العرب :

١ ـ اعتراف بريطانيا العظمى باستقلال البلاد العربية الواقعة ضمن الحدود التالية :

(شمالا ، خط مرسين ، أضنة ، الى ما يوازي خط العرض ٣٧ شمالا ، ثم على امتداد خط بيرجيك ، أورفه ـ ماردين ـ مديات ـ جزيرة ابن عمرو ـ العمادية الى حدود ايران شرقا •

شرقا : على امتداد حدود ايران الى خليج العرب جنوبا •

جنوبا : المحيط الهندي باستثناء ميناء عدن •

غربا : على امتداد البحر الاحمر ، ثم البحر المتوسط الى مرسين •

٢ ـ الغاء جميع الامتيازات الاستثنائية التي منحت للاجانب ، بمقتضى الامتيازات الاجنبية •

٣ ـ عقد معاهدة دفاعية بين بريطانيا العظمى ، وهذه الدولة العربية المستقلة •

٤ ـ تقديم بريطانيا العظمى وتفضيلها على غيرها من الدول في المشروعات الاقتصادية •

وواضح من دراسة هذا الميثاق ، الذي وضعه الجناح السوري من جمعية العهد ، أن فكرهم كله كان مركزا على الجزء الاسيوي من البلاد العربية • اما مصر والسودان وكانت تحت الحكم الانجليزي ، وليبيا وقد انشبت ايطاليا فيها اظافرها ، والمغرب الكبير وفرنسا تميل عليه بكل ثقلها •

•• نقول اما الجناح الافريقي ، من البلاد العربية ، فلم يدخل تحت أي حساب • ولا نعتقد أن المناضلين في سورية فكروا في أنه ما كان يمكن لبلادهم ومعها العراق وشبه الجزيرة ان تستقل ، حتى مع المغريات التي

قدمت لانجلترا ، ومصر توضع في هذه المرحلة تحت الحماية البريطانيـة الكاملـة !!

مهما يكن الامر ، فلنمض مع الاحداث لنرى ما كان ..

يقول سليمان موسى في تأريخه للحركة العربية :

« كان فيصل يدرك ما تنطوي عليه هذه المقترحات من خطورة . فكرر الاسئلة على زملائه حول امكاناتهم ، واستعـداداتهم الحقيقيـة للقيام بحركة ، عملية . وردا على تلك الاسئلة افهموه انهم مستعدون للعمل ، ولاضرام ثورة عربية في سوريـة لتحرير البلاد العربية الخاضعـة لتركيا . لانهم وثقوا انها ستكون معرضة لاحتلال اجنبي ، لما شاهدوه من تصرفات الترك ولما كان يصلهم من أخبار الحرب في أوروبـة . وقالوا انهم لا يطلبون منه الا ان يكون قائدا لهذه الثورة وزعيما . »

أما ياسين الهاشمي ـ وكان أقدر رجال العرب من زملاء عزيز المصري، واكثرهم علما ووطنية وشرفا ـ فقد اجاب على سؤال فيصل عن مطالبـه بقوله :

ـ لانطلب شيئا ، ولا نحتاج الى شيء . فعندنا كل شيء . ومـا عليك الا ان تقودنا ، وتسير في الطليعة .

ولما ألح عليه فيصل بقوله :

ـ اننا متفقون مع رؤساء القبائل الحجازية وهم مخلصون لنا ، ومستعدون للعمل معنا . فأكد ياسين الهاشمي ما يريده بقوله :

ـ لا حاجة لنا بهم . فعندنا كل شيء .

وكان ياسين الهاشمي ، يدرك أنـه لا قيمة لحرب القبائل في مواجهة جيش نظامي هو الجيش التركي ، وربما كان عبئا في المعارك . وفي نفس الوقت فان قسما هاما من الجيش الرابع التركي كان يتألف من قوات عربية فعلا . وتحت أي حساب فانهم سوف ينضمون الى بلادهم ضد القـوة التركية الدخيلة عليهم .

وفي « خواطر خاصة » كتبها الامير فيصل عام ١٩١٩ قال عن هـذه المرحلـة :

« .. لقد كان والدى ، وجميع من قام بالحركة الاخيرة ، يرى أن

الاتفاق مع انجلترا يكفي لتأليف الوحدة العربية • أتيت من الشام وأخبرته بذلك ، بعد أن عرضت عليه عهود الجمعيات والاشخاص وأنبأته بأنهم يؤملون بأن جلالته يسعى في هذا الاتفاق ، بالشرائط التي تكفل الوحدة والاستقلال • »

ويمضي الامير فيصل الهاشمي فيقول :

« وكان أكثرية القائمين بالنهضة في الشام يرون ألاّ لزوم حتى للوفاق مع انجلترا • بل انهم كانوا يقولون نحن نثور على الاتراك ونطردهم ونؤمن استقلالنا • وإن أتانا أحد من الخارج فنحن نقاومه » •

ولا تعجب هذه الحماسة فيصل فيعقب عليها بقوله :

« ولكن الفكر والتأني يقضيان بخلاف ذلك • وبما ان الموقف كان حرجا • وكان الحلفاء (الانجليز ومن معهم) على أبواب الاستانة وكانت الأخبار تنبيء بخطورة الموقف ، وخوفا من وقوع الأتراك في أيدي الحلفاء ، والعرب معهم • وبالنتيجة يكون دمار العنصرين العربي والتركي• فوالدي بعد الاصرار الذي توجه اليه من الجمعيات الدمشقية بدأ يفاوض الانجليز •• »

هذا جانب من القصة •• دفع فيه القوميون العرب ، أو الوطنيون ، أو العهديون كما تشاء ، بجهدهم وخططهم الى جانب الشريف حسين وأسرته ••

بقي الجانب الآخر ، وهو نتائج رحلة فيصل (كان أيضا عضوا في مجلس المبعوثان بالاستانة) الى تركيا • فقد حمل معه رسائل لوالده الشريف حسين من أنور وطلعت ، باعلان الجهاد مع تركيا • وقرارا بنقل وهيب باشا القائد التركي من الحجاز الى الجيش الثاني في تركيا ، وجملة من الهدايا منها الخمسة آلاف جنيه التي ذكرنا نبأها • وفي عودته كانت التعليمات صدرت لجمال باشا في دمشق أن يرحب ترحيبا حارا بفيصل •••

وبقي جانب ثالث ، وهو رأي عزيز علي المصري ، في هذا الاتجاه الى الشريف حسين• أنه لم يكن مرحبا بهذه الخطوة ، لعدم اطمئنانه الكامل الى حسن فراسة الشريف حسين • وأنه بحكم سنه كانت له اندفاعات عصبية لا يؤمن جانبها • وكان « عزيز » يفضل الاتصال بأمير نجد عبد

العزيز بن سعود ، فهو في رأيه واضح ، لا يخدع أحدا ، ولا تجوز عليه الخديعة . ثم انه بحكم عقيدته الوهابية صاحب قوة وسيطرة حقيقية على قسم كبير من شبه الجزيرة ، لأن نفس العقيدة تجمعهم معه .. لقـد كان عزيز المصري يرى المستقبل لعبد العزيز النجدي ، لا لحسين الحجازي .. اما وقد سارت الامور على هذا النحو ، فقد سايرها رئيس جمعية العهـد على مضض ، واذعانا لرأي المجموعة الكبرى من زملائه في دمشق وبيروت والقاهـرة .

الحملة التركية الثانية على مصر :

أخذ جمال باشا يستعد للحملة الثانية على مصر . وكان قد اتفق مع الشريف حسين على ارسال ١٥٠٠ متطوع لينضموا الى القوات التركية . وكان فيصل ابن الشريف قد عاد ثانية الى دمشق محاولا التدخل لايقاف مجازر الأتراك ، واعدامهم للعناصر القيادية في سورية ولبنان .

والى الشريف حسين ارسال البرقيات الى الاستانة ودمشق لايقاف تصفية الوطنيين العرب . فكانت الردود الجافة تأتيه بأن يلزم حده ... وانا نبلغكم أنه لا بد ان ينال الموقوفون عقابهم ... ونلح عليكم بأن تستدعوا ولدكم علي الموجود في المدينة الى مكة فورا ، وترسلوا المجاهدين الذين وعدتم بارسالهم الى دمشق ، ليكونوا بقيادة ولدكم فيصل بك .. وبديهي انه سيظل ضيفا على الجيش الرابع حتى نهاية الحرب . وان لـم تنفذوا هذا فالنتيجة بحقكم لا تكون سارة » .

وفي فرض الاقامة الاجبارية في دمشق على فيصل تحت رقابة جمـال باشا ، وجد الشريف حسين أن العاصفة توشك ان تهب وانه لا مناص من انهاء اتفاقه مع الانجليز ، وقد ظلت مباحثاته السرية معهم مستمرة عامـا ونصف العام . ويلاحظ صاحب كتاب الحركة الأستاذ سليمان موسى ، بدهشة ، ان انباء هذه الاتصالات لم تصل الى الاتراك . كما ان مباحثات الشريف وأبنائه مع أركان جمعية العهد لم تصل للاتراك ، مما يدل على احكام نظام السرية من جميع الاطراف .

ومن مظاهر الحذر البالغ والريبة المتبادلة أن أنور باشا شد الرحال الى المدينة المنورة مع بعض أركان الحكومة التركية واستدعى الشريف

حسين لمقابلته . وكان في مقره بمكة ـ فاعتذر حسين . ولو أنه ذهب لقبض عليه ، فهذا هو الاسلوب التركي . ولا سيما ان الحامية التركية كانت موجودة في المدينة » .

ولما ألحت البرقيات على الشريف حسين بأن يعجل بارسال نصيبه في الجيش الذي سيهاجم مصر ، رد بأن المتطوعين رفضوا الا اذا قدم فيصل من دمشق وقادهم بنفسه .

وبأسلوب الارهاب الذي نفذه جمال السفاح ، نجد برقية أرسلها الى الشريف حسين ردا على طلبه ان يكون حكم الحجاز وراثيا في ابنائه ، نجده يقول :

« لو افترضنا أن الحكومة استجابت لطلبك الان رغبة منها في مصادقتك ، فماذا يمنعها أن تعاملك بمنتهى الشدة بعد ان تنتهي الحرب ؟ إن رجال الحكومة الحالية الذين تجرأوا على القيام في وجه عبد الحميد لن يصفحوا عمن يجترىء على شل أيديهم في هذه الحرب التي دخلوها لمصلحة العالم الاسلامي » .

وتدل هذه المواقف الرعناء من اركان الحكم التركي « الثوري » على منتهى الحمق ، وعدم الخبرة ، ونقص الكياسة .. فهم ولاشك عضلات بغير فكر ، سطحيون بغير عمق .

لقد كانت مواقفهم من الأرمن باعثة على مذبحة هائلة ثأراً لهم ، قامت بها القوات الروسية عندما تقدمت في القوقاز . وهذه مواقفهم من الحرب، ومشانقهم في ساحات المرجة والبرج ، توشك ان تطيح بالبلاد العربية من نطاق نفوذهم .. وما عاد يجدي التذرع « بحقوق سيادة ملجأ الخلافة » والتي « ستبقى على ما كانت عليه قبلا ، وكما هي في جميع الممالك الشاهانية » !! فان هذه الخلافة ، لم تعد الا شبحا ، لا وزن له ، في عالم القوى الهائلة المتصارعة ، وكانت جمعية الاتحاد والترقي ، هي أول من أوهن مقام « ملجأ الخلافة » وردوه الى ركن مظلم في حياة بلادهم .

* * *

نعود الان الى حملة جمال باشا على مصر ، ونستقي انباءها ونبض هذا التحرك من مذكرات رجل صادق النية ، هو محمد بك فريد ، رئيس

الحزب الوطني المصري ، الذي لجأ من عسف الانجليز الى عاصمة الخلافة ، وكان رجلا صريحا واضحا ، أمام الجميع • فقد وضع على صدره شارة « مصر للمصريين » ، وكان هذا المعنى أكثر ما يغيظ الوزراء الاتحاديين • ولكن لاقبل لهم بتغيير رأي هذا الرجل الوطني ، الذي كان يعبر بهذه الجملة عن رأي المصريين جميعا ، الذين يرفضون التبعية : التبعية للانجليز ، أو التبعية لـ « سيادة ملجأ الخلافة » وهذه الحكومات الرهيبة ، والافراد الدمويين الذين يديرون دفة تركيا بعد أن نجحت ثورتهم •

كتب محمد فريد فيمذكراته بتاريخ الاثنين ١٤ ديسمبر سنة ١٩١٤[1]:

قابلت الخديوي (عباس الثاني) ورافقته عندحضوره الاحتفالبافتتاح مجلس النواب • وقد أحسن السلطان مقابلته ، وأبقاه معه في الغرفة المخصصة له وللامراء • ثم عدنا معا بطريق البحر الى سراي ببك (الخاص بالخديوي) وتناولنا الغداء معا • وفي الساعة ٤ بعد الظهر ذهب الى سراي السلطان لوداعه •

أخبرني سموه في هذا اليوم بان الصدر الاعظم (سعيد حليم) زاره بالامس للوداع • وفي اثناء الحديث أخذ يطعن في (محمد فريد) ويقول ان الحكومة (التركية) أعطتني أهمية كبرى بغير استحقاق • وكيف أنني أطلب للامة المصرية دستورا مع أن النظام الدستوري لم ينتج في الدولة الثمرة المطلوبة • فأجابه الخديوي بأنه اذا كان لا يوافق على اعطاء الدستور لمصر فلا يعطه • فقاطعه الصدر قائلا : لا •• لا •• سينظر في ذلك فيما بعد •

هذا دليل جديد يضاف الى غيره مما سبق ذكره ، على ان القوم هنا يداعبون حزبنا الوطني ليساعدهم على فتح مصر ، وبعدها ينفذون ارادتهم الاستبدادية في بلادنا • وهناك دليل آخر لم يذكر في موضعه • وهو أن جمال باشا استصحب معه فؤاد سليم بك واحمد فؤاد (دكتور) ومحمد علي مسلم الكاتب بالخارجية • ثم تبعهم الشيخ جاويش — وكلهم ممن

(١) نشرنا هذه المذكرات كاملة في كتابنا : كفاح شعب مصر في القرن التاسع عشر والعشرين — الطبعة الثانية — بقلم محمد صبيح . وهذه الاقتباسات من ص ٤٢٢ وما بعدها .

قادهم حبهم للدولة والاسلام الى نسيان مصر ومصالحها واصبحوا يقولون إن مصر للمسلمين ،لا للمصريين•• أخذهم معه لترويج هذه الفكرة في مصر في أثناء الحرب ، وبعد الفتح قبل رجوعي انا والخديوي (محمد فريد) •

وفي يوم ٢١ ديسمبر سنة ١٩١٥ كتب فريد في مذكراته :

في مقابلة بين محمد فريد وخليل بك رئيس مجلس النواب (المبعوثان) قال رئيس المجلس إن الخديوي يرغب في إرسال عمه ابراهيم حلمي باشا مع وفد من كبار المصريين لمرافقة الحملة (الحملة التركية لغزو مصر) • وأظهر عدم ضرورة هذا الوفد • ولما يصل الجيش لمصر ، فما عليه ــ اذ ذاك ــ الا أن يرسل تلغرافا بمن يريده قائمقاما له •

في المساء طالعنا في الجرائد خبر عزل الخديوي بمعرفة الانجليز ، لانضمامه لاعدائه ، وتعيين عمه حسين كامل سلطانا لمصر تحت حماية انجلترا ، وبقاء الوزارة المصرية (برياسة حسين رشدي باشا) مع السلطان الجديد • وانعام ملك انجلترا على حسين كامل بنيشان الحمام ، وعلى وزيره حسين رشدي بنيشان القديسين ميشيل وجورج • وفي ثاني يوم وردت الاخبار بأن قاضي مصر ــ وهو تركي ــ لم يعترف بهذا التعيين لانه مخالف للفرامانات • ومن المحزن انه لم يستقل مصري من منصبه احتجاجا على هذا العمل بل قبله الجميع صاغرين •

نشرت جريدة (فرانك فيرتس زيتونج) ملخص منشور كان جهز وطبع لينشر باسم الخديوي،وبه منح الدستور لمصر،ولكن الخديوي كذب نشره في الجرائد ، وقال ان ذلك الامر كان في النية • ولكنه لم ينفذ للان • وهذا التكذيب فيه شيء عن خوفه من ان الانجليز يصادرون املاكه في مصر ، فهو ما يزال يراعي مصالحه الخصوصية رغما عن وصول الحال الى هذه الدرجة •

وذكر محمد فريد في مذكراته بتاريخ ٢٣ مايو سنة ١٩١٥ :

قابلت اسماعيل بك لبيب ، فقص علي ما لقيه بالشام من جمال باشا ، ومنعه من مرافقة الحملة دون جميع المصريين ، بسبب دسائس الشيخ جاويش واتباعه الذين أفهموه ان اسماعيل ممن يقولون باستقلال مصر ، وانفصالها عن تركيا تماما •• حالة أن الشيخ ومن معه يقولون بجعل مصر

ولاية عثمانية لتنتفع الدولة بمالها ورجالها فتزيد قوتها بل تتضاعف ، بدون اعطاء المصريين أي مقابل من الاستقلال الداخلي القديم • وقص علي شيئا كثيرا يفيد نذالة الجاويش ، وسعيه وراء اطماعه الشخصية ليس الا لأنـه لم يزل يحارب فكرة الوطنية في الاسلام • وقد قال أخيرا ببرلين لاحمد بك أغايف أن يقلع عن فكرة الوطنية أو الجنسية المصرية ، وأن أسير فـي تياره وأقول معه بأن لا وطنية في الاسلام •

قال لي اسماعيل لبيب إن كثيرا من الاتراك بدأوا يعتقدون بانـي اصبحت مع الخديوي كالشيخ علي يوسف ، أي أني سرت معه في سياسته ضد الدولة • ولذلك استعجل عودتي لاقضي على هذه الدسائس قبل أن يستفحل الامر • ويظهر لي ان الخديوي كان عالما بذلك،وكان يريد الافساد بيني وبين الاتراك بمنعي من العودة للاستانة وارسالي لاقيم ببرلين حتى يعتقد الاتراك بأني مقيم بها لمساعدة الخديوي لدى ألمانيا ضد الاتراك •

وفي تاريخ ١١ يوليو سنة ١٩١٥ ذكر محمد فريد ما يلي :

علمنا من اخبار مصر التي رواها اجزاجي الخديوي الذي حضر اخيرا من مصر ، بأن شوقي الشاعر ، وعثمان باشا مرتضى نفيا الى اسبانيا • ولا ندري ما سبب ذلك مع أنهما ممن انضموا للسلطان حسين وطعنوا على الخديوي عباس •

وفي ٦ ديسمبر سنة ١٩١٥ قال فريد :

علمنا من أمينة هانم ، زوجة حسين شيرين بك أنها سمعت مـن جواهرجي ان الخديوي اشترى لرفيقته خاتما به لؤلؤتان بمبلغ ستة آلاف جنيـه •

* * *

وفي ١١ ديسمبر سنة ١٩١٥ كتب فريد في مذكراته ، وكان في برلين :

طلبت مقابلة المسيو « زيمرمان » وكيل الخارجية ، فحددنا يوم ١٥ يناير ، فقابلته في الميعاد المضروب ، وتكلمنا كثيرا في موضوع الحملة وفي فكرة سفري الى الشام لارسال منشورات أو رسائل الى مصر بواسطـة طيارات الالمان ، فوافق ، ثم قال لي : « عد يوم ٢٢ الجاري لاعطيك رأيي النهائي •

وقد قال لي أثناء الحديث ان جمال باشا لا يريد أن يكون بجانبه ضابط الماني أكبر منه ، مثل « ليمان سندرس » مثلا ليكون فخر فتح مصر له بمفرده ، ولكننا عينا بجانبه جنرالين أركان حرب من رتبته ، وجاء ذكر اطماع الترك في مصر ، فقلت : ان الاتراك لا يريدون وجود احد منا بجانبهم حتى يفعلوا ما يريدون عند دخولهم وأنه من الضروري ان يكون بجانب القائد الحربي هيئة مدنية مصرية لتتولى الامور الادارية عند الدخول ، وحتى لا تتدخل السلطة العسكرية في الادارة المدنية مطلقا .

فقال : هذا الامر طبيعي ..

قلت له : ان الادارة في مصر منتظمة ، ولا تتطلب الا تغيير بعض كبار الحكام فقط من الموالين للانجليز . وهذا لا يمكن ان يكون بمعرفة الاتراك لجهلهم البلاد وأهلها ، بل ولجهلهم بالادارة أيضا كما هو مشاهد في بلاد الشام وغيرها . ونحن لا نقبل ان نكون تحت ادارتهم بحال من الاحوال . لاننا أرقى منهم كثيرا . وبلادنا أكثر انتظاما من قبل دخول الانجليز ، وبالاختصار ان الاتراك يريدون أن يأكلوا مصر . ولكننا لا نقبل ان نؤكل بسهولة ، فنحن قاومنا الانجليز ، ونقاوم من يريد أكلنا أيا كان ، لاننا نسعى وراء الاستقلال وغاية ما نقبله ان نكون مع الاتراك مثل المجر مع النمسا (كما شرحته له في العام الماضي) على شرط المساواة في الحقوق والاستقلال الداخلي التام .

* * *

وفي أغسطس سنة ١٩١٦ كتب محمد فريد في مذكراته :

في أوائل أغسطس تقدمت حملة عثمانية نحو مصر ، ولكنها هزمت هزيمة أشد من سابقاتها ، حيث أخذ منهم نحو ٤ آلاف أسير ساروا بهم في شوارع العاصمة بين صفوف الحرس من الانجليز . لذلك دخل اليأس الى قلوب المصريين ، وأصبح كل منا يفكر في أحسن طريق للاتفاق معهم على منح مصر الدستور .

وهكذا كان إعداد حملة تركية جديدة على مصر ، وحماسة المصريين المبعدين في الخارج لها ، كان ذلك كله وبالا على المصريين . اذ ان الانجليز زادوا من إحكام قبضتهم على البلاد . وأخذوا يتصرفون في مقدراتها

كما يحلوا لهم • وكان من أهم ما صنعوه :

١ ــ انهم أخذوا يسحبون الغطاء الذهبي للنقد المصري المودع في خزائن البنك الاهلي ، ومحافظته انجليزي ، ليبعثوا به الى الشريف حسين وغيره من الحكام الذين يريدون استمالتهم • ووضعوا بدل الذهب سندات على الخزانة البريطانية !

٢ ــ وأنكى من ذلك وأمر ، تجنيدهم الشباب المصري لفرق العمل مع الجيش الانجليزي الذي كان يعد لغزو فلسطين ، والقضاء على الجيش التركي الرابع ، والوصول الى الحدود التركية الجنوبية •• وكان الشباب الذي يجمع لهذا العمل يسمون : « المتطوعين » • وقد ارتكب العمد ورجال البوليس تحت اشراف المفتشين الانجليز الكثير من وسائل الارهاب لجمع الشباب المصري •• وشاعت النكتة المصرية اللاذعة التي تردد نداء السلطة : « كتف المتطوع باجدع » أي أوثق كتاف المتطوع !! وكيف يكون متطوعا ثم يصفد بالاغلال !!

وقد يحسب قراء هذه الدراسة ان عدد الذين جندوا لحفر الخنادق وخدمة الجيش المتحارب كان آلافا •• لا ، فقد زاد عددهم كما ورد في تقارير هذه الحملة عن مليون مصري • ولم يكن أهل هؤلاء الشباب يعلمون عنهم شيئا ، ولا كانت هناك وسيلة للمراسلة ، ولا كانت هناك اجور ذات بال تدفع لهم اللهم الا ما يقيم الأود ويدفع غائلة الموت جوعا •• وشاعت في معسكرات العمل هذه ، الاغنية ذات اللهجة الصعيدية : يا عزيز عيني •• وأنا بدي أروح بلدي » ولكن من كان يتيح لهؤلاء الاعزاء ان يعودوا الى بلادهم ، وما من احد عرف وقتها ، أو يعرف الآن كم هلك منهم مرضا أو جوعا ••

وهذا الوسام الذي علقه الجنرال اللنبي على صدر « المتطوعين » لا يعني شيئا ، فقد قال في تقاريره ، أنه لولا المعاونة الثمينة التي قدمتها فرق العمل المصرية ، لما اتيح لجيشه ان ينتصر •• إن هذا الوسام لا يساوي الحبر الذي كتب به • بل لقد ترجم الانجليز معناه ، الى اسوأ وسائل القمع والأذى ، عندما انتهت الحرب وطالب المصريون في سنة ١٩١٩ بحريتهم •

* * *

ثورة الشريف حسين :

كان أمر الشريف حسين سهلا بالنسبة للانجليز • فهو يطالب في رسائله لمكماهون بمصر بالموافقة على استقلال المنطقة العربية بعد تحريرها من الاتراك ، حسب الحدود التي وردت في ميثاق رجال جمعية العهد « الجناح السوري » • وما على الانجليز الا أن يجيبوا الاجابات المرنة المطاطة التي تحتمل اكثر من وجه ، والتي يجوز التحلل منها في وقت من الاوقات ••• وهذه براعة اكتسبها الانجليز من طول ممارستهم لهذا النوع من الألاعيب خلال قرون كانوا يبنون فيها امبراطوريتهم •

وحدود التعليمات التي كان على المعتمد البريطاني في مصر ان يتصرف فيها نجدها واضحة في برقيةوزير الخارجية البريطاني ادوارد جراي ونصها :

انك مخول باعطاء تأكيدات ودية ضمن الخطوط التي اقترحتها في برقيتك الشخصية بتاريخ ١٨ تشرين الاول مع التحفظ المقترح فيما يتعلق بحلفائنا • ولكي نحصل على موافقة العرب ، فيجب ــ الا اذا كان ذلك ضروريا ــ ان لا تشتمل التأكيدات على الشرط القائل بأن على العرب ان يعترفوا بأولوية المصالح البريطانية وبأن عليهم ان يعملوا تحت أرشاد بريطانيا الخ • أن شرطا كهذا يمكن ان يعطي في فرنسا انطباعا بأننا لا نرمي الى تأمين المصالح العربية فحسب بل ايضا لتوطيد مصالحنا ذاتها في سورية على حساب الفرنسيين • أما بشأن الاماكن المقدسة في الحجاز والعراق ، فلا توجد اية مصاعب من هذه الناحية ، ويمكنك ان تتكلم حولها دون تحفظ • ولكن التحفظ العام الذي تقترحه ضروري الى أقصى حد ، وخاصة فيما يتعلق بالحدود الشمالية ــ الغربية للعراق ، وبالنظر الى المصالح الخاصة في منطقة بغداد والمنطقة التي استولينا عليها فعلا ، فان المنطقة المقترح اخضاعها للنفوذ البريطاني ــ أي ولاية البصرة بالذات ــ بحاجة الى توسيع • ان هذا دون شك لن يضر مصالحنا مع الزعماء العرب •

إن اعطاء تأكيد يؤدي الى الحيلولة دون انحياز العرب الى صفوف اعدائنا ، هو الامر الاكثر اهمية ، وبما ان المسألة مستعجلة والوقت لا يسمح ببحث صيغة اتفاق كاملة ، فانني يجب ان اترك المجال لحسن تقديرك في هذا الموضوع • واذا لم يكن التأكيد المطلوب اكثر دقة وتحديدا وفي هذه

الحال يمكنك إعطاؤه ، فانّ أبسط خطة يمكن اتباعها هي اعطاء تأكيد باستقلال العرب ، ويمكن ان نضيف اليه انهم اذا أرسلوا مندوبهم فاننا سنباشر في الحال بحث مسألة الحدود . وعليك ان تحيط السردار علما بكل ما يجري (١) .

عزيز المصري .. واتجاهاته :

ولكن بحث الانجليز عن طاقات يستفيدون منها ، لم يقف عند الشريف واسرته . فان لديهم في مصر رجلا ، لا يكفون عن التفكير في شأنه في تدقيق شديد ، وعناية بالغة . وهذا الرجل هو عزيز علي المصري . فهم يعلمون عن يقين قدراته ، ونفوذه على كل الشخصيات العربية ، التي عاشت في المحيط العثماني ، وقد تفرقوا الآن بين الاقطار العربية . وان كان بعضهم قد استشهد في مشانق جمال السفاح وأهمهم زميلاه ، بل اعز زملائه سليم الحجازي وأمين لطفي ، وكانا مثل عزيز من كبار ضباط الجيش العثماني .

وظل عزيز كلما جاء ذكر هذين الشهيدين غام وجهه في سحابة من الحزن النبيل . وتنفيذا لرأي بطلنا عزيز ننشر هنا الوصف الذي ذكره أمين سعيد في كتاب الثورة العربية الكبرى لاعدام هذين البطلين ، كجملة اعتراضية كبيرة ، نريد منها ان نثبت ان عزيزا ادار ظهره نهائيا للدولة الاتحادية في تركيا .. جاء في وصف المأساة :

وكان المرحوم امين لطفي يتكلم بلهجة قوية ويقول لرضا باشا المكلف بتنفيذ الاعدام :

ــ ليقل لنا الديوان العرفي على الاقل كيف حكم علينا بالاعدام لماذا لم يستنطقونا ؟ لماذا لم يسمعوا كلامنا ؟ أهذا هو جزاء خدماتنا للدولة ؟

وأخيرا قال لهما رضا باشا :

ــ سأخابر القيادة العليا بشأن العفو عنكما .

وجلس حالا الى التليفون وطلب مخابرة جمال باشا فأجيب انه

---

(١) نص البرقية رقم ٦٧٦

وقد كتب جراي نفسه مسودة هذه البرقية ووقعها اللورد كتشنر وزير الحربية بالحروف الاولى من اسمه بينما اضاف عليها ممثل عن وزارة الهند الفقرة المتعلقة بمنطقة بغداد ــ البصرة .

متغيب وأن فخري باشا وحده في القيادة فطلب محادثته ودامت المحادثة عشر دقائق حاول رضا باشا في اثنائها طلب العفو عن المرحومين بصفة كونهما من كبار ضباط الجيش غير ان الجواب كان يرن دائما من بوق التليفـون بهذه الكلمة •

ــ اولماز (غير ممكن)

ولما يئس رضا باشا من استجداء العفو عنهمـا التفت الـى سليم الجزائري وقال له متأثرا :

ــ ماذا تريد أن افعل بعد الآن يا صديقي ! تعال أنت وخاطب فخري باشا •

فاقترب سليم من آلة التليفون وطلب مخابرة فخري فلم يسمع غـير هذه الكلمة :

ــ أولماز !!

فرفع يده مهددا غاضبا ورمى الالة فحطمها والتفت الى رفيقه وقال لـــه :

ــ هلم بنـا ••

وتقدم رضا باشا من المرحوم سليم الجزائري فصافحه وعاد ادراجه ليحضر مشهد اعدامه بصفته الرسمية •

وكان الجزائري مهيبا محترما في الجيش حتـى ان الضباط كانـوا يحترمونه ويهابونه وهو في الديوان العرفي سجين بل ان رهبتهم منه لم تنقص حتى ساعة اعدامه •

ومشى الضابطان معا بثيابهما العسكرية ومهاميز أحذيتهما الطويلة ترن على بلاط الشارع وكان سليم الجزائري يردد نشيده المشهور •

ولما وصل الرفيقان الى امام المشنقة كان قد مضى ساعة على اعـدام الاثني عشر شهيدا قبلهم وكانت أنوار الفجر قد انبسطت على بيروت المرعبة الحزينة •

وحاول البوليس ان ينزع (قلبق) الشهيدين عن رأسيهما والشارات العسكرية عن اكتافهما فأبيا وأمر رضا باشا البوليس أن يتركهما على حالهما•

فصعد المرحوم سليم أولا الى منصة الاعدام ونظر الى الحضور من

نظارتيه البلورتين بعينين تكاد البطولة الصادقة تلمس خلال لمعانهما ثم قال لرضا باشا •

ــ قل لهذا الخنزير الكلب جمال ان لا يفرح بموتي لان روحي ستظل حية وتعلم ابناء البلاد من وراء القبر دروس الوطنية وبغض الاتراك •

ولما جاء البوليس ليضع الحبل في عنقه أراد أن ينزع نظارتيه عن عينيه فمانع وقال لهم بنبرة الامر :

ــ اعدموني على حالي كما عشت لانى لا أريد أن أموت وفيَّ شيء ناقص •

فلم يستطع البوليس الا الطاعة وقضى ذلك الشهيد البطل في الثوب الذي كان يلبسه وهو يقود الجيوش !

ولما جاء دور المرحوم أمين لطفي صعد الى منصة الاعدام وهو يضحك ويردد النكات المضحكة هازئا بالدولة التركية • وتلبك البوليس في وضع الحبل في عنق الشهيد فالتفت اليه وقال له ساخرا باللهجة المصرية :

ــ ألم تعلــم طرق الاعدام كما يجب ياواد ؟ ضع الحبل في عنقــي بفن ونزاكة على الاقل جزاء خدماتنا للدولة •

ولما لم يحسن البوليس وضع الحبلة أخذ الحبل منه ووضعه هو بنفسه في عنقه ولكن البوليس رفس الكرسي من تحت رجليه قبل أن يمكــن الشهيد الحبل من جوزة العنق فاهوى وظل يتعذب مدة عشر دقائق •

* * *

مآسي السفاح جمال في سورية ، كانت عاملا هاما نزع من نفس عزيز المصري كل عطف على اتراك الاتحاد والترقي • ولكن هل هذه المآسي ، ومنها مأساة عزيز نفسه مع أنور باشا •• هل كانت كافية لتحول عزيزا الى عدو للاتراك وقد أقام معهم سبعة عشر عاما هي زهرة أيام الشباب ؟!

الحقيقة ان عزيزا ــ كان وظل طول حياته ــ يقدر للاتراك كشعب مناضل فضائله ••• وكان يذكرنا دائما بان اربعة قرون كاملة وقف الاتراك فيها على خط القتال ضد أوروبة وروسيا ، وسفكوا فيها دماء الملايـــين من ابنائهم •• هزموا وانتصروا ، ولكنهم صدوا عن انفسهم وعن المنطقة العربية تجدد الغزو الصليبي ، وكان طريقه عبر البسفور • ولولا حروب

الاتراك ، ونقلهم المعارك الى قرب أوروبة ، حتى لقد طرقوا أبواب فينا ، لكنا في الشرق الاوسط تتكلم الان لغة غير عربية •• ربما كانت روسية ، ربما كانت ألمانية •• من يدري ؟!

ونحن لا ننكر ان بعضنا كان يتكلم التركية ، ومنا عزيز المصري • ومنا مئات ، بل آلاف القادة العرب الذين تصدوا للكفاح من أجل الاستقلال • ولكنها كانت لغة الخلافة •• لغة اسلامية ، أو قل لغة شرقية نقبلها ، ونرفضها حسب الظروف ، وحسب تقلب الايام • ولكنها لم تعتد على لغتنا الاصلية اللغة العربية • بل لعل اللغة العربية غزت جوانب من حياة الاتراك أنفسهم ، لانها لغة العثمانيين •

وفي حوارنا المستمر مع عزيز المصري ، وافق على نقطة واحدة • وكان نادرا ما يقتنع بالرأي الآخر !•• وافق على ان خطيئة العثمانيين الكبرى ، هي انهم لم يتعلموا اللغة العربية ولم يفرضوها على منطقة البلقان التي دانت لهم أمدا طويلا •• ولو أنهم فعلوا ـ وقد اسلمت منهم ملايين كثيرة ـ لو انهم فعلوا ، لصان القرآن لسانهم ، ولما وقعوا في حيرة حائرة بعد ان ارتد الاتراك عن بلدانهم •

لقد ترك العثمانيون بلغراد عاصمة يوجوسلافيا ، وفيها ٣٠٠ مسجد ، يتلى فيها القرآن ، وتقام فيها الصلاة ، بلكنة تركية ، ومع مضي الايام ، وتغير الحكام ، اخذت هذه المساجد تتهدم ، فلا تجد من يعني باقامتها ، وأخذت الآيات من القرآن التي تؤدى بها الصلاة تبهت من ألسنة وأفئدة المسلمين هناك ، حتى لم يبق الا مسجد واحد ، تحول الى متحف ، ثم أعيد مسجدا •• مجاملة لمصر • وكل ذلك لان اللغة العربية ـ لغة القرآن الكريم ، ولغة هذا القرآن ، لم تتقرر كلغة ثانية ، في تركيا أولا ، ثم في البلقان ثانية •

وهنا قال عزيز :

ـ ولماذا لم ينفذ عمر بن الخطاب ما تقول وهو ابو الفتوحات العربية الكبرى ؟ ـ فأجبته :

ـ ليته فعل •

* * *

نعود بعد هذا الاستطراد لنقول ان عزيز المصري كره الحكم والحاكمين في تركيا ، وقرر ان يبذل جهده — كل جهده — للعمل على استقلال المنطقة العربية ، في الحدود التي وردت في ميثاق جمعيته — العهد — مع اضافة مصر اليها ، بعد الفراغ من الاحتلال التركي .

وما كان يمكن لعزيز ان يهمل وطنه الام ، وقد عاد الى أحضانه ، ووجد الاحتلال البريطاني ينشب أظافره فيه ، بكل ما فيه من دهاء وافتراس . ولكن مشكلة مصر تحتاج الى وقت . اما مشكلة المنطقة العربية الاسيوية فقد فتح موضوعها على مصراعيه ..

عرضت العناصر العربية الوطنية على عزيز ان يسافر الى الحجاز ، ليتولى قيادة الجيش العربي .. فقد أعلن الشريف حسين الثورة ، بأن اطلق من مسدسه طلقة في اتجاه المعسكر التركي . وتمكن ابنه فيصل من الهرب من دمشق بتدبير محكم .. وكم تأسف « سفاحنا » جمال باشا لافلات الطائر من قفصه ، ولعدم القبض على اخيه علي ، وكان في المدينة المنورة ، والحامية التركية فيها قوية ، ولعدم ارسال قوة الى مكة لتقبض على الشريف نفسه .

قال جمال في مذكراته : واني وايم الله لو علمت ذلك وقتئذ (ترقب الشريف الفرصة الملائمة للقيام بالثورة) لكنت أمرت غير متراخ بالقبض على فيصل في دمشق ، وعلى أخيه في المدينة ، ولارسلت فرقة تركية على جناح السرعة الى مكة للقبض على الشريف حسين وأولاده والقضاء على تلك الثورة المشؤومة في مهدها . ولكن ماذا عساي كنت افعل في تلك الظروف ، ولم تكن لديّ بعد البراهين الكتابية على التدابير الجنائية التي كان يقوم بها أولئك .

* * *

وقبل ان نعرض لدور عزيز المصري ، مع الشريف حسين ، يحسن أن نذكر عاملا هاما ، كان يتدخل في تحديد الموقف . وهو السودان .. فان زعيمه الروحي في ذلك الوقت السيد علي المرغني،تباحث مع حاكم السودان الانجليزي السير ريجنلدونبجت في شأن مستقبل العالم العربي ، بعد تورط الاتراك في الانضمام للالمان . ثم اخذ يكاتب الشريف حسين . ونلمح في

ردود الشريف حسين علي السيد الميرغني ضيقا شديدا ، لان الانجليز لا يريدون حسم الامر فيما يتعلق بما تعنيه كلمة البلاد العربية ، والتي ترد احيانا في رسائل المسؤولين الانجليز بالقاهرة ، على أنها شبه الجزيرة العربية ، وهي الترجمة لكلمة (Arabia) وقد أشرنا الى مهارة الانجليز في التلاعب بالالفاظ • وليس ببعيد عنا القرار الذي صاغوه لمجلس الأمن في نوفمبر سنة ١٩٦٧ بشأن الانسحاب من « اراض » عربية احتلها الاسرائيليون ، لا « الاراضي » العربية التي احتلوها • وعلى الرغم من أن الذين صاغوا القرار (براون وزير الخارجية وكارادون مندوبهم في الامم المتحدة) اكدا أن المقصود هو الاراضي •• الا ان قلمهم لم يطاوعهم وقتها بان يكتبوا الكلمة السليمة ، فقد تغير الكلمة الغامضة ، في وقت ما ، لأداء دور ما •• من يدري !!

مهما يكن الامر ، فقد دار الانجليز وراء ظهر الشريف ، وعقدوا معاهدات دفاعية مع الادريسي في امارة عسير التي تقع جنوبهم ، وأخرى مع الامير عبد العزيز بن سعود في إمارة نجد التي تقع شرقهم •• وكتموا أمر هذه المعاهدات عنه •

* * *

كان تاريخ طلقة الثورة الاولى التي ذكرناها ، فجر ١٠ يونيو سنة ١٩١٦ •• وعلى أثرها هاجم اتباع الشريف ، بقيادة ابنه الامير زيد المعسكرات التركية المتناثرة حول مكة المكرمة •• وكان الاتراك يملكون مدفعية ، ولم يكن هذا السلاح قد وصل بعد • وفي احتدام المعارك وصل ضابط اسمه الفاروقي ، سيرد ذكره فيما بعد ، موفدا من القاهرة ، ومعه مدفعان وبعض الذخيرة ،فقوي شأن الجيش الشريفي • وبعد عشرين يوما وصل الى جدة سلاح قوي تحت اشراف الضابط المصري الامير الاي سيد علي •وتولىقيادة المعركة ، وتمكّنبالمدافع البعيدة المدى التياحضرها معه، من ان يفتح ثغرة في قلعة جياد التي كانت أمنع معاقل الاتراك ، تسلل منها جنود الشريف • وما لبثت هذه القلعة ، وباقي الثكنات ان سلمت بعد شهر من القتال • وما لبثت المدن الساحلية ان سلمت بدورها ، فقد كانت واقعة تحت قصف مدافع الاسطول البريطاني ••• أما المدينة المنورة ،

فقد تمركزت فيها حامية تركية قوية ، مع من تراجع من الحاميات الاخرى ، وكانت متصلة بالشمال ، عن طريق سكة حديد الحجاز ، التي كانت تسمى الحميدية ..

لقاء مع لورنس :

أشرنا قبل الى ضابط اسمه الفاروقي ، واسمه بالكامل الملازم اول محمد شريف الفاروقي ، كان من قوة الجيش العثماني في غاليبولي ،وسلم نفسه للقوات البريطانية وطلب نقله فورا الى مصر لان لديه معلومات سياسية هامة . وفي القاهرة التقى مع مدير المخابرات كلايتون مرات عديدة ، وكتب كلايتون تقريرا لخصه كتاب الحركة العربية فيما يلي :

« تحدث الفاروقي عن جمعيتي « العربية الفتاة » و « العهد » وتنظيماتهما وعن ان اعضاء هاتين الجمعيتين أقسموا اليمين « على انهم سوف يحققون هدفهم وينشئوا خلافة عربية في شبه الجزيرة العربية وسورية والعراق مهما كان الثمن وتحت أية ظروف مضحين في سبيل ذلك بكل جهودهم وبكل ما يملكون ، وبحياتهم اذا اقتضى الامر » . وقال الفاروقي ان جمعية الفتاة ذات قوة كبيرة ونفوذ عظيم في جميع انحاء الاقطار العثمانية ، وانه لا الاتراك ولا الالمان تجاسروا على قمع نشاط الجناح العسكري (العهد) منها رغم علمهم ان ذلك الجناح يقف موقفا سلبيا منهم . وقال الفاروقي إن اعضاء الجمعية قرروا أنهم لا يستطيعون التريث أكثر مما تريثوا ، ولذلك عقدوا العزم على أن يعرضوا على انكلترا تعاونهم الفعال مقابل أن تتعهد انكلترا بمعاضدتهم في مسعاهم لتحقيق الاستقلال .

ولكن الفاروقي — حسبما جاء في مذكرة كلايتون — لم يلتزم بطلب الاستقلال التام ، فقال ان اعضاء الجمعية يطلبون أن تساعدهم انكلترا « كي يحصلوا على قدر معقول من الاستقلال والحكم الذاتي في تلك الاقطار العربية التي تستطيع انكلترا الادعاء بأن مصالحها فيها أعظم من مصالح حلفائها » ، وانه لن يرضيهم استقلال شبه الجزيرة العربية وحدها ، ولكن من المحتمل أن ينال رضاهم ان يحصل العراق وفلسطين على الحكم الذاتي « تحت ارشاد وسيطرة بريطانيا » . أما بشأن سورية فان أعضاء الجمعية

يعرفون مطامع فرنسا فيها ، ولكن السكان المسلمين سيقاومون بشدة احتلالا فرنسيا وانهم سيطلبون وساطة انكلترا في الحصول على أفضل الشروط ، ومن المؤكد ان يتشددوا في ان تكون دمشق وحلب وحماه وحمص داخلة في الاتحاد العربي •وعلى حد قول الفاروقي « ان مشروعنا يضم جميع الاقطار العربية ومن جملتها سورية والعراق ، ولكن اذا لم نستطع الحصول على الكل فاننا نريد الحصول على أكثر ما يمكننا الحصول عليه » • وأوضح الفاروقي ميل العرب للانكليز وثقتهم بهم أكثر من ثقتهم بالالمان والاتراك ثم قال « ونحن نفضل أن نحصل من انكلترا على وعد بالنصف على أن نحصل من تركيا والمانيا على وعد بالكل• اننا سوف نقبل شروطا معقولة من انكلترا ولكننا لن نرضى من أية دولة أخرى الا القبول ببرنامجنا كاملا • أما اذا أصمت انكلترا أسماعها عن المطالب العربية فان العرب لا يستطيعون البقاء على الحياد وسيرمون بثقلهم الى جانب تركيا والمانيا ليؤمنوا أفضل الشروط التي يمكن تأمينها •(وهذا الشرط الاخير يشبه تماما ما قاله الشريف في رسالته الى الميرغني) •

وقد أشار كلايتون في مذكرته الى ضرورة حصول بريطانيا على صداقة الرأي العام الاسلامي وان « الجهاد » فشل نتيجة لموقف العرب السلبي منه • وقال ان مقترحات الشريف تشبه مقترحات الفاروقي وان الجواب التملصي الذي وصله أثار الشكوك في ذهنه فرد عليه بسرعة غير عادية معبرا عن دهشته لتردد السلطات البريطانية في بحث مسألة الحدود • « وليس من شك في ان موقف الشريف هو موقف أكثرية الشعوب العربية » • ثم أشار الى ان اعطاء جواب ملائم على المقترحات العربية يحتمل أن يضمن صداقتهم على الاقل • وان الجمعية العربية سوف تعمل على توسيع عمليات الشريف في الحجاز حتى تمتد الى سورية وفلسطين والى بغداد والموصل •

هذا خلاصة ما جاء في مذكرة كلايتون • ومن الواضح ان الفاروقي كان وثيق الاطلاع على تشكيلات جمعيتي « العربية الفتاة » « والعهد » وعلى برنامجهما ، ولكنه لم يكن مفوضا من قبلهما باجراء أية محادثات

بل فر من الجيش العثماني وسلم نفسه للجيش البريطاني بدافع من مبادئه الشخصية .

* * *

وما ذكره كلايتون صحيح . فان رئيس جمعية العهد قريب — في القاهرة — وهو عزيز المصري . وقد دارت بينه وبين عزيز مداولات كثيرة، وصلت الى كتشنر . وكتشنر رجل استعماري فظ . وقد وضع خطا أسود تحت اسم عزيز ، وذكر انه رجل خطر لا ينبغي ان تغفل عنه عين الرقابة العسكرية !

تقول ان العناصر العربية مشجعة من الانجليز طالبت بان يسافر عزيز الى الحجاز ، ليتولى انشاء وقيادة الجيش العربي هناك . وعرض كلايتون عليه ألفي جنيه كنفقات سفر واقامة ، فرفض ان يأخذها ، وباع قطعة ارض ، دبر منها نفقاته . وقال انه مسافر الى الحجاز لدراسة الموقف أولا قبل ان يتولى أية مسؤولية . »

روى لورنس ، في كتابه : أعمدة الحكمة السبعة ، قصة هذه الرحلة. قال ان الباخرة « لاما » اقلته من ميناء السويس الى جدة ، وكان على ظهرها عزيز المصري وستورز السكرتير الشرقي في دار الحماية البريطانية . وقد اشتبك عزيز وستورز في مناقشات كنت تسمع فيها اللغات الألمانية والفرنسية والعربية . وعند الوصول الى جدة اصطف طابور شرف عسكري ، لتحية القائد العام لقوات الشريف ، ولم يكن أحد غير عزيز . ولا ينسى لورنس ان يذكرنا بان « بدلة » ستورز البيضاء ، اقتبست من ظهرها اللون البني من المقعد الذي كان جالسا عليه .. ولم ينس انه حدث ذات مرة ان طلب عزيز المصري من فرقة موسيقية ان تعزف مقطوعة المانية دفعا للملل . فاذا القطعة التي عزفتها ، والتي لم تكن تعرف غيرها : المانيا .. فوق الجميع ! والى جانب ملاحظات أخرى تافهة دونها لورنس عن عزيز المصري لا تكاد تعثر فيها على شيء يستحق الذكر .

وهنا يجب ان نلاحظ ان الانجليز عندما وافقوا على سفر عزيز ليقود جيش الحجاز ، بعثوا أحد دهاتهم وهو « ستورز » لكي يرافقه ، كما

زادوا عليه جاسوسا مقيما هو « لورنس » . وذلك لان الريبة كانت تملأ قلوبهم منــه .

ولورنس الذي استطار ذكره في هــذه المرحلة ، هو اكبر اكذوبــة تاريخية في التاريخ الحديث . فهو انسان مشوه خلقيا الى حــد يبعث على الدهشة . ويرجع شذوذه ، الى انه ولد ابن سفاح ، واعترف هو بذلك ، وقضى صدر شبابه بعد فترة من التعليم فيما اسماه البحث عن تاريخ القلاع القديمة في فرنسا ثم في الشرق الاوسط ، ولا سيما القلاع التي خلفهــا الصليبيون . وفي أثناء اقامته في فلسطين تعلم الحــديث باللغة العربيــة بلهجتها البدوية .. والشيء الذي أخفي في تاريخه وهو ينقب ويتجول في فلسطين ، وبدأ يظهر تدريجيا ان الصهيونية تلقفته ، وجندته لاغراضها ، ورسمت له الطريق ، بعد ان وجدت فيه من المواهب ما يصلح لها فهــو انسان قادر على التمثيل . يحب قطع مئات الاميال في الصحارى علــى قدميه ، وأحيانا يكون حافيا ، امعانا في الاغراب . وقد أوهــم دارسي تاريخه انه شاذ جنسيا ، وقد أهدى كتابه ـــ أعمدة الحكمة ـــ الى شاب عربي كان يصحبه ، وأخذه معه الى لندن اسمه احمد .. وكل ذلك لكي يتناول الناس هذه الجوانب التافهة من حياته ، فتغطي على حقيقة نزعاته . وكان يذهب للمقابلات الرسمية في صحبة الامراء الهاشميين ، وهو يلبس العقال ، مع انه ضابط في الجيش البريطاني لفترة من الوقت .. واذا كــان قد نسب بعد ذلك تصريح او أقوال لبعض الامراء الهاشميين تساير خطط الصهيونية ، فلا شك انها من صنع لورنس ..

ولقد كان أبرع ما اتقنه لورنس هو فن الدعاية .. الدعاية لنفسه أولا . كان يملي أو يشرف على كتب تصدر عنه ، وعن مغامراته ،ويشترط على مؤلفيها ان ينصوا في مقدمتها على أنهم لم يروها .. ولما دون كتابه ـــ أعمدة الحكمة السبعة ـــ اشترط على الناشر ألا يطبع منه أول مرة الا اربعين نسخة ، تباع للمتنافسين عليها بأسعار غالية تغطي نفقاتها ، ويؤدي التهافت عليها الى مزيد من الدعاية لطبعات قادمة . وهذه النسخ الغالية هي التي تسربت واحدة منها الى القاهرة ، وتورطتْ في شرائها . وفجعني في صاحبها ، وفيها عزيز المصري ، عندما اسرعت اليه بها ، كما أشرنا من

قبل • وكنت قبل ثلث قرن مأخوذا بالدعاية التي أحاطوا بها جاسوسهم • والحقيقة انها دعاية تستتر وراءها الصهيونية ، لرجل يضعونه في ملفاتهم السريــة •

كيف تخلصوا من عزيز ؟

سمع المرحوم اسعد داغر هذه القصة من عزيز المصري ، كما سمعناها منه بعد ذلك ، ونحن نثبتها فيما يلي :

« اتجهت الانظار حينئذ الى عزيز علي • فدعي للسفر الى الحجــاز والعمل مع الضباط الذين سبقوه اليه على وضع نواة صالحة لهذا الجيش• فوافق عزيز على السفر لدرس الحالة لا للاشتراك في الثــورة أو تولي قيادتها • وأبى الا أن يكون سفره على نفقته الخاصة • فباع بعضأملاكه بمصر وسافر الى مكة • ولكن الذين لم تكن لهم مصلحة في تقويــة الجيش العربي أقاموا في طريقه عقبات لا تذلل • فبقي شهرا كاملا في مكة قبــل أن يتمكن من التفاهم مع الشريف حسين أو الاجتماع به اجتماعا طويلا • فساء الامر الوطنيين الذين كانوا في مكة • ورجوا من الشريف بالحــاح أن يسلم عزيزا قيادة الجيش أو يتركه يعود الى مصر • ولم يكن الحســين أقل رغبة من سواه في تعزيز الجيش والاستفادة من عزيز • ولكن أحوالا قاهرة اضطرته الى التردد فلما جاءه الوطنيون بذلك الالحاح خرج عــن تردده وولى عزيزا قيادة الجيش ضاربا بما كان لديه من الاعتباراتعرض الحــائط •

ووفق عزيز في المدة القصيرة التي قضاها في الحجاز الى جمع كلمــة الضباط حوله ووضع اساس صالح لنظام جيش قوي • فأثار بذلك بعض المخاوف وبدأت الدسائس تدس حوله الى ان جاء لتفقد الجيش فيجهات رابغ وكان جميع ضباطه تقريبا من حزب العهد •• فدعاهم اليــه وسمــع شكاويهم ولا سيما ما يتعلق منها بحالة التسلح والعقبات التي تقام فــي طريق تعزيز الجيش • وقد اتفقوا على أن يجعلوا غرضهم الاساسي مــن أعمالهم تأليف جيش منظم قوي يكفل لهم مالا تكفله العهود والوعود •

وعقد حينئذ اجتماع كبير في رابغ حضره جميــع ضباط الجيش ، فبسط لهم عزيز الموقف بصراحته المعهودة ، وقال لهم : « اننا لا نحارب

رغبة في الحرب ولا كرها بالترك أو حبا بالانجليز ، بل نحارب من أجل تحرير بلادنا وتأمين استقلالها ، فهل تعتقدون أننا نستطيع تحقيق هذه الامنية بالقوات التي لدينا الآن ؟ هل تقبلون ان تدخلوا سورية بهذا الجيش الذي لاقوة له ولا نظام فيه ؟ وكيف يقابلنا سكانها اذا نحن جئناهم للسلب والنهب والتدمير والتخريب ؟ فقبل التفكير في الزحف الى الشمال يجب علينا على الاقل ان نعمل على ايجاد جيش منظم يمكن الاعتماد عليه في حفظ الامن والنظام في البلاد العربية التي نحتلها » .

وتطوع أحد الضباط الذين حضروا هذا الاجتماع — ويظن عزيز انه نوري السعيد — بنقل حديث عزيز هذا مشوها الى الانكليز فاشتدت نقمتهم عليه وقرروا التخلص منه بأي شكل كان .

وأصيب عزيز حينئذ بانحراف بسيط في صحته فجاء أحد كبار الضباط الانكليز لزيارته في مخيمه وتحدث معه طويلا في موضوعات شتى ثم خرج الى سرادق الشريف فيصل حيث نسي أو تناسى دفتر يومياته . وقد عزا فيه الى عزيز آراء غريبة كان من مصلحة الراغبين في عدم تقوية الجيش والعاملين على خنقه في المهد ان يعرفها الحسين ويعتقد بصدورها عن قائد جيشه .

وكان في مخيم الشريف فيصل حينئذ نحو عشرين من أعوانه لم تقع انظارهم على يوميات الضابط الانكليزي حتى أكبوا على مطالعتها لاطلاع الشريف على ماجاء فيها .

وقد روى فيصل هذه الحادثة امامي بعد ان صار ملكا على سورية . فقال ان جهله باللغة الانجليزية حينئذ حمله على تسليمها الى الذين يجيدون هذه اللغة فقرأوا فيها ما خلاصته :

« زرت الآن عزيز علي وهو مريض وتحدثت معه طويلا عن الثورة العربية وأهدافها ونتائجها ومما قاله لي انه لا يرجو خيرا من الاشراف ولا من هذه الثورة ماداموا مسيطرين عليها . ولذلك قرر الانسحاب منها والعودة الى مصر . ولما سألته عما يمكن عمله لاصلاح الحالة . قال إنه يستطيع طرد الترك من سورية في أسابيع قليلة اذا تخلت انجلترا عن الاشراف وحل هو واصدقاؤه محلهم في ادارة الثورة » .

وأضاف الملك فيصل الى ذلك قوله : « لو كنت أعرف الانجليزيـة لما اطلع غيري على مذكرات هذا الضابط الانكليزي • ولو لم يطلع عليها عشرون شخصا من أصدقائي لما اخبرت والدي بها لعلمي بانها كـانت دسيسة يقصد منها اخراج عزيز من الثورة أو ايجاد الخلاف في الجيش • وفي اعتقادي ان ابعاد عزيز علي من الحجاز نشأ عن سلسلة مـن الدسائس كانت هذه واحدة منها » •

وبعد مضي خمسة ايام على هذا الحادث تلقى عزيز أمرا من الشريف حسين بوجوب السفر الى مصر لاختيار الاسلحة التي يراها لازمة للجيش• فسر بذلك سرورا عظيما وأسرع الى مصر في أول باخرة صادفها •

وعرف الدكتور نمر ان عزيزا قادم الى مصر وانه في طريقه اليها وقد أخبرني ان الانكليز معجبون به اعجابا شديدا وأنهم يرون فيه قائدا من اكفأ قواد الميدان الغربي •• الخ •• الخ •• ثم قال لي انه فخور به ويريد أن يقابله حين وصوله •

وسرني بطبيعة الحال ان أسمع مثل هذا الثناء العظيم على رجـل أحبه • وقد نقلته اليه في اجتماعي الاول به عقب وصوله فأطرق قليـلا ثم قال :

ــ الانجليز لايبالغون في الثناء على رجل الا اذا كانوا عازمين على ضربـه •

وقد أصاب فيما قاله لانه بعد بضعة أيام تلقى أمرا بأن لا يعـود الى الحجاز ، ثم أمرا آخر بوجوب الخروج من مصر ، وقد خير بين السفر الى سويسرا أو الى أسبانيا فاختار اسبانيا لسببين : الاول رغبته في زيارة الآثار العربية فيها والثاني اعتقاده بأنه لو اختار سويسرا لكان قد اعتقل في مالطـة •

عروض •• ورفض :

لم يعرف الانجليز كيف يرضون عزيز المصـري ، قبل ان يقـرروا التخلص منه •• لقد دارت مباحثات طويلة بينه وبين كلايتون بشأن العراق• وكانت خطة عزيز ان يسافر الى البصرة ــ على حسابه ــ وان يتعاون مع طالب النقيب زعيمها وبعض اركان جمعية العهد هناك ، لتأليف قوة عراقية

صرفة تنهي الوجود التركي في العراق • واشترط عزيز ، الا تنزل في العراق أي قوة انجليزية ، واذا احتاج الأمر الى مدد ، فليكن بقوة فرنسية (لم يكن لفرنسا أطماع في العراق) كما قدر عزيز في ذلك الوقت •

وجاء تصريح من انجلترا لرجالها في مصر ، وقد احست بحرج الموقف، بالموافقة على الاستعانة بكل الافكار الوطنية ، مادامت تؤدي الى انهاء الوجود التركي • وطلب من عزيز ان يستعد للسفر الى البصرة • وقبيل سفره جاءه كلايتون ، يزف اليه « بشرى » نزول القوات البريطانية في البصرة !! ويستحثه على السفر •• وكان هذا خلافا لكل اتفاق تم بحثه•• فما ان سمع عزيز بهذا النبأ ، حتى وقف ، دون ان يعقب بكلمة ، قائلا لكلايتون : مع السلامة !

وأراد الانجليز ان يدوروا حول عزيز المصري من طريق آخر ••

كانوا يعرفون مقام عزيز المصري في اليمن بعد ان تدخل في إيقاف الحرب بين الاتراك بقيادة عزت باشا ، وبين اليمنيين بقيادة الامام يحيى حميد الدين ، واقرار الصلح بينهم •• وبمقتضى هذا الصلح بين الجانبين ظلت القوات التركية في اليمن ، وهو أمر مقلق لخطط الانجليز •• وهو تهديد لمواصلاتهم عبر البحر الاحمر ، وخطر على اتفاقياتهم مع امير عسير، في شمال اليمن •• جاء كلايتون مرة أخرى ، وقابل عزيز المصري ودار بينهما الحوار التالي :

ــ ان لدي عرضا سخيا جدا لك ؟

ــ قل ما عندك ••

ــ انت تعلم ان في اليمن قوات تركية ، وان من الواجب تصفيتها ،

ــ •• ثم ماذا ؟

ــ هل توافق على السفر الى هناك ، وتقود قوات الامام للقضاء عليها ؟

ــ لماذا أفعل ذلك ؟

ــ أنت تعلم ان انجلترا كان لها دور كبير في انقاذك من حكم الاعدام الذي استصدره أنور باشا ضدك •• ولهذا فانت ترى ان صداقتنا لاشك فيها • واستمرارا لهذه الصداقة ، فاننا نعرض عليك هذه المهمة الجديدة ،

مع مساعداتنا لك في انجازها وعند اتمامها في وسعك ان تتخلص من الامام يحيى حميد الدين ، وتصبح ملكا لليمن !! فرد عزيز في دهشة :

ــ ولكن عرش اليمنيين ملك لهم ، وليس ملكا للانجليز . فكيف تعرضون عليّ مالا تملكون ؟

وانتهت المقابلة بفتور تام ، ولهذا كان لا بد من التخلص من عزيز المصري ــ فكان العرض البريطاني الاخير ، وهو ان يختار المكان الذي يود السفر اليه في أوروبة .. فاختار اسبانيا .

اسبانيا .. والمانيا .. والعراق :

وفي اسبانيا قضى عزيز المصري في منفاه وقتا ضاقت به نفسه كثيرا ، فكان عليه ان يعمل في التدريس ليكتسب ما يعول به نفسه . اذ انه اخرج من مصر ، قبل انيتمكن من بيع شيء من أملاكه . وكان ما بقي منها منزله وحديقته في عين شمس (٧٫٥ فدان) ، بل كتب تنازلا عن المنزل والحديقة لاخته التي تكبره سنا ، خشية ان يصادرهما الانجليز . وقد تحول هذا التنازل بعد عشر سنين الى مأساة خلقية سنوضحها فيما بعد .

وقد لاحظ الاسبانيون الذين عاش معهم ، ما عليه هذا الرجل الفذ من خلق عظيم ، وسماحة نفس في محنته هذه ، فكان محل تقدير واعزاز .

وما ان انتهت الحرب حتى سافر الى المانيا ، وهناك عرض عليه ان يعمل مدرسا في كلية اركان الحرب الالمانية ، فقبل هذه المهمة بصدر رحب ، وبامتنان .

وعزيز المصري استاذ ممتاز . فهو يجيد عدة لغات ، وهو واسع الاطلاع . وهو محدث ومحاضر يمتاز باللباقة .. والفن العسكري عنده علم . ومعارك التاريخ الكبرى حاضرها وماضيها من هواياته المفضلة .

وبعد فترة كاتبه اخوانه من أعضاء جمعية العهد في العراق ، وقد أقاموا هناك دولة عربية ملكها فيصل الاول الهاشمي ، والمحتلون هم الانجليز . فقد أصبحت من نصيبهم تطبيقا لمعاهدة سايكس / بيكو السريّة ، وتكون فلسطين ايضا من نصيب الانجليز . وان تكون سورية ولبنان من نصيب فرنسا ..

ولقد أحس الهاشميون بخيبة أمل ومرارة كبرى . فلا الاستقلال نالوه ، ولا عرش دمشق بقي للعرب بعد أن وصل اليه فيصل بقواته العربية قبل وصول الفرنسيين . وقد كشف الروس عن حقيقة نوايا الحلفاء ، عندما نشرت حكومة لينين في موسكو نصوص المعاهدات السرية ومنها هذه المعاهدة الخائنة لكل عهد ، والجارحة لكل شرف !

وزاد الامر سوءا وعد بلفور الذي منحه الانجليز لليهود ، باقامة وطن قومي لهم في فلسطين وكان ذلك سنة ١٩١٧ .

وتراكم السوء على السوء ، عندما قاوم الانجليز عرض استقلال مصر على مؤتمر الصلح في فرساي ، وانفجرت في أرض النيل ثورة عاتية عام ١٩١٩ ، ندبوالها الجنرال اللنبي ، الذي أحاطت به هالات النصر على جيش الاتراك ، وقد دمره في فلسطين . وكانوا قد اعتقلوا سعد زغلول وبعض أركان الحركة الوطنية المصرية عسى ان تخمد جذوتها .. ولكن هيهات .

المهم الآن ان عزيز المصري ، حمل معه هذه الصورة الداكنة بل انسوداء لما انتهى اليه كفاح العرب . وراح الى العراق يختبر المواقف . وعرض عليه ان يمثل حكومة العراق لدى شركة البترول العراقية . وما لمثل هذه الوظائف أعد عزيز المصري نفسه .

حقيقة كان عليه أن يقيم بعض الوقت هناك ، حتى يأذن الله بالعودة الى مصر . وقد اقترن في العراق بسيدة امريكية ، تبادلا معا الحب والوفاء . وكان ابوها من ملوك البترول في بلاده . وقد احنقه ان تتزوج ابنته عربيا مسلما . فحرمها من ثروته وميراثه . ولكن هذا الحرمان لم يؤثر عليها ، ولا سيما بعد ان انجبت من زوجها طفلا هو « عمر » .. فقد كان عزيز مفتونا بشخصية عمر بن الخطاب .

على الرغم من وجود اصدقاء اعزاء لعزيز المصري في العراق مثل ياسين الهاشمي وطه الهاشمي وجميل المدفعي وحكمت سليمان وجعفر العسكري (كان جعفر قد خلفه في قيادة الجيش الهاشمي في الحجاز) وغيرهم . الا ان الانجليز كانت لهم اليد العليا هناك . فلم يمكن من عمل جاد يتفق مع شخصيته واستعداده .

وحتى يتخلص الانجليز من وجوده المقلق في العراق ، فكروا في ان يسمحوا له بالعودة الى مصر • فربما كان خطره في مصر أقل بكثير من خطره في العراق • اذ ان الشعب العراقي معروف بسرعة تأثره وتحركه ، وميله الى الثورات •

العودة الى الوطـن :

وما علم عزيز ان الملك فؤاد وافق على عودته ، حتى شد الرحال الى عاصمة بلاده الحبيبة • فان عشر سنوات من البعد عنها ، كانت كأنهـا دهر طويل •••

وفي القاهرة (عام ١٩٢٦) التقى باصدقاء اعزاء ، أنس لهم وأنسوا له ، ولكن كانت هناك مفاجأة مذهلة تنتظره • فقد أراد أن يستقر في بيته بعين شمس ، واذا اخته ، واذا زوجها علي باشا ذو الفقار ، ويوسف باشا ذو الفقار حفيدها يرفضون تسليمه منزله لانه « تنازل » عنه •

واضطر ان يدخل في معركة قضائية مضجرة ومؤسفة ، وقف معـه فيها المحاميان الوطنيان مصطفى الشوربجي وحافظ رمضان • وبعد عامين استرد حقه ••

وفي سنة ١٩٢٨ صدر مرسوم ملكي بتعيينه مديرا لكلية البوليس ، وهو منصب رسمي ، قد يكون بعيدا عن اختصاصه كضابط حرب ممتاز • الا أنه رضي به ، وكان يقول :

« كل ما أريده هو عمل ، لا يتدخل معي فيه إنسان • وإني اقبـل أن أكون ناظر مدرسة ابتدائية على هذا الشرط !! »

وذلك لان نظرات عزيز المصري ، وفلسفته في الحياة لا تتفق مـع آراء كثيرين من الذين يعيشون حوله • ولا مع ما بثه الانجليز في جوانب الحياة المصرية من نظم تساعدهم على البقاء ، ولا تساعد المصريين علـى التقدم والرقي •

في مدرسة البوليس :

وكان حدثا غريبا ، في هذا المعهد ، الذي وضع الانجليز لـه نظاما غريبا • فقد كان عليه أن يخرج ادوات القمع المصرية ، التي يحكم بهـا

الانجليز البلاد • وكان علي عزيز المصري ، ان يدخل الهواء الطلق النقي ، يستنشقه ابناؤنا الشبان الذين ستوكل لهم مهمة صيانة الامن في مقبل الايـام •

ولا نستطيع ان نتتبع كل ما صنعه « عزيز » في هذا المعهد ، ولكننا نذكر أطرافا منه يرويها تلاميذه ، وهم عمد الامن وأجهزته بعد ذلك •

مر عزيز المصري على « عنابر » الطلبة ، فوجدهم يضعون نقودهـم وحاجياتهم الخاصة في دواليب ، علـى كل دولاب قفـل يحتفظ الطالب بمفتاحه • فأمر بازالة هذه الاقفال على الفور قائلا : كيف تكونون رجـال أمن في المستقبل مسؤولين عن أرواح وأعراض وأموال الناس ، وأنتـم منذ الصغر ، يستريب أحدكم في صاحبه • فلما قيل له : ولكنهم يضعـون نقودهم في هذه الدواليب • اجاب : ولو •• فلما قيل له أنه يوجد غـير الطلبة بعض الخدم •• قال ولو : ولماذا لا يتعلمون الامانة أيضا •

ولم تحدث حادثة سرقة واحدة طوال إدارة عزيز المصري لمدرسـة البوليس • فقد رفع شعار الامانة فآمن به الجميع •

* * *

وفي أثناء الامتحان ، مر بصالات الامتحان فوجد مراقبي الطلبة يقفون بينهم في يقظة وانتباه فسألهم :

ــ ماذا تعملون هنا ؟ قالوا :

ــ نراقب الطلبة ! فأجاب :

ــ ولماذا تراقبونهم ؟ فأجابوا :

ــ حتى لا يغش أحد منهم •

فما كان منه الا أن أمر بايقاف الامتحان ، وقال للطلبة غدا يبـدأ امتحانكم من جديد ، وعلى كل طالب ان يحضر كتب المادة أو المواد معه ، ويضعها امامه ، ويجيب على الاسئلة ، دون أن يفتح الكتاب • ولن يكون عليكم مراقبون منذ الغد !

ونجحت هذه التجربة نجاحا باهرا • فقد تعلم منها الطلبة درسـا أفضل من كل دروس الكتب •• انه درس الحياة نفسها •

* * *

وحدث لطالب ، من أبطال « الجودو » في المدرسة ــ أي المصارعة اليابانية ــ أن كان يركب الترام في طريقه الى المدرسة • واذا ثـلاثة من العساكر الانجليز ، يتصدون له ، ويخطفون طربوشه ، ويلقون به فـي الارض • ودارت معركة ، استعمل فيها الطالب كل فن « الجودو » معهم وصرعهم في أرض الترام الواحد بعد الآخر ، وقد سالت دماؤهم مـن أنوفهم •• وجاء بوليس حربي انجليزي ، فقاد الجميع الى قسم الوايلي القريب من مدرسة البوليس • وبدا للطالب ان الضابط المحقق روع من منظر الانجليز والبوليس الحربي ، وقرر ايداع الطالب في سجن القسم • فما كان منه الا أن استدار ، وانطلق بأقصى سرعته تخلصا من هذا المأزق الحرج ودخل مدرسته وقدم تقريرا الى رئيسه • وفي اليوم التالي ، كان تقرير الطالب ، وتقرير بوليس الوايلي ، وتقرير البوليس الحربي البريطاني أمام مدير المدرسة ، عزيز بك المصري ••

واستدعي الطالب ، وزملاؤه يتمنون ان ينتهي الامر بفصلـه هـذا العام فقط !!

ووقف صاحبنا ، ووراءه اثنان من زملائه حرسا ببنادقهم • وأخذ يروي قصته بالصدق كما حدث • وعزيز يستزيده من التفاصيل بعـد ان أمر الحرس بالانصراف ، وبقي كبير المعلمين ! وبعد ان انتهى استجـواب الطالب ، استدار عزيز ، وكان يمشي في غرفته ذهابا وايابا ، وواجـه الطالب ، الذي اصفر لونه ، وغامت عيناه ، فان قضاءه قد قرب • واذا بـه يلمح يد مديره تمتد اليه مصافحا وهو يقول له :

ــ يا ابني لقد تصرفت بشرف • وانا اشكرك • ثم أمر بما يأتي :

يرقى هذا الطالب الى رتبة « امباشي » ، وبذا يمنح ٧٥ قرشـا كل شهر • ويكتب خطابا الى حكمدار العاصمة لطلب ضـابط القسـم الذي اهان هذا الطالب كي يعتذر له أمام زمـلائه • وخطابا للقيــادة البريطانية كي ترسل مندوبا كبيرا يعتذر عن خطأ جنودها الثـلاثة الذين تحرشوا بالطالب وألقوا طربوشه على الارض •

وتم كل هذا ••

* * *

ولا تسل عن فخر الطلاب دفعة بعد دفعة بمديرهم ، ومحبتهم لـه التي بلغت حد العبادة .. ولم يكن الطلبة هم أحبابه وأبناءه فقط ولكـن كان أهلهم كذلك .

فقد حدث في استقبال دفعة جديدة من الطلبة ، بعد اتمام الامتحانات الأولية ، أن جاء دور ما يسمى « كشف الهيئة » وجرت العادة ان يحضـر رسل باشا حكمدار العاصمة الانجليزي ، ومعه قائمة ، ويتولى هو اختيار اربعين طالبا ، ويطلب للمدير وأعوانه العشرين الباقين .

جلس عزيز المصري يشاهد رسل باشا وهو يقوم بمهمته التقليديـة وأهالي الطلبة يقفون عن بعد يشاهدون ما يتم .. فهذا ابن فلان ، وذاك ابن علان .. وصاحب الرأي هو اكثر الناس رهبة في مصر .. انه الحكمدار رسل باشا !!

وقام عزيز المصري صامتا ، وذهب الى غرفته دون ان يقول شيئا . فأدركه أعضاء اللجنة ، وعلى رأسهم رسل باشا . فقال لهم : انه لا علاقة لاحد خارج المدرسة باختيار الطلاب . فاني مسؤول عن تعليمهم ، فيجب أن يتم اختيارهم وفق قواعد معينة .. وبعد حديث طويل ، رضي رسـل باشا ــ تفاديا من أزمة مؤكدة ــ ان يتركه يخرج عن المألوف .. فعاد وأبقى الاربعين الذين اختارهم رسل باشا في مكانهم . ثم طلب من معلمي المدرسة ان يأخذوا الباقين عند خط معين ، ثم يطلبوا منهـم التسابق ، ويحضروا له الستين الاوائل .

وما أن تم هذا حتى هتف أهالي الطلاب من أعماقهم لعزيز المصري، وقد شحب وجه رسل باشا ، ولم يحر جوابا . وكل ما استطاع أن يعملـه هو التشفع لواحد .. واحد فقط من الاربعين الموصى بهم .. فقبـل عزيز شفاعتـه .

* * *

وحدث مرة ان كان ابنه عمر ، وهو بعد حدث صغير ، يركب جوادا ، جمح به ، وألقاه في « مرماح » المدرسة أرضا ، وبدا من بعيد كأنه لا حراك به . وأخذ ضباط المدرسة يهرعون ، لنجدة الصبي . ولكن عزيزا منعهـم في عنف وشدة . وقال دعوه .. عليه هو ان يقوم ويصلح من أمر نفسـه

ويعود الى ركوب حصانه مرة أخرى دون اي مساعدة فاذا كان قد مات، فهذا قدره ، لانه لا يصلح للحياة •• وبعد قليل تحرك الصبي ووقف ، ونظر للجميع ، وهم صامتون كأن على رؤوسهم الطير ، وسار نحو حصانه بعد أن أصلح من شأن نفسه وعاود ركوبه مرة أخرى !!

كان هذا ــ أيضــا ــ درسا للطلبــة ومعلميهم من أكثــر الدروس فائــدة •

يقول اللواء سعيد عزيز الالفي ، وهو من أعوان عزيز المصري فيهذه الفترة ، ان حياتنا مع عزيز خلال ادارته للكلية ، كانت أثمن شيء نعتز بــه ، بحيث تعذر علينا بعد أن غادرنا ان نستطيب أية إدارة من بعده ، لما بثه فينا من روح الاعتزاز ، والوطنية ، والميل للقراءة ، والبسالــة ، والشجاعة في الحق ••

وكان من أهم مبتكرات عزيز المصري في مدرسة البوليس ، ادخال الكلاب البوليسية ، وحمام الزاجل ، والتصوير ، وقــد جعلهــا تحــت اشراف سعيد عزيز الالفي ، وكذلك ادخل المصارعة اليابانية واحضر لهــا مدربين من بلادها • وانشأ للمدرسة مكتبــة عامرة ، زودهــا بالصحف والمجلات • وكان ممنوعا دخول الصحف والمجلات الى المدرسة قبلذلك• فان خطة الانجليز كانت ترمي الى قطع هؤلاء الشباب عن الحياة العــامة تماما • وكانت خطة عزيز ان يصلهم بالحياة العامة •• يصلهم بها تماما •

* * *

وكان الملك فؤاد قد سمع عن مدرسة البوليس ونظمها الجديــدة فاتصل كبير الامناء بعزيز المصري ، وقال له :

ــ مولانا جلالة الملك يريد زيارة المدرسة ! فرد عليه :

ــ يتفضل • •فرد كبير الامناء في دهشة :

ــ متى ؟ فأجاب :

ــ دلوقت !! فكاد سعيد ذو الفقار باشا يصعق •

ــ كده من غير ترتيب ولا استعداد • فرد عزيز المصري في هدوء :

ــ ايوه • المدرسة موجودة • ولا داعي لاي استعداد • اننا لا نريد أن نمثل ، أو نفتعل شيئا ••

ونقل كبير الامناء هذه المناقشة للملك • ولكن كان لا بد من إخطار رئيس الوزراء ـ كان ذلك عام ١٩٣٠ ـ ووزير الداخلية ، وكانت اجابة عزيز المصري هي نفس اجابته السابقة • وزار الملك المدرسة ، وسر منها كما يسر من شيء رائع ولعله تبادل معه احاديث باللغة التركية التي كان يجيدها فؤاد ، ويجيدها عزيز •• ومن هذه اللحظة اتنوى فؤاد في نفسه شيئا •

رائــد ولي العهــد :

وفي سنة ١٩٣٥ ، عندما اتنوى فؤاد ان يبعث بولي عهده فاروق الى انجلترا ليكمل دراسته ، اختار له عزيز المصري ، رائدا • كما اختار أحمد حسنين باشا رائدا ثانيا •

وكان عزيز المصري يتناول هذا التكليف بكل جد ، في مواعيد يقظة الامير ، وبرنامجه اليومي • وهو برنامج خشن • وكان يشرف على كتابة رسائله لوالدته ـ الملكة نازلي ـ ويفض رسائلها له حتى لايصاب الامير الفتى بمرض الحنين الى الوطن • وقد استغل أحمد حسنين هذه الثغرة ، وأخذ يدس لعزيز عند الملكة • كما اتخذ مع ولي العهد جـانب التساهل التام •• وهنا نشأ خلاف بين رجلين ، واحد يريد التزلف الى ملك مصر المقبل ، والثاني يريد أن يعوده على عادات ملوك العصر ، من فروسية ، وثقافة ، واطلاع ، وتدريب على حل المعضلات •• الخ •

وما هي الا فترة من الوقت ، حتى مات الملك فؤاد ، وعاد فاروق الى مصر ، وفي نفسه أشياء من عزيز المصري • فعندما قال له عزيز :

ـ أنا سأكون مثل والدك ، فاعتمد علي في مشكلاتك وستجدني أمينا وصادقا معـك ••

فضرب فاروق قدميــه في الارض وأدى التحية العسكريــة وقال لرائده : سوف أفكر في هذا !!

ولعل هذه التحية كانت من قبيل السخرية أو المداعبة • فان فاروقا لم ير عزيز المصري في زيارة خاصة بعد ذلك • لان أحمـد حسنين نشر شباكه حوله •• وتزوج امه الملكة نازلي زواجا عرفيا • وكان أول ماعمله فاروق بعد وفاة أحمد حسنين على كوبري قصر النيل انه ذهب الى بيته ، وأخذ عقد الزواج ، ومزقه !!

وفي فترة وجود عزيز المصري في انجلترا ، كانت حركات الشباب فيها تتطور تطورا كبيرا ..

كانت قد نشأت فيها بادئة بمشروع القرش ، ثم بتأليف جمعية وطنية ، استعارت اسمها من الجمعيات الوطنية في تركيا وايران والهند وتونس ، وهي جمعية مصر الفتاة . كما قامت حركة الاخوان المسلمين . وكان الصراع الحزبي على أشده ، وقد تحول الى صراع ضد الانجليز . وحدثت اصطدامات عنيفة بين شباب هذا الشعب وقوات الاستعمار واعوانهم في عام ١٩٣٥ ، سقط فيها كثير من الشهداء مثل عبد الحكم الجراحي ، ومحمد عبد المجيد مرسي ، وطه عفيفي ، واسماعيل محمد الخالع .

وما من حركة من هذه الحركات ، قبل سفر عزيز المصري الى انجلترا ، وبعد عودته منها ، الا كان لها نصيب من توجيهات هذا الثائر الأكبر ، الذي يمكن تشبيهه في هذه المرحلة بجمال الدين الافغاني ، مع زيادة ثقافته العسكرية .. الا أن صفات الزعامة بين هذين القطبين كانت مشتركة في كثير .

وكان عزيز المصري ، يرى في حركة مصر الفتاة ، تجديدا أمينا وسليما لجمعية العهد ، مع فارق واحد ، وهو ان جمعية أوائل القرن كان لها جناح عسكري .. أما هذه الجمعية ، فكانت تعتمد على الشباب المثقف وغيره من افراد الشعب . وكان عزيز المصري ، يأنس كثيرا لاركان حركة مصر الفتاة ، فقد رأى في كثير منهم صورة من شبابه ، وكان يستقبل اعضاءها في كل وقت ، وفي جميع الظروف : في مدرسة البوليس . وفي بيته . وفي عمله بعد أن تولى قيادة الجيش . وبعد ذلك . وكان يعرف الكثير من أفرادها ويدفع اليهم بالكتب ، ويدلهم على خير ما يقرأون .. واذا كان مؤلف هذا الكتاب يدين لاثنين بالفضل في توجيهه الوطني والثقافي ، فاحدهما عزيز المصري . اما الثاني فهو الزعيم التونسي عبدالعزيز الثعالبي ، رحمهما الله رحمة واسعة . فقد كانا من أعز الرجال، وأطهر القادة والزعماء .

* * *

الثلاثينيات فترة حافلة :

وينبغي أن نذكر هنا ، ان فترة الثلاثينيات ، كانت من الفترات الحافلة في تاريخ مصر والمصريين • فقد بدأت بأزمة اقتصادية طاحنة عمت العالم وامتدت الى مصر • وكان الملك فؤاد يحس بأن دستور سنة ١٩٢٣ أصبح عبئا ثقيلا عليه • وقبل أن يتخذ منه مصطفى النحاس باشا زعيم الوفد الجديد ، مواقف مثل التي عاناها من سعد زغلول ، قرر العمل على ايقاف هذا الدستور • وقد تألفت وزارة من الاحرار الدستوريين نفذت هذه الرغبة سنة ١٩٢٩ ، وأعقبتها وزارة عدلي يكن باشا التي أعادت الدستور ، وأجرت انتخابات فاز فيها الوفد فوزا ساحقا ، مما اضطر الملك الى دعوة النحاس باشا لتأليف وزارة ثانية في أول يناير سنة ١٩٣٠ • ولم تدم هذه الوزارة أكثر من ستة أشهر ، فقد رفضت مشروع معاهدة بريطانية ، وقدمت مشروع قانون لمحاكمة الوزراء الذين يعتدون على الدستور ، واختلفت مع الملك على تعيين أعضاء مجلس الشيوخ(وكان سعد قد اختلف مع الملك على هذه المسألة عام ١٩٢٤) • وتولى اسماعيل صدقي باشا الحكم ليحقق للملك امنيته ، ويلغي الدستور ويضع دستورا جديدا مشوها قاطعه الوفد والاحزاب الاخرى • وظل صدقي باشا في الحكم الى سبتمبر سنة ١٩٣٣ بعد أن حكم أكثر من ثلاث سنوات • وكان سبب استقالته حكما أصدرته محكمة النقض في قضية مشهورة اسمها قضية البداري ، قتل فيها الاهالي مأمور المركز ، لانه عذب بعض الافراد • وقد ورد في حيثيات حكم محكمة النقض أن المأمور القتيل ارتكب اعمالا لا توصف الا بأنها اجرام في اجرام ، وانها من أشد المخازي اثارة للنفس، واهتياجا لها ، ودفعا بها الى الانتقام • ومع ان المحكمة لم تملك سندا قانونيا لتخفيف حكم الاعدام الا أنها طالبت بتخفيفه عن طريق وزارة العدل • وبدأت المحاكم تنظر قضايا مشابهة مما حدا بصدقي باشا الى الاستقالة •

والحقيقة ان القضاء في مصر كان في أحلك الظروف ، سندا قويا أمينا للعدالة ، ولحرية المواطنين • ويذكر مؤلف هذا الكتاب انه قدم لمحكمة الجنايات ١٤ مرة في الثلاثينات بتهمة التحريض ضد الدولة الحليفة

ــ اي انجلترا ــ وكانت النتيجة البراءة في جميع هذه القضايا • وتألفت بعد ذلك وزارات انتقالية ضعيفة ، وأدت ثورات الشباب بوزارة نسيم باشا الى اعادة دستور ١٩٣٥ وقد دفع الشعب ثمنا لعودته دماء غاليــة وأرواحا عزيزة كما ذكرنا •

وتألفت في سنة ١٩٣٦ وزارة حيادية رأسها علي ماهر باشا • وفي أثناء قيامها توفي الملك فؤاد في ٢٨ ابريل سنة ١٩٣٦ • وحضر فاروق من انجلترا مع رائده عزيز المصري في ٦ مايو سنة ١٩٣٦ • وقد نصب فاروق ملكا على مصر في يوم وصوله • واجتمع البرلمان الجديد الذي انتخــب بمقتضى دستور سنة ١٩٢٣ •

وفي ١٠ مايو سنة ١٩٣٦ تولى النحاس باشا زعيم الاغلبية الوزارة للمرة الثالثة •

وفي شهر يناير سنة ١٩٣٧ قدم الى مصر السير ما يلز لامبسون سفيرا لانجلترا ، بعد ابرام معاهدة الصداقة والتحالف مع انجلترا في العام الماضي وقد أقرتها الاحزاب برؤسائها جميعا ، وكان ذلك الثمن المطلوب لاعادة الدستور •

وأخبرنا عزيز المصري في ذلك الوقت انه عندما كان في العراق قبل عشر سنوات ، طلب من ياسين الهاشمي باشا ، أن يمهد له زيارة ايران • فضحك الهاشمي وقال له :

ــ مالك ولايران ، اصبر معنا قليلا ، ونحن نيسر لك الجلوس على عرش العراق • فانت وحدك الذي تستطيع ان تجمعنا ، وقد تفرقنا •

فضحك عزيز المصري وقال له :

ــ العراق لكم ، وليست لي • ومكاني هناك •• في مصر •

وسافر عزيز في سياحة الى ايران ، وفي احدى الحفلات التقى بممثل انجلترا ، فاذا هو مايلز لامبسون •• قال فوجدته شخصا متغطرسا سخيفا، يكره الشرق والغرب • ولقنته درسا في احدى الحفلات لعله يذكره الآن•

وقد صح ما وصف به عزيز هذا السفير •• وقد جرت في أيامه حوادث سنذكرها في القسم التالي من هذا الكتاب •

وينبغي هنا أن ننوه للوزارة النحاسية بفضلين :

أولهما : انها الغت الامتيازات الاجنبية تطبيقا لمعاهدة ١٩٣٦ .

ثانيهما : أنها أفرجت عن جميع الذين كانوا في السجون من المحكوم عليهم في ثورة ١٩١٩ .

* * *

وحدث في الوفد انقسام بسبب مشروع كهربة خزان اسوان ،استقال محمود فهمي النقراشي على أثره . فقد كان وزير الاشغال ، بالاتفاق مع مايلز لمبسون يريد اسناده الى شركة انجليزية مقابل مليونين من الجنيهات . وتعطل هذا المشروع حتى نفذ بعد الثورة بعشرة أمثال هذا المبلغ ، وضاع على البلاد من الثروة ما يوازي مائة مليون جنيه خلال فترة التعطيل ، وقد وقعت الحرب أثناءها .

* * *

وفي ٣٠ ديسمبر سنة ١٩٣٧ أقيل النحاس باشا . ولولا ان محاولة اعتداء على حياته وقعت قبل ذلك ، قام بها عزالدين عبد القادر من شباب مصر الفتاة ، لأقيل قبل نهاية العام بشهور . وقد قبض وقتها على مئات من أعضاء مصر الفتاة ، ولكن ما أن تولت الوزارة التالية حتى الغت هذه الاعتقالات ، وكانت وزارة محمد محمود باشا .

في قيادة الجيش :

وفي اغسطس سنة ١٩٣٩ كلف الملك فاروق علي ماهر باشا بتأليف وزارة جديدة . وأراد علي ماهر أن يعطي وزارته الحيادية مظهر قوة باختيار وجوه يحبها الشعب لنضالها ومواقفها الوطنية . فكان من وزارته عبدالرحمن عزام وعبد القوي احمد وصالح حرب ، وانضم له عدد من أقطاب السعديين منهم ابراهيم عبدالهادي . كما قرر انشاء الجيش المرابط . والمجندون فيه لا تزيد مدة تدريبهم عن ستة أشهر . وكان يشرف عليه عبد الرحمن عزام باشا .

الا أن « ضربة المعلم » كما يقولون التي قام بها علي ماهر هي تعيين عزيز المصري باشا (أخذ رتبة اللواء والباشوية في عهد وزارة محمد محمود

الاخيرة) مفتشا للجيش المصري في المنصب الذي خلا بخروج الجنرال سفنكس الانجليزي من هذا المنصب •

وكانت توجد في الجيش المصري بعثة عسكرية بريطانية يرأسها الجنرال ماكريدي • وفي أول اجتماع له مع رئيس البعثة ، قال له ان مهمته أن يجيب على ما تستشيره القيادة المصرية فيه • وقد ازعج هذا التحديد لمهمة البعثة التي كانت تتدخل في كل شيء من تلقاء نفسها ، السلطات البريطانية • فسكتت على مضض • وكان بعض ضعاف النفوس يهرعون الى ماكريدي هذا ويخبرونه بكل عمل يعمله عزيز المصري •

وبدأ عزيز المصري ، فهجر مكتبه في وزارة الحربية ، واختار له مكتبا في وسط الثكنات ليكون قريبا من الجيش الذي يعمل مفتشا له•

وهذه أيضا كانت خطوة مزعجة جدا للقيادات المصرية المتهالكة القديمة ، التي كان كل ما يهمها « الزراير » اللامعة ، والعلم الذي يرفرف على السيارة دالا على الرتبة الجليلة •

ثم ما لبث عزيز أن قام برحلة طاف فيها بالصحراء الغربية ، ومعسكرات الجيش في الاقاليم •

وما لبثت الحرب العالمية الثانية ان أعلنت ، وراح الانجليز يكدسون معداتهم في مرسى مطروح ، ويتأهبون ليوم تدخل فيه ايطاليا الحرب، لعله ليس بعيدا • وكان من بين القوات هناك وحدات مصرية •

وخطر لعزيز المصري خاطر ، فأوعز للملك فاروق ان يزور مرسى مطروح ليفتش على القوات المصرية هناك • وسافر مع الملك رئيس الوزراء علي ماهر باشا ووزير الدفاع صالح حرب باشا •• وكان قواد الجيش الانجليزي في استقبال الملك وعلى رأسهم قائد القوات البريطانية الجنرال ولسن ••

وعقد مؤتمر عسكري ، احضرت له خرائط المنطقة ، وراح ويلسن يشرح للملك خطة الدفاع عن مصر اذا هوجمت من الغرب ، وكيف ان مرسى مطروح أصبحت قلعة مسلحة !! وكان عزيز المصري كثير التدقيق في الخريطة المبسوطة أمامهم • واذا به يقول :

ــ ما اسم هذا الموقع •• ان نظارتي ليست معي • فــرد الجنرال ويلسن بعد ان قرأ الخريطة :

ــ اسمه العلمين •• فرد عزيز المصري :

ــ يا جنرال هنا يمكن الدفاع ضد أي غزو يأتي من الغرب • فهذا عنق زجاجة يمكن تحصينه جيدا ويصعب بل يستحيل اختراقه • امــا مرسي مطروح فيمكن تطويقها مهما كان استعدادها ، أو حماية الاسطول لها ، وتنطلق القوات المعادية ، دون ان تتلقى منها أو تطلق عليها طلقــة واحــدة •••

وساد على القاعة صمت عميق • فقد بدا المنطق واضحا فيما قال •• ورد الجنرال ستون :

ــ ان وجهة نظرك لها وزن خطير ، ويجب دراستها • وعلى كل حال لقد حاربت يا باشا في ليبيا سنة ١٩١١ ، وعنك نتلقى الدروس •

وضجت القاعة بالضحك • وقال عزيز المصري :

ــ لم أكن وحدي • كان معي صالح حرب باشا وزير الحربية •

وفي جلسة ثنائية التقى ولسن مرة ثانية بعزيز المصري ومعهم خرائط مكبرة لمنطقة العلمين : فهنا هضبــة الرويسات وهنا منخفض القطــارة ، وهنا •• الخ • وبعد ايام تلقى عزيز المصري رسالة خطية مــن الجنرال ويلسن اطلعت عليها ، وفيها إشادة بعزيز المصري ، واعتزاز بمشورتــــه ، ووصف له بأنه لا يقل في عبقريته العسكرية عن عظماء العالم العسكريين من أمثال ولنجتون وبيتان !

وضحك عزيز المصري وقتها وقال : مادام الانجليز اسرفوا في المدح ، فلا بد انهم مبيتون •• وهكذا فعلوا عندما عدت من الحجاز سنة ١٩١٦ ••• وقد صدق حدسه • فما لبث علي ماهر أن تلقى رسالة من السفــير البريطاني يطلب عزل عزيز المصري • وقد ازعج القريبون من الرجل هذا الطلب ، ورحنا نسأل علي ماهر : ماذا سيصنع ؟ فأجاب برد سخيف •• قال : عزيز المصري لا يستحق أزمة !! وقرر اعطاء عزيز المصري اجــازة طويلة !!

وما لبث علي ماهر ــ بعد رحلة قام بها الى السودان • ان ضيــق

الخناق عليه • فان مايلز لمبسون السفير ، لم يطق الصيغة التي انتهى اليها وأقرها البرلمان ، وهي « تجنيب مصر ويلات الحرب » •

وتولى حسن صبري باشا الوزارة ، مشركا معه السعديين • وكان من رأيهم دخول مصر الحرب الى جانب الحلفاء • وحجتهم ان هذه المشاركة في الدفاع عن البلاد ، سوف تخلق لمصر جيشها المسلح القوي ، المدرب والذي سيكون عدتها في تحقيق الاستقلال اذا ما انتهت الحرب ••وهذه ولا شك حجة قوية ، ومنطق سليم •• ولكن من يضمن ان يتيح الانجليز لنا فرصة السلاح الكامل والتدريب عليه ؟! فقد جاء في كتاب الاستقالة: « لسنا بغافلين عما تتعرض له مصرنا العزيزة من ويلات الحرب • ولكن خير لمصر ، وأكرم لعزتها ، وأصون لاستقلالها ، ان تتحمل هذه الويلات ، من أن تحمل عار الجبن والاستكانة والاعتماد على غيرها في الدفاع عن نفسها » •

وقد ناقشنا عزيز المصري وقتها في أي الرأيين أصوب ، فقال : اذا لبى الانجليز طلباتنا في السلاح ، وتركوا لنا حرية العمل ، فاني افضل هذا الرأي ••

على كل حال كانت هذه المناقشات العلنية ، تدور في جو صحي ، وعلى الرغم من الحرب وظروفها ، فقد تمتعت البلاد بحرية كلمة •ونذكر بالشكر للمرحوم حسن صبري رئيس الوزارة اذ ذاك أنه رفض طلب الانجليز باعتقال مئات من المصريين ومنهم عزيز المصري ، وكاتب هذه السطور !!

وقد توفي حسن صبري فجأة وخلفه حسين سري باشا الذي لم يزد عن أن يكون منفذا للسياسة الانجليزية ففتحت المعتقلات أبوابها مما تسبب في تسطير قصة من أمتع قصص الحرب •• وقد كتبنا مذكراتها وقتها ، وجمعنا لها وثائقها ، وقدر لها ان تكون قسما من هذا الكتاب•

القسم الثالث

مذكرات حرب

ووظيفة شعب

هذه المذكرات الشخصية

يتضمن هذا القسم من كتابنا مذكرات ، دوناها بعد الحرب العالميـــة الثانية ، تصور ظروف الحياة التي عشناها في هذه الفترة ..

واذا كانت الممارسة الشخصية ، والمشاركة التي أتيحت للمؤلف في احداث هذه الايام ، هي طابع المذكرات ، فانها تجعل منها مادة حيـــة ، نابضة بتفاصيل كثيرة ، وبعضها مثير ..

هذه المذكرات ، هي ولا شك جزء من سيرة « عزيز المصري وعصره » لانه كان محور احداث ضخمة وقعت في ذلك الوقت .

ولنبدأ بأيامنـــا في « سجن الاجانب » بالقاهرة ، حيث قضينـــا في « الزنزانة شهورا وشهورا ، وكان عزيز المصري سجين الزنزانة المقابلة لنا في ذلك الوقت .. »

الهجوم شديد :

كانت الغرفة التي نقيم فيها تطل على شارع الملكة نازلي ، الذي يعرف الآن باسم شارع رمسيس . وكانت أكبر غرف البناء ، وكان شاغلو الغرف الاخرى يرمقون سكانها بعين الحسد .. اذ لا بد أن يكون لهـــم امتياز خاص ، والا ما استأثروا بها ، وسمع لهم عجيج وضجيج كأنهـــم أصحاب المكان لانزلاؤه .

كنت مستلقيا على السرير اقرأ .. وكان زميلي حسن سلومة يجلس في النافذة ، ويردد بين الحين والحين :

ـ يا سلام .. الهجوم شديد .

وأسمع كلماته بنصف اذن ، فلقد طالما ردد هذا القول على مسمعي

خلال الاسبوع الاخير . ولكنه هـذه المرة كان شديد الحماسـة بادي الانفعال ، وما لبث ان انفجر :

ــ يا استاذ .. تعال شوف .. زادوا عن ٣٠٠ في ساعة .. الهجوم شديد جدا .. ولما لم يسمع مني شيئا .. انفجر قائلا :

ــ والله تطلع .. طيب شوف من فوق الكرسي فقط .

ورددت عليه في تثاقل :

ــ يا « مرشال » أنا كسلان .. ابراهيم طلعت يقدر يشترك معـك في إدارة المعركة . انه القى الجريدة من يده وبدأ يغني .. على الاقـل تقدر تريحني من غنائه ..!

ووثب ابراهيم من فوق الكرسي .. وبعد قليل صاح :

ــ الهجوم فعلا شديد .. « المارشال » كلامه صحيح النهارده .

ودفعني الفضول الى أن اشترك مع زميلنا الثالث ابراهيم ، وان أقف معه على الكرسي واتشبث بحديد النافذة وانظر مع صاحبي الى شارع الملكة نازلي ..

كان سيل عربات الجيش الانجليزي لا ينقطع .. كان لونهـا كالحاً مغبرا .. وكان الجنود مترنحين دون مبالاة فوق أي شيء .. وكان ظاهرا ان هذه العربات المدرعة عائدة في التو واللحظة من الميدان .. كانت ولا شك قادمة من الصحراء . ومنطلقة الى الجنوب .

وفتح الباب ..

وفتح الباب وكان لفتحه ضوضاء ..

انه باب الغرفة السميك الذي يغلق من الخارج .. وكانت هـذه الغرفة في البناء الذي عرف لسنوات طويلة باسم سجن الاجانب ..

ودخل « المأمور » السمين ذو الوجه الاحمر ، الانجليزي الجنسية ، الذي يعرف العربية ويجيدها ..

كان « المأمور » كالكرة المنفوخة ، ووقف في وسط الغرفة .. وقال:

ــ محمد .. يامستر محمد .

ونظرت اليه من فوق الكرسي وقلت :

ــ هيه يا مستر هيكمان .. ما الاخبار ؟.. فرد على الفور :

ـ زفت وقطران .

قلت لـه :

ـ الحمد لله .. وايه كمان ..؟ قال :

ـ يظهر « الراجل » قرب .

قلت لـه :

ـ « المارشال » رأيه كده .. فاغتصب ضحكة وقال :

ـ انزلوا من الشباك .. « فريزر » جاي بعد شوية .. فرددت عليه:

ـ وايه يعني .. ماراحت عليه .

ـ علشان خاطري انزلوا ٥ دقائق !!

ونزلنا من أجل خاطر المأمور السمين . وقلنا له انا نريد جريدة .. فأظهر ان الصحف ممنوعة علينا . ثم غمز بعينه وقال :

ـ الشاويش عبد الموجود فيه البركة .. وكمان الحلاق .

أرز الدكتور طراف :

كانت هذه دنيانا في شهور الصيف من عام ١٩٤٢ ..

كنا فريقا من الشباب ، دفعوا حريتهم ثمنا لكرههم للانجليز ،وأحسوا وروميل يطرق ابواب الاسكندرية ان ساعة الخلاص من هذا السجـن الرهيب ، وساعة خلاص الامة من لعنة الانجليز قربت أو كادت .

ولم تكن لنا وسيلة لتسقط الاخبار الا تسمعها من حلاق سجـن الاجانب ، وإلا قصاصات من الصحف يهربها لنا بعض الجاويشيـة من حراس السجن .. والاحيلة تعلمناها من زميلنا نورالدين طراف .

وكانت وسيلة « الدكتور طراف » هي ان يتلقى مع عمود الطعـام كل يوم « طاسة » من الارز .. كان نصفها أرزا وتحت الأرز ورق مما لا يتسرب منه الدهن وهو الذي يسمى بورق زبدة .. ومن تحته جريدة مطوية بعناية ..

وهذا الحيز الضئيل كان يكفي جريدة الاهرام ، التي كانت تصدر في أربع صفحات فقط .

وأكد الدكتور طراف لادارة السجن ، انه كطبيب لابد له منوجبة أرز كل يوم ، والا تعبت صحته ..

وعنه اقتبسنا هذه الطريقة أو الوصفة المفيدة •

فاذا جاء الطعام كان اناء الارز اول ما يفتح ، ويفرغ نصفه ، ثم تخرج الجريدة من الطابق السفلي • وعندما تنتهي غرفتنا من التهام هذه الوجبة ـ الجريدة لا الطعام ـ يذهب أحدنا بها وهي مختبئة تحت ثيابه الى دورة المياه ، وفي مكان معين من « السيفون » يودعها • وكلما ذهب احدنا لقضاء الحاجة ، كانت حاجته الاولى الجريدة يطالعها ، ثم يودعها مكانها •

وحدث ذات يوم ان فاجأ رئيس الوزراء ـ اذ ذاك ـ وكان حسين سري ، سجن الاجانب بزيارة وكان قد قبض يومها على الفريق عزيز المصري •

وبعد أن انتهت الزيارة ، أقبل الجاويش الحارس وهمس في اذني:

ـ والله أنا آسف •

ـ لماذا ؟

ـ الجريدة ••

ـ جريدة ايه ••

ـ اضطررت لتمزيقها علشان « كبسة » رئيس الوزارة •

ـ لا أفهم ما تقول ••

ـ انا منكم •• كنت آخذ دوري واقرأ الجريدة وأعيدها الى مكانها في « السيفون » •

ـ اذن كنت تعلم ••

ـ أنا حفيد علي مبارك •• سبحان الله في أمرك •• هل انتم فقط الوطنيون ••

ـ العفو ••

ومضى في طريقه ، بعد أن أغلق علينا الباب وهو لا يقول شيئا

ومن ذلك الوقت ادركنا اننا في هذا السجن لسنا وحدنا • وان هؤلاء الحراس يعلمون لماذا نحن هنا •• وان أية معونة في وسعهم تقديمها، سوف يتقدمون بها •• وطالت الايام الى أسابيع •• والاسابيع الى شهور، ثم ختمنا العام واستقبلنا عاما جديدا ••

وتغيرت الوجوه ولم يبق الا وجه المأمور الانجليزي السمين ..

وتغيرت الامور .. ولم يعد الحديث عن الاستعمار وكره الانجليز هو حديثنا وحدنا ، ولكنه كان حديث الناس في كل مكان ..

واذا كان قد فرض علينا السكون ، واحيط بنا في هـذا السجن ، وبغيرنا في أماكن اخرى من مصر ، ومن العالم العربي كله ، فان نشاطا من أنواع اخرى كان يدور .

تشرشل في القاهرة ..

كان تشرشل في القاهرة .. وكان يراجع مع قواده الخطط الاخيرة لاستقبال هجوم روميل .. وكان ينوي الذهاب الى الجبهة ، ولكن الكسندر ومونتجمري أصرا على الزيارة التقليدية لبعض المواقع ، وعلى عودته فورا الى بلاده ، فان وجوده في مصر عند احتدام المعركة كان خليقا أن يثير من الارتباك ما ينبغي أن يتجنبه المجهود الحربي ..

ولكن تشرشل عقد بين المؤتمرات العسكرية الكثيرة التي شهدها مؤتمرا آخر لم يكن يقل أهمية ولا خطورة .

كان مؤتمرا ثنائيا ..

لم يحضره ستالين أو روزفلت .. فقد فرغ من لقائهما في طهران منذ أمد قريب ..

لم يحضره فاروق أو النحاس أو أحد من المصريين في ذلك الوقت..

ولكن حضره جون ابلر ، و حسين جعفر ، وكان هو الطرف الثاني الوحيد في هذا الاجتماع الخطير . فلماذا اجتمع جون ابلر بتشرشل ؟ومن هو جون ابلر ؟

يقول عنه (ليونارد موزلي) ، رجل المخابرات البريطاني الذي تتبعه، ان قصته تعد أروع قصص الجاسوسية في الحرب الاخيرة ، وكان مسرحها الشرق الاوسط . ومدينة القاهرة على وجه التحديد ..

في الساعة التاسعة وخمس دقائق من مساء ٣ نوفمبر سنة ١٩٥٧ وقفت سيارة تحمل ارقاما فرنسية أمام المنزل رقم ٨٤ بشارع ايسستراسية في ضواحي هامبورج ..

يستطرد « موزلي » :

نزلت من السيارة فتاة شقراء تقود كلبا نامي الشعر •• واخـذت الفتاة تتسكع لبضع دقائق متطلعة الى المتجر القريب ، ثم الذي يليه،وكانت تتطلع الى النوافذ القريبة عرضا •• وما لبثت ان عادت وأومأت برأسهـا الى آخرين كانوا يتطلعون من النافذة •• وما لبث ان ظهر شاب تبـدو عليه علامات الاندفاع يتبعه آخرون ، وهرولوا الى الرصيف المقـابل ، واقتحموا البناء رقم ٨٤ وصعدوا الى الدور الرابع مسرعين •

وفي غرفة من هذا المسكن العالي ، وقف الجميع ، واستدار الشاب وقـال :

ــ انا جون ابلر ••

واخذ من حزامه مسدسا وضعه امامه قائلا :

لا تلقوا بالكم الى هذا المسدس • اني احتفظ به فقط ليشـد حزامه وسطي •• والآن ماذا تريدون مني ، ولماذا احضرتموني الى هنا••؟

قال واحد من الذين معه :

ــ ابلر القديم •• لم يتغير •• ألا تزال تجهل من انا ؟

ــ لا •• وهل يجب أن أعرفك ؟

وفي صيف سنة ١٩٤٢ تناولنا شرابا في ملهى الكيت كات، وكانت معنا راقصة اسمها ••؟

وهنا انفجر ابلر صائحا :

ــ يا الهي •• أنت رجل المخابرات البريطانية ورائي مرة اخـرى ماذا تريد مني الآن ؟

ــ لست الآن رجل مخابرات تماما ، ورجل المخابرات الوحيد بيننا هو انت •• فقد كنت جاسوسا للالمان • •أليس كذلك ••؟

ومسح ابلر وجهه ، ثم مشط شعره بأصابعه كأنما يريد أن يوقظ ذكرياته •• وبعد فترة من الوقت عادت الى شفتيه علامات الثقة بالنفس ، فمد يده الى كأسه ، وجرع جرعة كبيرة من الويسكي •• وزالت آثار التوتر من على جسده ••

قال : هذا صحيح • جاسوس الماني يعمل لحساب المانيا •• كيف

عثرت علي ؟ لقد ظننت انني أخفيت جميع آثاري •• والآن ماذا تريـد منـي ؟

وكان هذا في الواقع ما أردت معرفته عن جون (أوجوهانز) ابلر •• رغم أنني امضيت قرابة عامين في المانيا الغربية والشرقية ، أجوب النوادي الليلية والحانات في هامبورج ودسلدورف وميونيخ وكيسرليتن ، واقليم السار وبرلين ، أحاول اقتفاء أثره ••

أجرأ جاسوس الماني :

كان (ابلر) عند الملايين من الالمان اجرأ وانجح جاسوس الماني في الحرب العالمية الثانية •• وفي فترة دقيقة من فترات معركة شمال افريقيا ، قام ابلر بمهمة خطيرة لحساب « الأبوير » الخدمة السرية الالمانية •

كانت ليلة مظلمة من ليالي صيف ١٩٤٢ ، عندما كان الجيش البريطاني ــ الذي كانت القوات الالمانية تسوقه أمامها في زحفها الى العلمين ــ يتقهقر نحو دلتا النيل ••

وقبل ان ينزل روميل ضربته القاتلة بالجيش البريطاني • وقبـل ان يبدأ زحفه الساحق صوب العلمين وتقهقر البريطانيـين امامه ــ قبـل هذا كانت هناك معلومات معينة لابد من الحصول عليها ••

ولم يكن ممكنا الحصول على المعلومات المطلوبة الا من البريطانيين أنفسهم •• وكانت المعلومات المطلوبـة هي : كيف يوزع البريطانيـون قواتهم ؟•• ومن هو القائد الذي سيتولى قيادتهم في المرحلة الاخيرة ؟ وما هي الحالة التي سيكونون عليها عند بدء الهجوم الالماني عليهم ؟ •• وما هي المساعدات التي يمكن للالمان الحصول عليها من اصدقائهم فـي الجيش المصري ؟

كانت اخطر وأهم مهمة يعهد بها الالمان الى أي رجل من رجالهم في فترة الحرب •• وكان (ابلر) هو الذي وقع عليه الاختيار للقيام بهـذه المهمة الخطيرة •

وكان (ابلر) كفؤا للقيام بالمهمة ولديه من المعلومات والدراية الشيء الكثير الذي يعينه على القيام بها بمهارة •• كان شجاعا ،وشابا قوي البنية، وكان يعرف مصر معرفة وثيقة •• ويستطيع التحدث بالانجليزية والعربية•

وأهم من هذا كله ، أنه كان له أصدقاء كثيرون خلف الخطوط البريطانية..

في قلب القاهرة :

ومن يونيو ١٩٤٢ ، كان ابلر (السهم) المغروس في كياننا .. كان يتحرك بحرية في مصر كلها ويتناول عشاءه في النوادي المختلفة ومع الضباط البريطانيين والموظفين المدنيين في مقر القيادة البريطانية بالقاهرة.

كان (ابلر) من المغرمين بارتياد الملاهي والصالات الليلية في القاهرة، حيث الراقصات المصريات الاخصائيات يعرضن رقصاتهن الخلابة على الباشوات والاغنياء والضباط البريطانيين . ونشأت بين (ابلر) واحدى هؤلاء الراقصات علاقة وثيقة .. وكانت تلك الراقصة هي (حكمت فهمي) .. التي لاشك ان كثيرين من رجال الجيش الثامن البريطاني يذكرونها جيدا .

وكان ابلر يرتدي في بعض الأحايين بدلة عسكرية بريطانية ، وفي أحايين اخرى يظهر بمظهر الشاب المصري العادي ، وفي أحايين ثالثة كان يرتدي بدلة الضباط الفرنسيين الاحرار ..

وقد سبح ابلر في القاهرة المنعشة كلها ، كأنه من الرجال الضفادع الذين يعيشون في الماء دون كلل .. وذرع القاهرة كلها ، ملقيا بالمعلومات هنا وهناك أو مرسلا ما يعرف من معلومات بجهاز ارسال سري ، الى مركز الاستماع التابعة (للابوير) في الصحراء وفي اثينا وفي أزمير .

وطوال الستة أسابيع الحرجة التي استمرت فيها حملة (روميل) على القوات البريطانية في شمال افريقيا .. كان علم أحمر صغير يوضع على خريطة لدلتا النيل معلقة على حائط القيادة العامة لهتلر .. وكان معنى ذلك ان (ابلر) يرسل معلوماته من القاهرة ..

ولعل مما يثير الكثير من الدهشة ان الالمان يلعنون اليوم (ابلر) .. ولكن الكثيرين منهم يرون اليوم ، بل يعتقدون ، انه لو كان (روميل) على رأس جيوشهم قد تصرف بنفس الحكمة التي كان يتصرف بها جاسوس (ابلر) وراء الخطوط البريطانية ــ لكانت مصر .. بل افريقيا ملك أيديهم .. بل ربما أيضا كانوا كسبوا الحرب كلها ..

ولكن هذا الاعتقاد لا يستند الى أساس قوي كما سيتبين في هذه القصة ..

واذا كان (جو ابلر) قد ساعد أحدا على كسب الحرب ، فهو قد ساعد البريطانيين ..

والواقع انه هو نفسه لم يكن يعلم ذلك ، وهو حتى الآن لا يعلم الى أي حد زود هذه القصة باكبر التفصيلات اثارة ..

ولكن قبل هذا كله من هو (جون ابلر) ..؟

لقد ولد في (كيسرسلوتن) بالسار ، في سنة ١٩١٤وكبر في ظل الاحتلال البريطاني للمنطقة وهو الاحتلال الذي استمر عقب انتهاء الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) ، وكمعظم الاطفال الالمان لم يجد تشجيعا من أحد على حب الغزاة .

وعندما كان ابلر صبيا ، عرضت على والدته الارملة وظيفة (وصيفة) في أحد فنادق بورسعيد .. ولما سافرت الى مصر أخذت معها ولدها (ابلر) .

وكانت الام جميلة ، ذكية وما كادت تستقر في بورسعيد ، حتى التقت بمحام مصري ، سرعان ما أسرته ، وتزوجت منه .. وكان ذلك المحامي هو الاستاذ صالح جعفر ..

وتغيرت حياة الام وولدها تغيرا شاملا منذ تم ذلك الزواج ..

ولم يمنح الزوج المصري ـ وقد اصبح فيما بعد قاضيا ـ اسمه لزوجته وحدها ، بل منحه كذلك لابنها (ابلر) .. فاصبح اسمه (حسين جعفر) .. وأرسل الابن الى مدرسة في بورسعيد ، ثم في الاسكندرية وبعدها في القاهرة .. حيث تعلم العربية والانجليزية واصبح يتحدث ويكتب بهما في طلاقة .

ولكن (حسين) لم ينس أبدا وطنه ، ولم يضعف حبه لالمانيا .. كذلك لم تخف حدة بغضه للبريطانيين الذين نشأ على كراهيتهم بوصفهم الغزاة المحتلين لوطنه الاول .

وهكذا نشأ (حسين جعفر) وقد عرفت عنه المقدرة والكفاية والذكاء الحاد ..

وظل حسين جعفر (ابلر) طوال السنوات التي سبقت الحرب العالمية الثانية في عام ١٩٣٩ يعيش كما يعيش أي شاب مصري مترف •• كان يقامر بمبالغ كبيرة في كازينو سان ستيفانو ، ويخسر •• دون أن يتأثر ، وكان يتردد على صالات الرقص •• ولكن صلته كانت وطيدة بفتاتين راقصتين اصبحتا فيما بعد من شهيرات الراقصات المصريات •• وصاحبات الاسماء اللامعة بين افراد القوات البريطانية في مصر •• وهما (تحية كاريوكا) ، و (حكمت فهمي) •• اكثر الراقصات المصريات إثارة وقدرة على اداء الرقص الشرقي •

اول اتصال لابلر بالالمان ••

وقام (حسين جعفر) بأول اتصال بالمخابرات الالمانية •• وكان ذلك في عام ١٩٣٩ قبل اسابيع قليلة من نشوب أزمة ميرنيخ وكان يقضي إجازة في عين صوفر بلبنان ••

وبين الحانات والصالات التي كان يتردد عليها (حسين جعفر) كان يرى دائما وجه فتاة شابة شرقية •• فيها كل الجمال وكل السحر الذي عرف عن الشرق •

وكانت تعرف في نوادي لبنان وصالاتها باسم « سويان » وبأنها جاءت من الهند الصينية •• ورأى (حسين) فيها أجمل من وقعت عليها عيناه ، فحاول جهده التعرف اليها •• بعد ان لم يترك وسيلة من الوسائل الا اتبعها ليلفت نظرها الى اعجابه الشديد بها •• ولكن (سويان) لم يكن لديها وقت تضيعه مع الرجال سواء كانوا شبانا أو شيبا •• كان كل ما يعنيها هو مقدار الثراء الذي يتمتع به الرجل •

وهكذا كانت النظرة التي يراها (حسين جعفر) في عينيها نظرة لا مبالاة فيها ••

الى ان جاء مساء •• غير حياته كلها •

كان يجلس يكاد الضيق والضجر يقتلانه وهو في البار ، عندما رأى سويان تدخل الحجرة •• فتطلع بكيانه كله •• الى الثوب الشرقي الرائع الذي كانت ترتديه ، فيبرز فتنتها ابرازا مثيرا جامحا •• ولاحظ حسين جعفر ان سويان هذه المرة ـ ليس في صحبتها احد من شيوخ الزيت ،وانها

ليست عصبية •• وانها تبدو على حقيقتها •• امرأة متوسطة العمر ،فاتنة••

وحدث الحدث الاكبر •• فقد لاحظ (حسين جعفر) أيضا ان (سويان) عندما رأته ينظر اليها •• ارتسمت على شفتيها ابتسامةراضية•• داعية ••

وعندما تشكك (حسين جعفر) فيما يرى ويظن ، رأى (سويان) تتجه اليه • وقالت سويان :

ــ أرجوك •• اننا جميعا هنا أصدقاء •• فهل أكون متطفلة اذا طلبت اليك ان تدعوني للرقص ؟

وبعد عشر دقائق جميلة ناعمة ، سارت (سويان) مع حسين (ابلر) الى إحدى الموائد •• حيث كانت تجلس سيدة كبيرة تراقبهما قالتسويان: هذه (بولا) ••

وردت بولا : اجلس •

وعندما اطاع ابلر (حسين جعفر) الدعوة ، اشارت (بولا) بيدها الى (سويان) قائلة :

ــ حسنا ••

وكانت اشارة (بولا)واضحة المعنى ،ودون كلمة ، انسحبت(سويان) ببطء •• تتبعها عينا (حسين) في حين قالت بولا :

ــ سيكون لذيك متسع من الوقت لذلك •• فيما بعد ••

ثم قالت ــ في جد واضح ــ بالالمانية :

ــ جون ايفر •• هل تحب وطنك ؟

وتردد ابلر قبل ان يقول :

ــ انت المانية ؟

فأومأت برأسها بالايجاب • وقال ابلر :

اجل •• أحب وطني ••

ــ وهل تحبه الى حد العمل معنا ضد البريطانيين •• وأن تؤدي خدمات معينة ؟ خدمات قد تكلفك حياتك في بعض الاحيان ؟

وأومأ ابلر بالايجاب •• وقد اختفت عن وجهه جميع علامات الاستهانة •• وقال :

ـ لم تكوني لتسأليني كل هذه الاسئلة لولا انك تعرفين ما سأجيب به عنها •• ولكن من انت ؟ وماذا تريدين مني ان افعل ؟

قالت (بولا) بعد ان رشفت من فنجان القهوة رشفة كبيرة :

ـ ستعرف من أنا في الوقت المناسب ، ونحن الآن لا نريد منك شيئا ، سوى الوعد بأن تكون رهن اشارتنا عندما يحين الوقت المناسب•• ولن يطول انتظارك لهذا الوقت المناسب ، وعندما سندعوك الى ما نريده•• اما الان فاستمر فيما انت فيه •• ولكن لا تنس أبدا أنت يا (جون ابلر) أنك ألماني ، وأنك من هذه اللحظة تعمل من أجلنا •• ومعنا ••

ـ وأشارت (بولا) بيدها اشارة من يعني ان حديثه قد انتهى ، ثم التفت الى ناحية البار حيث كانت (سويان) تجلس وفي يدها كأس شراب والى جوارها أحد الباشوات •• وقالت :

ـ تستطيع الان ان تستأنف من حيث انتهيت قبل ان نلتقي •• وارتسمت ابتسامة باهتة اضاءت ملامح وجهها هنيهة ـ ثم استطردت :

ـ استأنف ما كنت فيه مع هذه القطة السيامية الصغيرة •• ولا تقلق من المنافسة ، فقد أمرتها بأن تترك الجميع من أجلك ••

ونهض ابلر وهو مشتت التفكير بعض الشيء •• واتجه الى ناحية (سويان) •• صاحبة الاسنان البيضاء والفم المبتسم الاحمر ،والعينين الصافيتين الصديقتين ••

وقد انقضت عدة شهور قبل أن يدرك (ابلر) ان تلك السيدةالكبيرة التي تحدثت اليه هي هي (فروابولا كوخ) •• الخصم العنيد لبريطانيا في المعركة العنيفة التي نشبت بين بريطانيا والمانيا في الشرق الاوسط في تلك الايام الحرجة قبيل نشوب الحرب ••

ولم يدرك ابلر (حسين جعفر) عند ذاك انه اصبح عضوا في(الابوير) جاسوسا من جواسيسه يحتفظ بـه لمهمات معينة ، بل لاحـدى المهمات الخطيرة •• لم يدرك (ابلر) ذلك حتى وجد ان جميع حسابه فيالفندق وفي الصالات والنوادي قد سدد وان ديونه كلها دفعت •

رسالة من السفارة الالمانية ..

وقبيل نشوب الحرب مباشرة وصلت رسالة من السفارة الالمانية الى (جون ابلر) .. وما كاد يتلقى الرسالة حتى سافر في الحال بالقطار الى حيفا ، ثم اتجه شمالا ليلحق بقطار اكسبريس طوروس واتصل (ابلر) مرتين بوالدته في القاهرة تليفونيا ، وتحدث اليها حديثا يبدو للمستمع انه مجرد اخطار لها عن صحته وأحواله وتطمينها على مركزه .. ولكنها كانت في الحقيقة معلومات عن اتصالاته بالسفارة الالمانية .

وسافر ابلر (حسين جعفر) الى برلين حيث قدم معلوماته الى أحد مكاتب الابوير ، والحق بأحد الاقسام التي تتفق ومؤهلاته ومعرفته باللغتين العربية والانجليزية معرفة دقيقة .. وضع اسمه ومؤهلاته موضع التقدير . لاستخدامهما في مهام معينة قادمة .

وفي انتظار تلك المهام راح (ابلر) يساهم في ادارة وتوجيه الجاسوسية الالمانية في الشرق الاوسط ويعد الاذاعات ويوجه الدعاية المضادة البريطانيين .. وساهم ابلر في استعراض الموقف مع الجواسيس القادمين من سورية والعراق وفلسطين .

ودرس (ابلر) الشفرة والتخريب والتدمير بوسائلهما المختلفة ، وفلسفة الاشتراكية الوطنية كما تلقى التدريبات اللازمة للقتال وتحول (ابلر) الى خبير في استخدام السكين والحبل والسم . بسرعة وعزم ودون مراعاة لاي شيء آخر سوى وطنه ومصلحة هذا الوطن .

وفي الاسابيع الاولى من عام ١٩٤٢ ارسل (ابلر) في أول بعثة له .. ولم يكن (ابلر) نفسه يعلم شيئا عن طبيعة هذه البعثة ، اللهم الا انها مجرد رحلة يقوم بها بعد المدة التي امضاها في برلين تحت وطأة الحرب ..

وكانت الاوامر التي صدرت الى (ابلر) ان يركب الطائرة الى بلغراد ، ثم يركب القطار من هناك الى استانبول .. وهناك يقدم نفسه في فندق بارك الى زوجة المانية لأحد المراسلين الايطاليين .

ونفذ (ابلر) الاوامر التي صدرت اليه .. وهو لا يعلم عن مهمته الا انها « لمجرد الحصول على معلومات . » وكانت تركيا مركزا من مراكز الجاسوسية الرئيسية في العالم اذ كانت هي الدولة المحايدة الوحيدة التي

تربط بين المانيا النازية والشرق الاوسط الذي تحتله بريطانيا •• وكان كلا الجانبين بريطانيا والمانيا ، يستخدمها كقاعدة هامة من قواعــد الاستماع وجمع المعلومات •• عن الطرف الاخر •

وقد نشأت في تركيا ــ في تلك الايام ــ منظمات أو جماعات للتجسس، يتردد أفرادها على النوادي والحانات والصالات يستمعون الى المعلومات ويجمعون ما يستطيعون الحصول عليه منها ثم يبيعونها لمن يدفع الثمن الاعلى •

ولكن لو حاول هؤلاء ان يبيعوا معلوماتهم الى كلا الطرفين كما كان يحدث في بعض الاحيان فانهم لم يكونوا يجدون فسحة من الوقت يبقون فيها على قيد الحياة ليأسفوا على ما فعلوا •

جثة في البوسفور ••

ولم يكن من الامور المستغربة أو المثيرة للدهشة العثور على جثــة فتاة شابة جميلة ترقد في البوسفور •• قتيلة ، ولم يكن البوليس السري التركي ليجهد نفسه كثيرا في تعرف أسباب القتل ما دامت الجثة ليست لتركي أو تركية ، وما دام تركي لم يمس ••

ولما كان الطقس في ذلك الوقت من السنة معتدلا جميلا ، فقد قرر (ابلر) ان لا يتعجل القيام أو الانتهاء من مهمته •

ودخل الى البار •• هكذا وجد نفسه مسوقا الى احد البارات بحكم طبيعته وحياته الاولى ، وطلب لنفسه شرابا •• كمــا طلب شرابا لفتــاة وجدها تجلس في البار أيضا •• كان اسمها (ايلينا اندرو) ، وكانت راقصة رومانية تعتمد على بيع ما تحصل عليه من معلومات الى الاطراف المعنيــة بالامر من الجانبين •• الحلفاء وألمانيا ــ ولقد غادرها (ابلر) بعــد ان شرب معها الكأس الثانية ، ولكنه قبل ان يمضي كان قد اتفق معها علــى لقاء •• في المساء نفسه •

وعاد (أبلر) الى فندقه وقد رضي عن سير الامور حتى الآن ••لقد تناول كأسين ممتعتين وغداء طيبا وسيقضي المساء مع فتاة جميلة •

ولم يكن (ابلر) يعلم ان اثنين من رجال الابوير كانا يتبعانه علــى مسافة لا تزيد عن مائتي ياردة •• وما كادت تمضي عليه في غرفته نصف

ساعة ، حتى اتصلت به (فراوبولا كوخ) •• وقالت بولا تخاطب (ابلر)•

ــ انت تدرك ان ساعة النصر في الشرق الاوسط قد اقتربت • وان عليك انت أيضا ان تذهب الى هناك لتساعد على تحقيق هذا النصر ••

ومضت (فراوبولا) تقول :

ــ نحن في حاجة قصوى الى معلومات من القاهرة ، ونحن لهذا لا نريد ان نضيع اي وقت للحصول على هذه المعلومات •• وقد فشل مبعوثانا الاخيران (موهلنبروخ ــ وكلين) في الحصول على هذه المعلومات •• ومات (موهلنبروخ) •

والآن •• كل اعتمادنا ــ في الحصول على المعلومات المطلوبة عليك أنت •• إن القاهرة هي مهمتك •• ومع ذلك ما نراك تفعل ؟•• بعد ساعات قليلة من وصولك ، نجدك تسرع الى شرب الخمر • والى جامعةالمعلومات التافهة والتي ستبلغ البريطانيين بكل ما قلته لها •• ماذا قلت لها ؟

وضحك ابلر في مرح ظاهر وقال :

ــ ماذا ؟ لم أقل لها اكثر من انني كنت أعيش في مصر •• وهيلاتعرف عني شيئا اكثر من ذلك •

ــ حسنا ، دعنا اذن نبدأ بالعمل المطلوب منا • ستسافر سريعا الى القاهرة ولدي هنا قائمة باسماء مبعوثينا ووكلائنا الذين ستتصل بهم في مصر •• واليك تقريرا عن الحالة في مصر ، وبين ضباط الجيش المصري ، وهذه هي قائمة باسماء الذين ستتصل بهم في القاهرة ليمدوك بالمعلومات•• وهاك موجزا عما ستفعله عندما تصل الى هناك ••

وظلت (فراوبولا كوخ) ساعتين تتحدث الى (ابلر) ، موجزة له آخر تطورات الموقف ، كما ابلغت اليها من عملائها ووكلائها ، عما يدور خلف خطوط البريطانيين في مصر وملقية اليه باسماء وعناوين ، وشارحة له أمثلة على تصرف القوات البريطانية •• عرضا عاما للحياة في مصر •

وبعد أن انتهت (فراوبولا) من حديثها قالت له محذرة :

ــ لا تتحدث الى أي أحد••

وبعد ٤٨ ساعة اخرى كان (ابلر) قد عاد الى برلين ليبقى حتىتصدر اليه الاوامر بالمضي في مهمته الخطيرة المطلوبة ••

وعاد ابلر الى استانبول ، حيث حدث شيء •• شيء تلعب فيه الاقدار دورا لا يدرك أحد كنهه •

ويقول (ليونارد موزلي) ، الذي أرخ لمعركة العلمين — إنني في نفس الوقت كنت قد ذهبت الى تركيا والى استانبول بالذات •• وكان الفندق الذي اخترته بسيطا ولكنه محترم •• وتركت حقائبي في الحجرة التي خصصت لي وتوجهت الى السفارة البريطانية لأشاهد احد الافلام البريطانية •• فقد كانت الحكومة التركية في حرصها على حيادها ، تمنع عرض افلام الطرفين المتنازعين في دور السينما العامة •

وعدت الى الفندق في نحو الساعة الواحدة صباحا ، ومن الحجرة المجاورة سمعت الانتحاب •• وأصوات ظننتها مناجاة ومحاورات غرامية•• فهززت كتفي ومضيت الى غرفتي •• حيث نمت نوما عميقا •

ايقظوه في السادسة ••

وفي السادسة صباحا ايقظتني هزات شديدة في كتفي من رجل يرتدي قبعة •• كان أحد رجال البوليس السري التركي ، وكان يمسك بجواز سفري في يده ••

وسألني رجل البوليس السري في غلظة واشتباه — عما اذا كنت سمعت أية جلبة أو ضجة في الحجرة المجاورة لي في الليلة الماضية ، فرويت لهم ما سمعت •• وما ظننت ••

وضحك رجل البوليس وزميله من استنتاجي ، وصاح :

— محاورات غرامية ؟••

— هل هذا هو ما ظننت انه يقع في الحجرة المجاورة ؟•• تعال ••

وجرني من يدي جرا الى الحجرة المجاورة •• ورأيت على الفراش جسما راقدا •• كان جسد امرأة •• أو ما كان قبلا جسد امرأة •• فلم تعد بينه وبين هذا الكيان صلة •• والى جوار الفراش كانت مائدة صغيرة عليها فنجان قهوة لا شيء فيه •• ودون اي مبالاة أو خشية وببرود شديد، أدار أحد الرجلين الجثة المشوهة الى ناحيتي لأراها •

وقلت : لا •• لست أعرفها •

ولكنهما كانا يعرفان من هي ••

ومد احدهما يده الى علبة سجاير أخرج منها « كارت » •• ومد يده به الي •• فقرأت فيه :

« جعفر •• مصر •• أحد عملاء البوشمه » •

وانتزعها الرجل من يدي انتزاعا ، ثم دفعني الى خارج الحجرة ••

ولم أعرف حقيقة الامر الا بعد ١٢ ساعة ، عندما ابلغني صديق اسمه (ماكفرسون) — وكان من رجال الاعمال في استانبول بأن الجثة كانت للفتاة التي قابلها (حسين جعفر) في المرة الاولى • وشرب معها كأسين وتواعدا على اللقاء معها في المساء •• الفتاة (الينا اندور) •• وقد قتلت بسم الاستركنين الذي يسبب عذابا شنيعا لشاربه •

وكان اسم « جعفر » جديدا تماما على المخابرات البريطانية •

وفي برلين — في ذلك الوقت كان احد رجال الابوير البارزين وكان يعرف بل ما يزال يعرف حتى اليوم باسم الملاك • وهو ما يزال يعمل حتى اليوم لالمانيا •• كان (الملاك) يلقي الى (حسين جعفر) بآخر التعليمات الخاصة بمهمته الهامة في القاهرة ••

وفي الثاني من مايو عام ١٩٤٢ طار (ابلر) — حسين جعفر — الى مركز قيادة (روميل) في افريقيا يحمل معه ثمانين الف جنيه استرليني في حقيبة ، وبعض النقود الذهبية ••

عملية كوندور ••

كانت عملية « كوندور » كما اطلق عليها منذ ذلك الوقت على وشك ان تبدأ •

ونترك الآن حسين جعفر في مركز قيادة (روميل) لنسرع الى القاهرة نلقي نظرة على ظروفها وأحوالها ••

وفي بدء هذه المذكرات اشرنا الى وجود معتقلات خصصت للمصريين الذين كان الانجليز يخشون خطرهم عليهم ، ومعتقلات للالمان والايطاليين •

اللواء امام ابراهيم •• يتكلم :

من رأي اللواء (محمد ابراهيم امام) الذي كان الرجل الاول بجانب

(سليم زكي) ، وجهاز البوليس السياسي •• كان من رأيه ان الحرب لم تفاجيء الحكم في مصر ••

يقول في مذكرة مكتوبة ما يلي بالنص :

يخطيء من يظن ان الحرب العالمية الثانية كانت مفاجأة لنا في مصر، وانما اقصد بكلمة لنا ــ جهاز الامن السياسي ــ الذي كان يتبع رأسا حكمدار البوليس الانجليزي ، وموضع ثقة وكيل الداخلية الذي اطلقت يده في شئون الامن الداخلي لمناسبة حالة الحرب فأصبح قوة يعمل حسابها لا في شئون وزارته وحدها ، بل كانت ترجع اليه كل الوزارات في كثير من شئونها •

ولكي يقتنع القاريء ان الحرب كان مقررا قيامها قبل أول سبتمبر سنة ١٩٣٩ ، وهو يوم اعلانها رسميا ، وما صدر الينا بصفة سرية قبل هذا اليوم بوقت طويل من المرحوم (حسن رفعت) وكيل الداخلية وقتئذ ، بناء على طلب الجانب البريطاني من اعداد بيانات بكل ما يتعلق بالجالية الالمانية من نشاط سياسي واجتماعي ومالي •

وقد أعددنا هذه القوائم ونوقشت ، حتى اذا ما جاء يوم اعلان الحرب بصفة رسمية أعلنت حالة الطواريء •• والتي عرفت فيما بعد بالحالة(ج) والتي بمقتضاها تتجمع جميع قوات البوليس من ضباط وصف عساكر على أهبة الاستعداد في أقسامهم ، أو الاماكن التي تعين لهم •

وكان مكان التجمع في تلك الليلة حديقة الازبكية •

وقد عسكرت فيها جميع القوات دون ان تعرف مأموريتها لأنها كانت الى ذلك الوقت سرية •

حتى اذا ما حانت ساعة الصفر وهي ١٢ عند منتصف الليل اعطيت التعليمات للقوات لتنفيذ مأموريتها التي تقضي باعتقال جميع أفراد الجالية الالمانية من رجال ومصادرة كل ما يوجد لديهم من أسلحة ومستندات وأشياء ثمينة • واغلاق مؤسساتهم والتحفظ عليها •

ولقد لفت نظر القوات الى ترجيح مقاومة المطلوب القبض عليهم ، لان المعلومات التي وصلتنا عن طريق الجانب البريطاني كانت تؤكد عدم تسليمهم بسهولة ومقاومتهم ••

ولكن حدث ان قبض على الجميع وصودرت أسلحتهم ، ولم تقع أية مقاومة في أثناء القيام بتنفيذ هذه الاوامر ..

والذي نرجحه أن الجالية الالمانية بمصر لم تكن تتوقع قيام الحرب في هذه الفترة بدليل ان كثيرين من أثريائهم الذين يسافرون للخارج صيفا تركوا منازلهم كاملة بها أموالهم وأسرارهم وكثير من الوثائق الهامة .

وكنا قد أعددنا لهم معتقلا هو المدرسة الايطالية التي تقع في شارع ٢٦ يوليو بجوار مبنى شركة المياه . وضربت حوله حراسة قوية .

ولم يقبل المعتقلون بادىء الامر تنفيذ أي تعليمات تصدر اليهم من رجال البوليس .

وقد تم التفاهم مع رؤسائهم فرتبوا نظاما داخليا بينهم تولوا فيه بأنفسهم ادارة المعتقل ، من اعداد الطعام وغير ذلك . وكانوا يصرحون بان اعتقالهم لن يدوم الا أياما لثقتهم التامة بالنصر .

ويستطرد اللواء امام :

أما مؤسساتهم فقد تسلمتها الحراسة التي عين لها الاستاذ (أحمد صديق) . وكان الاهتمام وقتها بالادوية ــ وخصوصا مستحضرات باير لما كان لها من شهرة ــ بالغة حتى بلغ ثمن أنبوبة الاسبرين في ذلك الوقت جنيهـا ..!

وقد نقل جزء كبير من هذه المستحضرات الى صيدلية القصور الملكية ، كما نقل جزء منها الى مستشفى المواساة بالاسكندرية .

وتمت كل هذه الاجراءات بمنتهى السرعة ، وتم وضع اليد عليها دون عناء ، اذا استثنينا البنك الالماني ، فعندما وضعنا يدنا عليه ، لم نجد مفاتيح خزائنه ، ورفض المسئولون عنه تقديمها أو اعطاء أي بيانات عنها . وكانوا يعتقدون انه يستحيل فتحها ، وخصوصا الخزانة الكبرى بغير مفاتيحهـا ..

وأخيرا ، بعد أن فقدنا كل أمل في الحصول على المفاتيح ، استعنا بخبير الخزائن الشهير مسيو (جوزيف) فقام بفتحها جميعا دون عناء كبير عدا الخزانة الكبرى ، فقد بذل فيها مجهودا كبيرا لعدة ايام .

ويمضي اللواء امام :

وكانت المهمة غير شاقة بالنسبة الى الالمان اقلة عددهم الا انه عند اعلان ايطاليا الحرب وصدور الامر باعتقال أفراد جاليتها ، فقد وجدنا انفسنا أمام جيش جرار • فتم الاتفاق على تقسيمهم الى ثلاث فئات :

أ ـ ب ـ جـ ، حسب نشاطهم السياسي ، ثم بدأنا باعتقال الفئة (أ) التي تعد أخطرهم لانهم من الشبان ذوي الحماسة •

وقد استمرت فترة الاعتقال لعدة أشهر • وكانوا ينقلون الى معسكرات بريطانية بالصحراء حيث تتولى السلطات البريطانية أمرهم ••

وكما اتبع مع الالمان اتبع مع الايطاليين في مصادرة أموالهم وعين المرحوم (زكي الابراشي) حارسا عليهم ••

وجاء دور المصريين ••

ويذكر اللواء امام :

وكما اعتقل أفراد هاتين الجاليتين اعتقل بعض المصريين ممن لهم نشاط داخلي كانت تراه الوزارة القائمة مناوئا لسياستها اذ تطلب السلطات البريطانية اعتقالهم لقيامهم بنشاط يعرقل مجهودهم الحربي •

وقد خصص لهؤلاء معتقلان أحدهما بالزيتون والاخر بماقوسة بالمنيا • هذا عدا بعض أماكن كالسرو والعياط لافراد معدودين (كعباس حليم ، وعمر الفاروق ، وعلي ماهر ، ومكرم عبيد) •

وقد شكلت لجنة للنظر في شئون المعتقلين مؤلفة من المرحوم (حسن رفعت) وكيل الداخلية ، واللواء (رسل) حكمدار بوليس مصر ومندوب من السفارة البريطانية وآخر من القيادة • وكانت هذه اللجنة تعقد كل أسبوعين إما في القاهرة أو في الاسكندرية •

وكانت معنوية المعتقلين عالية حتى يوليو سنة ١٩٤٢ قبل انهزام الالمان في العلمين •

ويمضي اللواء امام :

وبعد ذلك كثر عدد الاسرى ، ووزعوا على معسكرات مختلفة فكانوا يهربون منها ، ويجيء أغلبهم الى الريف المصري • فكان يرحب بهم أهله ويؤوونهم لفترات طويلة •

فصدر تصريح بمعاقبة كل من يؤوي أسير حرب •

كما كانت تعطى مكافأة لكل من يقدم أو يرشد عن هؤلاء الاسرى •

واستمرت هذه الحالة حتى انتهت الحرب في أواخر عام ١٩٤٤ ، فأفرج عن المعتقلين تدريجيا • الى هنا انتهى جانب من ذكريات أحد المسئولين الكبار في هذه الفترة الدقيقة ، وهو الذي سيرد ذكره كثيرا •

هذه هي الاجراءات البوليسية في خطوطها العريضة ••

ترى ماذا كانت حقيقة السياسة التي تسير عليها الحكومة المصرية ••؟

اننا كنا في أيام الحرب نسمع راديو لندن تتوقف اذاعته لكي يعلن انضمام (حكومة زنجبار) للحلفاء في اعلان الحرب على المانيا ، ويعد الانجليز هذا الاعلان ضربة قوية من ضربات الحرب السيكولوجية ، أو تعبئة الرأي العام العالمي ضد المانيا •

فكيف تلكأت انجلترا •• ولم تستغل الموقف ، وتبدي رغبتها كتابة ــ في انضمام مصر الى معسكرها المحارب ••؟

ان هناك عوامل كانت أقوى من رغبة الانجليز ، عاقت تحقيق هذا الامل •• هذه العوامل هي القوى الوطنية الكامنة في الشعب المصري ، والتي كان الانجليز يعلمون عنها أكثر مما يعلم القصر أو الحكومة • وهذه القوى كانت منبثة في أكثر من قطاع ، ومن منظمة •

من ذكريات (انور السادات) ••

ولنبدأ بالقوة التي سببت للانجليز الصداع رقم (١) •

انها قوة الشباب الوطني في الجيش المصري •

يقول السيد (أنور السادات) عن تاريخ هذه الفترة في الجيش المصري : ان قوات الحركة الثورية ضد الانجليز تكونت في عام ١٩٣٨ ، عندما اجتمع مع (جمال عبد الناصر) في منقباد فريق من الضباط الشبان، وأخذوا يراجعون حياتهم وحياة بلادهم ، وكان اليأس قد دب الى فريق منهم حتى فضل أن يستقيل من الخدمة •

وما لبث ان صدرت أوامر بنقل أفراد هذه المجموعة •• ثم بدأت الحرب •

ويستطرد :

ولم تعد الايام تمر هينة ولا رقيقة ، فقد بدأت احداث كثيرة تقع ،

بدأت بالحادث الاول عام ١٩٤٥ وكان ميدانه ميدان القتال في مرسى مطروح ..

كنا قد نقلنا جميعا من منقباد وتفرقت جماعتنا بين وحدات الجيش في مختلف أنحاء البلاد وبين السودان العزيز .

وقد كان السودان من نصيب (جمال عبد الناصر) .

وسنحت اول فرصة لنا في مرسى مطروح ، ولكنها كانت فرصة مفاجئة لم نستطع أن نحقق منها هدفا كبيرا ، واستطاعت هي ان تكشف للانجليز عن وجود اتجاه عملي ضدهم في جيش مصر ..

وكان الدفاع عن هذه المنطقة منقسما بين ثلاثة قطاعات :

قطاعان بريان يحتلهما الجيش المصري ، وقطاع بحري يدافع عنه الانجليز ، كنا نحارب رغم ان مصر لم تكن قد أعلنت الحرب .

كان موقف مصر من هذه الحرب موقفا مائعا ولم يكن من السهل تحديده في صورة مفهومة واضحة .

وكان من المؤكد ان هذا الموقف إن تحدد فلن تكون مصر هي التي تحدده على التأكيد .

كانت سياسة مصر التي أعلنها رئيس حكومتها عن اعلان الحرب هي سياسة تجنيب مصر ويلات الحرب .

ولم تكن مصر تستطيع ان ترسم لنفسها سياسة أوضح من هذه أو أكثر تجسيما وتحديدا فقد كانت هناك المعاهدة وكانت جنود الاحتلال تملأ بلادنا وطائراتهم تجثم على صدور مطاراتنا ، وتنطلق منها الى الميادين القريبة الحافلة بالموت ، ودباباتهم تختال في شوارعنا ومن فوقها جنود حمر الوجوه ومخازن ذخيرتهم ترصع أرجاء الوادي بالبارود والقنابل وأسلحة الدمار ، وكانت أرضنا فوق ذلك حقلا كبيرا يشرب حبات العرق من جباه آبائنا وإخوتنا ليخرجها قمحا للغاصبين .

وكان موقفنا نحن ضباط الجيش وجنوده هو الموقف الضنك ، فسياسة تجنيب مصر ويلات الحرب لم يكن معناها اننا لن نحارب فعلا .. وكان الذي يشقينا هو ان نسأل انفسنا :

نحارب من أجل من ؟

وهكذا نرى من هذه العبارات روح القلق والحيرة تسيطر على شبان القوات المسلحة •• وهي الروح التي أدت الى عصيان أوامر قيادتها في شهر سبتمبر سنة ١٩٣٩ التـي كانت تقضي بأن تترك اسلحتهـا للقوات البريطانية في القطاعات التي تحتلها بالصحراء الغربية وتنسحب الى الدلتا •

ورفضت قواتنا تسليم الاسلحة وكان من رأي البكباشي (أحمـد حسن) وجميع الضباط الصغار حتى رتبة يوزباشي ان يحتلوا في انسحابهم المواقع الهامة في البلاد ولكن بعد دراسة الموقف أو تقديره على حد تعبير العسكريين ، رأوا ان تقتصر حركة الغضب على عدم تسليم الاسلحة وتحدي القيادة المصرية التي كانت تذعن عند تلقي هذا القرار للاوامر البريطانية •

ويقول (أنور السادات) :

ان الانجليز لم يكتشفوا من خطة (أحمد حسن) شيئا ، ولكنهم في الوقت نفسه أدركوا سيطرة روح العداء لهم على ضباط الجيش الصغار ، وأيقنوا ان هذه الروح قد تلعب دورا أخطر من ذلك الدور في يوم قريب•

ولم تكن موجات الغضب تتجمع في صفوف الجيش فقط ، ولكـن كانت لها صورها في صفوف الشعب ••

كانت مصر الفتاة والحزب الوطني والاخوان المسلمون من العناصر الحية المتحركة في صفوف الامة •

وكان كثير من أفراد الشعب ، من جميع الطبقات يؤدون هذه الحركات كرها في الانجليز وتطلعا الى يوم الخلاص منهم •

مهندس المساحة في حلوان ••

وفي تاريخ هذه الفترة حوادث كثيرة مثيرة لعل من أغربها حـادث مهندس المساحة في حلوان ، والمرحوم الدكتور (مصطفى الوكيل) • فقد حدث أن عهد الى (مصطفى) بأن يختار مكانا في جهة مأمونة يكون مخزنا فرعيا للاسلحة التي بدأ جمعها من كل مكان وشراؤها عن طريق الاعراب من القوات الانجليزية •

واختار (مصطفى) صديقا له من مهندسي المساحة لم تكن لـه صلة واضحة بأية منظمة من المنظمات المعروفة في ذلـك الوقت • ولهـذا المهندس منزل في حلوان •

كان (مصطفى) يتسلم الاسلحة ويودعها في حقائب ويحملها بنفسه في القطار ويذهب بها الى منزل صديقه •

وحدث ذات يوم حادث من النوع الذي تدبره الاقدار وكأنه من صنع روائي بارع •

فقد كان لهذا المهندس مرؤوس في المساحة من صغار موظفيها ،وكانت لهذا المرؤوس علاقة مع سيدة المانية •

ويظهر ان الفتاة الالمانية كانت تلقى من صاحبها معاملة لاترضاها ، وفي ذات ليلة ذهبت الى حلوان لتشكو لمهندس المساحة مرؤوسه •

وكان صديقها الشاب الصغير يتتبع خطواتها ويلاحقها في كل مكان ، وما أن رآها تركب قطار حلوان حتى أسرع وراءها في القطار التـالي ، ولم يخطيء ظنه عندما طرق منزل المهندس فوجدها هناك مع المهندس ••

وما تبادر الى ذهنه في ذلك الوقت هو أن الفتاة هجرته الىرئيسه ، أو انها كانت على علاقة سابقة به • استبد به شيطان الغيرة • فما كان منه الا أن ذهب الى بوليس حلوان وأبلغه ان مهندسا وفتاة المانية في منزل معين يدبران خطة لاحراق مطارات الانجليز في حلوان •

وأمسك بالتليفون وأخذ يتحدث هنا وهناك ، وكان من بين الذين تحدث معهم الدكتور (مصطفى الوكيل) •

وكانت الصدفة هي التي ساقت (لمصطفى) هذه الانباء •• وقدر على الفور هول الكارثة التي يمكن أن تقع اذا وصل البوليس الى المنزل وهاجمه وفيه الاسلحة ••

وركب (مصطفى) سيارة أجرة ، وضاعف لصاحبها الاجر كي يقطع المسافة الى حلوان في نصف الوقت • وهناك أمام البيت والدنيا ساكنـة وجد كل شيء هادئاً اللهم الا جنود من البوليس المصري يتطلعون الى أرقام البيوت وفي يدهم ورقة مكتوبة •

ووقفت سيارة الاجرة ، وقفز (مصطفى) يقطع الدرجات وثبا وعاد يحمل حقيبتين كبيرتين ثم عاود الكرة ، وحمل الباقي وأودع الجميع في السيارة •• وكان صاحبه المهندس وراءه يحاول ان يكلمه أو يفهم منـه شيئا •• ولكن (مصطفى) كان في شغل عنه ••

لم يكترث البوليس الذي يبحث عن المسكن للسيارة ولا للحقائب وظن الامر خاصا بمسافر كاد القطار يفوته • وما أن انطلقت سيارة الاجرة حتى كان البوليس الحربي الانجليزي يحاصر المنطقة بدوره •

ان هذا الحادث بغرائبه يشبه معنى من معاني قصة الغار في سيرة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام عندما نسج العنكبوت نسجه حتى يصرف عنه انظار المطاردين • فكلاهما وقع بتدبير الله عز وجل فكان الأول معجزة للرسول صلى الله عليه وسلم ، والثاني معونة لوطني مخلص •

وما حدث بعد هذا هو ان البوليس السياسي ما أن اطلع على اسم الشاب صاحب البلاغ حتى صرف الموضوع لأنه كان يعلم انه من مدمني البلاغات •

وفي الصباح قابل الشاب الدكتور (مصطفى الوكيل) ليكمل له بقية قصته ، ولم يتمالك (مصطفى) نفسه على فرط ما كان يتمتع به من حلم واناة ، وانهال على وجه صاحبنا بصفعتين قويتين ••!

وذهل الفتى •• فلم يكن يعلم وحتى الآن لا يعلم لماذا غضب شهيدنا كل هذا الغضب •

* * *

ترى هل كانت محاورات القوى الوطنية لعناصر السيطرة والاستعمار تنتهي بهذه النهاية السعيدة التي انتهت بها قصة حقائب الاسلحة في حلوان؟

لم يكن الامر كذلك في مسكن مصر الجديدة •

وهذا المسكن هو واحد من بعض المساكن التي اختيرت ليختفي فيها أفراد المقاومة الشعبية اذا جد الجد وشموا ريح الخطر تقترب منهم •

والذي أعد هذا المسكن ، وتكفل به هو الصديق (حمد محمد مرزوق) الرياضي المعروف • لم يكن البوليس يعلم عن (مرزوق) ان له صلة قوية بالنشاط الوطني في ذلك الوقت ، ولكنه كان واحدا من شباب مصر الذين يعتنقون عن وعي ودراية فكرة واحدة هي التخلص من الانجليز •• بعد ان فاتنا فرصة الخلاص منهم في الحرب العالمية الاولى•

وكان من نصيبه أن يعاون كاتب هذه المذكرات على اعداد مسكن الاختفاء •• ووقع الاختيار على شقة أرضية تملكها شركة مصر الجديدة•• وكانت المساكن وقتها كثيرة ورخيصة ••

ودفع (مرزوق) الايجار ووقع العقد باسم مستعار ونقلنا الى الشقة سريرا ودولابا وكراسي قليلة وبعض الكتب •

ولم يكن يعرف أحد غيره مكاني وكنت أتسلل في الليل لاجتمع باخواني وأعرف الانباء •

وفي الشهور الاولى من ابتداء الحرب ، كان البوليس السياسي مكلفا بمراقبتنا ، وكان يعلم مساكننا وأماكن عملنا ، ويكتفي بهذا ، اذ لم تحتدم المعركة في الشرق الاوسط بحيث تبدأ الاجراءات ضدنا •

وبعد شهرين لاح لنا ان انجلترا سوف تتحطم تحت وطأة الحذاء الالماني • وان الخطر على حريتنا الشخصية أصبح بعيدا •

وتخفيفا للنفقات قررنا اخلاء شقة مصر الجديدة ، ولا سيما انها ــ أيضا ــ كانت في مكان قريب من المطارات •

وكلفت صديقا آخر لنا من الضباط هو (عبدالله صادق) بأن يحضر لوريا من لوريات الجيش ويحمل في فجر يوم معين اثاثنا في الشقة ونختفي، وبذا نقطع صلتنا بهذا المكان • ثم نرسل عقد الايجار للشركة ايذانا لها بأن المسكن عاد اليها •

وفي الموعد المتفق عليه حضرت سيارة النقل العسكرية ووقفت أمام باب المسكن ، وبدأ نقل المتاع ••

وفجأة فتحت النوافذ من حولها وصاح أفراد ــ من الخواجات ــ ينبهون البواب الى ما يحدث • وكان هؤلاء الخواجات خليطا من بعض الجنسيات الاجنبية التي تدين بالولاء للانجليز ، وتعتقد انهم حماتها في اقامتها بالبلاد المختلفة التي منها بلادنا ، ولهذا لم يكن غريبا ان يجعلوا من أنفسهم جواسيس متطوعين ضد أي مصري يريبهم أمره •

وفي لمح البصر ــ وعلى الرغم من ان الشمس لم تكن قد طلعت بعد. وجدنا عشرات من الرجال والنساء والاطفال يتصايحون حول السيارة•

وأدرك صديقنا (عبدالله صادق) ان الاستمرار في عملية «اختطاف» المتاع ليست يسيرة ، وقرر النجاة بدوره من هذا المأزق ومعه سيارته •

وفي اسراعه بالمسير تشبث بعض المتجمعين باللوحة المعدنية للسيارة،

وعندما عاد الى مقره كانت هذه اللوحة والقصة كلها أمام بوليس مصر الجديدة .

ورجال البوليس من أبناء هذا الوطن .. وهم يعلمون ان واجبهم ان يحموا الامن ، ولكن من واجبهم أيضا ألا يكونوا في خدمة المستعمر .

وما أن قص عليهم (عبدالله صادق) طرفا من القصة حتى رد إليه الرقم المعدني للسيارة وعد الموضوع كأن لم يكن .

لم يعلم البوليس من كان يسكن في الشقة ، ولكن علمت شركة مصر الجديدة من رسالة تلقتها من الاستاذ (فتحي رضوان) ، وكان محاميا مرموقا ومعروفا في مصر الجديدة ، أن من الواجب انهاء العقد وتسليم المتاع .. وتم هذا فعلا .

المال .. من أيـن ؟

وربما سأل سائل من أين كانت تـدبر الاموال التي يشترى بها السلاح ، وتدبر المخابيء ، وتعـد المنشورات ويزاول بها هذا النشاط السري ؟

والواقع ان حركة المقاومة الوطنية كانت تفتقر الى المال وكان المصريون يجودون به كل حسب طاقته وفي غير من ولا ابطاء .. وفي اثناء الحرب ، كثر الرواج ، وزادت النقود في أيدي الناس ، وكان في وسع العامل العادي أن يعطي جنيها كل شهر دون ان يتأثر أو يضار .

ولكن كان هناك أيضا طريق آخر لهذا التمويل ، جاء من الانجليز أنفسهم .

فقد حسبت اقلام مخابراتهم ان في وسعها ان تشتري الحركات الوطنية بالمال ، فكانت تبعثره هنا وهناك ، وكان قسم كبير منه يذهب في عمليات مشترى السلاح .

ولم يكن للالمان نشاط يذكر في مؤازرة الحركات الوطنية .

فقد رفض (موسوليني) أن يتعاون مع حركة مصر الفتاة قبل الحرب احتراما لاتفاق « الجنتلمان » الذي عقـده مع الانجليز لتهدئة الحرب الباردة .. وكان اعتذاره لبقا مهذبا .

أما الالمان ـ قبل الحرب ـ فكانوا متعالين عن النظـر الى الشرق

الاوسط ، لم يحسبوا له حسابا وتركوا شئونه لايطاليا حليفتهم المحورية الثـانية .

وحسبنا مثالا لذلك ما حدث مع العراق أثناء قيام (رشيد الكيلاني) بثورته ضد الانجليز فقد أخذوا يمطون شفاههم . ويهزون أكتافهم..وكل ما عملوه هو انهم أوعدوا سفيرهم السابق الى بغداد ببعض الوعود .. وكان خيرا من هذا أن يبعثوا ببعض الطائرات وبعض الاسلحة . ولكـن الشرق الاوسط في نظرهم ـ وحتى وصول الحاج (أمين الحسيني) و (مصطفى الوكيل) الى برلين ـ كان في المرتبة الرابعة أو الخامسة من اهتمامهم .

ولم يكن الانجليز كذلك .

لقد عاشوا في الشرق الاوسط مدة طويلة ، وعرفوا أهميته القصوى، وركزوا فيه جهدهم فلما تمكنوا من هزيمة المحور فيه بدأت كفة الميزان تميل الى جانبهم .

ودرس الانجليز مشروعا قدمه لهم جواسيسهم . وذلك في الفترة الحرجة التي كان (روميل) يكتسحهم أمامه حتى العلمين.. درسوا مشروعا يقضي بترك كميات من أسلحتهم للمقاومة الوطنية في مصر ، على أمل ان تتصدى للالمان بعد انسحابهم .

ولكن ما أن عرض هذا المشروع على (تشرشل) حتى رفضه علـى الفور . فهو يعلم ان السلاح في أيدي المصريين يعني القوة .. والقـوة سوف تستعمل ضدهم اذا لم ينسحبوا ، ولن تصلح لرد الالمان اذا لـم ينسحبوا ، ولن تصلح لرد الالمان اذا احتلوا البلاد . هذا في الوقت الذي كان الانجليز يسلحون فيه كل حركات المقاومة السرية للحكم الالماني في أوربة وأهمها حركة « الماكي » في فرنسا .

ونعود الى موضوع المال ، فنقول انه كان على قلته كافيا لتدبـير كثير من الشؤون ..

وقد ذكرنا ان « ابلر » أو حسين جعفر عندما طار من برلين الى مقر قيادة (روميل) في ليبيا ، كان معه ٨٠ ألف جنيـه .. وكانت بالعملـة

الاسترلينية .. وكانت عملة مطبوعة في اليونان زيفها الالمان تزييفا متقنا لم يفطن له البنك الاهلي في مصر ..

هذا المبلغ ، لو أنه وصل الى جماعة من جماعات المقاومة وراء الخطوط البريطانية في مصر أو في فلسطين أو في العراق ، اذن لصنع الكثير .

ولكن الالمان ، كما قلنا ، لم يثقوا في أحد من العرب .. ووثقوا في شخص مثل (حسين جعفر) لانه من أبوين المانيين .

ولعل من طرائف ما ذكره (حسين جعفر) في اعترافاته التي دونها عن حياته في ثلاثة أشهر فقط أن من ضمن المال الذي حمله معه أثناء رحلته عبر الصحراء الغربية الى مصر ٥٠٠ جنيه ذهبي . دفنها في مكان قريب من أسيوط ، حدده بأنه على بعد عشرة كيلو مترات في الصحراء الغربية خارج المدينة .. وكان يريد أن يستعين به في حالة عودته من الطريق الذي جاء منه . هذا المبلغ ــ حسب اعترافات حسين جعفر ــ ما يزال موجودا في مكانه حتى الآن ، لانه لم يعد عن طريق اسيوط ثم الواحات كما قدر ، ولكن رحلة عودته ، كانت عن طريق السجن ، ثم مكتب (تشرشل) في قصر الدوبارة ، ثم السجن مرة اخرى حتى انتهت الحرب .

ولعل بعض الباحثين من أهالي اسيوط ، يتطوعون الآن للبحث عن غنيمة الـ ٥٠٠ جنيه من الذهب (تساوي ٣٥٠٠٠ جنيه الان) في جانب من جوانب الطريق الصحراوي الخارج من أسيوط الى الواحات الخارجة .

القيادة الرباعية ... وعزيز المصري :

كان الترتيب قد تم لانشاء قيادة رباعيــة تضم معسكرات المقاومة المصرية ، كل (ربع) منها يمثل جبهة من هذه الجبهات .. وكلها جبهات مدنيــة ..

وقد أعدت اختام هذه القيادة ، وطبع منشورها الاول ، وقد وجدنا عناء كبيرا في اعداد هذه الاختام وكلف بالمهمة قوقازي مجاهد من اللاجئين الذين يعيشون في القاهرة ، اسمه (بكير بك ذو الشعر) كان يحترف النقش على الفضة وكانت له بنا أطيب الصلات .

وحاول البوليس السياسي أن يكتشف حقيقة هذه القيادة والعناصر التي تتكون منها ، ولا سيما بعد أن بدأت منشوراتها توجه الى القــوات

المصرية المسلحة ، وقوات البوليس المصري ..ولكنه لم يفطن الى حقيقتها. فقد قدر ان يكون منها العناصر المعروفة مثل مصر الفتاة والحزب الوطني والاخوان .. ولكن الطرف الرابع كان مجهولا تماما .. ولم يكن هذا الطرف الرابع في نظر جماعات المقاومة الا الفريق (عزيز المصري) الذي كان قائدا عاما للقوات المصرية المسلحة .. (وعزيز المصري) بلا شك كان اذ ذاك هو الاب الفعلي لحركات المقاومة ضد الانجليز وضد القصر منذ عاد من لندن في بعثة مع الامير « فاروق » .

ولم يكن (عزيز المصري) صاحب مال .. بل ظل سنين طويلة مضيقا عليه من الحكومة المصرية في رزقه ومعاشه .. وحتى بعض أهله كانوا ضده .. فما أن عاد الى مصر من منفاه بعد الحرب العالمية الاولى حتى وجد ميراثه القليل مغتصبا ، وظل يكافح في المحاكم حتى استرده ، ولم يكن هذا الميراث غير منزل متواضع وحديقة في احدى ضواحي القاهرة .

وكان في وسع (عزيز المصري) أن يكون غير هذا الرجل الذي يمنع عن معاشه ، ويغتصب ميراثه ..

لقد رفض أن يحصل من الانجليز على عرش اليمن وأن يلبس تاجا بين تيجان العرب .. وفضل ان يعيش مجاهدا ضد الاستعمار مؤمنا بحق قومه وحريتهم .

وصمد للعواصف العاتية ووضع كل همه وكل جهده في حركات الشباب يغذيها وينمي روحها ويبصرها بتاريخ الكفاح منذ أن أنشأ جمعية العهد قبل الحرب العالمية الاولى .

الرائد .. والقائد :

ولقد جلس الى (عزيز المصري) يسمع منه الاف من الشباب المصري .. وكان حديثه الصريح معهم هو القبس الذي انار لهم الطريق في كل وقت.

وما أحسب شابا شارك في الحركة الوطنية المصرية الا وهو مدين بشيء لهذا الرجل الفذ .

كان اختيار (عزيز المصري) قائدا للجيش المصري في عهد وزارة (علي ماهر) عام ١٩٣٩ من انجح الاعمال الوطنية التي قامت بها الوزارة. ولم يكن (عزيز المصري) على علاقات طيبة مع رجلي القصر في ذلك

الوقت وهما (احمد حسنين ، وعمر فتحي) •• فقد كان معهما في لنــدن بتكليف من الملك (فؤاد) ليشرف على تربية فاروق ••

و (عزيز المصري) رجل واضح صريح •• وكان يؤمل في الفتى الصغير خيرا •• وكانت شخصيته أقوى من أن يجد معارضة علنيةلتوجيهاته من صاحبيه في هذه المهمة ، أو من الصبي الصغير ••

وكان يرسم له سلوكا فيه كثير من الجد ومن المثل العليا •• وكان يحاول أن يبعد عن ذهن (فاروق) ان أباه رجل رهيب يجب أن يخشاه •• كان يأمره بأن يكتب له رسائل بين الحين والحين •• ولم يكن يستريح لكثرة اتصاله بأمه تليفونيا • فنظم هذا الاتصال وجعله على فترات متباعدة ومن هذه الثغرة تسلل (احمد حسنين ، وعمــر فتحي) الى قلب الفتى الصغير • صورا له (عزيز المصري) بأنه وحش يكرهه ويكره أمــه وانه منحاز الى جانب أبيه •• وكان هذا التحريض يتم همسا •

وكانت تعليمات (فؤاد) أن يتولى رواد ولي العهد تدريبه على الحياة وكيفية مواجهتها ••

وفهم (عزيز المصري) أن مواجهة الحياة تعني الكثير مــن القراءة وركوب الخيل •• وفهم الآخران انها مداومة السهر وارتياد دور اللهو •

ولما زادت المشاحنات عاد (عزيز المصري) الى مصر ••

وبعد قليل عاد (فاروق) ليتولى العرش بعد أبيه •

وذهب اليه (عزيز المصري) ، وأدى التحيــة العسكريــة وقــال (لفــاروق) :

ــ أرجو ان تعتبرني في مقام والدك • وأنا مستعد لمعونتك كي تكون ملكا عظيما ••

وتبسم (فاروق) ابتسامة صغيرة ولم يقل شيئا ••

وما أن خرج (عزيز المصري) من عنده ، حتى دخل (عمر فتحي ، وأحمد حسنين) يستفسران في لهفة عما حدث •• ولا شك انهما سخرا مما قاله (عزيز) وزادا في الجفوة بين الملك الفتى والرجل الكبير ••

ولما عرض (علي ماهر) على(عزيز المصري) أن يتولى قيادة الجيش،

طلب ان توكل له أيضا وزارة الحربية حتى لا يجد معارضـــة في مشروعاته الاصلاحية ..

ولكن القصر لم يتح هذه الفرصة (لعزيز المصري) ، بل لم يتح له قيادة كاملة للجيش المصري . اذ كان في الجيش منصبان هما مفتش الجيش ورئيس أركان الحرب واختصاصاتهما عائمة .

ولم يكترث (عزيز المصري) كثيرا لما حدث ، بل راح يمر بحـدود مصر ويأخذ صورة واضحة عن الموقف العسكري . وبدا ان (علي ماهر) كان يلعب بورقة ناجحة جدا .. فان مداولات (عزيز المصري) مع القيادة البريطانية في شئون الدفاع كشفت عن عبقرية هذا الرجل الذي لا يعرف فقط في فنون الحرب الحديثة ولكن يعرف هذه الصحراء شبرا شبرا .

وعندما رسم خطة الدفاع عنها اشار باهمال مرسي مطروح ، التي كان القواد المصريون والانجليز يعدونها البندقية التي لا تكسر ، وكدسوا فيها الثكنات ومعدات الدفاع .. وأشار (عزيز) الى موقع العلمين وكان هو الذي اخترع كلمة « عنق الزجاجة » ورسم خط دفاع مستند الى أصول فنية يمتد من العلمين الى سيوه .

وتلقى (عزيز المصري) كتـابا من الجنرال (ويلسن) يشيد فيـه بقدرته ، ويصفه بأنه واحد من أعظم قواد العصر الحديث .

ولكن (عزيز المصري) ، وهو ينظم خطوط الدفاع عن مصر لم ينس ان الانجليز هم أعداؤنا الحقيقيون وان عدة البلاد في التخلص منهم هم الضباط الشبان والجنود . فاتخذ من الثكنات حول القاهرة ومن مراكز الجنود مقر عمله ، وهجر المكتب المعد له في مقر وزارة الحربية والبحرية والطـيران .

واقلقت هذه الهجرة القصر ولواءات الجيش .. وحاولوا ان يستردوه مرة اخرى الى المكاتب الرطبة في مبنى الوزارة القديم .. فعقد مؤتمرات من اللواءات ، وفاجأهم مرة بسؤال هام :

ــ هل هناك حاجة الى البعثة العسكرية البريطانية في الجيش المصري ؟

و « ضربت لخمة » كمـا يقولون .. وحاول البعض أن يتحمس والبعض أن يدعي ان زكامه لا ينقطع .

وما ان انفضت الجلسة ، حتى تسلل معظم الحاضرين الى البعثة العسكرية البريطانية يقصون عليها القصة مستنكرين ثم يعودون الى (عزيز المصري) ليتهم كل واحد منهم صاحبه بأنه أفشى أسرار الاجتماع للانجليز ..

وضحك (عزيز المصري) .. فقد كان يعرفهم جميعا ..

وسرت روح (عزيز المصري) .. وكلماته الصريحة المباشرة في المعسكرات . ومع الضباط والجنود وكأنها الكهرباء في انطلاقها .

وذعر الانجليز .. وذعر القصر ..

وتبين (لعلي ماهر) ان الشعب في يقظة روحية تامة .. وتبين لهم ان روح الشباب الوطنية بدأت تسيطر على وحدات الجيش وان أمره لم يعد خاضعا للبعثة الاجنبية ولم يعد خاضعا للواءات الجيش العظام ..

ولم يكن هناك طريق آخر .. فقد قررت الوزارة أن تترجم مبدأ « تجنيب مصر ويلات الحرب » الى حياد حقيقي ، وإلا تصادم الشعب في شعوره .

وبدأت مقاومة الوزارة لطلبات الانجليز التي لا تنتهي .. وكانت أكبر ضربة وجهوها للحومة الماهرية هي طلبهم عزل (عزيز المصري) ..

وكان الحل الوسط هو اعطاؤه اجازة .

وأصبح واضحا ان الانجليز لم يعودوا يثقون في وزارة (علي ماهر). وكان لا بد من التخلص منها ..

ولم يرد (علي ماهر) أن يخرج في هدوء ولكنه أغلق الباب وراءه بشدة زادت من لهيب الاحساس الوطني . وكان بيانه المشهور في مجلس الشيوخ تجاوبا تاما مع الشعب وحماسته وكرهه للاستعمار .

خطة الدفاع عن الصحراء الغربية :

وحتى تزداد قبضة الانجليز عنفا ضد مصر ، فقد طلبوا التحقيق في أمر خطير ..

قالوا ان خطة الدفاع عن الصحراء الغربية التي وضعت بالاشتراك مع (عزيز المصري) ، وجدت كاملة مع أحد القواد الايطاليين الذين أسروا في حرب الصحراء ..وطلبوا تحقيقا دقيقا مع (صالح حرب ، وعزيزالمصري).

وأنكر الرجلان طبعا انهما على اتصال بأحد من عملاء المحور ، وان خطة الدفاع وصلت عن طريقهما وهما المصريان الوحيدان اللذان يعرفان هذه التفاصيل •

وظل هذا السر غامضا لم يتضح حتى الآن •

ظل هذا السؤال دون جواب ، وظل متعلقا في الهواء من ابتـداء الحرب حتى الآن •• ولكن اعترافات « ابلر » أو حسين جعفر الاخيرة حلت هذا اللغز الذي ظل على غموضه ١٧ عاما كاملة ••

عزيز المصري •• يقرر الخروج من مصر ••

ان البعثة العسكرية الامريكية في القاهرة ، كانت تطلع على التفاصيل الخاصة بالموقف الحربي في الشرق الاوسط ، وكانت تبعث كل يوم برسالة لاسلكية الى واشنطون متضمنة جميع التفاصيل •

وبطريقة لا تزال غامضة حتى الآن تمكن الالمان والايطاليون من معرفة مفتاح الشفرة •• أو الكود ، الذي كانت ترسل به الرسائل ••

وفي الوقت الذي كانت وشنطن تلتقط فيه هذه الرسائل كانت قيادة روميل ، وروما وبرلين ، تلتقطها ايضا وتحل رموزها ربما قبل ان تحلها القيادة الامريكية ، وتطلع منها على حقيقة الموقف وتطوراته من الناحيتين العسكرية والسياسية •

هذا ما قاله « ابلر » ••

ولم يقل اذا كانت خطة الدفاع التي قام الانجليز من أجلها وقعدوا ، قد نقلت الى قيادة المحور عن هذا الطريق أم لا ، ولكن اصبح واضحا انه لم تكن هناك اسرار محجوبة ، ولا خطط خفية •

واذا كانت القيادة البريطانية ، قررت ان تستمع الى رأي (عزيز المصري) ، في ان ثكنات مرسى مطروح مهما كانت ضخامة بنائها لا تصلح لصد الجيوش ، وان الموانع الطبيعية هي التي يمكن الاعتماد عليها • اذا كانت قد استمعت الى هذا الرأي ورتبت خطتها عليـه ، فان التسرب لهذه التفاصيـل وغيرها جاء عن طريق القيادة البريطانيـة والقيادات أو البعثات الملحقة بها ••

في النصف الثاني من عام ١٩٤٠ ، كان الانجليز قد قرروا أن يخمدوا أنفاس كل مقاومة داخلية في البلاد •

طلب (ايدن) تسليم (علي ماهر) كما سلمت بلاد أخرى رؤساء وزاراتها لاعتقالهم في جزر سيشل ••

طلب بدء عهد الاعتقالات في مصر على أوسع نطاق ممكن ••

قاومت وزارة المرحوم (حسن صبري) هذه الطلبات المتعلقةبحريات الافراد مقاومة عنيدة •• ولم تكن طلبات الانجليز سرية ، بل جهروا بها في كل مكان •• وكان على رأس المطلوبين (عزيز المصري) ••

وقرر (عزيز المصري) أن يهرب من مصر وان يسافر الى ليبيا عن طريق الصحراء أو تركيا عن طريق سوريا •

وكان يرى في تصرفات « الامباشي » اخطاء عظيمة •

والامباشي هنا هو (هتلر) •• فلم يكن (عزيز المصري) يعطيه أكثر من هذه الرتبة اذا ما تحدث عن كفاءته العسكرية •

وكان يعتقد ان من الواجب ان يعلم « الامباشي » شيئا عن الشرق الاوسط ، وأن ينظر اليه نظرة أخرى •• وان من الممكن اذا اعترف باستقلاله ان يجد معونة كبيرة في سحق الانجليز في هذه المنطقة •

تجربة (رشيد الكيلاني) ••

وجاءت تجربة (رشيد الكيلاني) وثورته في العراق دليلا على الغباء الذي استحكم في عقل (هتلر) بالنسبة للشرق الاوسط ، ولم يكن (عزيز) يقدر لهذه الحركة النجاح ، لان عناصر الخيانة من حول (رشيد) كانت متوفرة جدا ، فضلا عن البرود الشديد الذي قابل به الالمان حركته التحررية •

ولم تكن عناصر المقاومة المصرية من هذا الرأي •• فقد كان يمثلها في الجبهة العراقية المرحوم الدكتور (مصطفى الوكيل) •

كان قد سافر الى هناك كاستاذ للرياضيات في احدى كلياتها العالية• فلما بدأ (رشيد عالي الكيلاني) حركته انضم لها ممثلا لمصر •

وكان (مصطفى) يذيع علينا من راديو بغداد تطورات الموقف ويطلب منا ان نتأهب للقيام بحركتنا ••

وكنا نطبع البلاغات الحربية العراقية ونوزعها .

وكانت وزارة (حسن صبري) قد سقطت بوفاة رئيسها وتولى (حسين سري) الحكم ..

وحدث ذات صباح أثناء محادثة بالتليفون مع أحد ضباط القلم السياسي ان علمت منه انه سيأتي لزيارتي . وفهمت منه أن امر الاعتقال صدر ..

كان آخر بلاغ عراقي تم طبعه ، وكان في منزلي معدا للتوزيع ..

ولم يتسن لي اخطار زوجتي وشقيقتي بان تتخلصا من المنشورات..

وذلك لاني كنت في طريقي الى الدقي .. الى منزل صديقي (عبدالسلام الشريف) . وكان هو المنزل الثاني في سلسلة منازل الاختفاء عن أعين الانجليز والقلم السياسي ، لم يجدني البوليس في أي مكان .. وقرر اليوزباشي (محمود طلعت) ان ينتظرني في منزلي حتى أعود ..

وكان على زوجتي وشقيقتي ان تتخلصا من المنشورات ، فقد يخطر للضابط ومخبريه تفتيش البيت ..

وفي المطبخ بدأت عملية حريق ، تصاعد لها الدخان حتى عم منطقة المالية .. والضابط يقرأ كتابا على مكتبي في هدوء واطمئنان ..ولم يحدث شيء الا أن السيدتين كادتا تختنقان ..

دعوة من (عزيز المصري) ..

وجاءني نبأ من (عزيز المصري) عن طريق (عبدالقادر رزق) .. عن طريق (احمد مرزوق) .. عن طريق (عبدالسلام الشريف) ــ كلها اسماء لها دور في هذه المذكرات ــ انه يريد مقابلتي لامر عاجل في مكان حدده .

وتنكرت في زي ساع من الذين يعملون في المكاتب، لنقل الاوراق.. لبست نظارة قديمة بالية سلوكها بيضاء صدئة ، وحذاء قديما وحملت حقيبة اوراق ، وسرت أعرج وراء السيد (أحمد مرزوق) .. فقد كنت تابعه ، وكان هو الذي سيدلني على طريق اللقاء ..

وأمام عمارة فخمة في الدقي ، فتحت الاسانسير (لمرزوق) في أدب ، ودخل واقفل الباب ، ولم يدعني الى الركوب معه .. فصعدت السلالم..

أعرج أيضا ـــ حتى وصلت الدور الرابع وهو مسكن الآنسة (ع•فهمي)•
وضربت الجرس ، وفتحت الخادمة الباب ، وقبل أن تقول شيئــا كنت في الصالون أعانق الرجل الكبير الذي طال شوقي اليه ••
وفركت الفتاة عينيها في دهشة وراحت تعد القهوة ••

وقال لي (عزيز المصري) إن ترتيبات أحسن من ترتيبات (رشيد الكيلاني) سوف تعد •• وان عونا كبيرا من الاسلحة سوف تأتينــا من الخارج •• سوف تحمله الطائرات في أماكن معينة ، وان اشارات معينــة سوف تدل على موعد قدومها •• وسيتصل بنا من يدلنا على كل التفاصيل •• وعلينا ان نستعد ولا نمكن الانجليز منا ••

وحاولت ان أعرف منه تفاصيل أكثر فلم استطع ••

وخطر لي خاطر ، فقلت له :

ـــ ممكن آجي معاك في رحلتك بكرة ••

وقفز (عزيز المصري) من مقعده دهشة •• فقد حسب اني أعرف الترتيبات التي أعدها لفراره في اليوم التالي ••

ـــ ماذا تعني •• ماذا تقول ؟

قالها عزيز المصري في دهشة بالغة •• ردا على سؤالي له عن رحلته التي سيقوم بها ••

كان السؤال رمية من غير رام •• ولم يكن أحد يعلم انه قــرر في فجر اليوم التالي ان يبدأ مغامرة كبيرة بسفره الى المانيا عن طريق ليبيا أو تركيــا •

ولم تكن هذه هي المحاولة للخروج من نطاق السيطرة البريطانيــة والرغبة في تنسيق عمل مشترك مع القيادة الالمانية •

فقد سبقتها محاولة قام بها المرحوم الطيار (سعودي) اذ أخذ مع زميل له طائرة مصرية الى الخطوط الالمانية في ليبيا • ولكنهم اسقطوهــا قبل نزولها الى الارض ظنا منهم انها طائرة معادية وقتل ركابها ••

كما وصل الى هناك الحاج (امين الحسيني) والدكتور (مصطفى الوكيل) بعد ثورة « رشيد بك الكيلاني » وزملاء لهما ، وبعد رحلة فرار رهيبة عبر ايران وتركيا ، وكانت جهود هذا الفريق من زعماء العرب متجهة

للميدان السياسي ، لا التعاون العسكري •• ونعني بالميدان السياسي محاولة الحصول من (هتلر) و (ريبنتروب) على اعتراف باستقلال البلاد العربية الكامل • وكان التوفيق في هذا الميدان كبيرا ••

ووصول (عزيز المصري) الى الميدان الاخر ربما كان قد أحدث النتائج المرجوة على الفور • فان له اصدقاء ممتازين في القيادةالالمانية، عرفهم في الحرب العالمية الاولى ـ وقبلها أثناء الكفاح السابق لهذهالحرب وبعدها في الفترة التي اقامها (عزيز المصري) هناك •

وكان القواد البروسيون يعلمون ما لرأي (عزيز المصري) من قيمة فذة في الشئون العسكرية • كما يعلمون مدى نفوذه واطلاعه على تفاصيل الحركات الوطنية في مصر ولا سيما قطاعات المقاومة السرية فيها •

وسيتضح فيما بعد أن (روميل) كان يتحرق شوقا لمزيد منالمعلومات عن اتجاهات الجيش المصري والشعب المصري اذا وصل الى حدود الاسكندرية وان تعليماته (لابلر) وهو يودعه كان معظمها ينصب على هذه النقطة ••

الهرب الاول •• لم يتم ••

ولم يغب عن (روميل) أن يحاول « تهريب » (عزيز المصري) عبر الحدود الغربية • وقد روى السيد (أنور السادات) في صفحاته المجهولة قصة المحاولة الاولى •• وقال :

كان يوم من أيام الصيف في عام ١٩٤١ • كنت عائدا الى منزلي •• ولم أكد أدخل البيت ، حتى أخبرت بأن (عزيز المصري) قد مر بي ، فلما لم يجدني طلب أن أتوجه اليه فور حضوري ••

وكانت هذه الزيارة من (عزيز المصري) ، وهذا الطلب أيضا ، يحملان في طياتهما بالنسبة ليّ شيئا خطيرا •• وغادرت منزلي فورا •• وأسرعت الى (عزيز المصري) ••

وجلس (عزيز المصري) يروي لي تفاصيل مثيرة ألهبت حواسي ، وجعلتني أعتقد ان ساعة البدء قد تحددت ، واننا في الطريق اليها •

وقال لي (عزيز المصري) ان الالمان اتصلوا بـه عن طريق بعض أعوانهم •• وانهم يرحبون بخبرته في شئون الشرق الاوسط والعرب،

وانهم على أتم استعداد لاختطافه ونقله الى قيادتهم ، حيث تستطيع خبرته ان تلعب دورا عمليا كبيرا ..

اذن فقد بدأت نذر المخاطرة .. ولـــن يكون العمل داخليا فقط ، وانما سيكون هناك تنسيق لخطة في الداخل مع خطة أخرى مع الالمان ..

وكان يجب ان تقرر هل تقوم بهذه المخاطرة ، أم نرفض القيام بها ؟.. وكان علينا ان ندرس كل ذلك على أساس الاعتبارات والظروف المختلفة المحيطة بنا في القاهرة .

ففي هذا الوقت كانت الحكومة ومن خلفها مخابرات الانجليز تشك في نوايا (عزيز المصري) وتتوقع منه ان يهرب الى الخارج ، ومن أجل هذا سحبت منه جواز سفره ، ووضعت عليه رقابة شديدة .

ولم يقابل (عزيز المصري) هذا الاجراء بالرضى ، بل توجه الـــى المسئولين وطلب منهم أن يسمحوا له بالسفر الى الخارج فعلا ، فرفضوا هذا الطلب . ومعنى هذا ان كل حركة من حركات(عزيز المصري) كانت تسجل وتحسب عليه واكثر من هذا فان حكومة مصر ومخابرات الانجليز كانتا تتوقعان سفره ، هذا من ناحية ..

أما من الناحية الاخرى التي جعلت عزيز المصري يشعر كأنه أسد قد حبس في قفص من حديد .. فهي قيام ثورة (رشيد الكيلاني) في ذلـــك الوقت بالعراق .

وفكر (عزيز المصري) طويلا .. ثم فكرت معه ، ثـــم استقر رأينـــا على وجوب سفره .. وعدم افلات هذه الفرصة .

وفي اليوم التالي ، عاد عملاء الالمان الى (عزيز المصري) ، فأبلغهـــم قراره بالقبول ووضع الالمان خطة لاختطافه .. طلبوا منا ان نحدد لهـــم مكانا خارج القاهرة يصلح لنزول الطائرات .. وقالوا انهم بمجرد معرفة هذا المكان سيرسلون طائرة تحمل العلامات الانجليزية لتهبط فيه ويكون (عزيز المصري) في انتظار الطائرة .

وعلى الفور تناولنا الخرائط ، وأخذنا ندرس جميع الاماكن وندرس أيضا كل الاحتمالات .

اخترنا مطار الخطاطبة .. ولم يكن مطارا بالمعنى المفهوم وانما كان مجرد أرض صالحة لهبوط طائرة .

وبدأنا ننتظر الموعد الذي سيحدده الالمان لهبوط طائرتهم (الانجليزية) في أرض الخطاطبة . ولكن دهشتنا كانت شديدة عندما جاءنا رد من الالمان ، يرفضون فيه فكرة « الخطاطبة » ويعينون منطقة « جبل رزة » على طريق الواحات البحرية مكان اللقاء ..

ولا أدري كيف توقعت مخابرات الانجليز اننا على وشك اتخاذ خطوة خاصة .. فقد صدرت لي في نفس اليوم أوامر بالنقل الى الصحراء الغربية فورا ، على أن أسافر غدا .. وشاورت (عزيز المصري) .. فتم الاتفاق على وجوب سفره هو في الموعد الذي تحدد فعلا .. وهو يوم السبت ..

ولكن لم تتم . اذ لم يستطع (عزيز المصري) أن يصل الى جبل (رزة) ولم يكن السبب انكشاف أمر هذه الرحلة ولا رقابة البوليس ، ولا اي شيء من كل الاسباب التي تطوف بالذهن لاول وهلة .. ولكنه كان القدر .

وما حدث هو توقف السيارة التي تقل (عزيز المصري) فجأة على مقربة من الهرم . وقبل أن تدخل طريق الواحة البحرية الذي كانت الطائرة الالمانية ستهبط فيه ..

وكان الاتفاق ان تهبط الطائرة عند الغروب ، وأن يصعد اليها (عزيز المصري) بمفرده ثم يتصل بنا عن طريق اللاسلكي فور وصوله الى خطوط الالمان ..

ومضى بعد ذلك يومان، ثم اتصل احد رجال الالمان (بعزيز المصري)، وأبلغه ان الطائرة اتت في موعدها ، وانها حومت حول المكان ، ولم تجد الاشارة المتفق عليها فعادت .

استعدوا .. المكان في بنها ..

نعود الى جلستنا مع (عزيز المصري) في الدقي ، بمنزل الانسة (ع. فهمي) .

حاول (عزيز المصري) أن يتبين حقيقة ما أعرفه عن رحلته الجديدة..

والواقع اني لم أكن اعرف شيئا • وان كنت أعتقد ان وجوده في مصر عبث ولا طائل تحته • وافصح لي (عزيز) عن خطته دون تفصيل •

قال ان محاولة ما ستبذل لكي يسافر الى الخارج • واذا نجحت فسيتصل بنا عن طريق الراديو وعن طريق رسل معينين يحملون أمارات معينة اهمها اجتماعنا هذا • وطلب (عزيز) أن نجتهد في البقاء خارج المعتقلات والسجون ، وأن نحافظ على مخازن أسلحتنا وان تتقن أنواع التخفي ونغيرها من حين الى حين ••

وأدركت بدوري ــ كما ادرك (السادات) من لقاء كهذا قبل ثلاثة أشهر ــ ان الساعة الحاسمة اقتربت وان الحركة الوطنية العربية اذا كانت قد أصابتها ضربة أليمة في العراق ، فمن الممكن ان تداوي هذا الجرح في مصر •

لم أعلم على وجه التحديد متى أزمع (عزيز المصري) الرحيل ، ولا كيف ••

ولكني نشطت في الاتصال باصدقائي وزملائي بشتى طرق الاتصال ولم اكن اغادر بيت صديقي (عبد السلام الشريف) بالنهار •

وقبيل الظهر ــ وفي اليوم التالي ــ طرق بابي زائر •• فوجدته الصديق المثال (عبد القادر رزق) وما ان وقع نظري عليه حتى وجدته متجهما •• قال :

ــ لدي رسالة عاجلة •

ــ خير ••؟

ــ ابعث جماعة قرب بنها تحضر ١٢ حقيبة كانت في طيارة ، وسقطت هناك •

ــ من صاحبها ؟

ــ عزيز المصري ••

وكانت مفاجأة أليمة ••

ــ وروى لي (عبد القادر) التفاصيل •• قال ان ثلاثة طرقوا باب بيته في امبابة عند الفجر عرف منهم (عزيز المصري) واثنين من الضباط الطيارين كانا معه ، وسمعته يقول لاحدهما : (حسين ذو الفقار) ••

ـ ثم ماذا ..؟

ـ اخذوا طائرة من سلاح الطيران .. واشتعلت فيها النار قـرب بنها فنزلوا في حقل هناك .

ـ واحترقت الطائرة ..

ـ اطفأوا الحريق ، وركبوا سيارة البوليس ، فنقلتهم الى شبرا ، وتركوها وأخذوا تاكسي الى بيتي .

ـ وقصة الحقائب ؟

ـ ١٢ حقيبة بها أوراق وملابس (عزيز المصري)

من كان ع . م ؟

حسب البوليس المحلي في منطقة سقوط الطائرة ان الامر عادي ، فتحفظ على مكان سقوطها . ونقل ركابها بعناية الى القاهرة مشكورا . ولكن ما ان ابلغ عن فقد طائرة من المطار وما ان وصلت أنباء بنها الـى القاهرة حتى قامت قيامة الدنيا ..

كان في الحكم وقتها (حسين سري) ..

وما ان وصل رجال القلم السياسي ، ومخابرات الجيش المصري الى هناك ، وشاهدوا العلامات على الحقائب وهي (ع.م) حتى صاحوا في نفس واحد : (علي ماهر) .. فان الحروف الاولى من اسمي الرجلـين بالعربية والانجليزية متشابهة .. ولكن بعد فتح الحقائب تبين انها ملك لشخص آخر أكثر اهمية .. انه (عزيز المصري) .

ولم تكن هناك فائدة من محاولة انقاذ هذه الحقائب ، لان الرسل الذين انتقلوا الى المكان وصلوا والبوليس يحاصر المنطقة كلها .

ودارت في ذلك الوقت مشاجرة طريفة بين السلطات المختلفة .

القلم السياسي يقول ان المسئول عن مثل هذا الحادث هو المخابرات.. فالطائرة التي حاولت الهرب تحت رقابة المخابرات ، مثلها مثل غيرهـا من الطائرات والاسلحة ورجالها . والمخابرات تقول : ان عزيز المصري لا يدخل في نطاق المخابرات وكان من الواجب التنبه الى خطواته بعناية .

والواقع انه مهما اشتدت الرقابة البوليسية فان نتائجها لا تكون فعالة

إلا في الحركات الجماعية حيث يوجد المرشدون •• أما التحركات الفردية، فمن العسير رقابتها •

وقد رأينا كيف ان الاتصالات المستمرة والمحاولات المتوالية للهرب تمت دون أن يعلم البوليس عنها شيئا ، وبعضها لم يظهر الا بعـد انتهـاء الحرب بسنوات ••

ثلاثة أشهر •• في المخبأ ••

والواقع ان حياة التخفي اصعب أنواع الحياة ، ولا سيما اذا كانت لمجرد الانتظار •• انتظار ما تجود به الحوادث •

كان (عزيز المصري) مختبئا في منزل (عبـد القادر رزق) وكنت مختبئا في منزل (عبد السلام الشريف) • وكل ماكان يمكن عمله في ذلك الوقت هو ان أمد مخبأ « امبابة » ببعض الكتب ، وكان منها الالياذةالتي ترجمها البستاني شعرا في مجلد ضخم ••

و « عزيز المصري » يحتمل كل شيء الا ان يحال بينهوبين القراءة••

لقد كان يرسل ثلاثة أرباع معاشه لزوجته وابنـه في أمريكا ، ولا يطلب منهما شيئا الا أحدث الكتبفي السياسة والادبوالشئون العسكرية•

وعندما قبض عليه بعد ذلك ، لم يجد في سجن الاجانب شيئا ذا بال يقرأه ، ولم يمده أحد من الخارج بالكتب التي يريدها •

همست له مرة في السجن :

ــ كيف الحال ؟

فمد يده ببعض قصص انجليزية وقال :

ــ قراءة •• كونستبل ••

وهي الكتب التي أمكن ان يعيرها له مأمور السجن الانجليزي •• وذلك لانه كان ممنوعا ان يصله شيء عن طريق آخر •

الجريدة والخبر ••

كنت في مخبئي اتلهف على انتظار الصحف •• وكنت ازعم اني قريب لعبد السلام الشريف، اصبتبهزة عصبية من ضربالقنابل فيالاسكندرية••

وكانت صاحبة العمارة ، وهي سيدة حجازية من أسرة معروفـة ،

تعفيني احيانا من الحلوى الطحينية والتونة ، وترسل لي صواني من الاطعمة الفاخرة اراحة لاعصابي المتعبة من القنابل ، والتي تمنعني من الخروج نهارا .. حسب توصية الاطباء ..

ولم يجد خادم السيدة حرجا ، من أن يستعير مني صحف الصباح تتسلى بها السيدة ، وكنت افعل هذا مسرورا ..

وذات يوم سافر (عبدالسلام الشريف) فجأة الى المنيا لان بعض أقاربه غرقوا في سفينة شراعية ووجدت ان السيدة تقوم بواجب العزاء وان اتقبله نيابة عن (الشريف) ..

وكان يزورني في ذلك الوقت (عبد القادر رزق) يحمل لي انباء مخبأ « امبابة » .

طرقت السيدة الباب ، وقفزت انا لأختبيء في احدى الغرف ، وتركت (رزق) يتلقى التعزية . وجلست السيدة قليلا ، وصاحبنا مطرق متأثر وقد شكرها على هذه المجاملة . ولما انصرفت السيدة . وجدت (رزق) يذوب خجلا من هذا الوضع « البارد » الذي وضعته فيه . و (لعبد القادر رزق) ملامح لاينساها من يراها ..

وذات صباح جاء الخادم يطلب صحف الصباح ، فاستمهلته بعض الوقت .. لقد كان علي ان اتخلص من صورة (عبد القادر رزق) التي كانت منشورة في الصفحة الاولى بجميع الصحف ..

فقد قبض على الصديق .. وضبط مخبأ امبابة ومن فيه ..

قليلون الذين مروا بهذه التجربة ..

الاختفاء من اعين المطاردين ، وتوقع وصولهم اليك في أية لحظة من ليل أو نهار . ان للتنكر وسائل كثيرة .. ولكن عندما ترصد المكافآت ويطلق المحترفون من رجال البوليس السري والعلني وراءك ، ويطلق وراءك من هم أخطر من هؤلاء .. المرشدون الهواة ، والمتطوعون للاذى .. عندما يحدث لك هذا وأنت في قلب معركة كبرى من اجل الوطن . وعقيدتك الراسخة في خلاصه فان الحياة تكون غريبة حقا .. وان الوقت فيها يحصى بالدقائق ، لا بالايام والاسابيع .

والطريقة التقليدية في اصطياد مثل هذه الفريسة .. هي انيتتبعوا

اناسا قريبين منه ، عسى ان يقودهم التتبع الى الاثر المطلوب •

وكانت زوجتي وأسرتها في القاهرة •• ووالداي في الصعيد هم موضوع المراقبة ، والهجوم المستمر هجوم في الليل وفي النهار ، وفيوقت الغداء ، وعند الفجر •

وفي هذا ما يقلق ويبعث على كثير من الضيق •

ولزوجتي شقيقة (رحمهما الله واثابهما على بلاءهما) تشبهها الى حد ما ، وكانت متخصصة في تضليل وارهاق المخبرين كما يرهقون أسرتنا في القاهرة •• كانت تسير ، ومن ورائها المخبرون الذين يحسبونهازوجتي، وتذرع شوارع القاهرة وتدخل جميع متاجرها ، وهي سعيدة بهذه اللعبة الطريفة ، لعبة « استغماية » • فاذا خرجت زوجتي وشقيقتها ، فان انتقارير كانت تنهال على القلم السياسي انهم وراء زوجتي في أكثر من مكان • وفي أكثر من شارع مما بعث الحيرة والدهشة • •

وكان اليوزباشي (امام) هو المكلف بالعثور علي •• وعلى الاستاذ (احمد حسين) الذي اختفى ايضا في طنطا •

•• وعلى (عزيز المصري) وصاحبيه الذين انضموا الى فريق المطاردين •

وقص علي (امام) بعد ذلك • انه كان يختار ناصية أحد الشوارع في حي من أحياء القاهرة ، ويقف من الليل حتى الصباح عسى أن يمر واحد من المطلوبين بالصدفة ، لا يغير مكانه ، ولا يسأم من الوقوف إلا انه قرر ان الليل هو الستار الوحيد الذي نخرج فيه ــ وكان هذا صحيحا بالنسبة لي ــ ولكنه لم يؤد الى نتيجة ••

طعام جروبي •••

ورقابة بيوتنا واقاربنا • اخفقت في العثور علينا •• ولكن الصدفة كانت أقوى من كل ما دبر لنا ••

فهناك في محل جروبي لمح أحد المرشدين صديقنا (أحمد مرزوق) يشتري كمية كبيرة من الاطعمة فأبلغ عنه • •وقرر القلم السياسي ان يراقب (أحمد مرزوق) الذي لم يكن معروفا لديه • ومثل هذه المحال العامة ، والفنادق الكبرى كانت أوكارا للمراقبة والتجسس •

وكان السؤال : لمن يشتري (احمد مرزوق) هذا الطعام الغالي

وبهذه الكمية الكبيرة •• لا بد انه لهؤلاء الذين اختفوا من مصر الفتاة••

وروقب (احمد مرزوق) مراقبة دقيقة ، فاذا هو يكرر نفس العملية ويقابل (عبد القادر رزق) ليسلم له الاطعمة ••

وروقب (عبد القادر رزق) ، حتى وصلوا به الى بيته •• وعلى الفور هوجم البيت ، على أمل ان يعثروا فيه على أحد منا ، ولكن كانت المفاجأة اضخم •• لقد وجدوا (عزيز المصري) •

ولو ان (امام) قدر ان هذا الخيط سيؤدي به الى هذه النتيجة لاخذ احتياطه •

فقد ذكر فيما بعد انه فوجيء مفاجأة تامة بوجود (عزيز المصري) وصاحبيه وكان في حسابه وحساب قوات الامن ان هؤلاء الضباط الثلاثة سوف لا يسلمون أنفسهم ، وانهم وضعوا مع زملاء آخرين لهم ترتيبات مقاومة كبيرة ••

ولم يحدث شيء من هذا ••

لقد جمع الثلاثة ملابسهم في هدوء ونزلوا الى سجن الاجانب • وطيرت الانباء الى كل مكان وكان لها وقع عظيم ••

الأسد •• في القفص أخيرا ••

وجاء دوري ••

ولم يطل الوقت بي ، بعد هذا الحادث ، أكثر من اسابيع قليلة•• فقد سئمت هذا الاسر الاختياري ، وقلت حيطتي في التخفي ، ووجدت ان الحرب تطول وتتسع ميادينها ••

وكان أحد المرشدين ، وهو محام يشتغل قصاصا ، هو الذي ابلغ عن احتمال وجودي في منزل (عبد السلام الشريف) لما قدروه من صلاتي القوية به •

وجاء المرحوم (أحمد عبد الرحمن) مدير المباحث الجنائية على رأس قوة كبيرة من رجال البوليس حاصرت منطقة الدقي كلها •

ولا أزال أتخيل نظرة الدهشة الكبرى التي بدت على وجه السيدة صاحبة المنزل ، فقد رأت هذا الشخص الذي ينزل ومن حوله هذه الضجة الكبرى غير الشخص الذي سبق أن عزته في اقربائه من قبل •• ولعلها

لم تعثر على تفسير لهذا الموقف حتى كتابة هذه السطور .

وهناك في سجن الاجانب ، وفي زنزانة منفردة بدأت حياة الاعتقال ..

وكان هذا السجن يضم من قبلي كثيرين .. فقد افتتحه زميلي الصحفي (حسن سلومه) ، اذ كان أول الذين وقعوا في الاسر ، وما لبث ان تتابع « الزبائن » من بعده حتى عمرت الدار ، وزاد ساكنوها عما قدر لها . فبدأوا يفكرون في افتتاح « معتقل » بدلا من السجن واختاروا « فيلا » في الزيتون سميت فيما بعد معتقل الزيتون .

ان المقاومة المصرية للاستعمار اثناء الحرب ، لا ينبغي أن تتلخص في الاسماء التي طفت على سطح الحوادث ، ولكن من الواجب والانصاف ان نقول ان الافراد « المجهولين » من الذين شاركوا في نشاط هذه الفترة أكثر كثيرا من المعروفين والذين تناولتهم الاقلام ..

فقد أدرك القراء من تتبع هذه المذكرات ان العناصر الفنية من امثال الرسام (عبد السلام الشريف) والمثال (عبد القادر رزق) ، كانت اكثر استجابة للنشاط الوطني .

وينبغي ان نذكر كمثال لهذا الفريق من الوطنيين الاستاذ (فؤاد الجزائرلي) نقيب السينمائيين السابق الذي كان له في هذا الوسط نشاط ورأي ..

وقد حدثني (فؤاد) أن المرحوم (عزيز عبد) كان من أكثر الناس حماسة وحمية في تلك الاثناء . وانه كان يتحرق شوقا الى اجتماع أو ندوة تهدم في قواعد الاستعمار .

كان (عزيز عبد) . ومعه (فؤاد) وغيرهما يجلسون في قهوة « بيرون » ليراقبوا انسحاب الانجليز وقد علت وجوههم غبرة الهزيمة .. وذلك اثناء مرورهم في شارع الملكة نازلي (رمسيس الان) وفي اكثر من مناسبة فتشت بيوتهم ، ولا ينسى فؤاد الجزائرلي ربطة المنشورات التي سلمتها له مرة ، وذهب بها الى بيته ، ولمحه احد الصحفيين من عملاء القلم السياسي ، فأبلغ عنه . وفي دقائق كان البوليس يطرق بابه في شبرا .. وفي

لمح البصر تناولت شقيقته المرحومة (احسان) أم احمد « المنشورات » وحشت بها ثيابها ..

وأخذت تداعب رجال البوليس وهم يقلبون كل شيء ويبحثون في كل ركن .. الا طبعا ثياب هذه السيدة المخلصة .

ولعل من اشجع من عرفت ، الصديق الفاضل الشيخ (حامد الفقي) رئيس جماعة انصار السنة المحمدية .

كان يملك مطبعة صغيرة . وكنا نستعين بها في طبع المنشورات .. وكان لا بد ان نوزع نشرة معينة ننجزها في الليل .. وحدثت الغارة واطفئت الانوار ..

واذا بالشيخ يخرج من المطبعة ويذهب الى منزله القريب من ميدان عابدين ويحمل مصباح كيروسين مشعل ، اخفاه في عباءته ، واجتاز به ميدان عابدين حتى وصل الى المطبعة .

وعلى ضوء هذا السراج ، أنجزنا مهمتنا .

واذا تخيلنا الان ما كان هذا العمل يحمل من مخاطرة ولا سيما في منطقة قصر عابدين ، قدرنا أي روح وأي ايمان كان يحرك المصريين في ذلك الوقت .

ولم يكن النشاط مقصورا على القاهرة وحدها فقد رأس الاستاذ (توفيق الملط) في اسيوط جماعة أخذت تجمع الاسلحة والذخائر ، استعداداً لوقت القيام ضد الانجليز ، ورتبوا الوسيلة التي يقطعون بها مواصلات الصعيد تنفيذا للتعليمات التي تصدر لهم .

وقد قبض على (توفيق) ، ومعه بعض الديناميت وطرف من الخطة.. وكانت محاكمته أول قضية عسكرية في الحرب العالمية الثانية تنظر امام المحاكم .

رئيس الوزراء .. في السجن ..

فتح باب الزنزانة في الدور العلوي وسط قعقعة وضوضاء واقدام تعدو وأصوات تصدر الاوامر والنواهي وأخذ يصيح بصوت يشبه صراخ قطة ذيلها بكلمة : تمام ..

كان في الزنزانة (عزيز المصري) جالسا ينظر في كتاب معه ، واذا

شخص بالباب .. ألقى عليه السجين نظرة سريعة ، ثم عاد يقلب الكتاب في يده كأنه لم ير أحدا .

كان يقف على الباب رئيس الوزراء .. حسين سري

وحسين سري قريب لعزيز المصري ، ولم يجيء ليطمئن على قريبه على أي حال .. قال له : عايز حاجة ؟ ..

وانتظر برهة عساه يسمع ردا .. ولكن عزيز المصري تجاهل السؤال، كما تجاهل صاحبه ، فكرر السؤال ، وكان رده :

ـ تقفل الباب وراك !

فانسحب الزائر ، ومن حوله هيل الحكم وهيلمانه ، وهبط السلالم الحديدية ، الى خارج السجن وعلى شفتيه ابتسامة خفيفة ..

ومضى عام ١٩٤١ ثقيلا ليس فيه الا محاولة تهريب جريدة الى سجننا والاطلاع على انبائها .

وجاء عام ١٩٤٢ ليشهد أحداثا جساما .. يشهد في فبراير تغيير وزارة (حسين سري) ، واكراه فاروق على أن يولي (النحاس) الحكم والدبابات تحاصر قصر عابدين .

ويشهد في مارس الافراج عن (عزيز المصري) بعد ان نقل من السجن الى « ميس » الضباط .

ويشهد في الصحراء الغربية المعركة التي يمكن ان ينطبق عليها قول الشاعر في وصف جواده :

مكر مفر مقبل مدبر معا .. ينطبق هذا الوصف على فريق من المتحاربين .

وفجأة انقسم المنظر الى قسمين ..

قسم يكر ويقبل ، وهو (روميل) وفرق (البانزر) وقسم يقر ويدبر (وهوريتشي) وقوات الانجليز .

تشرشل في مصر :

في هذا الوقت كانت طائرتان كبيرتان تنطلقان ، وفي كل منهما سر كبير .. طائرة غادرت موسكو الى القاهرة وفيها (ونستون تشرشل) . وطائرة غادرت قبلها بوقت قصير برلين الى طرابلس الغرب وفيها جوهانز

ابلر أو حسين جعفر الذي قدر له بعد قليل ان يقطع بالسيارة في الصحراء ٤٥٠٠ كيلو متر ليصل الى مداخل اسيوط عن طريق العجيلة وواحات الكفرة والخارجة •

كانت زيارة شاقة مريرة على (ونستون تشرشل) ابتلع فيها كبرياءه وصلفه المعروف وتعرض لكثير من الغمز وقارص القول •

وكان ذلك عندما زار موسكو في اغسطس سنة ١٩٤٢ ، وقال عن هذه الزيارة في مذكراته : انه احتمل اهانات كثيرة اثناء اجتماعاته مع زعماء روسيا السوفياتية ، ولكنه كان يعلم مقدار توتر الاعصاب الذي عاش فيه هؤلاء الرجال اثناء زيارته • فان الجبهة الروسية التي كانت مفعمة بالدم والنار اصبحت تمتد الى ٢٠٠٠ ميل • ولم تكن المسافة بين هتلر وموسكو تزيد عن ٥٠ ميلا وكانوا يتقدمون بسرعة نحو بحر قزوين •

وقد وجه (تشرشل) والقواد الذين صحبوه (بروك وويفل وتيدر) مئات الاسئلة والاستفسارات الى (ستالين) والقواد الروس ولكن كان هناك رد واحد هو : افتحوا جبهة ثانية •

وكانت مهمة (تشرشل) ان يضع في شراب الروس جرعة مسكنة حتى يتفرغ (لروميل) •• كانت مهمته ان يفسر لهم السبب الذي سحب من اجله ٢٠٠ دبابة كانت مرسلة لروسيا عن طريق ايران ثم هرعوا بها فجأة الى العلمين •• كان من مهمته ان يشرح لهم سبب ابطاء المعونة الامريكية من الاسلحة الثقيلة بأنواعها ليذكر لهم ان « الشعلة » تريدها ويبرر هذه الحالة « والشعلة » هي الشفرة السرية لعملية الصحراء الغربية في وقفة العلمين •

أبرق (تشرشل) من موسكو الى نائبه في لندن المستر (اتلي) يقول لـه :

ينبغي لي أن أنوه تنويها قويا بخيبة الامل المريرة التي يحس بها الروس لاننا لا نستطيع ان نعاونهم بشيء في نضالهم الضخم الان •• واستطرد : وكل شيء بالنسبة لنا الان يتوقف على الاسراع في عملية « الشعلة » وهزيمة (روميل) ••

كانت هذه هي النتيجة الحقيقية لزيارة (تشرشل) لموسكو ، وان

كانت البلاغات الرسمية قد اطنبت في التنويه بالمحادثات الودية ..

ولكن (تشرشل) كان سعيدا لانه تمكن من العودة هاربا بجلده كما يقول المثل « ولذلك راح يبعثر البرقيات الى ملك بلاده والى (روزفلت) والى الجنرال (سمطس) في جنوب افريقيا وغيرهم ويتلقى تهانيهم على ما وصل اليه .. من نجاح ..

تشرشل يستحم في برج العرب :

طار (تشرشل) الى طهران ثم الى القاهرة ..

وبعد فترة قصيرة كان في السيارة مع الجنرال (الكسندر) يمر بالهرم في طريقه الى الاسكندرية ثم الى برج العرب حيث اجتمع بالجنرال (مونتجمري) هناك .

واغرى منظر البحر (تشرشل) فاقترح ان يأخذ حماما فيه وينعم بالشاطيء المصري في وقت من أجمل أوقات العام .

وعلم (تشرشل) ان الجيوش المتحاربة من الجانبين موجودة كلها في الماء تقريبا .. جنود (روميل) في حمام كليوباترا بمرسى مطروح وما حوله .. وجنود (مونتجمري) في البحر بمنطقة الحمام وبرج العرب . وكان المنظر جميلا وباعثا على التأمل .

ان الذي ينظر الى هذه الجموع المستحمة اللاهية من جنسيات مختلفة لا يصدق انأسابيع قليلة لن تمضي حتى يثب كل رجل على الاخر ليدق عنقه وينهي حياته .. كل ما كانوا ينتظرون هو أمر من القيادة هنا أو هناك لتبدأ المذبحة ..

وتمضي ابراج الحديد الزاحفة تسحق تحتها البشر سحقا أو تنفجر من باطن الارض قذائف من النار والحديد تمزق الاشلاء وتزهق الارواح .

وحول مائدة الخرائط اجتمع (تشرشل) مع قواده .. وقال له (مونتي) ان ثلاثة أسابيع هي الحد الادنى الذي يتطلبه لابتداء المعركة .. وان كان الامر كله يتوقف على (روميل) .

وخطر لتشرشل خاطر مهم ..

قال لقواده :

ــ لماذا لا يكون من خطة (روميل) أن يطوق العلمين ، ويمد ذراعا

طويلا من قواته ليصل الى القاهرة دون أي عناء •• يقول (تشرشل) •

ـــ لقد تمثلت لي هزيمة نابليون في سنة ١٨١٤ فقد ركز كل قواتـــه ومجهوده في نقطة معينة دمر ما حولها واذا بالحلفاء الذين كانوا ضده أهملوا جيشه واستحكاماته واندفعوا نحو باريس •

ولهذا انتقل البحث من الدفاع عن خط العلمين الى الدفاع عـــن القاهرة •• وطلب (تشرشل) ان يوضع في مكان الاهمية الكبرى توفير كل رجل يمكن ان يرتدي زيا عسكريا ولا يحتاجه خط العلمين لكي يتحرك اذا نفذ روميل هذه الخطة •

وكانت خطة الانجليز في معركة العلمين ان يتركوا (لروميل) الهجوم الاول على خطوطهم حتى يحطم اسنانه في خطوط دفاعهم •

وفي ٢١ اغسطس سنة ١٩٤٢ ، ارسل (تشرشل) الى نائب رئيس الوزراء ومجلس وزراء الحرب في لندن تقريرا ذكر فيه انه اذا تمكـــــن (روميل) من اختراق خط العلمين فان الجيش الثامن سوف ينسحب الى الدلتا •

وذكر (تشرشل) ان في حوزة قواته ٧٠٠ دبابة في الجبهة و ١٠٠ دبابة في الاحتياطي و ٧٠٠ طائرة في خط القتال و ١٣٤٠ مدفعا •

وفي اليوم التالي زار تشرشل كهوف طـــرة ، حيث كـــان الانجليز يصلحون ما يصاب بعطب من دباباتهم وسياراتهم •

ويقول (تشرشل) ان هذه « الورش » كانت صغيرة وكل العيب في صغرها يرجع الى الفراعنة الذين لم يشقوا في الصخور كهوفا اكبر تتسع لعمليات حربية واسعة النطاق من النوع الذي كان يـــدور في الصحـــراء الغربية •• ويزعم (تشرشل) أن الفراعنة لو عنوا ببناء عدد اكبر مـــن الأهرام لزاد عدد الكهوف ولكنهم كانوا مقلين في هذه المنطقة ••

وعاد (تشرشل) ليشرف بنفسه على اجراءات الدفاع عن القاهرة •• يقول في مذكراته :

أمرنا باتخاذ اجراءات حاسمة وفعالـــة للدفاع عن القاهـــرة وكانت خطوطها تمتد بجوار الترع ورياحات المياه الممتدة من القناطر الخيريـــة الى البحر المتوسط •

ـ وذكر ان أوكار المدافع الرشاشة •• والالغام بنيت تحت الكباري والقناطر والمؤسسات الهامة •

ـ وقال ان جميع الموظفين في فروع القيادات بالقاهرة سلموا أسلحة وهم طبعا من الانجليز أو الاجانب كما كلفت الفرقة ٥١ هايلاند بالدفاع عن هذا الخط •

وكان في حساب تشرشل وقواده ان يغرقوا الدلتا بالماء حتى يعوقوا تقدم الدبابات الالمانية •• وفي وسط الأوحال يمكن اصطيادها •

وكان القائد المكلف بهذه العمليات هو الجنرال (ميتلاند ولسن) الذي استدعي من قيادته في الخليج الفارسي ليقوم بهذه المهمة • اذ أنه يعرف مصر جيدا ونقل حديثا منها •

وكان الامر الصادر (لويلسن) هو ان يباشر عمليات الاغراق والتدمير بمجرد ان يخطره الجنرال (الكسندر) ان القاهرة في خطر •

الحكومة المصرية •• ماذا تعمل •• ؟

وفي هذا الوقت أو قبله بقليل كانت قد بدأت محادثات بين الجنرال (ستون) من قبل انجلترا و « مصطفى النحاس » رئيس الوزراء اذ ذاك •• وقدمت الى القصر مذكرة عن هذه المباحثات جاء فيها بالنص ••

تناولت المباحثات بين الجانبين المصري والبريطاني المسائل الآتية :

١ ـ رغبة الجانب البريطاني في الاطمئنان الى موقف مصر حكومة وشعبا نحو انجلترا في الظرف الحاضر • فقال النحاس (باشا) ان موقف الحكومة والشعب يدعو الى كل اطمئنان •

٢ ـ دار الحديث عن مقاومة الجاسوسية والباراشوت وحماية المرافق العامة وخاصة الطرق والكباري فقال النحاس (باشا) ان الحكومة تعمل على مقاومة الجاسوسية باستمرار وستدرس مسألة الباراشوت وانها تقوم بحماية الطرق والكباري على أكمل وجه • فقال الجنرال (ستون) : ان لدى القيادة الانجليزية أخبارا عن وجود ١٠٠٠ طائرة المانية من حاملات الجنود في جزيرة كريت وانه لا يعلم هل هذه الطائرات معدة لاستعمالها في غزو مصر أم سوريا وان مسألة الباراشوت تدعو الى النظر اليها بسرعة

فوعد النحاس (باشا) بالنظر في الامر وافادة الجانب الانجليزي بالنتيجة .

٣ ـ قال الجانب الانجليزي ان الجيوش الانجليزية ربما تضطر للاعتماد على التموين من مصر فترة قصيرة جدا . فقال النحاس (باشا) ان حالة التموين بمصر سيئة وان الانجليز يعلمون ذلك وانه على استعداد لتقديم ما يمكنه .

٤ ـ قال الجانب الانجليزي انه ربما تحتاج الجيوش لبعض الاسلحة من الجيش المصري خصوصا وان هذا الجيش لا يحارب فقال حمدي (باشا) سيف النصر ان الجنرال (ستون) كان رئيسا للبعثة العسكرية ويعلم ان اسلحة الجيش المصري لا قيمة لها حربيا تقريبا .. فقال الجنرال (ستون) : انه يوجد بعض اصناف تفيد الجيوش المتحاربة وربما يحتاج الامر اليها .. فوعد النحاس (باشا) بالنظر في الامر ..

٥ ـ تحدث النحاس (باشا) عن جعل القاهرة مدينة مفتوحة فقال الجانب الانجليزي ان الظروف الحاضرة لا تسمح بالنظر في هذا الموضوع الآن .

٦ ـ سأل الجانب الانجليزي عن مسألة الهجرة فقال النحاس (باشا) ان الحكومة اقامت قرى للمهاجرين من الاسكندرية وتطرق البحث في مسألة الهجرة من القاهرة حتى لا يحصل بمصر ما حصل في فرنسا وقت الغزو من تدفق المهاجرين في الطرق وعرقلة حركات الجيوش فقال النحاس (باشا) انه سيدرس مسألة الهجرة من القاهرة ويعرض على الجانب الانجليزي نتيجة ابحاثه ..

٧ ـ في نهاية المباحثات قال الجانب الانجليزي ان هذه المناقشات هي من طريق الاحتياط وان الانجليز على استعداد تام للدفاع بل للهجوم وان الحالة الحربية مطمئنة ولدى الانجليز من العتاد والرجال ما يكفي للدفاع عن مصر والهجوم على العدو .

موقف الجيش المصري :

وهنا يخطر لنا سؤال .. بل اسئلة ؟

١ ـ اذا كانت الحكومة البريطانية تحاول ضمان موقف الشعب

المصري اذا ما نشبت المعركة وتقدمت الجيوش نحو القاهرة فلماذا لم تضع في حسابها تسليح الشعب على نحو ما سلحت آلاف الموظفين من مختلف الجنسيات غير المصرية ؟

٢ ـ ما موقف الجيش المصري من هذه المعركة وكيف كان ينظر اليه الانجليز في هذه الفترة ؟ أما الشعب فقد وضح مما سبق لنا ذكره انه كان ضد الانجليز عن بكرة ابيه الا اذا استثنينا فريقا قليلا من المستفيدين والمتجرين مع القوات المتحاربة . وقد تأكد هذا للانجليز في اكثر من معنى وأكثر من مناسبة .

بقي موقف الجيش المصري بالنسبة لهم .

وقد ذكرنا انه عندما طلبوا تسلم اسلحة الجيش المصري عند عودته من مرسى مطروح رفض الضباط تنفيذ هذا الامر . وكانت هذه أول بوادر الخروج على طاعة الانجليز .

ويزيد الامر توضيحا ان التقرير الذي ذكرناه والذي قدمه (القلم السياسي) للقصر ذيل بعبارة تلقي ضوءا على هذا الموضوع جاء فيها بالنص :

« يقال ان الانجليز تخشى كثيرا ان تقوم ضدهم ثورة وقت القتال. وان يشترك الجيش المصري فيها .. »

ولم يكن الانجليز في حاجة الى دليل على اتجاه الجيش بعد حادث ٤ فبراير فانه كان حادثا كبيرا هز القوات المصرية المسلحة هزا عنيفا . ولم تتردد في اختيار الجانب الذي تنحاز له .

حاولوا ان يتسلموا اسلحة الجيش عند اعادته من مرسى مطروح فرفض الضباط والجنود تسليم سلاحهم .

وكرروا المحاولة في عهد النحاس فكان رد وزير حربيته حمدي سيف النصر (باشا) ان الجنرال (ستون) كان رئيسا للبعثة العسكرية .. ويعلم ان اسلحة الجيش المصري لا قيمة لها حربيا تقريبا .

ومع ذلك فقد طمع الانجليز في ان يضعوا أيديهم على كميات معينة من هذه الاسلحة ولا سيما المدفعية الثقيلة والهاون والمضادة للدبابات .

والمدافع الرشاشة • وتقول الوثائق عن هذه المباحثات ان (النحـاس) باشا وعد بالنظر في الامر •

وعندما جاء (تشرشل) الى القاهرة رفض رفضا تاما ان تعـد القاهرة مدينة مفتوحة ورتب خطة الدفاع عنها بتوفير كل جندي لايحتاج اليه خط العلمين •

الدكتور مصطفى خليل مهندس كوبري امبابه

ولم تعلم الحكومة المصرية على وجه اليقين هذه الترتيبات حتـى تبين للجنرال (ستون) الذي كلف بالعمليات العسكرية من اغراق الدلتا الى نسف الكباري والقناطر والخزانات • ان كل القوات التي وضعـت تحت يده لا تكفي للقيام بهذه المهمة •

ولهذا اضطر لان يستعين بوحدات من الجيش المصري لسد ثغرات معينة في خطه الدفاعي •

وكانت هذه الثغرة تشمل خط البراجيل وامبابة وكوبري امبابة وهو الممر الوحيد الذي يصل سكة حديد الوجه القبلي بالقاهـرة •• ويعد من اهم المواقع الاستراتيجية •

ووقع الاختيار على الكتيبة التاسعة • والآلاي الاول الخفيف من وحدات الجيش المصري للدفاع عن هذه المنطقـة •• وكلف الفريـق (حسن حسني الزيدي) مفتش عام الجيش ومدير المدفعية بتولي القيادة في القطاع المذكور •

وسلم (الزيدي) وضباطه خرائط بمواقع الالغام ودشم المدافـع وما اليها •• وقيل لهم انه بمجرد ان يصـدر لهم الجنرال (ستون) امره تنسف الكباري والقناطر وتدمر الطرق •

وهذه كباري مصر وقناطرها وسكك حديدها •• وهـذه طرق مصر ومدنها وقراها •• لم يرثها الانجليز عن اجدادهم ولا حق لهـم في تدميرها •• ولا يمكن لمصري أن يشترك في ارتكاب هذه الجريمـة بل يجب عليهم أن يمنعوها بكل ماوسعهم من جهد •

والعسكريون يمكن أن يتفاهموا •• ولكنهم وجدوا شخصا مدنيـا يعمل عملا هاما في هذا القطاع وهو الاشراف الفني على كوبري امبابة•

كان هذا المدني هو المهندس (مصطفى خليل) ووزير المواصلات ثم الصناعة بعد الثورة .

باور كلين .. يقتل تحت الكوبري :

ولم يتردد الضباط في ان يعدوا (مصطفى خليل) منهم ، فهو يحس باحساسهم وله في هذه البلاد مالهم .

ودارت اجتماعات سرية جدا اتفقوا فيها على انه اذا جاءهم امر النسف والتدمير فلن ينفذوه واذا حاول الانجليز ان ينفذوه بأنفسهم صوبوا كل ما في ايديهم من نيران الى صدور الانجليز .

وكاشفوا (مصطفى خليل) مهندس كوبري امبابة . فقال انه معهم في كل ما يشيرون به .

وكاشفوا الفريق (الزبدي) فكان أكثر حماسة منهم رغم مركزه الكبير ورغم الرقابة الشديدة التي كانت مفروضة على قيادات الجيش في ذلك الوقت .

واتفق الضباط بينهم وبين أنفسهم على أن يمنعوا المرور من فوق كوبري امبابة أو تحته من الساعة الرابعة مساء مهما كانت الظروف خشية أية مفاجأة من الانجليز أو تسلل منهم الى المواقع لتنفيذ خطط التدمير .

وحدث ذات يوم ان شاهد الضابط المكلف بالحراسة ان لنشا يرفع العلم البريطاني يندفع بسرعة كبيرة تحت الكوبري .

كانت سرعة اللنش نحو ٧٠ كيلو مترا وكان لا بد من ايقافه ، فأمر الضابط أن تطلق فوق اللنش طلقة انذار أولى ولكن راكبه لم يعبأ .. وبعد طلقة الانذار الثانية كان لا بد من العمل لايقاف هذا اللنش خشية أن يصل الى موقع فتيل الالغام ويشعله .

أمر الضابط بالضرب في المليان .. وقتل راكب اللنش على الفور ، وما أن عرفت شخصيته حتى قامت الدنيا وقعدت .. كان ضابطا برتبة صاغ .. وكان ياور اللورد كلين سفير بريطانيا والحاكم بأمره .

وهبط قلب الفريق (عطا الله) رئيس اركان حرب الجيش الى قدميه وذعرت الوزارة ذعرا شديدا وصدر الامر على الفور بالقبض على الضابط المصري ..

كان هذا الضابط هو الملازم (يوسف مكادي) •• وقال في التحقيق انه مكلف بالمحافظة على الكوبري وانه لم ير العلم على اللنش وظنه أحد الجواسيس الالمان •• فكان لابد من العمل •

وحضر مندوب من الجنرال (ستون) وأمر بالافراج عن (يوسف مكادي) وشكره لانه حافظ على الكوبري ضد جواسيس الالمان !!

وسر الضباط المصريون وقائدهم لهذه النتيجة سرورا عظيما فقد ثبت لهم أن ما تعاهدوا عليه لم يصل الى المخابرات البريطانية •• ولا المخابرات المصرية ولا القلم السياسي •• وزادت حماستهم وترقبوا اليوم الذي يؤدون فيه واجبهم على نطاق أوسع من حادث الكوبري •

طلبات « تشرشل » •• من مصر :

عند زيارة (تشرشل) لمصر تقابل مع (مصطفى النحاس باشا) رئيس الوزارة في ذلك الوقت وكانت (لتشرشل) طلبات وأسئلة هي :

١ ـ سأل اذا حصل غزو ودخل الالمان مصر •• هل تقطع الحكومة المصرية العلاقات مع انجلترا •

٢ ـ وطلب (تشرشل) ما سبق ان طلبه العسكريون من انتقال الحكومة المصرية الى مكان غير القاهرة •

٣ ـ وقال (تشرشل) ان في نية العسكريين تدمير المنشآت البترولية حتى لا يستفيد منها الالمان •

٤ ـ وطلب (تشرشل) أن ينقل من القاهرة الغطاء الذهبي للنقد المصري •

٥ ـ وطلب ان يعطى الجيش الامريكي المزايا التي يتمتع بها الجيش البريطاني الخاصة باجراءات الجمارك والمحاكمة وكذلك بالنسبة لرعايا الصين (حليفة انجلترا في ذلك الوقت) •

هذه كانت مطالب الانجليز •

أما مطالب مصر في هذه المباحثات فتلخصت في أمرين :

١ ـ تيسير استيراد بعض الضروريات •

٢ ـ شراء القطن المصري •

وكانت أهم نقطة وعد بها النحاس باشا هي أنه لن يقطع علاقته مع انجلترا اذا خرجوا من مصر ..

وأهم نقطة وعد بها (تشرشل) هي أن يشتري القطن الكرنك ولا يشتري الاشموني .

والانسان يدهش لهذا الوعد الذي بذلته الحكومة المصرية .. اذ كيف يتسنى لها امام قوة غازية قطعت علاقاتها معها ان تتمكن من مجابهتها بانها ستبقي على علاقتها مع أعدائها المنهزمين . وواضح ان رئيس الوزراء إنما بذل للانجليز كلاما يرضيهم دون أن يكون هناك أي ضمان لتحقيقه.

* * *

ذكرنا ان الانجليز يدبرون لمصر خططا جهنمية في حالة انسحابهم.

وقد أثبتت الوثائق والحوادث المعروفة معا أن الحكومة المصرية لم تكن بأي حال طرفا في هذه الاجراءات ولم يستشرها أحد في مثل هذه الخطط على الرغم من أن مصر كانت بلدا مستقلا ذا سيادة .

قال (النحاس) في رسالة سرية للملك السابق فاروق كتبها بخط يده ما يأتي بالنص :

رئاسة مجلس الوزراء

مكتب الرئيس

الاربعاء ٥ أغسطس سنة ١٩٤٢

مذكرة سرية شخصية

مرفوعة الى حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم فاروق الاول حفظه الله .

١ ــ وفد الى مصر يوم الاثنين الماضي ٣ أغسطس بصفة سرية محضة حضرة صاحب السعادة المستر تشرشل رئيس الوزارة البريطانية وقد دعاني لتناول الغداء معه بدار السفارة البريطانية يوم الثلاثاء ٤ أغسطس .

حاولت الاتصال بجلالتكم لابلاغكم ذلك فلم يتيسر لي.

كان الحديث على المائدة يدور على أحوال مصر بصفة عامة.

يخيل إلى انه قادم بصفة سرية للنظر في الحالة الحربية القائمة

على حدود مصر وان كان لم يتحدث معي في شيء من ذلك.

علمت منه أنه انتظر عودة جلالتكم الى القاهرة ليحظى بشرف المقابلة بصفة سرية وهو لهذا السبب لم يتوجه الى القصر العامر لقيد اسمه في سجل التشريفات . وقد اتصل سعادة السفير البريطاني بحضرة صاحب المعالي أحمد حسنين باشا رئيس ديوان جلالتكم وافضى اليه بذلك .

٢ ــ طلب في مساء الامس بصفة سرية استمرار وقف المواصلات مع فلسطين على صورة مخففة لمدة ٤٨ ساعة أخرى تنتهي في صباح الجمعة المقبل . وقد نفذ ذلك فعلا .

٣ ــ استقبلت في مساء السبت الماضي بالمنزل حضرات أصحاب السمو والمجد والسعادة عمر الفاروق وعباس حليم ومحمد طاهر باشا واتفقت معهم على تفاصيل سفرهم الى المصيف الذي أعدته الحكومة لهم باستراحة طلمبات السرو اعدادا يليق بمقامهم .

وتنفيذا لما تم الاتفاق عليه سافروا باختيارهم صباح الاحد الماضي ووصلوا الى الاستراحة الساعة ٢٫٣٠ بعد الظهر حيث كان كل شيء معدا لاستقبالهم واقامتهم .

وقد ابلغوني في نفس اليوم انهم في غاية الراحة والممنونية. ويهمني ان أذكر لجلالتكم ان في الحديث معهم مساء السبت أفهمتهم بكل جلاء مبلغ اهتمام جلالتكم بشأنهم وما كان من مواصلة سعيكم الكريم لابعاد هذا الامر عنهم واني من جانبي قد بذلت جهدي نزولا على أمركم فلم نستطع أكثر مما تم الاتفاق والتفاهم معهم عليه .

هذا ما عن لي ابلاغه لجلالتكم بصفة عاجلة واني يا مولاي على الدوام الوفي المخلص الامين .

« مصطفى النحاس »

* * *

الحرب والقصر :

ما الذي كان يشغل القصر في أيام الحرب ؟

هل كان محور النزاع ، كما خيل للسفير البريطاني مخابرات الإحتلال البريطاني بعد الحرب ويزيل القيود المتخلفة عن معاهدة سنة ١٩٣٦ ؟

هل كان محور النزاع ، كما خيل للسفير البريطاني مخابرات بلاده في تلك الفترة ؟

الواقع ان شيئا من ذلك لم يكن يشغل القصر ولا أركانه جميعا بل الذي حدث على وجه التحديد ، انه ما ان وضع البوليس يده على المؤسسات الالمانية حتى كان الملك السابق أول زائر لها . وكانت عنايته الاولى موجهة لتوكيلات الادوية .. وقد أمر بأن ينقل معظم ما فيها الى القصر والى مستشفى المواساة ولم يحاول بحال من الاحوال أن يكون مجاملا لاحد منهم ..

كل ما حدث بعد أن دخلت ايطاليا الحرب ، أن طلب اللورد كيلرن السفير البريطاني اعتقال بعض الموظفين الايطاليين في القصر اسوة بغيرهم من رعايا المحور ، وتشبث فاروق ببقائهم ، ولم يكونوا يزيدون عن أفراد قلائل ، المهندس والكهربائي (بوللي) والحلاق .. واحتدمت لهذا السبب أزمة بعد أزمة ، انتهت بحل وسط وهو ان يستبعد واحد ويبقى الاخران ..

ولم يكن الامر يسلم من ان ينقل للانجليز عن فاروق أنه كان يتندر بهزائمهم ، ويتفوه بالفاظ لم يأخذوها منه مأخذ الجد . ولو انهم كانوا يحسون بأنه عقبة في طريق مجهودهم الحربي لما تأخروا لحظة واحدة في خلعه كما فعل (كتشنر) مع (عباس الثاني) .

وكان (فاروق) يعلم انه مراقب . وكان يعلم ان (حسن رفعت) وكيل الداخلية لا يراقب تحركاته عن طريق رجاله فقط ، ولكن كان يراقب تليفوناته كلها ..

وانك لترى صورة طريفة من سياسة تلك الايام ، ماثلة في رسالة

رئيس الوزراء الى الملك ، والتي يحدثه فيها عن الطريقة التي نفـذ بها أمر اعتقال ثلاثة من أقارب أفراد الاسرة المالكة .

فقد اسمى المعتقل « مصيفا » .. واسمى الاعتقال « الامر »والواقع انه لا (فاروق) ولا (النحاس) حاولا جديا أن يبعدا هذا الامر عـن الثلاثة المعتقلين ولكن التظاهر كان من طبائع الاشياء في تلك الفترة .

وذلك لان (فاروق) لم يحاول أن يبعد هذا الامر عن رئيس وزرائه السابق (علي ماهر) .. ولم يحاول أن يبعده عن اثنين من ضباط جيشه احتجا على حادث ٤ فبراير وهما (أحمد فؤاد صادق) و (محمد كامـل الرحماني) .

فقد نفذ الامر دون ابداء أي أسف أو حسرة على ما حدث .

الوثيقة الامريكية .. والعلاقات الطيبة :

وحتى نستوفي هذه النقطة بحثا ، وهي الاتجاهات الحقيقية التي كانت تدور حولها سياسة القصر .. نستحث الخطى قليلا وننتقل مـن هذه الفترة التي نتحدث فيها الى فترة اخرى تليها .. الى الاسابيـع التي تولى فيها (ترومان) الحكم في الولايات المتحـدة بعـد أن مات (روزفلت) .

فقد سافر سفراء الولايات المتحدة في« الشرق الاوسط » الىواشنطن للتعرف على اتجاهات الحكومة (الترومانية) وبعد أن عاد سفيرهم في مصر المستر (تاك) رفـع الى فاروق تقريرا عمـا عاد به وعن آرائـه ومعلوماتـه .

وسنرى في هذه الوثيقة كيف ان (فاروقا) أراد أن يلعب بالورقة الامريكية عسى أن تساعده على تعزيز مركزه الذي اهتز من حـادث الدبابات وان يطمئن الى أن علاقاته مع الانجليز أصبحت حسنة ، وان اهداءه قصر التين ليصبح مستشفى بريطانيا ، وموافقتـه على اعتقـال أقاربه ، وتمشيه مع الرغبات الاخرى .. كل هذا كان له تأثيره ولا شك في أن يكونّن الانجليز عقيدتهم على أساس أن فاروقا لم يصبح خطـرا عليهم ، وانه لا داعي لان يتكرر معه ، ماحدث مع عباس الثاني ..

تقول هذه الوثيقة عن آراء السفارة الامريكية ما يأتي بالنص :
قال المستر (تاك) :

ان زيارتي لامريكا افادتني لانها أتاحت لي فرصة معرفة الرؤساء الجدد في وزارة الخارجية وكنت أعرف ان لليهود نفوذا كبيرا ولكني لم أكن أتصور هذا النفوذ العظيم على حقيقتــه فظهرت لي الحقيقة هــذه المرة • ان نفوذهم عظيم جدا ، وعلى الدعاية العربية أن تعمل بنشاط •

وقد استفاد العرب من ذهابنا (أي هو وزميلاه في بيروت وجده) الى امريكا ، وقد رأيتم ان الرئيس (ترومان) عدل موقفه وقد قلت له أن تصريحه الاول أهاج مصر كلها •

وقد اكتشفت في أثناء وجودي في أمريكا سرا غريبا وهو انالرئيس (ترومان) لم يقل في خطابه للمستر (اتلي) انه يطلب فتح أبواب فلسطين لمائة الف مهاجر يهودي بل كتب اليه يقترح استشارة العرب واليهــود في موضوع مشكلة فلسطين والسماح لليهود بدخول فلسطين لغايــة مائة الف ، ولكن المستر (اتلي) لخص هذا كله بقوله في خطبته عــن الرئيس (ترومان) انه طلب منه فتح أبواب فلسطين لمائة الف يهود •

ويمضي الذي قدم هذا التقرير (لفاروق) قائلا :

وهنا قلت للمستر (تاك) : لماذا لم ينشر البيت الابيض جــواب الرئيس حتى يعرف الناس الحقيقة ؟

فقال : سألتهم نفس السؤال فقالوا : انهم خافوا من اليهود لان اليهــود اعتبروا جواب الرئيس (ترومــان) للمستر (اتلي) مناسبــا جدا لهم •

ومضى صاحب التقرير :

ومما قاله لي المستر (تاك) انه حدثهم في أمريكا عن صعوبةتطبيق مبدأ ترومان في الشرق وعن صعوبة مهام الملك ومما قاله لهــم عن مولانا فاروق • انه حدثهم عن عطف مولانا عليه وعلى الامريكيين •

ومما قاله لي أيضا انه اجتمع باللورد (كليرن) فذكر له السفير مــع السرور ان العلاقات مع مولانا طيبة وامتدح له السفير كثيرا موقفمولانا في الازمة الاخيرة •

فغادر مستر (تاك) أمريكا بالطائرة يوم ١٢ ديسمبر فوصل الى مصر في يوم ١٥ •

* * *

والآن الى المعسكر الالماني ••

هذا ما كان يدور في المعسكر البريطاني في خلال أزمة العلمين ، وما كان يدور في مصر •• في دوائرها الشعبية ، ثم دوائرها العسكرية ، ثم دوائر القصر •

ولننتقل الآن الى المعسكر الالماني لنرى شابا يدخل مقر القيادة في طرابلس وقد اسمرّ وجهه ولمعت عيناه ، وتهدلت خصلات من شعره الاشقر •• أدى التحية العسكرية ثم مد يده ليصافح اليد التي امتدت له •• كانت يد الفيلد مارشال (روميل) ، أشهر شخصية عالمية سيطرت على مجرى الحوادث في تلك الايام ••

قال القائد المحنك للضابط الشاب :

ــ أتمنى لك « يا ابلر » كل توفيق في مهمتك ••

ثم صمت (روميل) برهة وهو يحدق في عيني الفتى واستطرد :

ــ لقد أصبح في يديك الآن أن تساعدنا على ادراك النصر الذي يريده الفوهور هنا في افريقيا •

وأجاب (جون ابلر) :

ــ سيدي المارشال •• عندما تقود جيوشك في قلب القاهرة ، ستجدني في انتظارك هناك •

كان ذلك في ١١ مايو سنة ١٩٤٢ ، وعندما ركب المارشال سيارته وبجواره هذا الشاب ومن ورائهما قافلة كبيرة من السيارات تضم ثمانية رجال آخرين ، أعطى المارشال أمرا بالمسير ، فانطلق الركب جنوبا بشرق مارين بالعجيلة ثم جنوبا في اتجاه واحة الكفرة •

ودع « روميل » هذه القافلة الصغيرة بنفسه ، تاركا أعباء قيادته ، في شهر من شهور الحرج والترقب للمعركة الفاصلة ، وهو شهر مايو سنة ١٩٤٢ •

كانوا جميعا يرتدون الملابس الحربية الانجليزية ، ويحملون اشارات

وحدات مختلفة معروفة بين القوات البريطانية ، ومع هذا لم يكن منظرهم غريبا وهم يقفون بجوار سياراتهم وقفة عسكرية ، ويؤدون التحية العسكرية للقائد المشهور ، الذي حياهم بدوره ، وأمر سائقه بأن يكر راجعا ..

كانت القافلة تستقل سيارات الصحراء ، من مختلف الاحجام ، وكلها تحمل ارقاما بريطانية ، وعليها رسوم الوحدات التي أخذت منها والجيش البريطاني يكر راجعا لينجو بجلده من هزيمة فاقت هزيمة (دنكرك) .

كانت السيارات تتحرك في بحر الرمال العظيم ببطء ، وفي أول حركاتها وهي تتجه نحو الحدود المصرية الجنوبية الغربية ، كانت عملية « كوندور » قد بدأت وهو الاسم السري الذي أطلق على مهمة « ابلر » في مصر .

هذا الطريق .. وهذه القافلة :

وكان أمرا غريبا حقا ، أن تختار المخابرات العسكرية الالمانية أو « الابوير » كما كانت تسمى ، هذا الطريق الطويل المخيف لكي يتسرب « ابلر » منه الى مصر .

ولكنا لاحظنا ان هذه المخابرات رفضت قبلا الاقتراح الذي أرسله لهم (عزيز المصري) باختيار مطار الخطاطبة المهجور لكي تصل اليه طائرة المانية تنقله الى خطوطهم وفضلوا عليه مكانا آخر في الصحراء .

انهم كانوا يعرفون هذه البقاع جيدا ..

ان الطريق الذي اختاروه كان يقضي بأن يهبط « ابلر » أو حسين جعفر جنوبا بالسيارات الى مكان يحاذي تماما مدينة اسيوط ثم يمر بواحة باريس ، ثم بواحة الخارجة ثم يصعد الى اسيوط .

ان الرحلة بهذه الصورة تقتضي المسافرين أن يقطعوا ٢٥٠٠ ميل تقريبا في الصحراء ، أي حوالي ٤٥٠٠ كيلو متر ، أي اكثر من اربعة أمثال المسافة بين القاهرة وأسوان .

وكان يمكن أن يختار الالمان ان يسقطوا (حسين جعفر) بالباراشوت مثلا في أي منطقة صحراوية قريبة من الوادي .

ولكنهم لم يلجأوا لهذه الطريقة ، ربما لأن فيها نوعا من المخاطرة .

ومهما يكن الامر فلا مجال لاي نقد الآن فان خطة التسرب نجحت ..

يقول (ليونار موزلي) الذي استجوب (ابلر) ، ان (روميل) أرسل قبل « ابلر » بعثة لنفس المهمة .. في طائرة بحرية كانت تقل جاسوسا اسمه « كلين » عاش في فلسطين ، ويعرف العربية والانجليزية كأهلها ، وكان مع « كلين » زميل له اسمه « مولنبروخ » ... ولكن الطائرة سقطت وتحطمت ، ومات « كلين » وجرح زميله . فاذا كانت مخابرات (روميل) لجأت لهذا الطريق ، فان لها تجارب سابقة .

وبدا أن « روميل » ، كما سيرد بعد ، كان يعتمد على بعثة حسين جعفر « ابلر » اعتمادا كبيرا . فقد قال له فيما روى حسين : اذا وصلتني منك المعلومات التي أريدها قبل نهاية هذا الصيف فاني سأكون في القاهرة في شهر اغسطس ..

وهنا نجيب على سؤال ربما خطر للقراء الآن أو في أثناء قراءة هذه المذكرات :

من كان دليل « ابلر » في رحلته هذه الخطرة التي كلف فيها بان يجتاز أعظم صحارى العالم قحطا وهولا ، والتي كان يعد من الابطال هؤلاء الرواد الاول الذين اجتازوها ؟..

ونسرع فنرد : انه الكونت (المازي أودلماشي) كما كان يسمى في مصر .

هذا الكونت كان مجري الجنسية وعاش في مصر سنوات طويلة يحتضنه احد افراد الاسرة المالكة السابقة « محمد طاهر » وكانت وظيفته الظاهرة هي تدريب الهواة على الطيران الشراعي في ناد خصص لهذا الغرض ، وكان ينفق عليه « محمد طاهر » . وكان يدفع أجرا كبيرا لهذا الكونت فضلا عن اسكانه ونفقات انتقاله ..

وأذكر ان سلوك هذا الكونت رابني الى حد كبير عندما نقل إليّ صديق من مصلحة المساحة انه كان دائم التردد على قسم الخرائط هناك لمشترى خرائط أو تصميم مواقع ، فكتبت عنه بعض أسئلة في جريدة مصر الفتاة حققوا معه على أثرها وثبت انه رجل من هواة الرياضة أكثر، وان (محمد طاهر) ضامنه وراعيه ..

كان الكونت (دلماشي) هو قائد القافلة التي تحركت لاختراق حدود مصر من واحة الكفرة .

ولم يكن الرجلان وحدهما في هذه القافلة ولكن كان معهما ثالث هو جاويش اللاسلكي (بيتر مونكاستر) الذي عرف في مصر عند حضوره باسم (ساندي) ..

ومع هؤلاء الثلاثة خمسة من سائقي السيارات والحرس ، وكل الرجال الخمسة مع الثلاثة السابقين يعرفون صحارى مصر جيدا ويتكلمون الانجليزية كأبنائها ، وهم جميعا من أفراد الابوير أو المخابرات الالمانية.

ولم تكن مهمة الكونت « دلماشي » أن يقود هذه القافلة الى أقرب مكان من وادي النيل ، ولكن كان عليه أيضا أن يعود الى ليبيا بنفس القافلة تنقص رجلين : « ابلر » و « مونكاستر » ..

وجها لوجه .. مع الانجليز :

ولم تمض هذه الرحلة المخيفة بغير حوادث ، فقد مات واحد من المرافقين الخمسة بعد أن أخفقوا في اسعافه ، وبعد ان هبط رصيد المواد الطبية الضرورية الى الصفر تقريبا .. والرحلة في الصحراء ، وفي شهر مايو شاقة صعبة .. وأي صحراء وأي مايو .. وبعد أربعة أيام من قيامهم ، وعند نقطة بعينها ألقوا غطاء الرأس الالماني وهو كل ما كان يميزهم واتموا ارتداء الملابس الانجليزية .. ولم ينسوا أن يدفنوا الملابس الالمانية حتى لاتقع في أيدي احدى الداوريات ولو بطريق الصدفة ..

وحسنا فعلوا ..

اذ ما كاد الليل يقبل حتى أبصروا على البعد قافلة بريطانية تمر بهذه النقطة فتبادلوا معها الاشارات الضوئية التي تعلموا ان الانجليز يستعملونها .. كانت هذه القافلة ، من بين وحدات الكوماندوز البريطانية التي تختار هذه الطرق الخلفية الطويلة كي تغير على أطراف الخطوط الالمانية . ولم يرتب الانجليز في أن السيارات التي صادفوها داوريةليلية للاغارة تقوم بمهمة مثل مهمتهم . ومن حسن حظ هذه البعثة الالمانية انها صادفت بعثة بريطانية كانت تتبع سلاحا يسمى وحدات المسافات الطويلة ..

هذا التنظيم البريطاني لوحدات الاغارة على الخطوط الخلفيـــة اقتضى ان توضع في مناطق معينة على طريق المرور مخازن مستترة للوقود والتموين يستعين بها رجال الكوماندوز في ذهابهم وعودتهم •

وبتتبع الطريق التي قدمت منه القـافلة البريطانية ، وجـد الكونت « دلماشي » أحد هذه المستودعات فملأ سياراته من البنزين والتمويــن ، وكان قد وصل بدوره ــ كما وصل الدواء ــ الى حافة الخطر • وكان على القافلة الالمانية ان تتجنب الطريق البريطاني ، فسارت جنوبا لمدة ثـلاثة ايام خشية المفاجآت ••

وفي هذه الايام الثلاثة نفد الماء من القافلة • وهذا هو الرعب الاكبر الذي يصادف القائمين بمغامرات الصحارى •• ولكن « دلماشي » لم يكن بالرجل الذي تخونه الصحراء وقد عاش يدرسها السنين الطوال •• فبعين الصقر البصيرة ، وبحاسة الرجل المجرب اختار مكانا ، وطلب من أعوانه، ان يحفروا فيه ، وعلى عمق قريب وجدوا بئرا قديمة مهجورة ••

ان مثل هذه الحوادث قد تحدث في القصص الخيالية • ولكن الواقع يحتمل اكثر مما يوحي به الخيال احيانا •• ولقد زرت واحة باريس فــي أقصى الجنوب من صحرائنا الغربية وعلمت من عمدتها ان هذه الصحارى عامرة بآبار تنسب للرومان ، ولكنها آبار من أيام الفراعنة • وشاهــدت واحدة منها •• فاذا كتل الخشب الفرعوني تسند جدار البئر من الانهيار والماء يترقرق على البعد ، ولا تحجب مثل هذه الابار الا طبقات قليلة من الرمال • بل ان بعض هذه الابار ، ما أن تزال من فوقها الرمال حتى يهدر ماؤها مندفعا الى السماء ، مما يؤكد نظرية بعض الجيولوجيين عــن النيل السفلي الذي يسير تحت هذه الصحراء مستمدا ماءه من منطقة البحيرات الاستوائيــة ••

وواحدة من هذه الآبار ، هي التي أنقذت قافلة (روميل)من هــلاك محقق •• وكان على الذين نجوا أن يشكروا الفراعنــة على ما خلفــوا ، لا أن يلوموهم كما فعل (تشرشل) وهو يتطلب مزيدا من الكهوف لورش دباباته في منطقة طره • وهي التي خلفها بناة الاهرام هناك ••

يقول (حسين جعفر) :

انه في بعض مراحل هذه الرحلة ، تمنى لو أنه اسقط بالباراشوت. وخاطر بأن يقف امام فرقة من حملة البنادق معصوبة عيناه .. فهذا أفضل من العطش أو توقع العطش في التيه العظيم الذي كان يقطعه .. وبعد ثلاثة أسابيع من المكان الذي غادرهم فيه « روميل » أمر الكونت«دلماشي» السيارات بأن تقف .. وقال :

ـ اظن هذا المكان ، هو الذي يجب ان نفترق فيه ..

ولعق « ابلر » شفتيه الجافتين ونظر حوله فلم ير الا الصحراء من امام ومن وراء وإلا سفي الرمال بحرها وعرقها .. وحاول ان يطلق اللعنات ، ولكن قواه خانته حتى عن الكلام .

استغرقت رحلة (ابلر) حسين جعفر اكثر من ثلاثة أسابيع .. وفي الموقع الذي أشار اليه الكونت « دلماشي » توقفوا . وعلى البعد تراءت لافتة تشير الى اتجاه معين .. استند (ابلر) الى كتف صاحبه ، وراح يجر قدميه على الرمال جرا . وقد اغبر وجهه واحمرت عيناه وأحس أنآخر انفاسه في الحياة تتردد في صدره ببطء . وما ان اقترب من اللافتة حتى غادره ضعفه ، وصاح بأقصى قوته :

ـ انها مكتوبة بالانجليزية .. لقد حدثت المعجزة .. وصلنا الى وادي النيل أخيرا .

وبعد راحة قليلة ، أحضر جاويش ثلاث حقائب عسكرية وبدأ « ابلر » و « مونكاستر » يخلعان البنطلونات القصيرة والقمصان القذرة ،ويرتديان زيا اعداه للظهور به في المدينة ..

انها ملابس سبق اعدادها بعناية ، بناء على دراسات دقيقة . فهذه (البدلة) التي ارتداها (ابلر) عليها علامة محل تجاري في شارع قصر النيل ، أما صاحبه فكانت ملابسه من دار السلام فيوسط افريقية ..وذلك لان حكاية طويلة أعدت له . مؤداها أنه امريكي الجنسية ، وكان يقوم بمهمة معينة في شرق أفريقية .

وسلمت للرجلين مهمات اخرى ..

فبطاقة (ايفر) التي زيفت بعناية ، تجعله ضابطا انجليزيا ملحقا

بقوات الشرق الاوسط البريطانية ومجموعة الرسائل الخطية والفواتير كلها تدل على ان شخصية هذا الضابط حقيقية •• كما سلمت له قطع من العملة المعدنية وبعض أوراق نقد يحتمل ان يجمعها على سبيل التذكار أي ضابط يعمل في منطقة الشرق الاوسط •

وضباط الجيش البريطاني يشتركون في بعض النوادي العسكرية والمدنية •• وهذه بعض بطاقات عضوية لهذه النوادي •• ولم تكن مزيفة، فانها كانت في حوزة ضباط سقطوا في أسر (روميل) •

وضابط الجيش يذهب أحيانا الى السينما مع صديقه مثلا ، وليس هناك ما يمنع من أن ينسى في جيبه تذكرتي السينما •• والسينما في القاهرة •• وعامل الباب مزق جزءا منها •

وهذه ايضا كانت من المعدات : لكل ضابط سيارة •• ومفتاح شقة مثلا •• اذن فحلقة المفاتيح الخاصة بضابط أسير آخر تصلح لهذه المهمة• هذه معدات « ابلر » الانجليزي •

أما (مونكاستر) الامريكي ، فكان لابد له من جواز سفر أمريكي وأوراق أخرى تثبت شخصيته وبعض قطع من اللبان الامريكي ، وصورة أو صورتان لفتيات •• وصورة (لمارلين ديتريتش) مثلا أو (سوزان هيوارد) ••

وقد أشرنا قبلا الى أن المعدات التي سلمت « لابلر » حقيبة بها ٥٠٠ جنيه من الذهب • خطا خطوات بعدد معلوم بعيدا عن العلامة الدالة على الطريق ، وأمر بأن تحفر حفرة عميقة أودع فيها الحقيبة ، فقد تنفعه مع الاعراب في الصحراء اذا اضطر للعودة من نفس الطريق •

ثم سلمت للرجلين حقيبة واحدة وأخفى فيها جهاز لاسلكي تحت كومة من الملابس والاخرى أخفيت فيها « رزم » من اوراق النقد ، كلها بالجنيهات الاسترلينية عددها ٨٠ ألف جنيه • اتقن الالمان تزييفها حتى اصبحت « أحسن » من الاصلي ••

صافح الرجلان الزملاء الخمسة ، وتمنى لهما الكونت « دلماشي » حظا سعيدا •• ثم أدى الجميع التحية النازية وهتفوا « هايل هتلر » • وتحركت محركات السيارات ودارت لتعود من حيث جاءت •

واصدر (ابلر) الامر الاول لزميله ومرؤوسه قائلا :
منذ الآن الكلام بالانجليزية وحدها ..

ثم تحسَّس « ابلر » الحقيبتين ليطمئن على شيئين أولهما نسخة من قصة « بيكا » التي الفها (دافن دي موريبه) والثانية زيه العسكري الذي يحمل شارات ضابط المخابرات في فرقة البنادق مع غطاء الرأس المخصص لهــذه الوحدات .

في المعسكر البريطاني .. باسيوط :

وبعد سير قليل وجد « ابلر » وزميله أول معسكر بريطاني فيضواحي اسيوط . والطريق يوصل الى هذا المعسكر مباشرة .. وفكر (ابلــر) قليلا .. هل يترك الطريق ويدور دورة كبيرة حول المعسكر ، أم يبــدأ أولى مغامراته باقتحامه ..

قال لصاحبه : الى المعسكر . واسكت انت واترك كل شيء لي .

كان هناك ضابط بريطاني يقف على بوابة المعسكر ، وما أن رآهما حتــى قال :

ــ حسنا .. حسنا .. من أي مكان في الارض جئتما ؟

اشار (ابلر) بابهامه الى الوراء وقال :

ــ الصحراء .. كنا في مهمة وتعطلت السيارة .. ان الحر قاتل .. ومع هذا سرنا كل المسافة على أقدامنا .. هل يمكن أن تقرضنا سيــارة لمحطة اسيوط ؟.. علينا ان نعود فورا الى القاهرة .

قال الضابط وهو يصعد عينا فاحصة في الرجلين :

ــ من انتمــا ؟

وعلى الفور تناول (ابلر) التصريح الذي يحمله وسلمه في هــدوء وتجاهل للضابط ، وقال :

ــ صديقي .. أمريكي ..

قال الضابط في أدب :

ــ سعيد بمعرفتكما .. وكانت الشمس محرقة .. فقال لهما :

ــ تعاليا الى الظل ، وسأعد لكما سيارة تنقلكما الى المحطة . وبعد ساعتين كان قطار اسيوط في الدرجة الاولى يقل (ابلر) وزميله .

في الطريق الى المحطة عرج (ابلر) الى الشارع التجاري المواجه للمحطة ، وتوقف عند احد المقاهي هناك ، وجال بنظره في الجالسين وانتقى سفرجي يلبس ملابسه البيضاء ويجلس في خمول يشعر بأنه لا عمل له • وعرض (ابلر) على (محمد) أن يلحقه بخدمته وتساوما على الاجر فكان خمسة جنيهات شهريا ، على أن يتبعهما الى القاهرة • وحتى يعد (محمد) ملابسه لرحلته السعيدة الى القاهرة ، أمهله « ابلر » الى المساء ، على أن يأخذ قطار الليل ، ويقطع تذكرة في الدرجة الثالثة ، ويأخذ معه الحقيبتين، واتفقا على مكان اللقاء •

وكانت جرأة نادرة من (ابلر) ان يترك كنزه الثمين مع (محمد)•• ولكن هذه الجرأة لا تقاس الى جانب الأمن النسبي الذي يحس به وهو بغير هذه الحقائب في قطار الصعيد ، مسافرا الى العاصمة •• وتدل هذه الحادثة على روح المغامرة ، وعلى الذكاء في نفس الوقت •

وطلب (ابلر) من « محمد » ان ينتظر على رصيف الصعيد بمحطة القاهرة • وفي صباح اليوم التالي جاء (ابلر) وصاحبه فوجدا تابعهما الاسيوطي جالسا فوق الحقيبتين •

حياهما (محمد) قائلا :

ــ سعيدة يابيه •

ــ سعيدة يا محمد •• جيت •• كويس ••؟

ــ ايوه •• لكن حصلت حكاية ••

وسقط قلب (ابلر) وتطلع الى الحقيبتين مرة أخرى ليتأكد من وجودهما •• واستطرد « محمد » :

ــ واحد أمباشي انجليزي حاول فتح الحقائب ، لكن منعته ، قلت له : ده صاحبها ضابط انجليزي كبير اسمه « جوني » وهو صعب خالص•• فتركني الامباشي •

واطمأن (ابلر) •• وتبعه (محمد) الى فندق شبرد في تاكسي ومعهم الكنز الثمين •

كوندور •• تنادي :

وفي المساء وبعد أن اشبع الشابان ظمأهما من بار فندق شبرد •صعدا

الى الغرفة وبدأ العمل •• اخرج جهاز الارسال من الحقيبة ، ووجـــده « مونكاستر » سليما وصالحا للعمل •• وأدار مفاتيحه وبدأ يبعث أولـــى رسائله وكانت :

كوندور تنادي •• كوندور تنادي •• على استعداد للعمل ••وجلس مونكاستر ينتظر الرد قرابة ساعة والسماعات على أذنيه ، بعد أن احكـم اغلاق الباب وجلس (ابلر) يراجع بعناية صحائف معينة من قصة ربيكا ، ويطابق بينها وبين ورقة في يده وبعد مضي ساعة جاء الرد :

وصلت الرسالة ، لديكم تعليماتكم • السرعة هامة جدا •

وقسم الرجلان العمل بينهما ، وكانت قسمة غير عادلة •• فقـد كان على « مونكاستر » ان يقضي الليلة في الغرفة ، يحرس حقيبة اللاسلكـي وحقيبة النقود • وكان على زميله ان ينزل الى المدينة للعمل وينعش بصره ويملأ رئتيه من القاهرة ، بعد رحلة الصحراء ومقابلة الضابط الانجليـزي في المعسكر ، وتلك الاهوال الرهيبة التي مرت به •

وليل يونيو في القاهرة فاتن •• والنوادي الليلية التي كانتترتادها القوات المتحاربة تملأ الشوارع وقد سطعت على واجهاتها الانوار ،والحركة مستمرة لا يوقفها شيء ••

ومضى « ابلر » في سيارة تاكسي الى ملهى الكيت كات (هكــذا قال في مذكراته) •

لقاء مع حكمت فهمي :

لم يكن الليل قد انتصف عنـدما اخذ (ابلر) مكانــه على احـدى الموائد وطلب الويسكي والصودا والثلج • وعلى البعد كانت الموسيقـى تصدح وكان جسد جميل يتلوى تلاحقه الانوار المسلطة ، ويؤدي رقصـة من هذه الرقصات التي يطير لها لب الجالسين من مخموريالقواتالبريطانية وأغنياء الحرب ، ورواد القاهرة من أهل الاقاليم • وحدق « ابلر » فـي الراقصة ، فعرفها •• انها « حكمت فهمي » صديقته القديمة •• وطار لبه شعاعا مع هذه الذكريات ومع الغلائل الرقيقة التي تتطاير مع حركاتالفتاة، والصاجات في أصابعها وهي تدق ويدق معها قلب (ابلر) • ونادى (ابلر) الجرسون وكتب كلمات قليلة على الورقة ، وغمز الجرسون بجنيه ••

وما هي الا دقائق حتى كان التصفيق يدوي والموسيقى تكف وحكمت تنساب بين الموائد وتقف امام مائدة (ابلر) مادة يديها وهي تقول : أهــلا (حسين) •• أهلا •• وسر (حسين) وداخله زهو كبير لان (حكمت فهمي) تذكرت اسمه المصري ••

وكانت مصافحة حارة واحس (ابلر) ان العيون من حوله ترمقـه ، فان الراقصة المشهورة تؤثره وحده بهذا اللقاء الحافل • ونظر ابلر من حوله وهو يتصفح وجوه العسكريين الانجليز ويقول لصاحبته :

ــ هل مازلت تكرهينهم ؟ ــ فأجابت :

ــ من كل قلبي •• ولكن الصنعة تحكم •• لازم الواحدة منـــا تضحك لهم ، بدل ما (وعملت بفمها اشارة تفيد معنى البصق) •

وفرح (ابلر) بهذه المقدمة فرحا كبيرا فقد وقع على خيط ثمــين •• قــال لها :

أنا عندي عمل كويس لك ، وفيه فلوس كثير •• أجابت (حكمت) :

ــ ايدي على كتفك ••

وقد قابلت (المؤلف يتحدث) حكمت فهمي وسألتها :

ــ هل صحيح انك تقابلت مع (حسين جعفر) في الكيت كات أول قدومه القاهرة أثناء الحرب • فصاحت (حكمت) :

ــأنا •• وماذا كنت أعمل في الكيت كات •• هذا ليس صحيحـا بالمرة ، لقد قابلته في الكونتيننتال •• في النادي الليلي هناك •• أرسـل لي ورقة مع الجرسون •• ولما انتهت رقصتي ذهبت ورحبت به وعرفنـي بزميله • قال انه الكابتن (سيدني) من الجيش الانكليزي ••

ومن حق (حكمت فهمي) أن تحتج على انها كانت تعمل في الكيت كات •• فهذا ملهى رخيص اذا قورن بالكونتيننتال وشبرد •• وفي النادي الليلي بالفندقين كانت تعمل راقصة مصـر الكبرى في ذلـك الوقت ، أو سلطانة الغرام ، كما كانوا يدعونها ••

ويبدو أن (ابلر) خانته ذاكرته ، أو ان (ليونارد موزلي) الذي نقل عن لسانه مغامراته أثناء الحرب اخطأ في تحديد مكان اللقاء •

ان (حكمت فهمي) تتناول من سيجارتها نفسا عميقا ، وهي تتذكـر

احداث خمسة عشر عاما مضت وتقول ردا على سؤالي عما تذكره من احداث تلك الايام :

ـ نعم ذاكرتي تحوي تفاصيل كثيرة •• تحول التفاصيل التي يمكن ان أرويها ولكنك تعتقد ان لا خطر الان من ذكر أية تفاصيل ، فقد مضت السنوات على أحداث الحرب • وما وقع فيها أصبح ملكا للتاريخ •

ـ •• على كل حال فلا تخشي شيئا •• ان ما أعلمه عنك وعن (حسين جعفر) أكثر مما تعلمينه •

ـ كيف ••؟

ـ لقد كنت في سجن الاجانب، عندما حضرت اليه لاول مرة هناك•

ـ هل كنت ضابطا ؟

ـ لا ••

ـ محققا ••

ـ لا •• ولكن كنت مسجونا في نفس السجن •• أنت كنت في زنزانة نمرة ٦ ، وانا كنت في زنزانة نمرة ١٥ •

وابتهجت (حكمت) وضحكت بكل أساريرها ••

وهكذا بدأ الجليد يذوب من الذاكرة ومن الجلسة نفسها ووجد مكان فسيح لحرارة الذكريات ولزحمة الاحداث ••

ولم تكن (حكمت فهمي) راقصة الفندقين الكبيرين فقط •ولا موزعة البهجة والمرح على الالاف من ساهري الليل في بار الفندقين وناديهما •• ولكنها كانت أيضا نجمة كل استقبال كبير تجريه السفارة البريطانية •• كان السير (مايلز لمبسون) يستدعيها كلما اقام حفلة ساهرة ، أو حل عنده ضيف يريد ان يذهب وحشة الليالي القاتمة في أيام الحرب وفي ليالي الحرب ، لقد صفق لها ابن (روزفلت) وابن ملك اليونان وغيرهما من الضيوف الكبار من كل جنسية حتى لم يبق من التصفيق شيء معهم ، وكانت ألصق بحياتهم •• ورقصت لهم اكثر من أية فنانة أخرى •• ولم يكن السفير وحده ولا رجال السلك السياسي الاجنبي هم اصدقاء(حكمت)، ولكن قواد الجيش وضباطه من كل رتبة ودرجة •• ومن أرقى المستويات الاجتماعية وأكثرها جاها ومالا فالمعجبون من حولها لايكاد يحصى لهم

عدد •• والسعيد السعيـد من يستطيع ان يظفر منهـا بجلسة أو حتـى ابتسامـة •

ومن بين الساسة المصريين كان كثيرون من اصدقائها تحيي سهراتهم في المناسبات من رؤساء الوزارات والوزراء •• ومن الامراء والنبلاء ••

انها حالة رواج ونشوة عرفت بها أيام الحروب ، وذكريات لا تمحي من صدر فنانة مثل (حكمت فهمي) جلست على هذا العرش ومن بعدها (تحية كاريوكا) •

قلت (لحكمت فهمي) :

ـ حسنا •• اذن يـذهب حسين جعفر ومن أسمـاه سيدني الى الكيت كات ليبحث عنك •

ـ لا •• ذهب الى هناك ، وبدأ نشاطه في هذا الملهى ولكنه وجـده لا يلبي رغباته ، وانتقل الى الكونتيننتال ، وهناك وجدني مصادفة •• لـم يكن في حسابه أن يستعين بي ، ولكنه وضع خطة لهذا بمجرد أن رآنـي هنـاك •

قلت لهـا :

ـ وهل كانت بينك وبينه علاقة قديمة قبل هذا اللقاء ؟

ـ نعم •• كان قبل أن يسافر الى الخارج يتردد على الملاهي التـي اعمل فيها ، وكان من اصدقائي •

ـ وهل كان ينفق ببذخ قبل الحرب ؟

ـ كان ابن مستشار هو المرحوم (صالح جعفر) ••

ـ اظنه كان ابن زوجته الالمانية •

ـ ايوه •• ابن زوجته وأعطاه اسمه وكان له أخ من ابيه اسمـه (حسن) •

ـ وعندما رأيت حسين اثناء الحرب هل لفت نظرك انه كان يحمل معه مبلغا كبيرا من المال ؟

ـ كم كان معـه ؟

ـ ٨٠ ألف جنيـه •

ـ وهل تظن ان هذا كان مبلغا كبيرا من المال في تلك الايام ؟

ـ اذن ما تقدرينه أهم من الـ ٨٠ ألف جنيه ؟

ـ كان هناك ضابط بريطاني لورد استولى على وقتي ، وكان في وسعه ان ينفق في الليلة الواحدة من ألف الى خمسة الاف من الجنيهات اذا احتاج الامر .. ان المال لم يكن شيئا في حسابه بالمرة ..!

ـ وهل دخل هذا اللورد في المنافسة ـ اعني منافسة اتفاق ـ مع حسين جعفر ؟

ـ لم يكن حسين أو أي شخص يقدر على هذه المنافسة ..

ـ وما اسم هذا اللورد؟

ـ وهل هناك ضرورة لذكر اسمه ..؟

ـ ليس هناك ضرر من ذكره الآن ..

ـ لورد بيتر مارش ملك الخنازير .. اعني « فبارك » لحوم الخنزير في انجلترا ..

ـ اذا فيم كان ينفق حسين جعفر اذا لم تكن نفقاته في هدايا أو جلسات معك ؟

ـ كان معروفا بنهمه الشديد الى الطعام والشمبانيا .. وكان زميله سيدني أكثر منه شراهة وكان يزعم ان قلة الطعام في انجلترا تجعله يبدو بهذه الصورة الغريبة .

ـ ولكن حسين جعفر كان يحمل معه جنيهات استرلينية مزيفة .

ـ ايوه .. وكان شاب يهودي اسمه البير يغيرها له من رئيس الخدم في فندق الكونتيننتال .. كما كان يغيرها له من جهة أخرى مقابل عمولة كبيرة تزيد عن الثلث ..وهذه الطريقة في تغيير العملة هي التي ساعدت على الكشف عن حسين جعفر ومهمته ..

شكراً . لقد « استمتع » الاولاد ..

وقبل ان نستأنف جلستنا مع حكمت فهمي وذكرياتها لنترك جو الموسيقى والرقص والشمبانيا قليلا الى مكان آخر لا يمت الى هذه المتع بسبب قريب أو بعيد ..

نتنقل الى جبهة القتال ..

عندما هاجم (روميل) الخطوط البريطانية في (الرويسات) الى الجنوب من منطقة العلمين وقع العبء الاكبر على الوحدات الاسترالية والنيوزيلندية التي كان يقودها الجنرال (فرايبورج) •• وقد بلغت نسبة الاصابات بين أفراد هذه القوة حدا عاليا جدا •

وبعد ان انتهت المعركة ذهب الجنرال (هاروكس) قائد هذه المنطقة يزور الجنرال (فرايبورج) ودار بين القائدين حديث (قصير) ولكنه من الاحاديث النادرة •

قال هاروكس الانجليزي :

ـ لقد قاتل جنودك ببسالة نادرة واحتملوا عن زملائهم في بقية القطاعات حدة الهجوم •

فرد (فرايبورج) :

ـ شكرا يا جنرال •• لقد استمتع « الاولاد » بالمعركة •

ولم يكن هذا اليوم هو اليوم الاول الذي يسجل فيه تاريخ العلمين شيئا نادرا لهؤلاء الجنود •• فقد حدث في شهر يونيو وقبل ابتداء المعارك الطاحنة بقليل ان سجل لهم شيء آخر لا يقل خطورة •

فقد هاجمت مجموعة من الفدائيين النيوزيلنديين نقطة معينة في خطوط (روميل) ، وكان هجوما جريئا اشبه بضربة السكين ، وعادوا من هذه النقطة ببعض الاسرى الالمان كانوا يرابطون في هذه المنطقة الامامية حول محطة لاسلكي وكانت هذه النقطة مركز استماع امامي وكان (روميل) قد بات قريبا منها واستيقظ مبكرا وما أن بدأ يحلق ذقنه حتى حدث هذا الهجوم فركب سيارته والصابون على وجهه وانطلق يستأنف الحلاقة في مكان آخر ••

وعادت الوحدة النيوزيلندية قبل أن يحاط بها ونسفت الاجهزة التي وجدتها وحملت معها البعض الاخر وعددا من الاسرى وكان منهم جنديان من جنود اللاسلكي أحدهما اسمه (آبل) والثاني اسمه (ويبر) •

وقامت طائرة بنقلهما الى مركز المخابرات البريطانية في القاهرة •

فحصت الاوراق التي وجدت مع هذين الرجلين وكانت مجموعة من الصحف القديمة وتصاريح المرور والخطابات الخاصة وبعض الكتب

القديمة •• ووجد من بينها قصة ربيكا الانجليزيـة من تأليف دافن دي موريـيـه •

وحاول ضابط المخابرات واسمه المستعار (روبي) ان يحصل علـى أية معلومات من الجنديين دون جدوى ، فأمر بترحيلهما الى معسكرالاسرى ولم ينس ان يأخذ في جيبه قصة « ربيكا » كي يتسلى بها ••!

وضع روبي القصة في جيبه وانصرف الى اعمال اخرى ، فلما ذهب الى بيته تذكر القصة فأخرجها وفجأة طرأ له سؤال :

لماذا يقرأ هذان الالمانيان قصة مكتوبة باللغة الانجليزية ••؟

ولماذا لم توجد في أوراقهما اية كتب أو أوراق اخرى باللغةالانجليزية؟ ومن اين حصلوا على كتاب كهذا مطبوع باللغة الانجليزية ؟

أخذ (روبي) يراجع الكتاب ويتصفحه بعناية عسى أن يعثر فيأوراقه على شيء يجيب على هذه الاسئلة ••

لم يجد شيئا يلفت النظر اللهم الا آثار كتابة محتها الاستيكة علـى هامش غلاف داخلي حيث تكتب الاسعار عادة •

وعاد (روبي) على الفور الى مركز المخابرات وطلب من قسم التصوير ان يلتقط له صورة تبين حقيقة الكلام الذي محتـه الاستيكة من طـرف الكتاب • وعجب رجل التصوير لهذا الطلب اذ ماذا يمكن ان يكون مكتوبا غير لعب اطفال •• هز كتفيه وطلب من (روبي) أن يعود بعد نصف ساعة • وفي نهاية المهلة أمكن معالجة هذه الكتابة التي محيت ولم يبق الا آثارهـا وتبين ان ماكان مكتوبا عليها هو خمسين اسكود وهي العملة البرتغالية •

وعلى الفور أبرقت المخابرات الى فرعها في لشبونة توجـه السؤال التـالي :

« نرجو ان تبحثوا عما اذا كان أحد من عملاء الابوير ـ أيالمخابرات السرية الالمانية ـ اشترى نسخة من قصة ربيكا تأليف دي مورييه •

وبعد بضعة أيام جاء الرد :

« اشترى ملحق عسكري في السفارة الالمانية قصة ربيكـا في ٣ ابريل •• ويبدو انه كان معجبا بها حتى الجنون لدرجة انه اشترى منهـا ست نسخ » •

وهنا وضح ان قصة ربيكا لم تكن في مركز اللاسلكي الالماني في خط العلمين الامامي عفوا •• لا بد ان هناك سببا ولا بد من محاولة الوقوف عليـــه ••

وصدرت التعليمات بأن يعود الاسيران « آبل » و «يبير » من المعتقل الى القاهرة للبحث معهما مرة اخرى في بعض القصص الادبية التي تشغل ذهنهمـــا •

ان قصة ربيكا سوف تقود الى اكتشاف ••

القبض على حكمت فهمي :

كان الوقت ليلا واليوم هو ٢٧ يوليو سنـــة ١٩٤٢ •• والساعـــة التاسعة مساء •• وسطح فندق الكونتيننتال عامر بالساهرات والساهريـــن وجلست على البار ثلاث من شهـيرات الوجوه في ذلك الوقت (اسمهان) و (امينة البارودي) و (حكمت فهمي) •

كان رابع الثلاثة ضابط فارع الطول ، جميل الوجه ، لم تتردد واحدة من الفتيات الثلاث في ان تعترف انهن كن جميعا يبدأنه بالغزل ، وتحاول كل منهن ان تظفر بصحبته •

كان من في البار يرى الصاعدين بمصعد الفنـــدق الكبير الى حديقة السطـــح ••

وكان القادم هذه المرة اليوزباشي (محمد ابراهيم امام) •

وما ان لمحته (حكمت فهمي) حتى قامت من مكانهـــا ترحب بـــه ، وتدعوه للانضمام الى المجموعة التي معها •• فرد امام على هذه الدعوة :

ـــ متشكر خالص يا مدام (حكمت) •• أما مستعجل وعايزك فـــي مشوار مستعجل •

ـــ ولكن انا عندي رقصة بعد شوية ••

ـــ أنا استأذنت لك من المدير المسيو (هوفمان) •

ولم تدهش حكمت لهذه الدعوة ، فقد تعودت على أمثالها عندمـــا يكون في القاهرة ضيوف كبـــار في السفارة البريطانية ، أو لـــدى بعضـــ الرسميين المصريين فانها كانت تدعى بهذه الطريقة •

كانت (حكمت فهمي) ترتدي فستانا « سواريه » عاري الظهر وحذاء يلمع تحت الضوء •

وسارت الراقصة المشهورة مع رجل البوليس الذي كان يرتدي ملابس عادية ، فوجدت في انتظارهما سيارة سوداء طويلة مما تعودت السفارات على استعمالها ، وكان اثنان من رجال البوليس عند الباب، ركبا بجوار السائق ، وركبت (حكمت فهمي) وبجوارها (امام) •• سألت:

ــ رايحين فين ؟

ــ مكان قريب ••

ولم تسر السيارة في اتجاه السفارة البريطانية كما تعودت (حكمت) ان تذهب ، ولكن سارت في شارع عماد الدين ، ثم ترنفت امام بناء في شارع الملكة نازلي •

ودق (امام) جرس الباب •• ووقف الحارس يؤدي التحية •• وفتح الباب ••

ــاتفضلي ••

وتفضلت (حكمت فهمي) • وخطت خطوة في هذا البناء ، وقد قدر لها الا تعود الى الخارج في نفس الباب الا بعد عامين ••

قالت (حكمت) :

وجدت في استقبالنا رجلا انجليزيا أحمر الوجه سمينا ، وحوله بعض جنود •• قال له (امام) بالانجليزية : من فضلك تكون لطيف معاها ••

وانحنى (امام) وقال لي سأعود حالا •• وانصرف • ونظرت حولي فلم افهم شيئا •• مكتب وكنبة ورجال يحدقون في •• عجزت عن التفكير تماما • وقطع السكون هذا الرجل الانجليزي السمين عندما امسك دفترا وسألني عن اسمي •• فقلت :

ــ (حكمت) ••

ــ هكمت ••

ــ لأ •• (حكمت)

ــ أحسن هكمت •• لان اسمي هكمن

ــعاشت الاسامي •

ثم طلب مني الرجل السمين ان اصحبه • وفتح باب • واذا بـآخـر من الحديد هائل الحجم رهيب المنظر •• وتروي (حكمت فهمي) :

ــ وكدت اصعق •• ليست هذه السفارة ولا أي قصر أو مكان مـن الاماكن التي تعودت ان اذهب اليها • ودار في خاطري كل شيء الا ان هذا سجن •• واني سجينة ••

وسرت مع الرجل ، وكأني منومة تنويما مغناطيسيا •• وفتح بـاب، واذا غرفة صغيرة دخلت فيها ، واغلق الباب ثم سحب الرجل مزلاجا ضخما ليحكم الاغلاق • وأحـدث دويا كان له في رأسي ونفسي وقـع القنابـل والبراكين المتفجرة •

لم أفهـم شيئا •• ولكني ارتميت بفستاني السواريـه على سرير حديدي ، وأخذت احدق في الباب ، وبعد ساعة أو ساعتين ، رأيت ثقبـا في الباب يظهر ، علمت فيما بعد انها نظارة يرى فيها من بالخارج كل شيء داخل الغرفة •• اما ساكن الغرفة فلا يرى شيئا •

وسمعت صوتا يقول لي في لهجة آمره :

ــ نامي ••

وأجبت على الفور وكأني انسان مسلوب الارادة تماما :

ــ حاضر •

الحقيقة هي انني لست أدري اذا كنت نمت أم لا •• ولكني أعلم ان الباب فتح علي في الصباح ، وجاءتني (سجانة) تصحبني الى دورة الميـاه •

وبعد قليل قادوني الى غرفة مكتب فاذا بها المستر (بيتر) السكرتير في السفارة البريطانية وشخص يعرف العربية اسمه (سمسون) ومحقـق مصري وضابط من البوليس الحربي البريطاني •

وما ان دخلت وجلست حتى وقف الضابط وأخرج من حزامه مسدسا ضخما لم أر أضخم منه • وفحص رصاصه جيدا ثم قال لي :

ــ الرصاص ده كله علشانك •• اذا ماكنتيش تقولي الحق •• ثـم أخذ ينظر الى قدمي •• وكنت في حالة عصبية لا تستقر معها قدماي على الارض ••

أخذوا يوجهون لي الاسئلة بالانجليزية ، ويترجمها المحقق المصري (أنور) ..

وبعد قليل واجهوني (بحسين جعفر) .. ثم سألوني :

ــ تعرفي ده ؟

ــ أيوه .. ده (حسين جعفر)

ــ تعرفي اللي معاه ؟

ــ انه الكابتن (سيدني) قال انه كان معاه في الكلية ..

وبعد اسئلة عادية حدثت مفاجأة لم أكن أتوقعها .

وبعد قليل اخرج (سمسون) تقريرا بالعربية وقال :

ــ لدينا عنك معلومات كثيرة نحب التأكد منها :

ــ طيب .

ــ انت في يوم كذا كنت ترقصين مع الضابط الانجليزي فلان ..

ــ يمكن .. أنا ارقص مع كثيرين .

ــ الضابط الذي جاءت قدمه في فستانك التافتاه الواسع وقطع الفستان وترك لك عند « الشيف » ورسي (رئيس الخدم) خمسين جنيه .

ــ أنا رفضت آخذ الخمسين جنيه .

ــ اذن الحكاية صحيحة .

ــ ايوه .

ــ ومرة كان فيه ضابط مدين للفندق بـ ٢٠ جنيه .

ــ ايوه .. وأنا دفعت شيك للمسيو (هوفمان) مدير الفندق علشان يسدد دين الضابط ..

ــ اذن الحكاية صحيحة ..

ــ طبعا .. وفيها ايه دي ..

ــ طيب ولما اتحرق فستانك الشيفون الابيض وضابط انجليزي انقذك وايديه اتحرقت حصل ايه ؟

ــ كنت بازوره في مستشفى العجوزة وابعث له هدايا .

وسكت (سمسون) قليلا ثم قال :

ــ أظن فيه عندنا معلومات كثيرة عنك .. بدل ما نقول احنا قولي انت .

ـــ أقول ايـــه ••؟

ـــ حكاية حقيبة قائد الطيران •

الحقيبة المفقودة •• وعيد الميلاد :

وهنا هبط قلب (حكمت فهمي) الى قدميها •• وأدركت ان في الامر مسائل خطيرة •

فقائد الطيران « ت » كان يعرفها معرفة وثيقة • وكان يجد راحـــة كبيرة في الجلوس معها ، لان له بنتين في انجلترا حرم مـن رؤيتهما منـذ أمـد بعيد •

كان هذا القائد يفشي (لحكمت) بالكثير من شئونه الخاصة ويريهـا رسائل أهله ويهديها صوره وصور بناته الى أن حدثت ذات يوم حادثـة الحقيبـة ••

•• وروت لي (حكمت) هذه الواقعة كما تتذكرها •• قالت :

كان القائد يستأجر غرفة في فندق الكونتيننتال • وعرفت عيد ميلاده• وكان ذلك في يوم من ايام شهر يونيو فنزلت الى محل ريفولي ، واشتريت له علبة للسجاير تصلح للمناسبة ، كما اشتريت « دستة » من حبات المانجو لانه كان يحبها ، ولما عدت الى الفندق كان القائد في صالون الحلاقة يحلق ذقنه •• فصعدت الى غرفته ووضعت فيها الهدية مع بطاقة ، ونزلت •

وبعد قليل صعد القائد الى غرفته ثم عاد منها مضطربا وقال لها :

ـــ متشكر على الهدية •• أنا متأثر جدا •• لكن ••

ـــ لكـن ايه ؟••

ـــ كان فيه حقيبة أوراق •

ـــ مالهـا ؟

ـــ مهمة جـدا

ـــ مالهـا ؟

ـــ لم أجدها في الغرفة ••

ـــ •• ياخبر •• راحت فين ؟

روت (حكمت)هذه التفاصيل التي سمعتها منها على الماجور (سمسون) ولم تزد عليها في التحقيق شيئا •

قلت لها :

وهل (لحسين جعفر) علاقة بضياع هذه الحقيبة ؟

ــ أظن ذلــك •

ــ ولكن له رواية اخرى ذكرها في اعترافاته •

ــ ايـــه ؟

ــ حكاية مخدر وضع للقائد •

ــ أبـــدا •

ــ وانك وضعت هذا المخدر •

ــ أبـــدا •

ــ وان الحقيبة كانت عندك في العوامة •

ــ ده مش صحيح •• ايه التفاصيل التي قالها (حسين) بالضبط ؟

وبدأت أروي لها التفاصيل ••

لم يكن فندق شبرد يصلح لمحطة الارسال التي حملها (ابلر)وزميله معهما •• استأجرا عوامة في النيل بمنطقة العجوزة بجوار عوامة (حكمت فهمي) وضابط مخابرات انجليزي وبذل ابلر نشاطا كبـيرا بين الفنـادق والنوادي ليحصل علـى جواب لثلاثة اسئلة محـددة طلب (روميـل) التعجيل بهـا ••

وما ان وضعت محطـة الارسال في العوامة وبـدأت كوندور تبعث رسائلها حتى كان الجواب عليها الصمت التام فقد حدث لمحطة الاستقبـال حادث خطير وكان على (ابلر) انيبحث عن وسيلة لينظم بها اتصاله مـع القيادة الالمانية وكان من بين التعليمات التي لديه ان يتصل بالزعيـم • وكان الزعيم هو الفريق (عزيز المصري) •

الحقيبة الأولى :

كان فقد الحقيبة الخطيرة المليئـة بالاوراق والمستندات من قائـد الطيران البريطاني ضربةخطيرة لقلم مخابراتهم وقد تأكدوا ان مجهودا ضخما يبذل ضدهم ، وزاد الامر تعقيدا ان الحقيبـة كانت مليئة بالبيانات التـي تكشف خطط (مونتوجمري) في أهم تفصيلاتها وكان لا بد من عملسريع وقبل ان تصل الى هذا العمل يحسن ان نستمع الى القصة من أولها كمـا

يرويها جاسوس (روميل) الرئيسي (ابلر) أو حسين جعفر ••

وتركنا (حسين جعفر) في آخر مرة كنا معه وقد التقى (بحكمت فهمي) وجدد معها صداقته التي كانت قد توقفت قبل الحرب •

ويقول (ابلر) ان (حكمت فهمي) ارشدته الى عوامة قريبة من عوامتها في نهر النيل امام مستشفى العجوزة أو مستشفى الجمعية الخيرية الاسلامية وهو الذي استلمته السلطات البريطانية فور اتمامه وجعلته مستشفى عسكريا تابعا لها بايجار كبير •

وتنفي (حكمت) انها شاركته فياختيار العوامة ولكن المصادفة وحدها هي التي ساقته الى هذا المكان وهي التي جعلت منه جارا •

وكانت المصادفة أيضا هي التي جعلت من العوامة الثالثة في نفس المنطقة مسكنا لضابط انجليزي برتبة ميجر كان يمر كل يوم ولا يعلم أن أمورا بالغة الخطورة تجري عن يمينه وعن يساره •

كان اجر العوامة الشهري مائة جنيه بأثاثها وهو مبلغ تافه اذا قيس بأجور الحرب واذا قورن بالحقيبة المملوءة بالجنيهات الاسترلينية التيقدم بها (حسين جعفر) الى القاهرة •

وقال (ابلر) وهو يشير الى عوامة الميجر الانجليزي التي تفصله عن عوامة (حكمت فهمي) :

ـــ هذا خير غطاء لنا •• لن يشتبه احد فينا وبيننا ضابط من وحدات المخابرات يقع كالسندوتش •

وفي هذه العوامة انشأ (ابلر) بمساعدة زميله الانباشي (مونكاستر) أو الكابتن سيدني وهو الاسم الذيحمله في مصر مركز الاتصال اللاسلكي •

كان هذا المركز جهاز استماع (راديو) موبيليا عادي المظهر جدا ومن فوقه بيك آب لادارة الاسطوانات ، ولكن تحت أرضية هذا الجهاز رفعت اخشاب من سطح العوامة وأنشئت غرفة صغيرة وضع فيها جهاز ارسال متين مدت اسلاكه ووضع امامه مقعد بحيث يستطيع اي انسان أن يجلس امام هذا الجهاز ويباشر مهمة الارسال فيه ولا يحس به أحد فوق ظهر العوامة أو في صالوناتها • وخير وقت للارسال عندما تكون العوامة عامرة بالزائرات والزائرين والموسيقى تنطلق من جهاز البيك آب أو الراديو

وعندما انجز مونكاستر هذه المهمة قال لصاحبه ابلر :

ــ الآن تستطيع ان تستمع الى كل مكان في العالم وأن ترسل اشاراتك ورسائلك الى كل مكان ، الى (هتلر) نفسه ان أردت •

ــ ورد ابلر في لهجة نازية :

ــ شكرا يا انباشي (مونكاستر) سوف اتصل على الفور ببرلين•

ولم يكن في وسع ابلر ان يتصل ببرلين مباشرة الا عن طريق نقط الاستماع الامامية وأهمها المركز الذي أغار عليه النيوزيلنديون وأسروا فيه (آبيل ، وروبير) والكود أو كتاب الشفرة الذي كان على (حسين جعفر) أن يستعمله والذي سيتضح فيما بعد ان قصة ربيكا كانت هي مفتاح السر ••

ودار في خاطر (حسين) كل سبب في عدم تلقيه ردا على ندائه ••

هنا كوندور •• كوندور تتكلم (وهو الاسم الرمزي لمهمته) الا السبب الحقيقي •

وكان لا بد من التذرع بالصبر ومن مراجعة صمامات الارسال ومن تقوية المرسل الهوائي فوق العوامة ••

وزيادة في الاحتياط تعرف (ابلر) بجاره ضابط المخابرات الانجليزي وعرفه بزميله على انه الكابتن (سيدني) من الجيش الامريكي •

وكان هذا الميجر يستمتع كثيرا بصحبة المصري الظريف (حسين جعفر) ويتناول معه بعض كؤوس من الويسكي ويراقص الفتيات اللائي كن يتزاحمن على ظهر العوامة •

ماذا طلب روميل من ابلر ؟

اعتمد (ليونارد موزلي) الكاتب الانجليزي وضابط المخابرات السابق الذي أخذ اعترافات (ابلر) على مذكرات السيد (أنور السادات) في بعض تفاصيل الحوادث التي من أجلها ارسل (ابلر) الى مصر ، وقبل ان نراجع هذه المذكرات نذكر ان تعليمات (روميل) الجاسوسية كانت تتلخص في ثلاث نقط هي :

١ ــ اين يقف الانجليز في انسحابهم القادم من العلمين عندما يهاجمهم (روميل) هجومه القادم ؟

٢ ـ ما عـدد الجنود والدبابات التي حشـدها الانجليز في خطـة العلمـين ؟

٣ ـ من القائد الذي يقع عليه اختيار انجلترا لقيادة الجيش الثامن ؟

هذه هي النقط التي أراد (روميل) استيضاحها بايفاده (حسين جعفر) الى مصر ٠

وكما قلنا لم يكن (حسين جعفر) هو العميل الوحيد أو جهة التحري الوحيدة التي تعتمد عليها القيادة الالمانية ٠ بل كان لها مصادر اخرى اهمها شفرة القيادة الامريكية وبعثتها العسكرية في القاهرة ٠٠

وذهب (ابلر) في جولاته للحصول على هذه المعلومات الى كل مكان يرتاده الضباط الانجليز ٠٠ ذهب الى الفنـادق الكبرى والكبـاريهات والمراقص وانضم الى نادي الترف الانجليزي بوصفه ضابطا بريطانيـا في مهمة مؤقتة ٠

ولم يكن (ابلر) في هذه الجولات مستطيعا الحصول على اجابات حاسمة ردا على أسئلة روميل ولا سيما عن السؤالين الاول والثالث ٠

كل ما علمه ان الانجليز فيما يبدو قرروا في انسحابهم ان يدافعـوا عن القاهرة وأن يدمروا مرافقها وأن يغرقوا الدلتا ، ولكن اين يكون خط الوقوف عند الانسحاب ؟

هذا فيما يبدو لم يكـن في حساب الانجليـز وان كانت ترتيبـات الانسحاب قد تمت حتى بلغ من كثرة الاوراق التي أحرقوها في احد الايام وكان يوم اربعاء أن سمي يوم الرماد من كثرة ما تطاير من غبـار الحريـق فوق منطقة جاردن سيتي وقصر الدوبارة وشارع قصر النيل ٠

أما عن القائد الذي سوف يقود الجيش الثامن فلم يكن في وسـع (ابلر) ان يعرفه وذلك لان (تشرشل) لم يكن قد اختاره بعد ٠ فقـد حدث هذا الاختيار في الاسبوع الاول من شهر اغسطس عندما جاء (تشرشل) الى القاهرة وكان القائد الذي كلفه بهذه المهمة هو الجنرال (جوت) ، ولكن قيادته لم تستمر اكثر من أربعة وعشرين ساعة اذ اصطاد الالمان طائرته وهي تنقله من خط العلمين واسقطوها وقتلوا من فيها ولم يكونوا يعلمون فـي ذلك الوقت انهم قتلوا الرجل الذي وقع عليه الاختيار ليصارع (روميل)

وليحرك عضلات الجيش الثامن .

ثم جاء الاختيار الثاني وكان من نصيب (مونتي) أو مونتجمري وقد تم وابلر في السجن . ولكن المهمة الاخرى والسؤال الاهم الذي ورد في تعليمات (روميل) هو مكان القوات البريطانية والاسلحة وتوزيعها .. وفي هذا الميدان صال (ابلر) وجال .

الجاسوس مع عزيز المصري وانور السادات :

والآن نقف عند سؤال هام وهو :

كيف التقى (ابلر) بالفريق عزيز المصري واليوزباشي أنورالسادات؟

ما كان يحدث اثناء الحرب هو ان المصريين الذين تزوجوا من سيدات المانيات كانت عواطفهم بطبيعة الحال مع المحور .. وكانت اتصالات هذا الفريق من الافراد لا تنقطع يتبادلون الانباء ويعلقون عليها ولم يكن اشهى خلال الحرب من أن تجد شخصا ينبأ سمعه من اذاعة اجنبية عن زحف هنا أو معركة هناك .

الا ان حديث المعارك لم يكن وحده الذي يشغل هؤلاء القوم ولكنهم كانوا دائمي التفكير في مؤازرة المجهود الحربي الالماني ودائمي التفكير ايضا في مساعدة الاسرى وتهريبهم ان أمكن وفيهم أقارب ومعارف .

ومن أصدقاء هذا الفريق الذي تربطه بالمانيا شتى الصلات وجد عدد من المصريين الوطنيين الصادقين في حب بلادهم رأوا ان اي عمل يبذل لهزيمة الانجليز انما هو في صالح استقلال مصر .

وكان من بين هذا الفريق شاب مثقف يشتغل في مصلحة العمل هو الاستاذ (عبد المغني سعيد) . كان مختلطا بالاسر المتزوجة بسيدات المانيات وعن هذا الطريق تعرف عليه (ابلر) وطلب منه (ابلر) ان يعرفه ببعض ضباط الجيش المصري وعرفه باليوزباشي (انور السادات) الذي اجتمع به وبصاحبه الذي اسماه (سيدني) .

يقول السيد (أنور السادات) في مذكراته :

أخرج الرجلان أوراقهما واثبتا بما يقطع كل شك حقيقة جنسيتهما الالمانية وحقيقة مهمتهما وطلب الالمان منا ان نقدمهما الى الفريق (عزيز المصري) وكانا يطلقان عليه لقب الزعيم . ويستطرد (انور السادات) :

وقابلهما (عزيز المصري) وتفاهم معهما على اشياء كثيرة ثم أصـدر امره الينا بتسهيل ما يطلبان • وكانت (لابلر) طلبات عاجلة :

١ ـ اصلاح الجهاز اللاسلكي الذي كان في العوامة •

٢ ـ تسهيل الاتصال (برومبل) من مقر قيادته بالعلمين وكان قد افرج عن عزيز (المصري) بعد حادث الطيارة وبعد عام وبعض عام مـن التحقيق والاعتقال •• ولم تكن المصادفات وحدها هي التي دبرت هـذا اللقاء مع القائد السابق للجيش المصري وبعض الضباط •• ولكنهـا تعليمات كان (ابلر) تلقاها في برلين وفي مقر قيادة (روميل) •

وعندما سألهما (أنور) •• اين يقيمان ؟•• أجابا :

ـ في عوامة (حكمت فهمي) •

ولكن (حكمت) وابلر كليهما يؤكدان انهما كانتا عوامتين •• بينهما عوامة ضابط المخابرات الانجليزي ••

هل هما حقيبتان : حقيبة قائد الطيران التي «ضاعت» في الكونتيننتال• وحقيبة ضابط اركان الحرب (سميث) الذي قتل بعد ذلك في حقل الغام في العلمين ؟

(حكمت فهمي) روت لنا قبل ذلك قصة الحقيبة الاولى ••

و (ابلر) يروي لنا الان قصة الحقيبة الثانية ، وما كان فيها مـن وثائق ومستندات وبيانات •• حتى الـ ٢٥٠ ألف لغم التي كانت في الطريق الى الجبهة ، كان لديه عنها بيان ••

العبث والعمل :

يقول حسين جعفر (ابلر) في مذكراته :

« عندما تكلف بمهمة مثل التي كنت أقوم بها ، فان دواعي المتعة تكون أكثر اغراء لك ، لانك لا تعلم اذا كانت ايام العمر ستمتد بك لتحصل ما فاتك منها » ••

ولهذا فقد كان (حسين جعفر) يطبق هذه الفلسفة على أوسع مدى •• يعبث اثناء العمل ويعمل اثناء العبث • ويبعد عن خاطره شبح صف مـن الجنود يصوبون بنادقهم ، وأمامهم هدف معصوب العينين هذا الهدف يمكن ان يكون (حسين جعفر) نفسه ••

ولم تكن جولات (حسين) الاولى بغير مخاطرات •• ولم تكن العيون غافلة عن عناصر الخطر في مؤخرة الجيش الثامن الذي يتأهب لمعركة كبرى •

فقد حدث مرة ان نفدت النقود المصرية من جيب صاحبنا وهو في بار احد الملاهي فدفع حسابه بالجنيهات الاسترلينية التي كانت معه ••

وكان ضباط انجليز في المكان •• لاحظوا النقود التي تدفع و « والبقشيش » الذي يبذل في سخاء ، قال واحد لصاحبه :

ـ اني اظن هذا الشخص ينتحل شخصية ملازم انجليزي فسأل زميله :

لماذا •• ؟

ـ لانه يدفع حسابه بالعملة الاسترلينية •• فمن اين له هذه العملة ، وبهذه الكثرة •• ثم هل سمعت عن ملازم في كتيبة البنادق ، يصر على أن يدفع هو جميع الحساب في جميع الاوقات ، دون ان يدع أحدا يدفع له ثمن كأس من الويسكي ••

وما ان تبلورت هذه الشكوك حتى قام الضابط الحقيقي الى التليفون ليتصل بالبوليس الحربي • وقبل ان يعود كان (حسين جعفر) قد أحس بهذه النظرات وهذه الهمسات •• وكأنه « فص ملح وداب » كما يقولون••

ويبدو ان دروس الجاسوسية في الحرب العالمية الاخيرة أفادت الجاسوسية بعدها •• كل شيء يرتقي بعد الحروب الكبرى ويتقدم ••

فقد حدث في تحقيقات قضايا الجاسوسية الشيوعية في أمريكا ان ضبط افراد من الذين يعملون لحساب موسكو ، ولم يسفر التحقيق معهم عن أي خلل في نظامهم المالي والعادي •• بل كانت الاجور التي تحسب لهم في تنقلاتهم وسكنهم ومختلف أعبائهم ، تكاد تكفي ، وربما كانت قليلة •

وليس معنى هذا ان الذين يعمل لهم الجواسيس هذه الايام أكثر ضناً بالمال مما كان عليه الحال في الزمن الماضي •• ولكن ظهر بالدليل تلو الدليل، أن بعثرة المال تلفت النظر وتثير الشبهة •• ولا بأس من أن تأتي المكافأة بعد هذا •• اذا نجحت المهمة •

الوكالة اليهودية تعمل :

لم تكن المخابرات وحدها هي التي تساند قوات الانجليز ، ولكن كان للوكالة اليهودية مركز قوي في مصر يبث جواسيسه ويجند جميع الصهيونيين في خدمته ، ولا سيما الفتيات .

وكان من بين عيون الوكالة اليهودية فتاة حسناء تعمل في مهمة ظاهرة وهي تتلقى ملابس وقبعات الزوار اثناء دخولهم الفندق وتردها لهم بعد خروجهم ..

يبدو ان ذاكرة (ابلر) ضعفت فقال : ان هذه الفتاة كانت تعمل في فندق المتروبوليتان . ولكن (حكمت فهمي) تعرف هذه الفتاة ، وتقول انها كانت تعمل في فندق الكونتيننتال .. تعرفها اسما وشكلا .. انها (ايفا) أو (ايفيت) كما ورد في التحقيقات التي حدثت بعد ذلك .. انها كانت من اجمل فتيات الحرب في ذلك الوقت .

تقول (حكمت فهمي) انها ذهبت الى عوامة (حسين جعفر)وفوجئت بوجود هذه الفتاة هناك . وتقول مذكرات (حسين) :

ذهبت مع هذه الفتاة مجموعة من المراسلين الحربيين والضباط الى عوامته ، ومعهم فتيات غيرها . وما ان خلا بها (حسين) حتى سألها عن اسمها وجنسيتها ، فقالت ان اسمها (ايفيت) وهي فرنسية الجنسية ، من بيروت .

ويضيف : انها كانت راقصة . ولكن هذا غير صحيح ..

وأمضت الفتاة سهرتها في العوامة ، وعند انصرافها نفحها (حسين) أو هارون الرشيد ، كما يصور له خياله ، عشرين جنيها وتواعد معها على لقاء آخر قريب .

ولم تذهب (ايفيت) الى فندقها ، أو الى بيتها ، ولكنها ذهبت الى الوكالة اليهودية رأساً وقدمت تقريرها .

قالت : ان الرجل الذي كانت معه طوال الليل ، ليس مصريا ، وليس (حسين جعفر) كما يزعم ولكنه الماني ، لانها سمعته يتحدث مع زميله ، وفي لهجته لكنة اهل السار .. ولاحظت انه انسان عصبي ، وانه يبعثر النقود بغير وعي .

وتلقت (ايفيت) التعليمات ، وكانت تقضي بأن تتابع اتصالهـا بهذا الشخص المريب ، وان توالي تقديم تقاريرها للوكالة .. الوكالـة اليهودية في مصر ..

وقررت الوكالة فيما يبدو ان تتابع هذه التحريات لحسابها . فلـم تخطر المخابرات البريطانية ولا القلم السياسي المصري عن شبهات هذه الفتاة في وقت مناسب .

وكان نجم (حسين جعفر) عاليا حتى الان ..

هل هي حقيبة ثانية .. ؟

يمضي حسين (ابلر) في رواية مذكراته .. فيقول :

حدث ذات ليلة في منتصف شهر يوليو سنة ١٩٤٢ ان انتهت(حكمت فهمي) من اداء رقصتها وبينما كانت تخلع زي الرقص وتلبس ثيابهـا ، اذا برسول يدق باب غرفتها ويقول :

ــ الماجور (سميث) يا آنسة .. انه يريد ان يراك ؟ (ويقـول كاتب هذه المذكرات ان هذا ليس اسمه الحقيقي) .

وكانت (حكمت فهمي) تعرف هذا الماجور جيدا ، فمنذ عدة اشهر وهو يوليها عناية ملحوظة ، ويرسل لها الزهور ويقدم لها الهدايا .. بـل لقد وصل الامر به الى حد ان عرض عليها الزواج بمجرد ان يحصـل على الطلاق من زوجته الحالية الموجودة في لندن .

ولم تكن (حكمت) تتجاوب معه الا الى المدى الذي يذهب فيه معهـا الى المطاعم للعشاء والرقص .

وكانت الراقصة تعلم ان هذا الضابط من هيئة أركان الحرب ، وانه لا داعي لاطماعه في علاقة اقوى حتى تظهر لها فوائد أوضح .

فلما دق بابها مستأذنا ، وافقت على ان تراه في غرفتها ، وجاء يقول :

ــ جئت أودعك . اني مسافر الى الجبهة لاسلم هـذه التعليمات هنـــالك ..

ثم دق الضابط الذي يسمى (مؤقتا) سميث على حقيبة يحملهـا في يده واستطرد :

ـ اني ذاهب لاري الجنرال (ريتشي) ، ولا أعلم اذا كنت سأعود .. ومتى أعود ؟

وتمضي مذكرات (ابلر) :

وهنا لمحت (حكمت) الحقيبة بعين يقظة وقالت :

ـ هل يجب عليك ان تسافر الليلة .. هل هو أمر هام لهذه الدرجة ..؟

ـ نعم ..

ـ اذن سألغي رقصتي القادمة . وأذهب معك .

ولما رأته يهز رأسه أسفا استطردت :

ـ أفضل ان نذهب سويا الى عوامتي لنتناول كأسا قبل رحيلك ..

ومضى الاثنان ..

وقبل ان تنتصف الليلة كان باب (ابلر) في عوامته يطرق طرقا خفيفا .. واذا (حكمت) ترتدي غلالات رقيقة وتهمس (لابلر) بأن يتبعها .

وسار معها (ابلر) دون ان يقول شيئا .. مرا من امام عوامة ضابط المخابرات الانكليزي والليل هاديء والسكون شامل ، وصعدا الى عوامة (حكمت فهمي) .. وهناك فتحت بحذر بابا ، واذا (ابلر) يرى من فوق كتفها الماجور الذي اسمي (سميث) طريح الفراش يصعد منه شخير عال .. وكانت حقيبة اوراقه ملقاة على مقعد ..

وصاح (ابلر) في ابتهاج وفي صوت مكتوم .

لقد وضعت له مخدرا في الويسكي . واظن ان معه كل ما تريد .

وكان في الحقيبة كل شيء يطمع (ابلر) في الحصول عليه . انه سر الجيش الثامن كله .. عدد الوحدات .. مواقع النيوزيلنديين وجنود جنوب افريقية وجنود استراليا ... الخ .

كما تضمنت الاوراق التفاصيل عن الفرقة المدرعة الجديدة التي

اعدت لتأخذ مكانها في خط القتال • وحوت هذه الاوراق تفاصيل عن حقول الالغام وعن ٢٥٠ الف لغم جديدة في طريقها الى الجبهة لتقوية الحقول الموجودة • كما ذكرت هذه الاوراق ان خط الدفاع الرئيسي هو العلمين • وليس في مكان اخر وراءه الى الغرب •

والشيء الوحيد الذي لم يرد في هذه الحقيبة هو اسم القائد الذي اختير لقيادة الجيش الثامن خلفا (لريتشي) •

ونقل (ابلر) هذه التفاصيل • وعبر عن شكره العميق (لحكمت فهمي) ، ثم تسلل في خفة الى عوامته •

العلمين ترد بعد صمت طويل :

وما ان التقى بزميله الامباشي (مونكاستر) أو الكابتن سيدني الامريكي كما كان يسمى حتى كان الخبر المثير الاخر قد وصل •• فقد تلقى رسالة من معسكر (روميل) بعد ان طال الصمت اياما طويلة ••

كانت الرسالة اللاسلكية الواردة من معسكر (روميل) تقول :

كوندور تتكلم ••

(آبل) و (روبير) وقعا اسيرين في ايدي الانجليز ••

ارسلوا البيانات الهامة فقط •• سننتظركم الساعة ••ر٢٤ الليلة

والقى (ابلر) الاوامر لعامل اللاسلكي •• قال :

ـ حسنا •• هيا الى العمل فورا •• استعد •• للمراسلة ••

وأخذا يرسلان اشارة الاتصال بمعسكر (روميل) •• متكررة متتابعة ساعة بعد ساعة •• دون ان يحصلا على أي رد •

وفي الثامنة صباحا • تناولا كأسين من الويسكي مع افطارهما •• وقررا ان يواصلا نداء كوندور في المساء •

وتمضي قصة (ابلر) •

وفي أول الليل كان (حسين جعفر) وصاحبه جالسين في الكيت كات وانضم اليهما ثالث تعرفا به على ان اسمه (عامر) بك وهو من الاعيان••

ولم يكن اسم هذا الثالث (عامر) ، ولم يكن يحمل البكوية ، ولم يكن مصريا رغم انه يتكلم العربية •• وذلك لانه كان الميجور (الفرد

وليم سمسون) أمهر ضباط المخابرات البريطانيــة في الشرق الاوسط أثناء الحرب •

ابلغ بنك انجلترا مركز المخابرات في القاهــرة ان أوراق النقــد الاسترلينية وصلت هنا من بلدان محايدة وبعضها مزور •

ورصدت مراكز الأستماع التابعة للجيش الانجليزي محطة سريــة تعمل من القاهرة وتتلقى ردا بالشفرة من اليونان •

وأوقدت المخابرات النور الاحمر في كل مكان اشارة الخطر • وقاد الميجور (سمسون) أكبر حملة للبحث عن ملازم اسمه (جون) واسمه حسين افندي في بلاد كل القوات البريطانية فيها تحمل اسم (جون) ومعظم الافندية فيها تحمل اسم (حسين) ••

وفجأة ظهرت (ايفيت) بتعليمات من الوكالة اليهودية :

اجتماع في نادي الجزيرة :

جلس (عامر بك) المزعوم على المائدة • في ملهى الكيت كات ولكن زميليه على المائدة (حسين جعفر) والكابتن (سيدني) لم يرتاحا للطفه ، ولا لهذه اللهجة العربية التي يتكلم بها •• فاستأذنا (وعامر) أو الميجــور (سمسون) يلاحقهما بنظراته وبوده ان يكتشف الحقيقة ، وان يســير وراءهما ، ولكنه لم يرد ان يثير شبهات قبل أوانها •

وفي صباح اليوم التالي وفي نادي الجزيرة بالقاهرة ، كان (روبي) رجل المخابرات الاخر يتناول افطاره مع زوجته عندما هبط عليه (سمسون) وزميل له ، واقتربت رؤوس الجميع ودار همس طويل بينهم ••

لقد اخفق (روبي) في استجواب الاسيرين اللذين ضبطت معهمــا نسخة « ربيكا » •• ولم تفلح جميع الحيل في جعلهما يتكلمان • لقــد اعتصما بقوانين الحرب ، وقالا انهما اسيران وانهما لن يخضعا لاي اكراه•

وهكذا لم يوصل خيط الاسيرين من مركز اللاسلكي الامامي في خطوط روميل الى النتيجة •• وترك الامر الى حين • وان ظلت هنــاك علامة استفهام كبيرة حول قصة ربيكا التي اشترى منها وكلاء الالمان فــي لشبونة ست نسخ مرة واحدة ••

اخطر « روبي » صاحبه بهذه النتيجة •• وبدأ (سمسون) يتكلم •

كانت قصة أوراق النقد الاسترلينية هي موضوع حديثه •

وكان هناك نظام لهذه العملة ، وهي الا تبقى في البنوك أو الفنادق والمتاجر والمطاعم ، ولكن كان على من في حوزتهم هذه العملة ، أن يذهبوا الى رئيس الخزينة في مكتبه ، وهو تابع للاقسام الادارية في الجيش البريطاني ، ويسلم هذه العملة ليأخذ بدلا منها عملة مصرية •

ولاحظ مدير الخزينة ان مجموعة من هذه الاوراق لها أرقام مسلسلة تلفت النظر ، وهي أرقام متتابعة فأخطر جهاز الأمن ••

وزاد عدد هذه الاوراق زيادة كبيرة ، لا يحتمل أن تكون كلها في حوزة رجل واحد أو عدد قليل من الرجال فأبرقوا من القاهرة الى بنك انجلترا يستعلمون عن سلسلة ارقام معينة على الاوراق ذات الجنيه والاوراق ذات الجنيهات الخمسة •

وجاء الرد مثبتا ان الشبهات في محلها •

اذ ثبت ان الاوراق ذات الجنيه الواحد التي تحمل هذه الارقام كانت مرسلة من بنك انجلترا الى سويسرا والبرتغال وأسبانيا وجنوب امريكا وانه لا يتيسر لضابط من القوات البريطانية ان يحمل أوراقا بهذه الارقام ••

اما الاوراق الكبيرة ــ ذات الخمسة جنيهات ، فقد كانت مزيفة •• زيفت عن طريق الالمان في بلد خاضع لهم (اليونان) •

ولا يمكن لهذه الاوراق ان تظهر بهذه الصورة الا اذا كانت في جيب احد الجواسيس •

وهنا دق ناقوس الخطر وأوقدت كل الانوار الحمراء •• فقد ثبت بالدليل الذي لا ينقض ان اشخاصا وأموالا تنفق وراء الخطوط البريطانية لصالح الاعداء •• والاعداء هم الالمان • والقوة التي تسير هذا النشاط قوة كبيرة قادرة تضم محترفين لا هواة ••

وراحت المخابرات البريطانية تتبع المصادر التي ظهرت فيها هذه النقود •

وكانت المعلومات التي وصلت الى (سمسون) وطرحها امام زملائه في نادي الجزيرة ، هي ان شخصا يحمل رتبة ملازم في فرقة حملة البنادق هو مصدر المال •

ولكن مصادر اخرى قالت ان احد الافندية المصريين ، واسمه(حسين)، هو مصدر هذا المال ، وفي الجيش الانجليزي آلاف يحملون اسم(جون)، ان لم يكونوا جميعا بهذا الاسم أو بمصغره (جوني) • وصدرت التعليمات بأن كل من يقدم أوراق نقد استرلينية ذات أرقام معينة ، ينبغي أن يوضع تحت المراقبة • ولو أن (ابلر) قصر نشاطه على ملهى الكيت كات مثلا ، لوقع في براثن (سمسون) على الفور ، كما كاد يحدث ذات ليلة ، لولا ان (حسين جعفر) استراب فيه اذ ظهر ان لهجته العربية أميل الى الفصحى ، وانها شبيهة بلهجة السودانيين •

وقد كشفت لنا (حكمت فهمي) فيما بعد هذه الحقيقة ، اذ ذكرت ان (سمسون) هذا انفق مدة طويلة في السودان وانه كان يقول ان أحد « الفقهاء » علمه اللغة العربية •

نشرة سرية الى مراكز المخابرات :

وكانت وحدات الاستماع للاذاعة قد رصدت في نفس الوقت اذاعة من محطة مجهولة تبعث على كثير من الريبة ، وبعد اجتماع الصباح في نادي الجزيرة ، ارسل بلاغ الى جميع مراكز المخابرات في الشرق الاوسط نصه كما يلي :

« عادت محطة الاذاعة السرية التي تعمل من القاهرة الى نشاطها ليلة أمس ، وما تزال ترسل اشاراتها بالشفرة ، ويبدو ان جهة ما تلقت رسائلها •• وللمرة الاولى منذ اكتشاف هذه المحطة ، لاحظنا انها تلقت ردا وكان الرد بالشفرة ايضا •

ومن المحتمل ان تكون الجهة التي ارسلت الرد في اليونان » •

وكان مفهوما من اذاعة هذا التحذير على مراكز الاستماع والمخابرات بفروعه ان جاسوسا المانيا أو أكثر لديه معلومات يريد ارسالها ، وان هذا الجاسوس يتخذ الاراضي المصرية مقرا لنشاطه •

ولم يكن الموعد على الاشتباك الفاصل في العلمين بعيدا ، وعلى نتيجة هذه المعركة يتوقف مصير افريقيا والشرق الاوسط كله •

ومن يدري فربما تكون لدى هذا الجاسوس الالماني معلومات ثمينة تؤثر تأثيرا مباشرا على سير العمليات الحربية •

وجن جنون المخابرات البريطانية • وانطلق عملاؤها يقلبون كل حجر ، وينظرون من ثقب كل باب ، ويتسمعون كل همس ••

وفي الساعة الحادية عشرة من مساء تلك الليلة كانت السهرة حافلة بالمثيرات في الفندق ولكن فتاة من بين الساهرات وسط الضباط والمراسلين لم تحفل بالاضواء ولا بالابتسامات ولا بالعروض المختلفــة ؛ وانسلت في هدوء وهي تهمس لاقرب جار لها قائلة : سأعود ياعزيزي بعد دقائق •• سأصلح زينتي فقط •

وكانت لهجتها الفرنسية معطرة بكثير من الدلال ، وملامحها تطفح بالفتنـــــة ••

لقد عرفنا هذه الفتاة من قبل انها « ايفيت » أو « ايفاء » الحسنـــاء الاسرائيلية الفاتنة التي تعمل في قسم الملابس بعض الوقت، وبعض الوقت تجالس الساهرين ، والراقصين ••

لم تذهب « ايفيت » الى التواليت لتصلح زينتها ولكنها ذهبت الى غرفة التليفون ، وادارت رقما معينا ، وبدلا من أن تتكلم بالفرنسية اخذت تتكلم بالعبرية ••

انها كانت تتصل بالوكالة اليهودية في القاهرة ••

قـــالت :

كان لدي موعد الساعة العاشرة مساء مع الشاب المصري (حســـين جعفــر) •

ــ وماذا حــدث ؟

ــ لم يحضر •• ولا أظن انه انصرف عني ، ولكن شيئا ما حــدث له •• وقد سمعت الانجليز هنا يتحدثون عن شخص ما يقولون انه مطلوب لهم •• فهل يمكن ان يكون (حسين) هو الذي يتحدثون عنه ؟

ــ لماذا لا تذهبين اليه في العوامة ، وتبحثين عنه ، ثم تتصلين بنا ؟

ــ حسنا سأذهب •• « شالوم •• موشى » •

ــ « شالوم •• ايفيت » •• واحترسي لنفسك •

وعند منتصف الليل ، كانت الفتاة تتخطى سلم العوامة في حذر وهي تتلمس طريقها في الظلام ، اذ كانت قيود الاضاءة موجودة بسبب الحرب•

وعند الباب وقفت قليلا تصيخ السمع فوصل اليهـا صوت كؤوس وموسيقى ، وأحاديث . وتحسست طريق الجرس ، ثم ضغطت عليـه . وفجأة اسدل ستار من الصمت على ماكانت تسمع .. ولم تتلـق ردا .. نادت من وراء الباب بلغتها الفرنسية :

ــ (حسين) .. افتح .. انا (ايفيت) .. انا غاضبة .. لماذا تتركني انتظرك كل هذا الوقت .

واقبلت خطوات ، واخذت تقترب .. ثم فتح الباب ، وفي نفس الوقت كان الجرامافون يدور والموسيقى تملأ المكان .

ــ وامتدت يد وجذبتها الى الداخل .. وصوت (حسين) يقول :

ــ اسرعي .. ادخلي ..

ونظرت (ايفيت) فاذا (حسين جعفر) وقد بدا مخمورا ، لم يحلق ذقنه من امس . وابتسم وهو يقول لها :

ــ ايه .. اذن هو انت ..

ــ نعم انا .. لقد لبست وتأهبت للسفر وانتظرت (حسين) .. ولكن (حسين) لا يأتي .. لماذا لم تحضر ؟

ــ آسف ..

ثم جذبها الى الصالون وهو يقول :

ــ عاقني عمل هام عن الحضور .. وما كان يجب ان تحضري الآن .

وقدم لها كأسا وهو يحدق فيها بحدة يحاول ان يخترق ببصره رأسها ليرى ما فيه من افكار .

وبدأ حسين يستمع الى شيء ما .. ولم تكن موسيقى الجرامفـون هي التي يتتبعها بسمعه ولكن شيئا آخر ..

وكانت هناك اصوات تطغى عليها الموسيقى ، حتى لايمكن تبينها .. ولكن يمكن ادراكها . ولم تجد « ايفيت » احدا آخر غير (حسين) فيمـا حولهـا ..

وكان المكان مليئا بصناديق المشروبات وعلب الطعـام المحفوظ .. كأنما هناك رحلة يتأهب لها سكان المكان .

وفي خلال نصف ساعة كانت « ايفيت » تتحدث في صوت ناعم متراخ

و « ابلر » يستمع اليها ولكن باذن واحدة ، أما اذنه الثانية فكانت تصغي الى شيء آخر •• وبين الفينة والفينة كان يذهب الى الجرامافون ويغير الاسطوانة •• وكان يضع اسطوانات الجاز ذات الموسيقى الصاخبة •

وقبل ان تنتهي الاسطوانة (لمحت ايفيت) من الباب المفتوح ان غطاء الجرامافون يتحرك فوثب « ابلر » على قدميه كأن به مسا وخرج وأغلق الباب وراءه ••

ان المهمة التي كلفه بها (روميل) •• في خطر •• أو هكذا زين له الويسكي ••

ايفيت فتاة بني اسرائيل :

لا تكمل اجهزة التجسس بانشاء محطة ارسال ، واختيار شفرة للاتصال •• فقد يعطل الجهاز وقد تكشف الشفرة •

ولكن شيئا من ذلك لم يحدث رغم ان السيد (أنور السادات) فحص محطة الارسال •

والذي حدث هو أن الفتاة الاسرائيلية « ايفيت » التي تعمل للوكالة اليهودية في القاهرة اكتشفت الجرامافون المتحرك في العوامة ذات الاربعة سواري ••

ما قصة هذا الجرامافون المتحرك ؟

جرامافون يتحرك •• ويتحرك وحده •• ولا يوجد انسان بالقرب منه ••

هل لعب « الويسكي » برأس الفتاة الاسرائيلية « ايفيت » وهي مستلقية على الاريكة تحادث « حسين » في نعومة ولكنها تدرك انه مشغول عنها ••

ولكن اذا كان الخمر قد صور لها أمورا غير معقولة ، فلماذا قفز (حسين جعفر) أو (ابلر) من جوارها ؟ ولماذا أغلق الباب وراءه حتى لا ترى ، ولا تسمع •• لا •• لم تسكر الفتاة •• ولا بد ان شيئاغريبا مريبا في هذا الجرامافون ؟

ونترك « ايفيت » قليلا •

نتركها على اريكتها لافكارها ، وما تعده من بيانات للوكالة اليهودية

التي ارسلتها ، لنقلب صفحات من مذكرات السيد (انور السادات) ، فقد كان هذا الجرامافون سببا في حوادث خطيرة منها وليس كلها القبض عليه هو وزميله الطيار (حسن عزت) •• وكذلك ايضا القبض علـى الفريق (عزيز المصري) ••

ذكرنا قبل ان « ابلر » كان قد اتصل بانور السادات عن طريق الاسر الالمانية المصرية فيالقاهرة ، وطلب تقديمه الى الفريق عزيز المصري ، وكان يدعوه « الزعيم » ••

وبعد ان اثبت بما لا يقبل الشك جنسيته الالمانية وحقيقة مهمتـه، رأى (عزيز المصري) ان تسهل مهمته ووكل ذلك الى (أنور السادات) •

وكان طلب (ابلر) من السيد أنور هو ان يفحص جهاز الارســال اللاسلكي المعطل ••

يقول (أنور) :

وكان كل ما فوجئت به من امرهما انهمـا يقطنان في عوامة خاصـة الراقصة (حكمت فهمي) (العوامة كانت قريبة من عوامة (حكمت) في (العجوزة) ، ودهش انور لهذا الاختيار فقال له ابلر :

اتريدنا ان نقيم في معسكرات الانجليز ••

وعلم (أنور) انهما أبدلا ما يزيد عن أربعين الف جنيه انجليزيمزيف بجنيهات مصرية وان البنك الاهلي كان احدى الجهات التي قامت بهـــذه العمليـة ••

ثم قالا له :

وكان الوسيط يهوديا ، وقبل ان يتحمل المسئولية مقابل ٣٠٪ مـن قيمة ما يبدله من النقود •

ويعلق (أنور السادات) ••

ولم أدهش أنا لليهودي الذي يعرف انه يؤدي خدمة لجواسيس من النازيين فلا يتردد مادام كل شيء بثمنه ، ولكنني مع ذلك اشفقت عليهمـا من قيام صلة بينهما وبين اليهودي •

وقد حدث بعد ذلك ان اعتقل هذا اليهودي واسمه (البير) ورأيته في معتقل الزيتون ثم معتقل ماقوسه وكان (أنور السادات) و (حســن

عزت) يعاملانه بمنتهى الاحتقار والازدراء ، وقد ادهشتني هذه المعاملة ، فان حياة المعتقلات تذهب من الفوارق وتقرب بين الناس •ج•

وما أزال أذكر ان هذا اليهودي نادى مرة زميلنا الطيار (حسن عزت) بالاسم الذي تعودنا ان نناديه به « يا أبا علي » فاذا (حسن) يثور على الرغم من مرحه وصفاء قلبه ويصيح في هذا الشخص •

اخرس •• يا قذر ••

ولكن بعد ان انتهت تلك الظروف وأصبح كثير من الاسرار معروفا لم أدهش لهذا كله • ولم ادهش عندما علمت ان لهذا الشخص مهنة اخرى لا تشرف الرجال الشرفاء ••

سأل (ابلر) (أنور السادات) :

متى تجيء ••؟

فحدد له يوم الجمعة موعدا للزيارة ••

هنا •• محطة الارسال :

وهناك امام العوامة الخطيرة وقف (أنور) يتأملها ، فوجد أربع ساريات للسلك الهوائي الذي يستعمل للارسال والاستقبال •• فاعترت (أنور) رجفة مفاجئة فان وجود سلكين هوائيين فقط فوق العوامة قد يثير بعضا من الشكوك •• يقول :

ثم تتابعت علي الافكار في سرعة متلاحقة وبدت لي بعد ذلك اسئلة لا اجد جوابا عليها •

هل يعرف اليهودي الذي يبدل لهما الاموال حقيقتهما فعلا •• واذا كان يعرفهما ، فهل تكفيه هذه العمولة الكبيرة التي يتقاضاها لكي يسكت ولا يخون ؟

ما حقيقة موقف (حكمت فهمي) من هذه المغامرة ؟

وما مدى استعدادها للسير فيها الى آخر الطريق ؟

وهل تستطيع ان تقدر حقيقة هذا الطريق والنتائج الخطيرة التي قد ينتهي بها النبأ •

وكان لا بد أن يجد (أنور السادات) ردا على هذه الاسئلة ولذا قرر دخول العوامة ••

ويعلق على ما رآه في خطواته الاولى الى هذه المغامرة الكبيرة والتي لم تكن آخر مغامراته ..

يقول :

كان واضحا ان هذين الالمانيين القيا عن ظهريهما كل مسئوليات العمل الخطير الذي جاءا لكي يقوما به . وانغمسا الى آذانهما في الحياة التي تتناسب مع عوامة تملكها راقصة (العوامة مستأجرة بـ ١٠٠ جنيه شهريا) ويعيش فيها رجلان في عمر الورد ، في جيوبهما عشرات كثيرة من الاف الجنيهات .

وسأل انور :

ــ اين الجهاز ؟

فرد ابلر :

ــ هل تستطيع ان تجده اذا بحثت عنه ؟

وبحث (أنور) ــ دون جدوى ــ في كل ركن من اركان العوامة وأخيرا عاد به (حسين) الى جهاز الراديو الكبير الموضوع في صدر المكان.. وكان (أنور) قد فحصه اثناء طوافه ، فلم يجده أكثر من جهاز استماع فوقه بيك آب للاسطوانات من النوع الذي يسمى « الموبيليا » وفي جوانبه دواليب صغيرة مقسمة لحفظ الاسطوانات .

أمسك (ابلر) بالجزء الخاص بالبيك آب ، ثم حركه حركة بسيطة ، فانفتح الى اعلى .. ونظر (أنور السادات) ، فاذا تجويف كبير ، يكفي لكي يهبط فيه رجل ، وفي قاعه مقعد صغير ، وامام المقعد جهاز الارسال اللاسلكي .

قال (ابلر) :

ــ تستطيع ان تجلس هنا على هذا الكرسي ، وان تضيء النور الداخلي وتغلق الجهاز من فوق وادير انا اسطوانة للرقص .. وتبدأ عملية الارسال .

وقال (مونكاستر) الذي لم يكن (انور) يعرف له اسما الا (ساندي) .

اننا دائما نصنع هذا ، نرقص على الموسيقى مع الضيوف • بينما يباشر أحدنا عمله داخل الجهاز في هدوء •

وكانت فكرة جميلة •• فلن يستطيع احد مهما أوتي من قوة الملاحظة أن يتصور ان تحت هذا البيك آب محطة اذاعة كاملة ورجل امامها يذيع ••

ونزل (أنور) الى الفجوة وفحص الجهاز ••

الجهاز سليم •• ولكن :

يقول السيد (أنور السادات) في مذكراته :

كان شعوري ساعة جلست امامه واخذت ادير مفاتيحه ان هذا الجهاز لا يمكن ان يتعطل من تلقاء نفسه ، فهو كما بدا لى جهاز دقيق متين الصنع كما أنه بوضعه الذي كان فيه لم يكن معرضا لاي مؤثرات خارجية يمكن ان تؤدي الى تعطله •

وفتحته (أنور يتكلم) من الداخل ، فوجدت جميع صماماته سليمة ، وحاولت أن اكتشف مكان العطب فيه فلم استطع •• فقد كان جهازا جديدا علي في كل شيء • وكان من التعقيد بحيث لا يسهل اكتشاف سبب تعطله ، ان لم يكن فاحصه خبيرا به وبالنظرية التي أسس عليها •

وخرجت (مازال أنور يتكلم) يائسا •• أو بادي اليأس وفي رأسي دوامة من الافكار وشكوك كثيرة •

وصدر مني سؤال مفاجيء لم أكن احمله اكثر من معناه الظاهري •

واضطرب (ابلر) لهذا السؤال • بينما اجاب (ساندي) بسرعة فائقة والكلمات تتزاحم على شفتيه :

ـــ انه معطل •• معطل فعلا •• هل تستطيع اصلاحه ••؟

وقبل ان يجيب (أنور) بالنفي اتبع سؤاله بسؤال آخر •• قال :

ـــ انك بلا شك تسمع عن الهر (هوارد) ؟

يقول السيد (أنور السادات) :

كنت أعرف ان (هوارد) هذا دبلوماسي في مفوضية السويد في مصر ، وان كان يقوم برعاية شئون الرعايا الالمان في مصر بعد اغلاق المفوضية الالمانية عند اعلان الحرب •• فأجاب (ساندي) :

ـ نعم اعرفـه ••

اننا على اتصال به ايضا •• وهو يعلم ان هذا الجهاز معطل وهو الذي قال لنا ان نحاول الاتصال بك •

ولكني آسف جدا لاني لا أستطيع اصلاح هذا الجهاز فلم يسبق لي ان استعملت اجهزة ارسال المانية أبدا •

وبدأ (ابلر) يتكلم قـال :

ـ ان الهر (هوارد) طلب منا أن نتصل بك •• ثم سكت قليلا ثـم عـاد يقول :

انه يعرف كل شيء عنا ، ونحن نستعين به دائما عندما نحتـاج لاي شيء •• وهو ايضا يساعدنا ••

وأكمل (ساندي) قائلا :

وقد قلنا له ان هذا الجهاز قد تعطل • فجاءنا بجهاز آخر •• ولكننـا لا نعرف كيف نستعمله •

ـ وهل الجهاز الاخر هنا الآن ••؟

نعم انه في الطابق الاسفل •• لقد سرقه لنا (هوارد) من المفوضيـة السويسرية واعطاه لنا لنواصل به عملنا • ولكننا حتى اليوم لم نستطـع تشغيلـه •

ووجد (أنور) الجهاز الآخر من نوع (الهاليكرافتر) الامريكي •• وكان جديدا لم يستعمل قط • وخامرت (انور) ظنون كثيرة في هـــذا الادعاء بأن الاجهزة لا تعمل ، وهي صالحة للعمل •• وكانت هذه الظنون تدور حول الرجلين فهما يريدان ان يثبتا عطل هذه الاجهزة عـن طريـق (أنور السادات) اذا ما سئلا يوما من الايام وانهما قررا ان يتخليا عـن المهمة الموكولة اليهما لسبب أو لآخر •

وعلى كل حال عرض (أنور) أن يأخذ معه الجهاز الامريكي (المسروق من المفوضية السويسرية) وان يختبره في مدى يوم ويعيده مرة ثانية ••

وسنعرف بعد حين ماذا حدث لهذا الجهاز ••

ولكن هذه الشكوك التي ساورت (أنور السادات) تبـددت الآن

بعد ان اخرجت المخابرات البريطانية ماالديها من أوراق ، وبعد أن نفض (حسين جعفر) يديه من اسراره •

لم يكن العيب فيأجهزة اللاسلكي ، ولكن كان هناك هذا الطاريء الذي حدث في مركز الاستماع الاول وهو أسر عاملي اللاسلكي ومعهما « الكود » الثامن من سطور رواية « ربيكا » الانجليزية ••

كما ان الاتصال تم بعد ذلك ولكن من أثينا ، كما رجعت المخابرات البريطانية ••

هذه هي قصة محطة الارسال في العوامة ••

وعند رأس هذه المحطة أو غطاؤها عند هذا الجرامافون المتحرك تركزت نظرة شاكة مسترببة من الفتاة اليهودية (ايفيت) •

وهذه الحركة التي قفز من اجلها (حسين جعفر) وأغلق البابوراءه ، ثم عاد بعد قليل • عاد ومعه زميله ، وسلط نظرة فاحصة سددها الى عيني الفتاة •• ثم قال لها :

ـ هل تحبين ان يفصل رأسك عن هذا العنق الجميل بحركة واحدة••؟

قالها •• بالالمانية ••

وكانت في يده سكين يعبث بها ••

قالت (ايفيت) في تقريرها بعد هذا •

لقد قدرت ان ابلر يريد ان يتبين اذا كنت أعرف الالمانية فوجه لي هذه الجملة الرهيبة ، وهو يتأملني بعناية ••

وكانت الفتاة بارعة ، وتعلم انها تقوم بمغامرة خطيرة تتأهب لها بكل أعصابها ••

حافظت على سكونها ، وهي تسمع حديث الذبح •• وبدا عليها كأنها لم تفهم شيئا مطلقا •• وحتى تتقن دورها قالت في نفس اللهجة المتراخية الكسلانة :

ـ هل تقول شيئا أيها الولد الكبير •• لابد انها شتائم اني لا افهم ما تقول ••

ونظر (ابلر) الى (مونكاستر) •• ثم انفجر ضاحكا •• وأمسك بزجاجة الويسكي وقال :

ـ انت لا تفهمين •• هذا أحلى ما سمعت •• هيا اذن نسكــر ••
وبــدأت عملية افراغ الزجاجات •• زجاجات الويسكي في اسراف لا يعدله اسراف •••

سلطان الخمر •• وشهريار :

للخمر دور كبير في هذه الكذريات ، لو أن (روميل) احتاط لهــا ، لكان توفيقه أكثر مع جاسوسيه ••

ولكن ابلر كان المانيا بالمولد والابوين ، وكانت تربيته مصريــة •• ولهذا لم يتشرب بمبادىء النازي الا تقليدا ، وهي مبادىء صارمة تغلــب فيها الرهبة والطاعة وتقديس الاوامر على أي اعتبار آخر ••

ان ما يرويه (أنور السادات) عن عقلية حسين جعفر أو ابلر ومــا أسماه صاحبنا العبث اثناء العمل ، يعــد نقطة تحول هامــة في تاريخ هذه المهمة ، مهمة (كوندور) وهو الاسم الرمزي الذي اطلق عليها ••

يقول السيد (أنور السادات) :

كان (ساندي) شأن اكثــر الالمان ولوعــا بالموسيقى الكلاسيكيــة الاوربية •• ولم يكن (ابلر) كذلك ، فقد كان على النقيض منه لا يحب موسيقى الجاز •• تمتزج طرقاتها بالخمر التي تدور برأسه فتحيله كائنــا عجيبا ، نصفه انسان ونصفه حيوان ••!!

وفي احدى الامسيات ، جلس (ساندي) في عوامة الراقصة حكمت فهمــي ، يستمع الى موسيقى شهرزاد ، للموسيقــار الروسي ريمسكي كورساكوف •• وكان ابلر مغيظا محنقا ، يحاول اغراء صديقه للقيام معــه الى موعد حافل ضربه مع بعض الغواني في ملهى الكيت كات •• وأصــر ساندي على سماع الموسيقى الخالدة حتى نهايتها ، فوضع امامه كأسا من الخمر وأخذ يسمع ويحلم ، ويتمثل في خياله آخر مرة شاهد فيه هــــذه الباليه على مسرح من مسارح برلين ••

ورويدا رويدا اندمج ابلر معه في الاستماع الى الموسيقى •• ولكنه لم يسلم نفسه لانغام الموسيقى بقدر ما أسلم نفسه لهمسات شيطان أخــذ يراوده ••

وفجأة صاح بصديقه صيحة مخمورة :

ــ ما كان أسعد هذا الملك •• شهريار •• وضحك (ساندي) ، وهو مسترسل في احلامه وقال :

ــ كان يأتي كل ليلة بعذراء طاهرة •• يبيت معها ليلته •• ثم يذبحها في الصبــاح ••

وصاح ابلر ، والخور في رأسه :

ــ هكذا الحياة •• ماذا ينقصنا نحن •• فنكون مثله •• أنا شهريار الثاني ، وأنت شهريار الثالث •• ألسنا في بلاد الف ليلة وليلة ؟

ــ أكنت تقرأ مثلي قصص الف ليلة وليلة ايام الشباب ••؟

فأجاب ابلر :

ــ لقد كدت اطرد من المدرسة وأنا أقرأها يوما ، فقــد كانت معي الترجمة الحقيقية لها ، بكل ما فيها من كلام لذيذ ••

وسأل ساندي بخبث :

ــ وهل تحب أن تذبح النساء ••

ــ ولماذا اذبحهن •• أعطيهن مالا •• مالا من البنك الاهلي •• كــم يكون لذيذا أن تعيش كل ليلة في احضان عذراء ••؟

وانتهت الموسيقى وخرج العربيدان الى الكيت كات يقضيان سهرتهما •• ولكن خيال الف ليلة وليلة لم يبرح ذهن ابلر وساندي في تلك الليلة •• فكان كلما سكتت الموسيقى رفعا عقيرتهما بالحان شهرزاد ، فتضج القــاعة بالضحك على هذين الانجليزيين ــ كما كانت تظن الراقصة ــ اللذين ذهب بعقلهما الشراب •

ولم تمر الليلة على خير ••

فقد أسر ابلر باحلامه الحيوانية الى احدى صديقاته •• فضحكت الصديقة بخبث ، ودخلت معهما في مفاوضات اصبح ابلر بعــدها شهريار الثاني واصبح ساندي شهريار الثالث أيضا ••

وبدأت العوامة تستقبل كل صباح فتاتين جديدتين من بائعات الهوى ، في ثياب كثياب الطالبات تدخلان على استحياء •• وتخرجان وقــد امتلأت حقيبة كل منهما بمائتي جنيه ••

أخذتاهما من الرجلين باعتبارهما من العذارى •

واشتهر امر ابلر وساندي بين مجموعة من فتيات اليهود ، اللواتي كن يقمن بهذه التمثيلية العاطفية الفذة ..

حتى كان يوم السبت السابق للقبض عليهما .

وكانت في العوامـة يهوديتان جاءتا لتمثلا دور عـروس من عذارى شهريار ..

وانتهى التمثيل .. والرجلان في نشوة بالغـة من السكر الشديـد والخيال المنطلق ..

وتهيأت الفتاتان للخروج .. ثم وقفتا في انتظار الاربعمائة جنيـه.. ودخل ابلر الى غرفته ، ليأتي بالنقود ، ولكنه لم يجد سوى سبعين جنيهـا فقط .. هي كل ما كان لديه من أوراق مالية مصرية .

ومد ابلر يده بالنقود الى احداهما فأخذتها وعدتها ، ثم قذفت بهـا في وجهه وهي تصيح :

ــ أتسلبني اعز ما أملك ، بثلاثين جنيها ؟ أين باقي المبلغ ؟

وصاح فيها ابلر ، وقد غاظه منها تطاولها عليه وقال :

ــ ليس معي غير هذا .. هيا اخرجي قبل أن اذبحك كما كان يفعـل شهريار .. وارتجفت الفتاتان .. وقد سمعتا كلمـة « أذبحك » وخيـل اليهما ان هذين الانجليزيين قد يصنعان أي شيء دون ان يخشيا عاقبـة أو حسابا .. ورأى الالمانيان هذا الهلع على وجه الفتاتين ، فاستبدلت بهما نشوة الخمر والانتصار ..

ونعود الآن الى (ايفيت) وساعتها الساهرة المخمورة الحمراء في هذه الغرفة .. كانت تتظاهر بالانسجام في هذه الجلسة ، وتبدي من مظـاهر الود الشيء الكثير ، ولكن رأسها كان يعمل بسرعة هائلة ، وكذلك كان ابلر كلما أحس بصحوه من ضغط الخمر ..

تقول الفتاة في تقريرها :

حدث قبيل الفجر ان تحرك (ابلر) فجأة ، ووقف في عصبية ، ثـم اندفع نحو درج في مكتب واخرج منه خنجرا ، وقال :

ــ عزيزتي .. أترين هذا الخنجر .. اني على استعداد لاستعمالـه وباحكام اذا بدا منك انك تخونينني .

فسألت :

ـ هل اقص أنباء سهراتنا على زوجتك •• انت غير متزوج •• اذن سأخبر امك ••

ثم أخذت تمر بيدها في رفق على رأسه وتزيد من تدليله ،حتى تمحو شكوكـه ••

وعندما اخذت اشعة الفجر الاولى تتسلل من خلال ستائر العوامة ، كانت برامج الليل قد اخذت تنتهي ، وكانت (ايفيت) تصلح من أمرها ، وتتأهب للخروج ••

ومد (ابلر) يده في جيبه ، واخرج عددا من الجنيهات دسها فيجيب (ايفيت) وهو يقول لها :

ـ هذه هدية لك •• ولديّ منها الكثير ••

ثم تناول من فوق المكتب زجاجة من العطور النادرة وأعطاها لهـا وقـال :

ـ هذه أيضا لك ايتها القطة الحلوة •• اني احب ان تكون رائحتك دائمـا هكذا ••

وكان (مونكاستر) نائما يغط غير بعيد •• ورافق (ابلر) الفتـاة الى سلم العوامة ، وقبلها قبلة وداع خفيفة •

وفي هذا الوقت كانت نشرة استماع للراديو توزع على فروع القيادة البريطانية ونصها ما يأتي :

« عادت محطة الاذاعة السرية الى العمل •• لا تزال ترسل بالشفرة•• وكان الرد من جهة قريبة بالشفرة أيضا •• ويظهر أنه كان ردا قصيرا » •

بقال •• من اليونان :

ينتقل المنظر الآن من العوامة الى ثكنات قصر النيل في القاهرة حيث كان يقيم جيش الاحتلال • وهناك أمام شباك صغير مما تصرف منه العملة ، كان يقف طابور طويل من أفراد مختلفي الجنسية والازياء ، انهم التجـار والجنود واصحـاب الفنادق ، الذين يبـدلون العملة الاسترلينية ــ من محصول اليوم السابق ــ بعملة مصرية •

كان العمل يسير هادئا ، والطابور يتقدم ليقصر ، ثم ما يلبث ان يطول•

وكان الجاويش الصراف ينظر في العملة الورقية التي تقدم له بطريقة روتينية ، وفجأة توقف امام حزمة من الاوراق ..

نظر الى اليد التي تمدها ، ثم الى صاحبها ، وسأل :

ــ من اين جئت بهذه الاوراق ؟

ورد رجل نحيف الملامح :

ــ ماذا .. هل هناك خطأ ..؟

وأجاب الجاويش :

ــ لا .. لا .. فقط اسأل .. ما اسمك ؟

ــ اسمي .. أنا (جورج اندروليداكس) ، أنا بقال يوناني .. رجل شريف .. هل هناك سبب لسؤالك ..؟

ــ حلمك .. حلمك يا (جورج) .. طبعا سأغيرها لك ، ولكن ادخل أولا من الباب لتقابل الضابط .

ودخل البقال (جورج) من الباب في وجل وذهب الى غرفة الضابط ، فوجد أوراقه الاسترلينية امامه ، وهو يتحدث بالتليفون مع مدير الخزينة.

وجلس الرجل على طرف المقعد وهو حائر ، ترتعش أطرافه ويحـاول أن يشعل سيجارة كرافن فاذا هي مقلوبة في فمه ، فيعدلها ، ولكنه يحتاج الى ثلاثة أعواد من الكبريت ليتم هذه العملية .

وبعد قليل دق التليفون ..

كان الميجور (سمسون) على الخط ..

ولم يسمع (جورج) شيئا من الطرف الاخر ، ولكن كان الضابط يقـول :

ــ المبلغ ٣٠٠ جنيه .. أوراق من ذات الخمسة جنيهات .

وسمع سؤالا اخر ، وربما عن شخصية الذي أحضر الاوراق ، لان الرد كـان :

ــ لا .. ليس جرسونا .. انه بقال .. بقال يوناني .. ورائحتـه تدل على ذلك ، انه يقول ان متجره في الزمالك وزبائنه من ساكني العوامات في هذه الجهة ..

وضع الضابط السماعة . ولم يلتفت (لجورج) المسكين الذي كانت

ضربات قلبه تدق كالطبل •• وأصابعه تزداد ارتعاشا •

وقبل ربع ساعة من جلسته هذه ، دخل ضابط برتبة ميجور •• كان الميجور (سمسون) نفسه •

أبلغت الوكالة اليهودية المخابرات البريطانية عن الاكتشافات المثيرة التي وصلت الى مندوبة الوكالة (ايفيت) •

وفي نفس الوقت كان البقال (جورج) قد حدد المنطقة التي يعمل فيها والتي يحتمل ان تكون فيها العوامة الخطيرة •

هناك أصبعان تشيران الى مكان معين في العجوزة ••

وفي نفس الوقت أخذت (حكمت فهمي) تحدثنا عن ثلاثة ضباط انجليز في حياتها اثناء الحرب : لورد مليونير •• ولورد من نيوزيلندة •• ومارشال الطيران « تيدر » •

وصل الميجور (سمسون) الى مكتب الخزانة في ثكنات قصرالنيل، ودخل غرفة الضابط ليجد البقال (جورج اندروليداكيس) في حالة الاضطراب التي تركناه فيها ••

وأخذ يستجوب البقال عن الشخص أو الاشخاص الذين اشتروا منه هذه البضائع ، وكيف كانوا يحملونها وهي بهذه الكثرة ، والى اين كانوا يذهبون بها ••

وأجاب (جورج) بقدر ما يعلم •

ــ ان (الزبون) اسمه جوني ومعه كابتن انجليزي آخر •• وكثيرا ما اشتريا مني أشياء وكان أهم ما يشتريانه الشمبانيا والكافيار والويسكي والاطعمة المحفوظة بأنواعها ••

ــ ومتى اشتريا منك الصفقة الاخيرة ؟

ــ أمس ••

ــ هل نقلتها لهم الى مكان سكنهما ؟

ــ لا •• كان معهما تاكسي أخذا فيه البضائع •

ــ هل يكفي تاكسي واحد لبضائع ثمنها ٣٠٠ جنيه ••؟

ــ أيوه يا ميجور •• انهما لا يهتمان بالسعر • وقد كسبت منهما قليلا فوق المعتاد •

ــ آه فهمت •• فرد البقال :

ــ شكرا •

وأخذوا عنوان هذا البقال ، ومكان اقامته ووعدوه أن يصرفوا له المبلغ الذي أحضره ، ومكافأة اخرى ، اذا جاءه (جوني) هذا وصاحبه ، واتصل بالتليفون مع رقم اعطاه له (سمسون) •• اما اذا جاءا وسكت عنهما ، فان واقعته سوف تصبح سوداء ••

ووعد (جورج) بأن ينفذ كل ما يطلب منه ، فقط اراد أن يطمئن على مصير الـ ٣٠٠ جنيه التي جاء من أجلها ، وسأل عن الموعد الذي يعود فيه •

وقام (جورج) ثقيل الخطى ، فقد حضر وجيبه مليء بالنقود وخرج بوعد وبوعيد •• لا أكثر •• وهذه ليست أصول التجارة ••

ولم يدرك (جورج) وهو يأخذ طريقه الى منطقة العجوزة ، ان آخرين كانوا يتبعونه ••

ولم يدرك انه منذ اللحظة اصبح هو ومتجره مراقبين مراقبة دقيقة ••

تليفون •• من الوكالة اليهودية :

وعاد الميجور (سمسون) الى مكتبه ليجد تليفونا دق أكثر من مرة يسأل عنه • وكان المتكلم هو « الوكالة اليهودية » •

وقبل أن يأمر بالاتصال بهذا المتكلم ، كان التليفون يدق مرة أخرى ، وصوت يتكلم من الجانب الاخر يقول :

ــ أنا سكرتير الوكالة اليهودية •• أنا سمعت انكم تبحثون عن جاسوس الماني يعمل في القاهرة •

وأجاب (سمسون) اجابة رجل يعمل في المخابرات •• أي يأخذ ولا يعطي •• أجاب :

ــ حقا •• هل نبحث عن جاسوس ؟

فقال رجل الوكالة اليهودية :

ــ وسمعت كذلك انكم تبحثون عن رجل في القاهرة ينفق الجنيهات الاسترلينية في بذخ وسخاء ••؟

فرد (سمسون) بنفس اللهجة الحذرة قائلا :

ــ يظهر انك هذه الايام تسمع اشياء كثيرة ..

ورد رجل الوكالة الصهيونية بعد فترة صمت قصيرة :

ــ نعم .. نحن لنا ايضا مصادرنا .. ماذا تقول اذا أخبرتك ان فتاة صغيرة تعمل لنا ، كانت هنا منذ قليل ، وسلمتني ٢٥ جنيها اخذتها من شاب منذ ساعات قليلة ..

واستمرت فترة صمت اخرى .. استمرت نصف دقيقة قال سمسون بعدها :

ــ أوراق نقد نبحث عنها .. هذا مسل حقا .

وتابع اليهودي حديثه قائلا :

ــ اننا نعرف الآن مكان هذا الشاب .. ونعرف شيئا آخر أيضا .

وهنا زايلت طبيعة الحذر رجل المخابرات الرسمية وقال لمكتب المخابرات الخصوصية :

ــ وماذا أيضا ..

ــ ونحن أيضا نعلم ان في مكان هذا الرجل محطة ارسال وهي على موعد لاذاعة شيء في منتصف الليل .

ووثب (سمسون) على قدميه واقفا وهتف في سماعة التليفون :

ــ اذن فالجيش البريطاني .. فضلا عن الحكومة البريطانية ، ستذكر لهذه الفتاة جميلها وتعرف كيف تشكرها .. وتشكركم .

وأردف قائلا : اين يمكن ان اجد هذه الفتاة ؟

ــ ستكون على باب مكتبك بعد ٢٠ دقيقة .

* * *

والآن نترك (ايفيت) تسير نحو مكتب المخابرات البريطاني ، وفي العشرين دقيقة التي تستغرقها رحلتها ، نتحدث قليلا مع (حكمت فهمي) ، التي كانت شريكة بالصدفة (لابلر) في نشاطه ..

قلنا (لحكمت) ، والقهوة تغلي أمامنا ، والسيجارة لاتغادر فمها:

ــ متى اكتشفت ان (ابلر) أو حسين جعفر كان مكلفا بمهمة سرية في القاهرة ؟

ردت حكمت على الفور :

ـ ان اكتشافي كان بمناسبة مضحكة للغاية •• لقد جاءني كما ذكرت لك في الكونتيننتال • واعاد تعارفه بي ، وكان يوصلني الى عوامتي من يوم لاخر •• ثم نشأت في ذهنه فكرة ان يترك الفنادق ، ويقيم هو ايضا في عوامة ••

واستطردت حكمت :

ـ كانت العوامة التي استأجرها اشبه بوابور البحر او الباخرة الصغيرة ، وكان لها اكثر من دور •• وكانت مفروشة وايجارها ١٠٠ جنيه (يعد معتدلا بالنسبة لأجور الحرب) وكانت المسافة بين عوامته عند كوبري امبابة وعوامتي ليست قليلة •• وقد ادهشني ان يقول (ابلر) ان هنالك عوامة ثالثة كان يسكنها ضابط بريطاني تقع بين عوامتينا •

قاطعتها قائلا :

ـ هل لم تكن هناك عوامة ثالثة لضابط برتبة ميجور ؟

ـ لا •• كان هذا الميجور موجودا ، ولكنه لم يكن في عوامةخاصة كان يقيم في عوامتي •• انه الميجور (جاي) النيوزيلندي •

ـ اوه •• هذا بديع •• لقد وجد اذن ضابط من اركان حرب القيادة البريطانية ، ولكنه كان يقيم معك انت في عوامتك انت ••

ـ ايوه ••

ـ اقامة مستديمة ؟

ـ طبعا كانت ملابسه وجميع حاجياته عندي وكان ضابطا طيبا ، لم اجد اطيب منه في حياتي •

ـ هل يمكن ان يقارن بصديقك الاخر اللورد (بيتر مارش) الذي تحدثنا عنه مرة سابقة ••

ـ كان اللورد (بيتر مارش) رجلا غنيا يبذل المال بغير حساب وكان صديقا عاديا للسهرات والرقص ••

ـ واظن ان هناك قائدا للطيران ••

ـ تقصد « تيدر » ••؟

وهنا لم اتمالك ان صحت :

ـ تقصدين المارشال تيدر.. ؟

ـ مالـه ..؟

ـ الذي ضاعت حقيبة اوراقه في الكونتيننتال ..

ـ مالـه ..؟

ـ هل هو الذي تتحدثين عنه ..؟

ـ ايوه .. ماله .. نعم اعرفه ، واعرف بنتيه (سارة ومرجريت) .. ان صورهما كانت معه دائما ، وكان لا يكف عن الحديث عنهما وعن اولاده الذين يموتون ..

ـ اولاده ..ماتوا ..؟

ـ اقصد الطيارين في المعركة ، كان يسميهم اولاده .. وكنا نجلس تحت الشجرة الكبيرة في حديقة شبرد ، وكان ينظر في حنان الى هؤلاء الطيارين الذين كانوا يرقصون وهم يحنون رؤوسهم له محيين .. كانت نظرة اب فعلا الى اولاده ..وكان يشجعهم على قضاءوقتطيب.. ولا يستحيون ان يرقصوا امامه .. كان ابا لهؤلاء الطيارين ..

ـ انك تتحدثين عن هذا القائد ، وكأنه قطعة من نفسك ..

ـ لقد كان يعتبرني فعلا كواحدة من بناته .

ـ اذن نحن بازاء ثلاثة ضباط .. اللورد (بيتر مارش)

ـ ان جاي كان لوردا ايضا ..

ـ اذن هناك لوردان من الضباط ومارشال ..

ـ مارشال ايه .. قلت (تيدر) قائد الطيران

ـ هذا بديـع..

الضابط الانجليزي من هيئة اركان الحرب البريطانية والميجـور (جاي سبلندر) كان يقيم مع (حكمت فهمي) في عوامتها ، وتعـرف بأبلر وكان ابلر يدهش للضباط البريطاني الذي يتناول غـداءه على المائدة وهو بملابسه الداخلية .

هذا الضابط حزن لاعتقال (حكمت فهمي) وذلك قبل ان يقتل في حقل الغام بعد معركة العلمين .

اما الضابط المليونير ملك الخنازير فقد ارسل (لحكمت) تحياته من وقت قريب ، غير مصحوبة بأية خنازير ..

اليوم تحدثنا (حكمت) عن مكاسب الحرب ، ومن ايـن جاءت والى اين ذهبت .

وتحدثنا عن انحيازها الى (مكرم عبيد) وهي في السجن مما ادى الى استمرار حبسها عامين ونصف عام .

ضابط من نيوزيلندا :

قلت (لحكمت فهمي) :

ــ اذن كان يقيم معك في عوامتك ضابط برتبة ميجور اسمه (جاي) وهي غير عوامة (حسين جعفر) .

ــ نعم اسمه اللورد (جاي سبلندر) وهو من نيوزيلنده ..وكانت ملابسه عندي ، ويبيت معظم وقته في العوامة عندما يكون في القاهرة .

ــ اذن هي قصة حب .

ــ ايوه .

ــ وهل راى (حسين جعفر) هذا الميجور (سبلندر) عندك ؟

ــ رآه .. رآه اكثر من مرة وتعرف به ، ودعاه الى عوامته .

ــ وهل كنت تشتبهين في (حسين جعفر) ؟

ــ بدأت شبهتي في (حسين) عندما طلب مني طلبا غريبا .

ــ ماهو ؟

ــ هل يجب ان اذكره ..

ــ نحن الان نكتب للتاريخ .

ــ ولكن هذه واقعة شخصية وليست تاريخا .

ــ اذن حدثينا عنها ، ثم نحكم اذا كان تاريخا أو جغرافيا .

ــ حسنـــا .

وبدأت (حكمت) تروي واقعة ما ان سمعتها حتى كدت استلقي على ظهري من الضحك .. قالت :

ــ همس (حسين) في اذني مرة قائلا انه يريد ان يتعرف بجراح ماهر .

ــ لماذا هل عندك أعور ؟

فأجـاب :

ــ لا ولكنني اريد أن اجري عملية طهور حتى أكون مثل المسلمـين تماما ، وانا لست طفلا كما تعلمين ومستعد ان ادفع أي مبلغ لاكبر جراح في مصر يجري لي هذه العملية •

ــ وهل عرفت (حسين) بالجراح الكبير ؟

ــ لا •• فان الوقت لم يمهله ليتم مظاهر اسلامه على الصورة التي تخيلهـا •

ــ وكيف اشتبهت في (حسين) نتيجة هذا السؤال ؟

ــ قدرت انه يريد ان يبدل من طبيعته لغرض خفي في نفسه •

ــ ثم ماذا حدث بعد ذلك ؟

ــ توالت طلباته بعـد ذلك •• وكان اهمهـا عندما زرت عوامتـه ذات يوم •

(حكمت) في زيارة العوامة :

ــ (حكمت) •• ماذا حدث عندما زرت عوامة (حسين جعفر) ؟

ــ اخذني الى صندوق ثلاجة كبير كان مليئا بعلب البيرة الصفيحية ، وهي نوع من البيرة كان شائعا في أيام الحرب ، ثم رفع غطاء الثلاجة ،وازال بعض العلب ، فظهر شيء أسود تحتها أراه لي وقال انه يريد ان ينقل هـذا الشيء عندي •

ــ وماذا قلت له ؟

ــ سألته عن السبب فقال ان اليوزباشي (أنور السادات) سـوف يمر عندي ليأخذه •

فهززت رأسي في عدم مبالاة وقلت له :

ــ طيب هات اللي تقدر عليه • وقلت لها :

ــ وماذا طلب منك حسين جعفر غير ذلك ؟

ــ قال لي ان الالمان قد يصلون الى القاهرة في أي وقت وربما اعتقلوا زميلي (ساندي) ، وهو امريكي كما تعلمين ، فهل يمكن ان تساعدينا على الهرب من وجه الالمان ؟

فأجبته بسلامة نيـة :

ــ ايوه •• آخذكم والبسكم عرب ، وأخبيكم •

ــ لكن انت عندك واحد ميجور انجليزي •

ــ جاي الليلة أو بكره من العباسية يأخذ ملابسه •

ــ وهل عرفت ان هذا الصندوق الاسود هو محطة ارسال لاسلكية من طراز الهاليكوفتر ، وعرفت ازاي ؟

ــ من مذكرات السيد انور السادات الذي حضر وأخذ هذا الجهاز من عوامة ابلر مباشرة •

ــ وهل رأيت وجوها تعرفينها في عوامة جعفر ؟

ــ ايوه •• كانت هناك « ايفيت » والبير اليهودي •

ــ يعني العوامة كانت محتلة باليهود من الجنسين •

ــ شوف المصيبة ؟ وكان فيه ثلاث بنات غيرها من الكيت كات •

ــ وهل لم تحذري (ابلر) من هذه الشخصيات بوصفك صديقة قديمة ؟

ــ ابلر كان عامل شاطر •• وفلوس كثير •

ــ وهل لم يطلب الاطلاع على أوراق الميجور (جاي سبلندر) الذي كان يقيم في عوامتك ؟

ــ شاهد صندوقه الاسود تحت السرير وربما حاول ان يرى ما فيه ولم تكن فيه أوراق ولكن مهمات عادية • وكان ابلر يقول ان (جاي) أول انجليزي يراه يحضر الى مائدة الغداء في العوامة بملابسه الداخلية •

ــ حاجة غريبة •• وهل بلغ اختلاط ابلر بك وبضابط أركان الحرب•

ــ ضابط ماذا ؟

ــ ايوه كان الميجور (جاي سبلندر) من ضباط اركان الحرب في القيادة •• أقول هل بلغ الاختلاط الى حد التردد على العوامتين في أي وقت؟

ــ نعم كنا جيرانا •• وكنا أصدقاء •

ــ وهل لم يشك (جاي سبلندر) في صديقك (جعفر) أو صاحبه الامريكي ؟

ــ لا •

ـ وحتى بعد ضياع حقيبة المارشال (تيدر) من الفندق والضجة التي حدثت عقب ذلك ؟

ـ لا .. كان جاي طيبا جدا .

قلت (لحكمت) :

ـ هل تسمحين بأن اسألك سؤالا صريحا ؟

ـ اتفضل .

ـ ماذا كنت تكسبين من صحبة ضباطك الانجليز الثلاثة ؟

ـ خذ : « تيدر » مثلا .. كنا نذهب الى السباق وكان يضع في حقيبتي كل مرة مائة جنيه أو أكثر لكي أراهن بها وكان يحب السباق جدا .

ـ تقصدين قائد الطيران . أو اللورد المليونير (بترمارج) ؟

ـ اقصد قائد الطيران .

ـ وهل كانت هذه الهدايا المالية كثيرة في تلك الفترة ؟

ـ كانت مكاسب الحرب كثيرة جدا ، وكنت آخذ عمولة ليلية من الفندق على استهلاك الشمبانيا وكان متوسط الاستهلاك ٨٠ أو ٩٠ زجاجة .

ـ وهل اشتريت هذه الفيلا التي تقيمين فيها من مكاسب الحرب ؟

ـ لا .. كانت عندي قبل ذلك ، وكنت اعطي النقود لمن هم أكبر مني في الاسرة ، وكنا ننفق ببذخ كبير .. ولا تنس أن نصف سنوات الحرب قضيتها في السجن .

ـ متى اعتقلت ؟

ـ قبض علي مساء ٢٧ يوليو سنة ١٩٤٢ .

ـ وكما قلت لك قبض على (ابراهيم امام) وأنا جالسة مع اسمهان وأمينة البارودي .. انسحبت من جوارهما دون أن يعرفا انني لن أعود الى هذا المكان قبل عامين ونصف .

ـ من من اصدقائك الانجليز تابع استفساره عنك ؟

ـ بعد اعتقالي بحوالي ثمانية اشهر جاء « جاي اسبلندر » من الميدان وزارني في السجن بتصريح خاص ، وقال انه لا يأسف لاني كنت عارفة (ابلر) الجاسوس الالماني . بقدر ما يأسف لاعتقالي وكان متأثرا جدا .

ـ هل بلغك ان (جاي سبلندر) قتل بعد ذلك في حقل الغام ؟

ـ لا لم أسمع •
ـ وهل اتصل بك المليونير الاخر اللورد (بيتر مارج) ؟
ـ منذ وقت قريب زارني كابتن انجليزي يكتب كتابا عن مصر وابلغني ان (بيتر) يبعث اليّ تحياته وانه بخير •
ـ هو ملك الخنازير في انجلترا كما سمعت منك •
ـ ايوه •
ـ وهل لم يرسل مع تحياته بعض الخنازير •
ـ لا •
ـ ومارشال الطيران ؟
ـ تقصد (تيدر)
ـ نعم •• هل اتصل بك بعد اعتقالك ؟
ـ لا •• لم يتصل بي ••
ـ وهل كان احد من المصريين على علاقة وثيقة بك في ذلك الوقت ؟
ـ بل كان هناك مصري على علاقة « زفت » بي
ـ من هو ؟
ـ رئيس الوزراء (مصطفى النحاس)
ـ ولكن لماذا ؟
ـ اعتقد اني كنت اساعد (مكرم عبيد) من السجن ايام الكتاب الاسود •
ـ وهل حدث هذا ؟
ـ شوية •
ـ اذن خسرت مصريا كان يمكن ان يساعد في الافراج عنك عند الانجليز •
ـ لا •• لقد كان الانجليز وعلى رأسهم السفير (مايلز لامبسون) يطلبون الافراج عني ولكن الحكومة المصرية رفضت •
ـ وكيف عرفت ؟
ـ أعطى السفير رسالة بخطه لاختي يقول فيها ان حكومته لا تمانع في اطلاق سراحي ، ومع هذا رفضت •

ـ يظهر ان السياسة في دمك .. في خارج السجن تساعدين هتلر ضد تشرشل .. وفي السجن تساعدين مكرم عبيد ضد النحاس ..

ـ متى تركت سجن الاجانب ؟

ـ عندما قررت أن أهرب .

بسطت الخريطة في مركز المخابرات . وحدد الميجور سمسون مكان العوامة ، وأعطى تعليماته بطريقة الحصار وباعداد قارب مسلح في النيل .

وذهب الى رئيسه البريجادير الكهل لكي يخبره بساعة الصفر والتفاصيل الاخرى ، واذا به يعلم ان امامه مهمة اخطر من الاغارة على وكر جاسوسين المانيين .

ان تشرشل في الطريق ، وقد دعا الى اكبر مؤتمر عسكري وسياسي ليجتمع به في القاهرة . وان القيادة البريطانية في الشرق الاوسط تواجه عاصفة ضخمة ، يمكن ان تهب بعيدا عنها اذا وفقت في تقديم رشوة مناسبة لتشرشل وهذه الرشوة يمكن ان تكون معلومات ثمينة عن خطط روميل .

من يدري قد يكون في العوامة كل هذا ..؟

اصبعان تشيران :

تترك (حكمت فهمي) في سجنها بعض الوقت ، لنتبع اصبعين قلنا انهما اخذا يشيران الى مكان واحد في منطقة العجوزة .. في عوامة على هيئة باخرة فوقها أربعة من المرسلات اللاسلكية مرة واحدة ..

الاصبع الاولى هي اصبع البقال اليوناني (جورج) ، الذي وعد بمكافأة اذا هو أرشد عن عميله « جوني » وصاحبه .. أو بمصادرة ٣٠٠ جنيه كان قد باع بها شمبانيا وكافيار ومأكولات لهذين الشخصين .

والاصبع الثانية اكثر رقة ونعومة ولكنها انفذ من سهم في الفضاء اذا انطلق .. انها اصبع الفتاة الحسناء ايفيت عميلة الوكالة اليهودية في القاهرة .. الوكالة التي كانت تمارس هواية التجسس لحسابها ولحساب الاخرين عند اللزوم .. ولكل شيء ثمنه .. قد يكون الثمن خطوة اقرب نحو اغتيال فلسطين ..

تجمعت كل هذه المعلومات أمام الميجور سمسون ، فجمع قوات البوليس الحربي التابعة له ، وحدد على خريطة للنيل ومنطقة مستشفى

الجمعية الخيرية الاسلامية في العجوزة الهدف الذي يريده •• مستنـــدا الى المعلومات التي وصلت اليه ••

ووضعت خطة كاملة للهجوم على العوامة ••

كان لا بد من زحف هادىء سريع من ثلاث جهات من امام العوامة. ومن نقطتين احداهما تبعد ١٠٠ متر شمالا والاخرى تبعد ١٠٠ مترجنوبا.

ولكن كانت هناك ثغرة من الجهة الرابعة من العوامة جهة النهر ••

وعند سمسون لكل مشكلة حل من الحلول ولا بد من سد هـذه الثغرة بحرا أيضا •

وصدر الامر باعداد القارب البخاري وقد ملىء بالجنود المسلحـين والغواصين ليأخذ مكانه وراء العوامة في ساعة الصفر •

وعرض سمسون خطته على البريجادير الذي يرأس مخابرات الشرق الاوسط فأقر هذه التفاصيل ولكنه أصدر أمرا بأن تحصل هذه القوات على الجواسيس احياء ، فقد تكون لديهم معلومات ثمينة تساعد علـى تعديل خطط الجيش الثامن بما يحقق له فرصة أكبر في الانتصار علـى روميـل •

وكان رجال المخابرات يعلمون ان تشرشل في طريقه الى القـاهرة • وقد تحدد موعد وصوله يوم ٣ أغسطس سنة ١٩٤٢ ، أي ان اسبوعـا واحدا هو الذي بقي على زيارة الرجل العجوز •

قال البريجادير للضابط الشاب :

ـ انت تعلم ان ونستن قلق جدا من مصير هذه الجبهة • واذا امكننا ان نكشف خطط العدو عن طريق هذين الجاسوسين ، فان هذا يعـزز مركز قيادتنا الحالية • وقد اطلعت القائد العام ••

فقاطع سمسون رئيسه قائلا :

ـ الجنرال أوكنلك ••

ـ نعم •• اطلعته على الموقف بالنسبة لنشاط هذه العوامة •• وما اطلبه منك هو ضرورة الحصول على الجاسوسين احياء وانما هو أمـر منه شخصيا •

ـ ولكنك تعلم انها مسألة غير مضمونة •• فهؤلاء النازي رجال خبثاء ••

ـ أظن ان لديك بعض الوقت على ساعة الصفر التي حددتها للاستيلاء على « كوندور » ••

ـ نعم لديّ ساعة كاملة ••

ـ اذن اسمع •• اني الخص لك ما اتفقت عليه هيئة اركان الحرب في لندن بالنسبة للمعركة القادمة •• اننا ، اذ انهزمنا في العلمين ،فالنتيجة الحتمية هي :

* خسارة مصر وقناة السويس •
* خسارة سورية •
* خسارة آبار الموصل •
* خسارة الخليج الفارسي •
* احتمال توسع المانيا في افريقيا واحتلالها لتونس والجزائر ومراكش وداكار وقطع الخط البحري الذي يمر بفريتون وداكار •
* تهديد الملاحة في جنوب الاطلنطي وتهديد البرازيل بخطرمحقق• واحتمال ضم أسبانيا والبرتغال الى منطقة الاحتلال الالماني في أوربا •

ولم تتفق لندن وحدها على هذه المسائل • ولكن الرئيس روزفلت ومستشاريه العسكريين اجمعوا الرأي عليها أيضا •

وقد أبلغت بهذا رسميا ، وأنا أسره اليك لتكون على بينة من قيمة العملية الصغيرة التي أمامك ، والتي قد تكون خيطا رفيعا يؤدي الى نتائج خطيرة •

ـ سأبذل جهدي ياسيدي •• ولكني أريد ان اسأل سؤالا :

ـ قل ما بدا لك •

ـ هل سيبقى الجنرال أوكنلك قائدا عاما هنا ؟

ـ لست أدري •• هذا سيتوقف على مداولات ونستون •• وقد استدعى لمقابلته هنا ويفيل من الهند وسمطس من جنوب افريقيا ، كما

سيحضر اجتماعاته وزير الدولة الاسترالي ويراك والكسندر والاميرال هاروود من البحرية وتيدر من الطيران .

ولعل كلمة (تيدر) ذكرت الضابط سمسون بشيء .. ربما تكون الحقيبة المفقودة .. فهمهم كأنما تذكر شيئا وسمعه رئيسه يقول :

ـ تيدر .. آه .. تيدر

وخرج الميجور من عند القائد الكهل ثقيل الخطى . وكان قد دخل قبل قليل نشيطا مبتهج النفس بالصيد الثمين الذي قاربت مطاردته النهاية .

وكان رأس سمسون يتحرك كالدوامة ..

هذا جاسوس عادي .. والحرب مليئة بالجواسيس ومن كل مكان. فلماذا تعطى كل هذه الاهمية للعوامة ومن فيها .

ولم يدرك صاحبنا ـ رغم ذكائه ـ ان الحالة النفسية للقيادةالبريطانية في الشرق الاوسط عقدت له المسائل كل هذا التعقيد .. فقد قرر تشرشل ان يضحي بروسيا اذا احتاج الامر ليكسب العلمين.وقرر أن يزور موسكو ليحاول ان يحمل ستالين على قليل من الصبر بعد ان تعالى ضجيجه لفتح الجبهة الثانية .

وتمكن تشرشل من أن يقنع روزفلت بكل هذا ، ويقنعه أيضا بأن يؤجل كل مجهود حربي في الباسفيك مهما كانت أسبابه ، ليرمي بكل الثقل في الصحراء المصرية .

ولم تكن النقط التي لخصها رجل المخابرات لزميله من عنده ،ولكنها كانت خلاصة السياسة في هذا الشهر يوليه سنة ١٩٤٢ التي وصلت اليها لندن وواشنطن .

وعاد سمسون الى ضباط وحدة الامن الذين سيصاحبونه الى العوامة، وفاجأهم بالامر الاخير وهو بالنص :

« ان وصولنا الى وكر الجاسوس الالماني ليس غرضنا من هذه العملية . ان التعليمات القاطعة التي لدينا تقضي بأن نقبض عليه حيا ، وحسب البيانات التي لدينا فان معه مساعدا في العوامة . ولا يستبعد ان يكون في حوزة كل منهما سيانور البوتاسيوم ، أو أي مادة سامةاخرى يبتلعانها . فاذا حدث هذا نكون قد أخفقنا في مهمتنا » .

وسمع سؤالا من أحد أعوانه رد عليه بقوله : اذا قتلنا الجاسوسين أو قتلا نفسهما نكون قد أخفقنا •• وترتبت على هذا نتائج خطيرة •

واستمر سمسون في القاء تعليماته الاخيرة •• قال :

« يجب ان نقبض عليهما ، وأن نحصل على مالديهما من أوراق وعلى محطة اللاسلكي •• واذا اطلقا النار فلا ينبغي أن يكون الرد منا رصاصا في مقتل ولكن في الاطراف •• مفهوم » •

رصاصة في قفل الباب :

وفي ساعة الصفر ، كان كل شيء هادئا داخل العوامة ••

مونكاستر نائم يغط من ثقل ما شرب •• وايلر مستلق على الاريكة••

وسمع ايلر حركة عند الباب فظن انه يحلم ، واستدار على جنبه الاخر •• ولكن قبل ان يأخذ وضعه الجديد ، سمع طلقة رصاصة فقفز كأنه به جنة •• وخرج الى الباب فاذا دخان الرصاصة ينفذ من ثقب القفل وادرك ابلر كل شيء •

اسرع الى زميله وايقظه وقال له الكلمة التي جعلته يقفز واقفا وقد طارت من رأسه كل آثار الخمر والنوم معا •• قال له :

ــ غـارة ••

وعاود ابلر هدوءه وقال لصاحبه :

ــ هل أذكر عهدنا ، والتعليمات التي لدينا ؟

ــ نعـم •

وامسك قطعة عملة وطوحها في الهواء وهو يسأل صاحبه أي الوجهين يختار •• وعندما استقرت قطعة العملة على يده قال :

ــ لقد خسرت انت • اسمع • اياك ان تتخلى عني •• سأتقدم أنا •

وذهب مونكاستر الى الحمام ، وضجة الباب تعلو وصريره يسمع، وأخذ موسى للحلاقة وضعه في بطانة جاكتته ثم استدار الى صاحبه وقال:

ــ لن أتخلى عنـك •

واستجاب الباب للضغط ، واندفع الى العوامة عـدد من الرجال في أيديهم كل أنواع الاسلحة وعلى رأسهم الميجور سمسون الذي تذكره ابلر

بمجرد ان رآه •• انه عامر بك الصعيدي الذي جلس معه مرة على منضدة واحدة في الكيت كات •

صاح سمسون في حزم :

ارفعا ايديكما وسيرا في هدوء ••

ـ أجاب ابلر في تراخ وكأنه استسلم ورفع يديه الى أعلى •

وفجأة صاح جاويش من الخلف :

ـ انتباه •• في يده قنبلة •

وقف خصمان عنيدان احدهما في وجه الاخر •

أولهما شاب يائس مكلف بتدمير نفسه وما حوله اذا احيط به ، وهو الجاسوس ابلر •

وثانيهما ضابط مخابرات عنيد واسع الحيلة مكلف ان يحصل على هذا الجاسوس حيا مهما كان الثمن وهو الميجور سمسون •

وقد رتب ابلر نفسه على أن ينسف العوامة ومن فيها وأمسك بقنبلة يدوية متأهبا للعمل ••

أما زميله مونكاستر أمباشي اللاسلكي فقد دس في بطانة جاكتته موسى حادة ينفع في الازمات•

هل يلقي ابلر القنبلة وينتهي كل شيء في قاع النيل ؟

كان على سمسون أن يحول دون هذا المصير لنفسه ولفريسته بالحيلة فان القوة لا تجدي •

هل حدث لك شيء كهذا الذي حدث للميجور سمسون ؟

في الحروب والميادين يحدث كثيرا ان يتعرض الجندي للموت من امام أو من خلف ، ويرى زملاءه يتساقطون من حوله • ويتوقع دوره في انهاء رحلة الحياة كل ثانية ••

وما يحدث في الميدان هو نوع من جنون المعركة يحجب عن الاعصاب احاسيس • ويوقظ احاسيس • ولكن الموت الذي أطل فجأة على ضابط المخابرات الانجليزي بعينين سوداوين ، يختلف كثيرا عما يحدث في ساحة القتال ••

ان الثانية الواحدة التي يعيشها من واجه هذا الموقف تعد شيئا غريبا

على حساب الزمن .. انها ليست ثانية ، ولكنها مجموعة صور متلاحقة تمر بالذهن ، ولو انه حاول استعراضها في ظروف عادية لاستغرقت ساعات وأياما ..

ان العقل الباطن هو الذي يعمل في هذه اللحظة الحرجة الحاسمة ، وليس العقل الواعي .

وما أعجب الصور التي طافت في ذهن سمسون في هذه اللحظة .

ان حياته خلال عامين وبعض عام في مصر منذ قامت الحرب كانت حاضرة أمامه ..

مرت بذهنه وجوه المئات من المصريين الذين أصر على ان تغيبهم السجون والمعتقلات وفيهم رجال كبار ، ورجال صغار .. فيهم رؤساء وزارات وأمراء وشبان مجاهدون ، وفيهم جواسيس من النوع الرخيص ، وخيل له ان هذه الوجوه تحدق فيه وهو يستقبل آخرته باسماً ابتسامة السخرية والتشفي .

مرت بذهنه احتياطات الامن التي اتخذها والدبابات تزحف من ثكنات العباسية وثكنات قصر النيل والسيارات المصفحة تسرع لتحاصر قصر عابدين ، وتفرض على مصر حكومة معينة ..

مرت بذهنه ثورة العراق ، وكيف اخفقت وكيف كلف مع غيره بالبحث عن ثوار العرب الذين اختفوا فجأة وكأنهم تبخروا ، كالحاج امين الحسيني ورشيد الكيلاني ومصطفى الوكيل ..

مرت بذهنه هذه الصور كلها متلاحقة متتابعة ، ولكن صورة أخرى قفزت امام خاطره واحتلت الفراغ كله .. انها صورة رؤسائه وقواده الذين علقوا كل الامل في بقائهم في مناصبهم وربما في انتصار انجلترا ، على هذه المهمة التي وكلت اليه .. وتذكر آخر كلمة قيلت له ، وقد رددها قبل قليل على أعوانه وهي : احصلوا على الجاسوسين أحياء ..

وانتهت هذه اللحظة التي كادت توازي دهرا طويلا ، وبدأ ذهن سمسون يصفو ، ويعمل بسرعة هائلة وقدر أن خير طريقة هي أن يحول موجة الغضب عليه الى غضب على شخص غيره .. قال لابلر :

ــ اهدأ .. عندي رسالة . قالها بصوت هادئ وكأنه يخاطب صديقا ،

ووضع مسدسه في سكون بجواره •• فقد قدر ان مسدسه لاغناء فيه ، فضلا عن ان عشرات المدافع والبنادق تصوب فوهاتها للجاسوس وزميله•

وبدت في عيني ابلر الدهشة والتساؤل •• وقدر ان تكون هذه مناورة غادرة من الرجل الغامض الذي أسمى نفسه من قبل عامر بك الصعيدي ••

سكت ابلر ولم يجب •• ولكن بدا عليه انه مستعد لان يسمع •

وقفز قلب سمسون فرحا بهذه البادرة التي بانت معالمها على الوجوه ولم تعبر عنها الالفاظ ••

وأسرع سمسون يتابع هذه المعركة النفسية في حذر لان أية غلطة قد تؤدي الى كارثة •• قال في نفس الهدوء ••

طلبت ايفيت ان أبلغك شيئا •• وليس هناك تعبير تصف فيه ما حل بابلر عندما تلقى هذه الصفعة الهائلة الا التعبير الشائع «ركبته العفاريت» ••

تطاير الشرر من عينيه واستبد به غضب هائل ••

اذن هي ايفيت التي وشت به •

اذن كان مخطئا عندما هم مرتين في الليلة الماضية بقتلها •• مرة بالسكين • واخرى بالمسدس ، ولكنها خدعته عن حقيقتها بكلامها الناعم ، ونعمتها الفاترة ، وأنوثتها الطاغية •

وتذكر موقفه منها وكيف انه هم ، ثم احجم •• وكان احجامه عن القضاء عليها هو الذي ساقه الى هذه النهاية التي وصل اليها ••

كانت يداه أعلى ، وواحدة تقبض على القنبلة اليدوية ويكاد يحطم أظافره فيها •• ولم يملك الا ان يضع شفته السفلى تحت أسنانه ويضغط عليها غيظا حتى كاد يدميها ••

وأدرك سمسون ان خطته نجحت •• وأن قمة الخطر في الموقف أخذت تتضاءل ، وان كل ما عليه الان هو أن يقنع ابلر بأن يسلم القنبلة ، فلعله يرفع صمامها ، ولعلها معدة الآن للانفجار •

زمجر ابلر في كلمة أوهمه وكأنه يريد ان يسمع تلك الرسالة ••

قال له سمسون :

ــ لماذا لا تترك ما في يدك ثم تتكلم ••؟

وتردد ابلر قليلا ..

وتلفت سمسون حوله ، فلمح كتابا فوق جهاز الراديو ..

ايه .. انه قصة « ربيكا » .. وتبسم تبسما خفيفا .. تذكر الاحاديث التي دارت بينه وبين زميله روبي حول هذا الكتاب ، وكيف جال في ذهنهم جميعا ، انه قد يكون مفتاح شفرة هامة .. وتذكر الجهود الضخمة التي بذلت لحمل الاسيرين الالمانيين اللذين وقعا في قبضة النوزيلنديين من أسبوعين على الكلام ولكن بغير فائدة ..

* اذن هنا كنز المعلومات ..
* اذن هنا مفتاح سر كبير تجب المحافظة عليه .
* اذن كانت تعليمات رؤسائه له تستند على أساس .

الحالة .. في الجبهة :

ان المعلومات التي كان يريدها الجيش الثامن تختلف عن المعلومات التي ارسل روميل جاسيوسيه لاستطلاعها .

فلم يكن يهم الجيش الثامن ان يعلم من قائد الفيلق الافريقي ، لانه كان معروفا للدنيا كلها .. أما القوات البريطانية ، فقد عزل منقيادتها (ريتشي) بعد هزيمته المدوية ، ولم يكن حتى هذه اللحظة قد اختير من يحل محله ، وان كان الجنرال أوكنلك قد تولى قيادة الجيش الثامن مؤقتا الى جانب القيادة العامة . وكان الجناح الايسر للجيش الثامن قد احتل المنطقة من هضبة الرويسات الى منخفض القطارة . وكان السؤال هو : هل يضرب روميل ضربته في هذا القطاع ، أم يحاول شق طريقه الى الاسكندرية من المنطقة الساحلية ؟

كان الميجور فريدي دي بتس ضابط المخابرات في هذا القطاع يتوقع ان يكون الهجوم في منطقته مندفعا نحو الحميمات حيث تعسكر الفرقة السابعة المدرعة والفرقة النيوزيلندية ..

وكان لا بد من تأييد هذا التقدير والا ماعت المعركة أو ضاعت .

فماذا يمكن ان تقدم العوامة لهذا كله ؟

ان سمسون يستطيع الآن أن يجيب على هذا السؤال .

كان قد مضى على هذا الموقف بعض الوقت دقيقة أو نحوها وسمع

ابلر وراءه حركة اقدام لعله ادرك منها شيئا .. فنظر وراءه ثم تبسم ابتسامة عريضة وقال للميجور سمسون :

ـ حسنا يا عمر بك .. سأضع القنبلة التي في يدي ولكنني أحذرك..

ووضع ابلر القنبلة على المنضدة القريبة وسمع صوتا خشنا يقول :

ـ ارفع يديك .. لا تتحرك .

وسأله سمسون :

ـ تحذر من ماذا ؟

ـ من القنبلة .. فارغة ..

وعاود ابلر مرحه ونسي حركة التهجم والانقباض التي كست وجهه من دقيقة ثم نظر الى مونكاستر الذي سمع خطواته ومن ورائه جاويش يصوب مدفعه التومي .

ونظر ابلر الى زميله الالماني وتبادلا الابتسام .

قال سمسون :

ـ هيا .. يا حسين افندي ..

واصدر الميجور أوامره الى أعوانه قائلا :

ـ فتشوا العوامة جيدا .. مشطوها كما يمشط شعر الرأس .. لا تتركوا شيئا ..

ورد عليه ضابط شاب :

ـ بل كما تقتنص الشبكة كل شيء ..

وسمعت ضحكة من ابلر وصاحبه حيرت سمسون .. وهو ينزل بهما من سلم العوامة ويخطو الى الرصيف ..

ووقف بعض السفرجية ينظرون في دهشة الى هذا المنظر .. وصاح أحدهم :

ـ حاسبوا .. العوامة مالت في النيل ..

وتابع ابلر ضحكة المرح .. وزاد وجه حراسه اكفهرارا وغيظا ..

كانت العوامة تميل على جنبها في الماء .. لقد نجح مونكاستر في فتح ثقوب بقاعها قبل ان يعثر عليه الجاويش الانجليزي وتدفق الماء وبدأت السفينة الصغيرة تغوص وركابها من الانجليز الان يقفزون منها في الوحل

القريب من الشاطيء وقد بدا منظرهم مضحكا وقد كساهم الماء والطين •
وصاح سمسون :
ــ يوجد كتاب •• قصة اسمها ربيكا انتشلوها من الماء فورا ••
وفي احدى سيارات الجيب جلس ابلروفي سيارة تالية جلس مونكاستر واندفعت القافلة الى السجن الحربي في المعادي ••

المؤلف •• المكروه :

ودق جرس التليفون في أحد مكاتب المخابرات البريطانية •• قال سمسون :
ــ هالو روبي •• لقد اصطدنا الجاسوسين الالمانيين •• ووجدت شيئا يهمك •
ــ ماذا ؟
ــ نسخة من قصة دافن دي موريه •
ــ ربيكا ••؟
ــ بكل تأكيد
ــ وهل وجدت فيها اشارات أو علامات ؟
ــ لا •• انها ما تزال في الماء ••
ــ أي ماء تعني ؟
ــ لقد أغرق الشيطانان العوامة التي كانا فيها ولكنني لمحت القصة • وأمرت بانتشالها وقد تأكد الآن ان هذا الكتاب يحوي الشفرة السرية التي كان يتصل الجاسوسان بها من قيادتهما ••
ــ ولكن لا بد لنا من عمل كثير •• ان موعد الاتصال عن طريق هذه الشفرة هو منتصف الليل •• انها ساعات قليلة يجب ان نكشف اثناءها سر الشفرة قبل ان تعود محطة « الابوير » (البوليس السري الالماني) الى الارسال ••
قال روبي :
ــ عندما تنتهي هذه القضية فسأقول رأيي صراحة في المؤلف دي موريه •• سأقول اني لن اقرأ له سطرا بعد اليوم •• فقد راجعت قصة ربيكا أكثر من خمسين مرة حتى حفظتها عن ظهر قلب •

المفتاح الثاني •• وكان هناك مفتاح ثان للشفرة السرية غير قصة ربيكا •• هذا المفتاح هو أن يتكلم ابلر أو زميله ••

وهو أمل ضعيف وتحقيقه في وقت قصير يبدو غاية في الصعوبة ولكن محاولة يجب أن تتم على أية حال ••

والوسيلة المعروفة ، ما دام هناك أسيران هي أن يحاول ضباط الاستجواب اللعب على الحبلين •• الشراء من واحد والبيع للاخر ••

وبدأ استجواب ابلر •• فقد كان فخورا معتدا بنفسه •• ومن هذا النوع يمكن استدراجه • وكان رده بسيطا متعاليا •• قال :

ـ دعونا من هذا الاسلوب ياسادة هيا بنا الى الساحة القريبة وأعدوا فرقة اطلاق النار • ان هذا هو كل الصلة بيني وبينكم •• ولكن اذا حسبتم اني سوف أقول شيئا • فهذا وهم ، ان الجستابو نفسه لن يتمكن من ارغامي على الكلام ••

قال له أحد الضباط :

ـ نحن قوم مهذبون كما ترى •• في وسعك ان تعتمد على هذا وتقول لنا ••

وقبل أن يتم الضابط سؤاله سمع ضوضاء في الممر القريب وأقبل جندي همس في أذنه بكلمات وهنا قال ابلر :

ـ لا داعي للهمس •• اني اعرف ما حدث • لن تستطيع ان تلعب اللعبة المعروفة •• لقد أدى زميلي واجبه •• وما حدثهو ان بيترمونكاستر ما أن انفرد بنفسه في زنزانته حتى أخرج الموسى من بطانة جاكتته وقطع شريانا في معصمه وآخر في عنقه وتدفق منه الدم ••

وأسرعوا بالشاب المنتحر بعد اسعافه الى المستشفى ••

وكان لابد من السرعة في كل اتجاه •• حضر الفنيون وبذلوا جهودا كبيرة حتى أفرغوا الماء من جوف العوامة الغارقة ورفعوها الى السطح مرة أخرى ••

وانتشلوا قبل كل شيء قصة ربيكا ••

ثم اهتدوا الى محطة الارسال السرية في مخبئها المعروف وتسلمها رجال اللاسلكي لمنع الماء عنها وجاءت تقارير أخرى الى مكتب سمسون •

جاءه انه أمكن عن طريق البوليس المصري العثور على حسن جعفر الاخ غير الشقيق لابلر أخيه من أمه واعتقل •

وجاءه ان والدة ابلر اعتقلت أيضا ••

وضبطت حقيبة النقود الاسترلينية وكان فيها مبلغ كبير لم يصرف وهو نصف المبلغ تقريبا أي حوالي ٤٠ ألف جنيه•كما ضبطت ملابس ضباط انجليز كانوا يرتدونها ••

وكان لا بد من التعاون مع البوليس المصري لتوسيع شبكة البحث قبل ان ينتصف الليل ••

ان ما كان باقيا على ساعةالصفر الجديدة وهي ساعةالرسالةاللاسلكية بين محطة القاهرة السرية ومحطة الابوير الالمانية هو ١٦ ساعة اخذت تتناقص وتتضاءل ••

وأخذ القلم السياسي برياسة (سليم زكي) يعمل في همة كبيرة ••

انطلق ضباطه الى الاماكن التي كان ابلر يتردد عليها • بعد ان عرف اسمه المصري وهو حسين جعفر•سئل عنه الجرسونات في فنادق الكونتيننتال وشبرد والمتروبوليتان والكيت كات وغيرها ••

أمكن العثور على الشاب اليهودي « البير » الذي كان يبدل له العملة من رئيس الخدم في فندق الكونتيننتال واسمه « روس » ••

وبعد استجواب سريع عن اصدقاء وصديقات ابلر ذكر البير اسم حكمت فهمي وايفيت •• أما حكمت فقد ذهب اليها اليوزباشي امام وقبض عليها وقيل له ان يترك ايفيت العاملة بقسم استقبال الملابس •

وهناك امام سرير في أحد المستشفيات كان طبيب تساعده ممرضة يحقن ذراع مريض عفر وجهه بصفرة الموت ويعطيه كمية من الدم •

ووقف وراء الطبيب ضابط بريطاني ••

قال الضابط في لهجة الملهوف :

ـ هل يمكنه ان يتكلم ؟

ـ الآن لا ••

ـ ولكن الوقت مهم جدا بالنسبة لنا •• لماذا لا تعمل شيئا ••

ـ انه يحتضر •• ونبذل جهدنا لانقاذه ••

ألا ترى اننا في حاجة اليه •• ان الوقت قصير جدا ••

وهز الطبيب كتفيه •• ولم يقل شيئا فان لهفة المخابرات ، لا تقابل منه ولا من مريضه بالترحاب الكافي ••

وفي الساعة الحادية عشرة كانت أعصاب سمسون قد أفلتت منه فان منتصف الليل قد اقترب ولا بد ان الرسالة الرمزية من مقر قيادة روميل سوف تأتي بعد ساعة واحدة •• ولن تجد ردا وبذا تضيع أثمن فرصة في تاريخ الحروب وهي ان تأخذ من العدو وتعطيه ما يضلله ••

نترك الجاسوس ابلر يتحدى في سجن حلوان مخابرات الجيش البريطاني ••

ونترك زميله الجاسوس الامباشي اللاسلكي مونكاستر في المستشفى وأطباء الجيش البريطاني يحاولون انقاذ حياته بعد أن قطع شرايين معصمه ورقبته ••

لقد كانت حياته ثمينة في ذلك الوقت ••

نترك هؤلاء لنلقي نظرة فاحصة على الموقف السياسي بين مصر وانجلترا ، وهو الموقف الذي سمح بان يهاجم البوليس الحربي الانجليزي عوامة في بلاد مصرية دون اذن من السلطات المصرية •

ولكي نصل الى هذا الموقف المتدهور في تفسير السيادة المصرية ومداها ، نعود قليلا الى الوراء •• الى الايام التي أعلنت فيها الحرب •

كان للانجليز طلبات من وزارة محمد محمود رفضت ••

وكان لحكومة علي ماهر التي تلتها طلبات من الانجليز •• رفضت •

* * *

هاجم البوليس الحربي البريطاني وضباط المخابرات والانجليز عوامة العجوزة التي تقع في ماء النيل ، وداخل عاصمة مصر ، دون أن يأخذوا اذنا من السلطات المصرية ••

وفي أثناء تتبع هذه القضية لم تحط ادارة الامن العام المصرية بأي شيء من اجراءاتها •

ترى هل كان الانجليز يشكون في استجابة الجهاز البوليسي المصري لهم ؟

هذه مسألة لم تخطر على البال ، وقد كان لهم في وزارة الداخلية وكيلها المرحوم حسن رفعت الذي كان موضع ثقة كبيرة منهم .. كما كان لهم فوق هذا رياسات متتابعة في البوليس المصري تبدأ ببعض الحكمداريين في بوليس القاهرة والاسكندرية وبورسعيد وتتدرج الى رتب أخرى .

ان معرفة العقلية الانجليزية في أثناء الحروب ، ومعرفة الطرق التي يستغلون بها معاهداتهم الثنائية أو احلافهم ... ان الرجوع الى هذا التاريخ القريب أمر بالغ الاهمية .

فنحن اليوم نعيش في عصر يشبه العصر الذي هاجمت فيه ايطاليا الحبشة ، وعقدت فيه معاهدة سنة ٣٦ ..

كان الفرق بين الوقتين هو ٢٠ سنة وهو الدرس الكبير الذي أخذته مصر من ايام « المعاهدة » .. وأيام البعثة العسكرية البريطانية .. وأيام الحكم الانجليزي في وزارة الداخلية بأسماء مصرية والحكم الانجليزي في البوليس المصري بأسماء انجليزية ومصرية .

ان الذين ينادون اليوم بالحياد الايجابي لا في مصر ولكن في الشرق الاوسط ، لا بد انهم وقفوا على كثير من التفاصيل التي صاحبت المعاهدة الثنائية مع مصر والتي تعطي لمصر استقلالا تاما في مادتها الاولى ..

ان صراع المصريين الشرفاء مع السلطات البريطانية هو حرب قائمة بذاتها .. واستسلام بعض المصريين في بعض الاحيان هو هزيمة منكرة .. وليس كالحرب وأزماتها ما يشهد على حقيقة هذه المواقف ..

الانجليز .. ومصر في سنة ١٩٣٨ :

في سنة ١٩٣٨ كانت انجلترا تمهد للحرب العالمية الثانية ، وتحاول ان تعطي مسكنا للحرب بمفاوضتهم حول مستقبل فلسطين في لندن، وتحاول أن تحصل من الحكومة المصرية على ردود عن نقطة حيوية تهمها اذا قامت الحرب . .

وجهت الحكومة الانجليزية عن طريق سفيرها في مصر ما يلز لمبسون اسئلة معينة في سنة ١٩٣٨ ، وكان يرأس الحكومة المصرية وقتها المرحوم محمد محمود .

وجه الانجليز لمصر في ذلك الوقت سؤالين :

* هل تحارب مصر مع انجلترا اذا دخلت انجلترا الحرب ؟
* هل يمكن تعيين حكام عسكريين من الانجليز في العواصم المصرية ؟ ولم يضيع محمد محمود وقته في بحث هذه الطلبات فقد رفضها •• وفي سنة ١٩٣٩ استقال محمد محمود ، وتولى علي ماهر الوزارة ••

وفي أيامه أعلنت الحرب ، في أواخر ذلك العام ••

وجاء السفير البريطاني الى القاهرة على الفور ، وكان وقتها في لندن •• جاء ليواجه بموقف غريب ، هو احالة (أمين عثمان) الى المعاش ، وكان وقتها وكيلا لوزارة المالية •

وكان السبب المباشر الذي أحيل أمين عثمان من أجله الى المعاش ، هو تجاوزه السلطة كوكيل للمالية وتعاقده على صفقات ليست من اختصاصه • ولا من اختصاص الوزير ولكن لا بد فيها من الرجوع الى مجلس الوزراء • واستصدار قرار منه في هذا الموضوع •

وأمين عثمان كان قد وثق صلاته بدار السفارة البريطانية وكان يحس عندما أقدم على تجاوز اختصاصه بهذه الصورة أنه حماية أو انه بدأ ينشيء دولة داخل الدولة •

واجتمع مجلس الوزراء برياسة علي ماهر وأصدر قرارا بفصل أمين عثمان •

وجن جنون السفارة ، ووجد السفير ما يلز لمبسون فور عودته ، انه بازاء قرار نفذ فعلا ، فاتخذ من الوزارة ورئيسها موقفا فيه مغاضبة وتحد واضح •

ولكن الحرب كانت قد أعلنت بين انجلترا والمانيا ، وكان السفير مزودا بتعليمات من بلاده ، وكان فصل أمين عثمان لا يساوي أزمة بجانب الموقف الجديد •• ولذا أجله السفير الى حين •

وعندما قابل رئيس الوزارة لاول مرة ، أثار مسائل عامة ومن ضمنها مسألة اعلان الحرب •

كان مايلز لمبسون يرى شيئا بديهيا ان تعلن مصر الحرب الى جانب انجلترا ، وكان يتوقع ان يحصل على رد رئيس الوزارة في هذه المقابلة ••

ولكن علي ماهر قال له :

ـــ هذه مسألة يبحثها مجلس الوزراء أولا ، قبل أن يبدي فيهـــا رئيس المجلس رأيه ••

قال لي الرئيس السابق علي ماهر ، وهو يتحدث عن هذه الذكريات:

كان من رأيي ان ندرس هذا الموضوع في مجلس الوزراء وان نقلبه على جميع النواحي ، وان يكون قرار المجلس فيه هو المصـــدر الاول في الحكم وعلى رئيس الوزارة أن يحتفظ برأيـــه الى النهاية • لا يبديـــه للمجلس ، ويطلع على جميع التيارات ، ومن باب أولى لا يبديه للسفــير البريطاني الذي حسب انها مسألة مفروغ منها •

وعندما عرض هذا الموضوع ـــ موضوع اعلان مصر للحرب ـــ تبين لرئيس الوزراء أن هناك ثلاثة تيارات :

- تيار ضد الحرب •
- وتيار مع اعلان الحرب •
- وتيار متردد ، لم يتخذ بعد رأيا ••

ورأى علي ماهر أن يبدأ فيكسب الى جانب عدم اعلان الحـــرب ، الفريق المتردد •• كان المترددون يسألون : هل سنكسب من انجلترا شيئا اذا دخلنا معها الحرب ؟ وكانت الاحـــلام باقتسام المغانم مـــع انجلترا اذا انتصرت ••• تراود هذا الفريق ••

*** * ***

ودعا رئيس الوزراء السفير البريطاني ما يلز لمبسون ، ووجه اليـــه سؤالا مباشرا في هذا الموضوع •• قال :

ـــ هل أنتم على استعداد لالغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ وانشاء علاقـــة جديدة مع مصر ؟

قال السفير :

ـــ اية علاقة جديدة تعني ؟

رد رئيس الوزراء :

ـــ علاقة الدول غير المقيدة بأي قيد •

ودهش السفير لهذا الطلب ، وأخذ يراجع ويستفسر ، حتى تأكد من أن علي ماهر يعني ، ما يقول ..

وعندما هم السفير بالانصراف ، قال :

ــ سأرجع الى حكومتي وأحصل منها على الرد الذي تريد ..

ــ وبعد يومين عاد السفير ، برد لندن ، وكانهذا الرد هو أنحكومته لا تستطيع أن تعد بشيء مقابل دخول مصر الحرب .

وطلب رئيس الوزراء مزيدا من الايضاح ، فقال السفير :

ــان حكومتي تخشى اذا هي وعدت مصر بشيء أن يقع ما وقــع في فلسطين ، عندما ارتبط اللورد بلفور مع الشريف حسين بارتباطات ظلــت السياسة تدور حولها منذ ذلك الوقت وأوقعت انجلترا في مآزق متتالية ..

وهنا قال رئيس الوزراء للسفير ..

ــ وهل تظن اننا نطلب من انجلترا وعودا ؟

.. نحن لا نطلب وعودا ..

ــ ماذا تطلبون اذن ؟

ــ نعقد معاهدة تلغي معاهدة سنة ١٩٣٦ ، وتتعاون معاونة الانــداد والمصلحة هي الحكم في المعاهدة .

فرد السفير في ايجاز :

ــ هذا غير ممكن ..

وكان الرد هو ما توقعه الدكتور علي ماهر ، فجمع فريق المترددين وأخبرهم بما دار بينه وبين السفير ، واذا بهم ينضمون الى فريق المعارضة .. المعارضة في دخول الحرب .

بقي فريق المحاربين ..

ورأي آخر .. رأي القانونيين الرسميين في تفسير المعــاهدة وكانت فتواهم تقضي على مصر بدخول الحرب ..

ترى كيف سار الامر مع هذا الفريق ، وكيف دارت مداولاتهم .. ثم ما موقف الوزراء ..؟

جهات النفوذ التي كانت تسود مصر في اثناء الحرب كثيرة ، أهمهــا

القصر والانجليز والوزارة الحاكمة ، ولكل جهة جهاز للتحري يستعمل فيه مرشدون من الكبار والصغار •

هكذا كانت طبيعة الدولة المحكومة المقيدة بالمعاهدات والنفوذ الاجنبي ••

كيف كانت تعمل هذه الاجهزة ، وما مدى الصواب والخطأ في تقاريرها ••؟

هذا سؤال يمكن اليوم ان نجيب عنه بعد أن خلصنا البلاد من كل هذا •

أجاب السفير البريطاني بلسان حكومته على أسئلة مصر ، بكلمة واحدة • وهي : لا ••

وكانت هذه الاسئلة تدور حول معنى واحد وهو نصيب مصر اذا ما دخلت الحرب ••

وكان رئيس الوزراء اذ ذاك الدكتور علي ماهر يفكر في الغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ •

وهذا الرد وحده يكفي لان يقنع المترددين من الوزراء في التزام الحياد ، لان التردد لن يكسب البلاد شيئا ••

ترى من كان الوزراء المترددون • ومن كان الوزراء الذين رفضوا من أول الامر دخول الحرب ؟

علمت ان الوزيرين صالح حرب ومصطفى الشوربجي كانا يتزعمان فكرة الامتناع عن دخول الحرب ••

وكان عبد الرحمن عزام يرى التفاهم للحصول على مكاسب من الانجليز ••

أما الوزيران اللذان كانا يريان الاشتراك في الحرب ضرورة فهما المرحوم محمود فهمي النقراشي ــ عن حزبه ــ والمهندس حسين سري •

ولم يجد الدكتور علي ماهر الفرصة متاحة له ليقنع المحايدين فقط ، بل تمكن أيضا من أن يقنع فريق مؤيدي دخول الحرب بالتزام هذا الرأي المضاد • مادام رد الانجليز كان بهذا الجفاء ، وهذا القطع ••!

ورأى هذا الفريق أن ينضم الى الاجماع ، على أن ينتهز فرصة في

المستقبل لتجديد المسعى عند الانجليز ، عسى أن يحققوا لمصر مطالبها اذا رأوا مصلحة في دخول الحرب •

كيف ابلغ القصر •• ؟

كان فاروق يريد أن يعرف رأي مجلس الوزراء في موضوع اعلان الحرب • فكلف الديوان بالنيابة طلعت باشا بأن يقدم له مذكرة عن مداولات مجلس الوزراء •

وفي صباح اليوم التالي لاجتماع المجلس (٨ سبتمبر سنة ١٩٣٩) بعث رئيس الديوان مذكرة خطية الى البولك ـ أي جناح فاروق ـ وهذا نصها :

(مذكرة سرية)

بعد ان انتهى مجلس الوزراء بالامس من نظر المسائل المعروضة في جدول أعمال الجلسة نظر في موضوع : هل تعلن مصر حالة الحرب بينها وبين ألمانيا أم تكتفي بما تم الى الآن من قطع العلاقات واعلان الاحكام العرفية ••

وانقسم الوزراء الى آراء مختلفة :

فمصطفى الشوربجي بك وزير العدل يرى ان ماتم فوق الكفاية وان المعاهدة لا تلزمنا بشيء أكثر من ذلك وليس لمصر شأن في الخلاف القائم الآن ••

وعبد الرحمن عزام بك وزير الاوقاف ورئيس القوات المرابطة مع موافقته لرأي الشوربجي بك يرى الانتظار على الاقل حتى يعود كل المصريين من الخارج وكذلك البواخر المصرية لان في رفعها العلم المصري حماية لها من كل سوء مادامت مصر ليست في حالة حرب مع أية دولة أخرى •

وفريق آخر (حسين باشا سري وعلوبة باشا وغيرهما) من رأيه انه ما دامت قد قطعت العلاقات مع المانيا وتكدر صفو هذه العلاقات فليس هناك داع للانتظار ويجب اعلان حالة الحرب لان مصر أصبح مصيرها معلقا بمصير انجلترا وما دامت انجلترا مسؤولة عن الدفاع عن مصر فيجب على مصر أن تسير جنبا الى جنب مع انجلترا ، وأما البواخر المصرية فانجلترا تحميها بأسطولها كما تحمي بواخرها سواء بسواء •

وذكر صالح حرب باشا وزير الدفاع ان الحكومة المصرية تلاقي صعوبات كثيرة في تفتيش البواخر المحايدة بسبب عدم اعلانها حالة الحرب .. وضرب مثلا بالباخرة الرومانية التي لم تقف للتفتيش الا بعد ان صوبت النار نحوها وهذه حالة شاذة بسبب الموقف الحالي وعدم اعلان حالة الحرب مع المانيا ..

وانضم رفعة الباشا الى هذا الفريق بتحفظ وهو انه اذا جاءه كتاب من السفير البريطاني باسم حكومته بأن اعلان حالة الحرب ضروري جدا لسلامة القوات البريطانية والمصرية وأنه لا يمكن الدفاع عن مصر بغير ذلك فعندئذ تقرر اعلان حالة الحرب .

وكلف رفعته الأستاذ كامل سليم السكرتير العام لمجلس الوزراء التوجه في الحال لمقابلة السفير البريطاني واحاطته علما بمختلف وجهات النظر في مجلس الوزراء في هذا الموضوع .

وقد توجه فعلا في منتصف ليل أمس وأفضى الى السفير بكل ما تقدم فسر السفير من ذلك سرورا عظيما وكلفه أن يشكر رفعة الباشا لاهتمامه بابلاغه ذلك في تلك الساعة المتأخرة دون الانتظار للصباح وأنه سيبلغ في الحال كل ذلك لحكومته وينتظر الجواب . ويرجح كثيرا ان يرد اليه الجواب المطلوب الليلة وعندئذ تعلن حالة الحرب بين مصر وألمانيا من صباح الغد .

هذا ما علمته من السكرتير العام لمجلس الوزراء اليوم . (٨سبتمبر سنة ١٩٣٩) .

* * *

وقد سألت في موضوعها الدكتور علي ماهر واللواء محمد صالح حرب، فنفيا البيانات التي جاءت فيها نفيا قاطعا ..

ويبدو ان سكرتير مجلس الوزراء ، استقى هذه المعلومات من بعض الوزراء الذين لم يعطوه صورة صحيحة عن الموقف ..

وذلك لان هذه المداولات بين الوزراء في جلساتهم المتتالية ، لم يكن يحضرها سكرتير مجلس الوزراء ..

وأكثر من هذا ، فلم تكتب عن هذه المناقشات أية محاضر ، ولا توجد

لها أصول مدونة في مجلس الوزراء ..
وعلى هذا جرت العادة في المداولات السياسية .
ويزيد اللواء (محمد صالح حرب) ، وزير الدفاع في ذلك الوقت ، أنه من غير المعقول ان يطلب وزير مسئول أن تنضم مصر الى حرب عالمية كبرى كالحرب الماضية لمجرد أنه يرغب في تسهيل تفتيش السفن المـارة بالقنـاة ..

مناطق النفوذ .. وكيف كانت تعمل ..

ويؤدي بنا هذا التحقيق التاريخي الى سؤال هام ، وهو :
كيف كانت جهات الحكم في مصر تستقي معلوماتها ..؟
كانت مصادر المعلومات تتبع النفوذ ..
فللقصر بوليس خاص . يتلقى التقارير من مرشدين يتبعونه مباشرة، الى جانب تقارير من الجهات الرسمية .
وكان من مرشدي القصر وزراء في الحكـم ووزراء خارج الحكـم وموظفون كبار وغير ذلك .
وللسفارة البريطانية مخابراتها الخاصة بها ، الى جانب عيونها فيوزارة الداخلية .. وبين كبار الموظفين الذين تحميهم في كل وقت ومناسبة ..
ولوزارة الداخلية جهازان للتحري .. أحدهما القسم المخصوص ، والثاني القسم السياسي بحكمدارية القاهرة ..
والقسم المخصوص ، جهاز بالغوا في سريته وتكتم وجوده .. حتى ان رئيسه في أيام الحرب ، واسمه السيد فتحي رضوان وزير الارشـاد بعد ذلك دهش اذ يكون من بين رؤساء الداخلية صاحب هذا الاسم ..
وقد سر مختار خليل جدا من هذه الدهشة التي أبداها سياسي وطني معروف .. سر لانه يعتقد ان واجب رجل المخابرات الاول هو أن يكـون مجهـولا ..
وكان الساعد الايمن لمختار خليل ضابطا آخر وصل فيما بعد الـى رتبة اللواء وحل محله هو اللواء عمر حسن .
هذا الجهاز كان يغذي الوزارة القائمة والقصر والسفارة بما يريدون من انباء ويتتبع لحسابه الخاص القضايا السياسية والوطنية ، وهذا غـير

أجهزة التتبع والتحري الاخرى الموجودة في الدولة .

وهذا القسم « المخصوص » هو ميراث وزارة الداخلية من فليبدس في الحرب العالمية الاولى .. فليبدس الذي صنع معظم القضايا السياسية في حركة ١٩١٩ وما بعدها .

.. ولكن ، هل كانت مصادر هذه التقارير المهتزة هي وحدها التي تحكم البلاد ..؟

لا .. كانت هناك قوة اخرى اكثر صولة وجولة ..

تمكن الدكتور علي ماهر من أن يقنع الراغبين في دخول الحرب من وزرائه بالعدول عن هذا الرأي ..

قال لهم : اننا اذا اتخذنا قرارا بدخول الحرب وظهر في المستقبل ان هذا القرار كان خطأ استحال علينا ان نرجع عنه .. اما اذا تمهلنا وتبينا في المستقبل وجه المصلحة في الانضمام الى الانجليز ، فالباب مفتوح ..

واقنعت هذه الحجة الوزراء الراغبين في الحرب ، فعدلوا . أو أجلوا التمسك برأيهم ، وصدر قرار مجلس الوزراء بأن تلتزم مصر الحياد في الحرب بين انجلترا والمانيا ..

وأخطر السفير البريطاني بقرار الحكومة الماهرية ، وهو ان مصر لن تدخل الحرب ضد المانيا ..

وكان القصر قد اخطر ايضا بهذا القرار ، وانه صدر باجماع آراء الوزراء ، ونقله (عبد الوهاب طلعت) رئيس الديوان بالنيابة للملك ..وجاء الرد على الفور بأن الملك مع الوزارة في هذا القرار .

وقد فوجيء بهذا القرار اثنان ..

الدكتور عبد الحميد بدوي المستشار الملكي لرئاسة الوزارة .

والسفير الالماني في القاهرة .

أما رأي الدكتور بدوي ــ الرأي القانوني ــ فكان مع دخول الحرب ، اذ كان يرى أن المعاهدة توجبه ..

وعلي ماهر دكتور أيضا في القانون ، وأدى بحثه الى أن نصوص المعاهدة لا تتضمن نصا صريحا يوجب على مصر أن تحارب في صف انجلترا .. بل رأى في نصوص أخرى ما ينفي هذا الوجوب .. فهذا التفصيل الكثير

عن الطرق والموانيء والمرافق والامن وما الى ذلك من اجراءات تتبع عند الحرب لا يرد ، ولا يشرح هذا الشرح اذا كانت الدولة محاربة، وانما اتخذت هذه الاحتياطات والضمانات لان الذين صاغوا نصوص المعاهدة كان في حسابهم ان تكون انجلترا محاربة ، ومصر محايدة ..

فمصر المحاربة تعبيء كل قواتها ومرافقها لخدمة المجهود الحربي الذي يخصها هي ويعنيها قبل غيرها .

ولكن مصر المحايدة تعطي للشريك المحارب شيئا وتبقي لها شيئا ..

وانتصر التفسير القانوني لرئيس الوزراء ، وخذل التفسير الذي قدمه المستشار الملكي ..

* * *

أما برلين فكانت واثقة من أن مصر ستعلن الحرب عليها .. كانت تعلم مدى تسلط الانجليز على جهاز الحكم المصري ..

وقابل السفير الالماني في القاهرة رئيس الوزراء ، وقال له انه يبلغه باسم حكومته أنه اذا أعلنت مصر الحرب على ألمانيا ، فان المانيا لن تعلن الحرب على مصر تقديرا منها للظروف ..

وكانت هذه مجاملة طيبة من حكومة هتلر ..

وكانت مفاجأة لروبنتروب زيارة سفير مصر في بلاده السيد مراد سيد أحمد ..

فقد توقع وزير خارجية المانيا ، أن هذه الزيارة ستتلخص في ابلاغه قرار مصر باعلان الحرب ، فاذا بالسفير المصري يبلغه أن مصر قررت التزام الحياد ..

ودهش وزير الخارجية لهذا القرار وشكر مصر ، ووافق فورا على طلب السفير المصري بأن يسهل خروج المصريين من المانيا ، فقد رأت القاهرة اتخاذ هذا الاجراء احتياطا لظروف المستقبل .

وخرج المصريون من المانيا باستثناء مصري واحد يدير مقهى في برلين، رفض أن يترك عمله .

وبقيت هناك البعثة الدبلوماسية المصرية حتى تصدر لها أوامر .

وجاء دور الرعايا الالمان في مصر ..

أمرت الحكومة المصرية أن يخير أفرادها بين الخروج من مصر أو البقاء على أن يلتزموا جانب الهدوء التام ..

وأختار البعض الخروج ، وسهلت لهم اجراءات السفر ، وطلب البعض البقاء ، فأعدت لهم قوائم .. ورأى الانجليز هذه القوائم ، فطلبوا اعتقال اربعة من الباقين .. قالوا انهم من أكبر خبراء الالمان في قيادة الغواصات .. ونفذوا أمر اعتقالهم .

احتجت الحكومة المصرية على الانجليز ورأت هذا تصرفا غير نظيف من الانجليز ..

ورد الالمان على اعتقال هؤلاء الخبراء بأن قبضوا على بعض المصريين عندهم .

فكان هذا التصرف مخالفا لروح التفاهم التي سادت بين برلين والقاهرة في هذا الوقت .. كان تصرفا عصبيا من حكومة هتلر ، ودل على أن هؤلاء الاربعة من خبراء الغواصات كانوا فعلا ذوي أهمية خاصة .

واستشاط علي ماهر غضبا ، وذهب فاعلن في البرلمان أن كل مصري يقبض عليه في المانيا سوف يرد عليه بالقبض على عشرة من الالمان في مصر ..

وحدث في هذه الاثناء أن مرت بقناة السويس سفينة انجليزية عليها ثمانية من القناصل الالمان كان الانجليز يريدون المبادلة عليهم بدبلوماسيين من الانجليز ..

أمرت الحكومة المصرية بتفتيش السفينة وانزال القناصل الثمانية من عليها ..

وأصرت على ألا يفرج عنهم أو يسمح لهم باستئناف السفر الا اذا أفرج الالمان عن المصريين الذين اعتقلوهم .

ولم تجد حكومة برلين بدا من الافراج عن المصريين ، وعن الانجليز الذين كانت ستتم عليهم المبادلة ..

رئيس الوزراء والسفير ..

لم تكن مصر وحدها هي التي تمارس سياسة الحياد في تلك الحرب، وبالقدر الذي تسمح به الظروف .. ولكن كانت تشاركها دول أخرى في هذا الموقف هي يوغوسلافيا وتركيا واليونان وسويسرا ..

وكانت العلاقة بين مصر واليونان قوية ، وكان رئيسا الوزارتين مانكساس في اثينا ، وعلي ماهر في القاهرة يتبادلان المعلومات ويتشاوران في كثير من المواقف .

وكان سفير اليونان في مصر « المسيو كاتسفليس » من أكثرالسفراء نشاطا في التردد على رياسة الوزراء ووزارة الخارجية ..

وقد ارتاحت اليونان كثيرا لموقف مصر من الحرب ، وسارت على نفس الخطى .

وكان في هذا مافيه من ازعاج للانجليز ..

ولم يكن ينقص السفير السبب ليكون شديد القلق والضيق بحكومة (علي ماهر) .

وزاد على الموقف العام موقف خاص ، هو انه كان اذا استدعي السفير لمقابلته يطلب منه ان يصحب معه الجنرال ويفل أو الجنرال ويلسن أو هما معا .

قلت للدكتور علي ماهر :

ـ هذه الظاهرة تكررت كثيرا .. المقابلة مع السفير وبصحبته القواد .. ما سببها ؟ قال :

ـ لم أكن أثق في هذا الرجل مايلز لمبسون وكنت أعلم أنه كثيرا ما يحرف الكلام ، وينكر الوقائع ، ولهذا كنت احرص على أن تكون أحاديثي معه بحضور القائد العسكري ، فالعسكريون أصدق من سياسي محترف لا يمتنع عن الكذب في بعض الاحيان .

وحدث مرة ان زار السفير البريطاني رئيس الوزراء ، وكان بصحبته القائد البريطاني حسب مأثور العادة ، وفجأه الدكتور علي ماهر بقوله : لدينا بيانات صحيحة عن قرب دخول ايطاليا الحرب ضدكم في جانب الالمان ..

فهب السفير واقفا وقال :

ـ هذا غير ممكن ، بياناتنا مؤكدة ان ايطاليا لن تدخل الحرب ، لقد تلقيت أمس من سفيرنا برسي لورين تقريرا أن ايطاليا سوف تستمر في موقفها الحالي .

فأكد رئيس الوزراء للسفير الهائج صحة معلوماته . وكان قد تلقاها من أكثر من مصدر أحدها سفير مصر في روما .

قال علي ماهر لزائريه :

ـــ على كل حال سوف تتخذ الحكومة المصرية الاحتياطات الواجبة..

فلدينا في مصر ٧٠ ألف ايطالي منهم ١٢ ألف في سن الخدمة العسكرية .. سأل السفير :

ـــ طبعا ستقبضون عليهم اذا دخلت ايطاليا الحرب كما تقولون .. والجيش البريطاني مستعد للقيام بهذه المهمة ..

ـــ لا .. لن نحتاج الى الجيش البريطاني أو المصري ..

ـــ لماذا ..؟

ـــ لاننا سننزع سلاحهم أولا .

ـــ ومن الذي سيقوم بنزع سلاح هذا العدد الكبير ..؟

ـــ البوليس المصري ..

ـــ غريبة ..!

ـــ لا شيء غريب في هذا .. ان ما سنفعله هو أن نصدر أمرا عسكريا بأن يقدم كل اجنبي في البلاد سلاحه .. ثم تقوم قوات الامن بتفتيش الاجانب جميعا وعلى رأسهم الايطاليون .. وهنا قال السفير :

ـــ ماذا تقصد بالاجانب جميعا ؟

ـــ الانجليز والفرنسيون والاروام وغيرهم ..

ـــ وهنا قال السفير وهو في دهشة بالغة :

ـــ هل سمعتك تقول الانجليز يفتشون ؟

ـــ أجل .. أظنك لا تعترض على تفتيش اثنين من كل جنسية حتى تتمكن من تنفيذ خطتنا بسهولة .

وخرج السفير وهو يهز رأسه :

وكانت امام علي ماهر مشكلة أخرى وهي بعض الايطاليين الذين يعملون في القصر ، وأهمهم فيروتشي مهندس القصور . وكان فيروتشي صديقا لفاروق ولابيه من قبله . وقد دعاه رئيس الوزراء ونصحه بأن يسافر الى بلاده ، في اجازة ، وهو مستعد لاعطائه جواز السفر فورا ،دهش

فيروتشي ، ورفض السفر اذ ليس لديه ما يبرره فنصحه علي ماهر بـأن يذهب الى سفيره في مصر ، ويتداول معه في صواب السفر بالاجازة الآن .

وذهب فيروتشي الى السفير ثم عاد فورا يطلب جواز سفره .

وفهم علي ماهر .. فقد أكد له هذا الاختبار غير المباشر للموقف أن ايطاليا قررت دخول الحرب .

دعا رئيس الوزراء السير ما يلز لمبسون ومعه قواد الجيش البريطاني حسب المألوف وروى لهم موضوع فيروتشي كدليل جديد على قرب دخول ايطاليا الحرب .

وهنا هاج السفـير البريطاني محتجـا ، وأراد أن يستر إخفاقـه الدبلوماسي هو وبلاده في موضوع ايطاليا بقوله :

ـ ولكن كيف تصرحون لهذا المهندس بالسفر ، لماذا لم تقبضوا عليه. فقد ينضم الى فرق الباراشوت .

فوجه رئيس الوزراء الكلام للجنرال ولسن :

ـ ياجنرال ولسن .. كم سنك ؟

فدهش ولسن لهذا السؤال ولكنه أجاب قائلا :

ـ ٥٥ سنـة .

هل تستطيع أن تقفز بالباراشوت .

ـ غير معقول .

ـ طيب فيروتشي سنه سبعون سنة ..

ونظر رئيس الوزراء الى السفير الذي لازم الصمت .. وعقب الجنرال ولسن :

ـ اذا نزل فيروتشي بالباراشوت فانه سوف يتعثر في ذقنه ولـن يستطيع أن يخلصها من الحبل .

وكان من عادة وزير الخارجية «كان رئيس الوزراء هو وزير الخارجية» أن يقابل السفراء كل ثلاثاء .

وفي مقابلة الثلاثاء التالية للحوادث السابقة قدم السفير الايطـالي للزيارة المعتادة ، ودار الحديث حول الموقف الدولي فقال السفير :

ـ ان بلادنا مع السلام ، وهي ملتزمة حدوده بمنتهى الدقة .

وهنا بان الغضب على وجه الدكتور علي ماهر وقال له :

ــ أنا أفهم انك تخفي الحقائق التي لا تريد ذكرها ، ولكني لا أفهم ان تحرف الوقائع •• اني لا أسمح بهذا •

وبهت السفير الايطالي لهذا الرد ، واعتذر في كلمات قليلة وانصرف •

رسالة من الكونت شيانو :

وفي الاسبوع التالي قابل السفير الايطالي وزير خارجية مصر وقال له:

ــ لقد ابلغت ما دار بيننا من حديث للكونت شيانو ، وكلفني أن أقدم لك احتراماته وتحياته ، وأن اسألك سؤالا :

ــ اني مصغ اليك •

ــ اذا لم تهاجم ايطاليا مصر ، فهل تهاجم مصر ايطاليا ؟ فــرد عليه الدكتور علي ماهر :

ــ أبلغ الكونت شيانو ان مصر لن تهاجم ايطاليا •

ودعا رئيس الوزراء السفير البريطاني والجنرال وذكر لهما ما توفر لديه من أدلة لا تنقض على أن ايطاليا مزمعه دخول الحرب •• وقص عليهما مناقشاته مع السفير الايطالي ، ورسالة شيانو •

وهنا اعترض مايلز لمبسون على مأثور عادته :

ــ كيف تقول له أن مصر لن تهجم عليهم ؟

فرد رئيس الوزراء موجها الكلام للقائد :

ــ يا جنرال ولسن •• اذا كنت تنوي القيام بهجوم ، هل تخبر عدوك ؟

وحدث ما توقعته مصر وأعلنت ايطاليا الحرب •

وكان الاستعداد تاما للقبض على الايطاليين الذين هم في سن الخدمة العسكرية •• وتم ذلك في ساعتين بين الثانية والرابعة صباحا •

وقد ساعد على معرفة اماكن المطلوبين حملة التفتيش السابقة ولــم تفاجأ مصر بهذا الموقف • فقد اجتمع مجلس الوزراء واتخذ قراره المعروف في هذه الحالة الجديدة وكان هذا القرار بالاجماع ولم يحتــج الى وقت طويل ، ولا مجهود مثلما حدث عند مناقشة الموقف بالنسبة لالمانيا •وقضى قرار مجلس الوزراء بأن مصر لا تدخل الحرب ضد ايطاليا الا في ثــلاثة أحــوال :

١ ــ ضرب مواقع الجنود المصرية •
٢ ــ ضرب المدن المصرية •
٣ ــ التوغل في داخل البلاد مبتدئين من غير استفزاز •

وجاء السفير البريطاني ومعه القائد وتسلم قرار مجلس الوزراء وما ان اطلع عليه هو وزميله حتى سأل :

واذا ضرب الايطاليون مواقع الجنود البريطانيين ؟

الذين يساورهم أي شك في جدوى الحياد ، والابتعاد عن المحالفات وقيودها ، ينبغي ان يقرأوا هذه المذكرات مرتين ••

ان حكم الانجليز لمصر في ظل معاهدة « الشرف والاستقلال » كان أسوأ من حكمهم في أي مستعمرة من المستعمرات ••

ان قائمة الطلبات التي ظلت السفارة البريطانية تتقدم بها الى الحكومة المصرية ، تدل على ان كلمة السيادة لم تكن في قاموس العلاقات المصرية البريطانية عند الانجليز ••

لقد طلب الانجليز اعتقال السفراء وتفتيشهم وعدوا مصر خائنة تستحق التأديب لانها لم تهب للدفاع عنهم اذا ماهاجمتهم قوات المحور في أراضينا•

ان آخر مقابلة بين (مايلز لمبسون) والجنرال ولسن ورئيس الوزراء الدكتور علي ماهر تعطي اليوم درسا لمن تعوزه الدروس •• وهذا تاريخ قريب .. شهوده أحياء ، وان كانت وقائعه حجبت أكثر من خمسة عشر عاماً عن الناس ••

سأل السفير (ما يلز لمبسون) رئيس وزارة مصر الدكتور علي ماهر:

ــ اذا ضرب الايطاليون مواقع الانجليز في مصر ، فماذا يكون موقفكم ؟

وكان السفير قد فرغ على التو من تلاوة الشروط الثلاثة التي وضعتها الحكومة المصرية لدخول الحرب ضد ايطاليا ••

ورد علي ماهر :

ــ اذا ضرب الايطاليون مواقعكم فهذه مسألة تعنيكم ، ولا علاقة لنا بها •

تطاير الشرر من عيني السفير البريطاني ، وكاد يصاب بلوثة جنون

وهو ينهض واقفا ومعه القائد البريطاني ويندفع نحو الباب خارجا ••

وفي قـرار مجلس الوزراء ، وفي مقابلة السفـير البريطـاني لرئيس الوزراء ، ظهر من بين التعبيرات السياسية تعبير جديد هو تجنيب مصـر ويلات الحرب •

وأدرك الدكتور علي ماهران عمر وزارته أصبح قصيرا ، فأراد ان يجند الرأي العام وراء خطة انتهت اليها حكومته بالنسبة للانجليز ••

ذهب الى البرلمان وألقى بيانا عن الموقف السياسي قوبل فيالدقائق الخمس الاولى بحذر وفي الخمس التالية مال المجلس الى ما يسمـع •• وما أن انتهى البيان حتى كان الاعضاء شعلة من الحماسة استمر تصفيقهم خمس دقائق كاملة •

المعركة الاخيرة مع السفير :

وتأهب (علي ماهر) لسلسلة من الازمات والطلبـات غير المعقولـة يتقدم بها الانجليز رغبة في احراجه والتخلص منه •

طلب السفير البريطاني موعدا عاجلا لمقابلته •• فحدد رئيس الوزراء الموعد وطلب أن يحضر معه القائد البريطاني ••

وجاء السفير والقائد •• وقال لرئيس الوزراء ان له بعض مطـالب عاجلة هي :

ـ القبض على الوزير المفوض الايطالي في مصر وعدم السماح لـه بالخروج من البلاد •

ـ تفتيش المفوضية الايطالية ومصادرة أجهزة الارسال والاستقبال اللاسلكية الموجودة فيها •

ـ تفتيش جميع الايطاليين الذين يسمح لهم بالسفر قبل مغادرتهـم مصـر •

ـ عدم السماح لاي فرد من الجالية الايطالية بأن ينضم الى البعثـة الدبلوماسية أثناء سفرها •

ورد رئيس الوزراء على هذه الطلبات واحدا واحدا •• قال للسفير:

١ ـ أما عن القبض على الوزير الايطالي المفوض فهذا طلب غيرمعقول ولم يجر به أي عرف • ويمكن البحث في هـذا الموضوع اذا

ألقى الانجليز القبض على الكونت جراندي السفير الايطالي في لنـدن .

٢ ــ وموضوع أجهزة الارسال والاستقبال ، واذا تأكد الانجليز من شيء كهذا .. فما عليهم الا أن يقتحموا المفوضية الايطالية للحصول عليها ، فلا يوجد لدى الحكومة المصرية علم عنها .

٣ ــ وترى الحكومة المصرية في موضوع تفتيش البعثة الدبلوماسية الايطالية قبل سفرها ان هذا ممكن للانجليز ولكن بعيدا عن الاراضي المصرية وان الحكومة المصرية أعدت لهم قطارا خاصا يسافر بهم عن طريق سينا وفلسطين .. وفي فلسطين يستطيع الانجليز ان يصنعوا ما يريدون هناك ..

٤ ــ بقيت نقطة العدد الذي يسافر من مصر وقد اتفقت الحكومة المصرية مع روما ، عن طريق مفوضيتها هناك على السماح لخمسة وثلاثين فردا بالخروج من مصر بجوازات دبلوماسية مقابل عدد المصريين الذين يغادرون روما ..

ووجد السفير ان جميع الردود التي تلقاها ، لا تحقق له رغبة ، وأخذ يتجادل في النقطة الاخيرة ، عسى أن يصل منها الى احراج مصر مع ايطاليا الى الحد الذي يثير أي الطرفين فتنشأ حرب بينهما .. النقطة الخاصة بعدد الايطاليين المسافرين من مصر .

فقال له رئيس الوزراء :

أعتقد ان من المناسب أن نرجع نحن الى روما مرة أخرى ، وترجع أنت الى لندن ، فقد يكون عدد الافراد الذين نطلب نحن وتطلبون انتم تسفيرهم من ايطاليا ، أكثر من هذا الرقم الذي ذكرته ..

ويظهر ان مايلز لمبسون كان في واد وحكومته في واد آخر .. كان كل ما يعنيه هو الاصطدام مع مصر بأي ثمن ، لكي يطالب باخراج علي ماهر من الحكم ..وفي موضوع البعثة الايطالية المسافرة من مصر ، جاءت تعليمات من لندن الى السفير البريطاني ، تطلب منه أن يرجو الحكومة المصرية ان تسمح بسفر ٨٥ ايطاليا أي بزيادة ٥٠ شخصا عن التقدير السابق .. وذلك لان انجلترا تريد تسهيل خروج عدد مماثل من الانجليز كانوا في ايطاليا ، وهذا غير المصريين الموجودين هناك .

وكانت الحكومة الايطالية فيما يبدو ممتنة من معاملة مصر لرجال مفوضيتها ، ولطريقة ترحيلهم ولهذا عاملت المصريين هناك بكرم زائد •

اخراج علي ماهر من الحكم :

ثم حدث بعد ذلك ما كان معروفا ••

فقد طلب الانجليز من الملك اخراج علي ماهر من الحكم ، وبدا ان الملك يعارض في تحقيق هذه الرغبة ولكن علي ماهر لم يرد ان يحمل الملك ولا البلاد متاعب شخصية بسببه •

وحاول فاروق أن يستنجد بملك انجلترا في هذه الازمة فبعث له ببرقية يطلب تدخله حتى تعدل حكومة انجلترا عن اخراج رئيس الوزراء الذي يحوز ثقته •

ورد ملك انجلترا ، بأنه ملك دستوري ولا دخل له في هذه الامور ، ومع هذا فقد راجع حكومته فأصرت الحكومة على طلبها •

وعندها عاد علي ماهر الى سياسته التقليدية في الاستئناس بحكمة الزعماء وأهل الرأي في البلاد •

دعا رئيس الوزراء ، رؤساء الوزارات السابقين ورؤساء الشيوخ النواب الحاليين والسابقين وبعض كبار الساسة ووزيرا واحدا من وزارته هو اللواء صالح حرب •

كان عدد المجتمعين ١٦ شخصا عرض عليهم علي ماهر موقفه أوسياسته، وطلب الحكومة الانجليزية الخاص بخروجه من الحكم •

ولم تطل مناقشات الساسة في هذا الموضوع لسببين :

الاول : ان النور اطفيء بسبب غارة جوية •

الثاني : ان معظم هؤلاء السياسيين كانوا يطمعون في كرسي الحكم •

ولذا جاء قرارهم سريعا وحاسما •• فأما عن الموقف السياسي الذي صيغ في جملة تجنيب مصر ويلات الحرب ، فقد وافقوا عليه بالاجماع •

وأما عن خروج علي ماهر من الحكم ، فقد وافقوا عليه أيضا بما يشبه الاجماع •

فقد أشار ١٤ عضوا من أعضاء هذه الجلسة بخروج علي ماهر •• تفاديا للازمة وأشار ببقائه اثنان هما اسماعيل صدقي ، ومحمد محمود خليل ••

وربما بدا غريباان صدقي أصر ببقاء علي ماهر ، على الرغم من أنـه لم يكن هناك حب قائم بين الرجلين •• ولكن كانت لاسماعيل صدقي مواقف من هذا النوع في تاريخه السياسي تدل على بعد النظر ••

وكان أكثر المجتمعين غضبا وحدة ، هو اللواء صالح حرب الذي لـم يشترك في التصويت طبعا لانه كان وزيرا ••

خرج من الاجتماع ، والظلام سائد يتلمس طريقه الى تليفون قريـب ليتصل بوزارته يستفسر عن انباء الغارة •

وكان صوته يعلو بالثورة ، ويحتد وهو يسير الى أقرب باب والظلام شديد الحلكة •

وما أن وصل الى الباب ، حتى وجد يدا تمتـد له ، وتسحبه الـى تليفون قريب ••

كان صاحب هذه اليد هو (فاروق) ••

لقد كان واقفا يتسمع وراء هـذا الباب ووقف على ما انتهى اليـه المجتمعون •• وانتظر حتى انتهى صالح حرب من تليفونه ثم قال له :

هو البلد فيها رجال ؟ اذهب وناد علي ماهر وعاد صالح حرب يتلمس طريقه في الظلام وهمس في اذن علي ماهر بأن الملك ينتظره ••

كسب الانجليز معركتهم الاولى في عابدين •• فقد اخرج علي ماهر •• واستسلم القصر ، وحاول ان يكسب ود « العدو » فعين رئيسين للوزارة يمكن أن يجوزا الرضا ••

ولكن الهتافات التي صاحت : تقدم يا روميل كانت تحتاج الى علاج حاسـم ••

وبذل العلاج ، الذي كان من نتيجته ان حمل بعض المصريين ما يلـز لبسون على الاعناق هاتفين له ••

وكسب الانجليز المعركة الثانية في ميدان عابدين ، ولا طوغلي •

كان فاروق يريد أن يجد حلا للازمـة •• يريد أن يبقي الحكومـة الماهرية ، ولو لفترة من الوقت •• حتى لايقال انها خرجت من الحكم بنـاء على غير أوامره ••

ولكن الاوامر البريطانية كانت صريحة ، الى الحد الذي أيدها فيـه

ملك الانجليز نفسه ، ردا على برقية فاروق له ..

وفي احتدام الازمة ، وانفعال الافكار ، وتحرك المطامع ، ارتفع صوت أحمد زيور .. وكان من حاضري الاجتماع بوصفه رئيس وزارة سابقا .. ارتفع صوت زيور ليقول لعلي ماهر :

كده تركت الملك يكشف نفسه أمام الانجليز ..؟

قالها زيور بالفرنسية التي كان يفضل الحديث بها ..

أما مصطفى النحاس ، فكان في موقف أكثر صعوبة وحرجا ، فقد وافق على طلب الانجليز اخراج علي ماهر مع موافقته على سياسته .. ولكن ليس هذا هو الذي كان يقلقه ..

انما صوت صفير الغارة ، ورهبة الظلام الذي ساد ، وعصبية اللواء صالح حرب .. كل هذا كان يزحم تفكيره .. فسمع صوته وهو يقول :

ـ احنا بس ايه اللي جابنا هنا .. طيب دلوقت نروح ازاي .... العربيات تمشي ازاي في الغارة ..

وخرج علي ماهر من القاعة يتلمس طريقه في الظلام أيضا ،واصطدم في طريقه بعبد الوهاب طلعت الذي قال له ان الملك غاضب جدا ..

ووعد علي ماهر أن يحل الموقف حلا سلميا جدا ظهر غد ..

وعند ظهر اليوم التالي تقابل مع فاروق واتفقا على أن الحل الوحيد هو الاستقالة .. وهذا ماتم فعلا .

واعتقل كاتب هذه المذكرات وحاول عزيز المصري أن يهرب طائرا الى الخارج .

ـ وفي عهد حسين سري ، نمت قوة المقاومة الشعبية في صفوف الشعب وداخل الجيش نموا كبيرا .

ـ وفي عهد حسين سري سارت المظاهرات تهتف : تقدم ياروميل .

ـ وفي عهد حسين سري ، تقص الخبز من القاهرة حتى تخطفه الناس في الشوارع ، لان الانجليز كانوا ينهبون تموين البلاد نهبا .

ـ وفي هذه الظروف وجد الانجليز من واجبهم انيشغلوا البلادببعض مظاهرات وهتافات فسارت الدبابات تحاصر قصر عابدين ، وتطلبمصطفى النحاس رئيسا للوزارة ..

وبدلا من أن تهتف المظاهرات الجائعة ضد الانجليز وتوالي صراخها ليتقدم روميل حمل السفير البريطاني على الاعناق في مدخل مجلس الوزراء وصفق له المصفقون من محترفي المظاهرات •

وكانت هذه الحركة طعنة نجلاء للحركة الوطنية اصابتها في الصميم ••

القتيل يحمل قاتله على كتفيه ••

والمعذب يقبل يدي جلاده •

ترى ماذا كانت الحال في معسكر روميل ، وقد ألقينا من قبل نظـرة على المعسكر البريطاني ••

لقد حاول رجال المخابرات الانجليز أن يحصلوا من ابلر الذي اعتقلوه في القـاهرة على معلومات عن الجيش الالمـاني وعن روميل وعن جهـاز مخابراته •• وحاولوا قبل كل شيء أن يحصلوا على الشفرة التي كان ابلر يتراسل بها مع معسكر روميل كي يتابعوا هم الاتصال ،وينقلوا الى روميل المعلومات التي يريدونها •

وظل ابلر على صمته •• مطمئنا الى أن صاحبه مات أو انه يحتضر •

وعندما جاء الوقت الذي يتم فيه الاتصال عادة بين معسكر روميـل ومركز التجسس الذي انشأه في القـاهرة حسب الانجليـز ان الاشارات الغامضة سوف ترد ولكن لن يرد عليها أحد •• فالجهاز في قبضة الانجليز •• (أي جهاز الارسال) •

ولكن لدهشتهم البالغة جاءت الرسالة القصيرة الغامضة وسمع الرد عليها قصيرا غامضا أيضا • من الذي أرسل هذا الرد ؟

هل وقع في يد الانجليز جواسيس غير الذين يبعثون بهذه الرسائل ؟

بعث مركز الاستماع في الجيش البريطاني بهـذه الانباء الى مركـز المخابرات فكان لها دوي أي دوي ••

وقبل أن نستمر في شرح هذه الغوامض ننقل الى القراء صورة مما كان يكتبه الانجليز في صحفهم خلال هذه الفترة ••

ونختار هذه العناوين من بين ماكانت تنشره كبرى جرائدهم اليوميـة في ذلك الوقت ــ الديلي اكسبريس وعدد الاحد الذي تصدره الصنداي اكسبريس •

ـ في ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٤١ كان ما كتبته الجريدة « محاصرة روميل » .

ـ في ٢٣ نوفمبر كان على صدرها « تدمير ثلث القوات المدرعة للفيلق الافريقي » .

ـ في ٢٤ نوفمبر كتبت الجريدة بالخط العريض « مزقت قوات روميل عن آخرها » .

ـ في ٢٦ نوفمبر قالت الجريدة « ربحت انجلترا موقعة الدبابات الليلة » .

ـ في ٢٨ نوفمبر نشرت الجريدة « ربح اخوكننجهام (القائد وأخوه كان اميرال اسطول البحر المتوسط) القسم الاول من المعركة » .

ـ في أول ديسمبر قالت « روميل يلقي في المعركة آخر مدرعاته » .

شيء اسمه العلمين :

ولكن في شهر يونيو سنة ١٩٤٢ ، حدث شيء هام اسمه العلمين ، غيَّر هذه اللهجة .

حدث ان وقفت انجلترا كلها ومن ورائها امريكا ضد رجل اسمه روميل .

وعلى غير ما عرف في تاريخ الحروب اذاع الجنرال أوكنلك أمرا يوميا للجيش الثامن جاء فيه ما نصه :

« ان كل ما نخشاه أن يعد جنودنا صديقنا روميل رجلا ساحرا .. رجل المعجزات .. لانهم يتكلمون كثيرا عنه . واني أقول لكم ياجنود الجيش الثامن انه ليس رجلا من العالم الاخر ولا هو من الذين يقومون بالخوارق ، على الرغم مما يتصف به من قدرة وهمة كبيرة .

انه لمن المؤسف حقا ان يرى رجالنا في روميل أمورا فوق طبيعة الناس .. واني اطلب منكم ان تبذلوا كل مجهود ممكن لازالة هذا التأثير من أذهان جنودنا ..

ان روميل ليس أكثر من قائد الماني عادي .. ولهذا يجب ألا يذكر اسمه دائما عندما يراد التحدث عن العدو في ليبيا ..

قولوا الالمان .. أو قوات المحور .. أو العدو .. دون ان يذكر اسم روميل في مقدمة كل حديث . وهذه أوامر واجبة التنفيذ وعلى جميع قواد

الوحدات مراعاتها •• فالامر في منتهى الاهمية والخطورة مـن الناحية النفسيـة • »

القائد العام لقوات الشرق الاوسط •ملحوظة : اني لا أغار من روميل•

اذن هناك رجل •• أو اسطورة سيطرت علـى ذهن الجيش الثامن ، يحاول قائده العام ان يزيلها • ترى •• هل أفلح ؟

ان يوم ٢٦ مايو سنة ١٩٤٢ من الايام التي لا تنسى في تاريخ الحروب•

فقد تلقت القيادة البريطانية في الشرق الاوسط رسالة من طبرق تقول ان قوة المانية تقترب من القلعة الحصينة •• وبذل الجنرال ريتشي مجهودا كبيرا لاستطلاع هذه القوة ، وكانت البيانات التي تلقاهـا وهي معلومات صحيحة تقول ان القوة الالمانية التي تحوم في المنطقة تتألف من ٣٢٣ دبابـة و ٥٢ سيارة استطلاع و ٢٢٠ سيارة مصفحة •

كان روميل قد بدأ يضرب الاستحكامات الخارجية ضربا عنيفا مـن مواقع قريبة ، وتحمل خسائر كبيرة •

وأذاع راديو القاهرة بعـد يومين تعليقا على هـذه الحركة الالمانية جاء فيه :

لم نسمع عن هجوم اختنق قبل أن يولد مثل هجوم روميل على طبرق•

كانت طبرق هي مشكلة روميل فانها مشكلة ليس لديه أي حل لها •

وفي اليوم التالي قالت وكالة رويتر :

وقال راديو نيويورك :

وان من المضحك ان يحاول أحد اكتساح هذه القلعة العنيدة الجبارة •

ان روميل اضطر الى الوقوف مع بقايا جيشه في اطراف طبرق البعيدة

وفي الوقت الذي كانت تقدم لروميل نشرة تتضمن هذه الانباء في هذا الوقت قدم له أحد القواد بيانا بالدبابات والمصفحات التي تحت قيادته فاذا بها تزيد عن ألف قطعة عما بدأ به ••

انها كانت غنيمة روميل الثمينة من طبرق •

وكان من غنائمه أيضا خمسة قواد بريطانيين منهم الجنرال كلوبر قائد القلعة و ٢٨ ألف جندي غير الاف كثيرة من البريطانيين المساعدين •

وانطلق روميل كالريح العاصفة مجتازا السلوم ومدمرا قوات التعويق التي تركها الجنرال ريتشي هناك •

ووصل القائد الزاحف الى سيدي براني وامكنه ان يستنفد كميات ثمينة من تموين الانجليز وكانت النار قد اشتعلت فيه •

وعلى مسافة ٤٥ ميلا غرب مرسي مطروح تلقى روميل أوامر من موسوليني تتضمن تعليماته بوصفه مشرفا من قبل المحور على هذه الجبهة• وتقضي هذه التعليمات :

١ ــ ان يكون الهدف قناة السويس ، ثم بورسعيد واحتلالهما بأسرع ما يمكن •

٢ ــ احتلال القاهرة •

٣ ــ الاحتياط ضد أي تهديد مفاجيء قد يحدث عن طريق الاسكندرية

٤ ــ حماية مؤخرة الجيوش ضد أية محاولة نزول بحري بتأليف قوة مناورة سريعة الحركة لمجابهة مثل هذه الطواريء •

٥ ــ يجب أن تشترك القوات الايطالية مع القوات الالمانية في الوصول الى قناة السويس ••

قرأ روميل هذه البرقية وهز كتفيه ••

ثم أصدر أمره بالهجوم على مرسى مطروح وكان ذلك في ٢٩ يونيو سنة ١٩٤٢ •

لم يستغرق احتلال البلدة بعد القضاء على استحكاماتها أكثر من اربع ساعات •• وعند دخول الالمان اليها وجدت في مطارها طائرات سليمة ومستودعات وخزانات وقود عديدة •• كما وجد الماء •• وكان يدافع عن البلدة ••••٢٠ نيوزيلندي وهندي أسروا جميعا •

ثم ذلك في الساعة العاشرة صباحا وفي الساعة الحادية عشرة أمر روميل قواته بالاندفاع نحو العلمين ليمنع القوات البريطانية المنسحبة المذعورة من الارتكاز عليها وتنظيم نفسها •

في اليوم الاول من شهر يوليوسنة ١٩٤٢ كانت قوات روميل قد وصلت الى عنق الزجاجة •• الى الموقع التاريخي الفريد •• الى العلمين • وعند وصوله كان قد قطع مع قواته اكثر من ٦٠٠ كيلو متر •

كانت خطوط مواصلات روميل قد طالت الى درجة عظيمة ، وفي هذا الزحف الطويل تعطب عدد غير قليل من دباباتــه ، أو من الدبابات التــي استولى عليها من الانجليز ..

صحيح ان قوات الانجليز كانت مضعضعة منهوكة القوى ، تعاني مرارة الهزيمة .. ولكن قوات روميل كانت أيضا في حالة من التعب والاعياء لا يمكن ان توصف .. حتى انه لم يتح لمعظم الجنود خلال شهر وبعض شهر منذ سقطت طبرق أية فترة ولو قصيرة للراحة .

وهناك عامل آخر لا يقل أهمية ،وهو اننا الآن نستقبل أول أيام يوليو .

ويوليو في مصر معروف لنا جميعا ..

ويوليو في الصحراء معروف لبعضنا ..

ورياح السموم كانت وقتها اشد ما تكون نشاطا .

ومن كل مكان امكن ان تصل اليه رسالة نجدة بريطانية تحركت قوة أو قطعة سلاح لتقف في وجه روميل ..

وكان أسرع الاسلحة الى هذا الموقع الطائرات .. لقد هرعت في أعداد كثيفة من الهند وايران وبغداد وقاعدة القناة ، ورست في مطارات الدلتــا والقاهرة والاسكندرية ..

أخذت تموينها وذخيرتها وتعليماتها وانطلقت تصنع شيئا يوقف روميل .

ومنذ سقطت طبرق ، كانت قواعــد الشرق تمد الجبهة بالجنود فضلا عــن السلاح .

وأراد روميل أن يعجم كثافة هذه الجموع وعمق تحصيناتها .

تقدمت قوات الفيلق الالماني وقبل أن ينتهي اليوم كانت الجيوش قد التحمت ووقع في الاسر عدد كبير من الهنود لم يكن قد مضى على وصولهم من العراق أكثر من أيام .

والى جانب التفوق البريطاني في الطائرات فقــد استغلوا مدفعيتهــم استغلالا طيبا .

ولكن القوات الالمانية ظلت تتقــدم نحو هضبة الرويسات في عــزم وتصميم .

وفي هذه الاثناء أبلغ قائد الطيران الالماني المارشال روميل ان الاسطول

البريطاني جلا عن الاسكندرية واصبحت الميناء والارصفة خالية من كل حركة •

ولكن حدث أثناء الليل أن قلعة الرويسات التي ركز الانجليز عليها محور دفاعهم توشك أن تقع في قبضة روميل •• حدث أن وجه النيوزيلانديون هجوما عنيفا على فرقة « ارتيا » الايطالية فاذا بهذه الفرقة تتداعى ويستولي المهاجمون على معظم مدفعيتها وعدد كبير من الاسرى •• واذا بباقي أفراد الفرقة يلقون سلاحهم ويفرون الى الوراء في اتجاه الغرب •

وانتهز الجنرال اوكنلك الذي قاد بنفسه المعركة هذا الانهيار في موقف الايطاليين وبعث بدباباته الجديدة وراء النيوزيلنديين لتعمق الثغرة وتقوم باختراق ينجي قلعة الرويسات من السقوط •

وأمر روميل مدرعاته بالارتداد على الفور تاركا علاج هذه الحالة الجديدة للمدفعية من عيار ٨٨مم •

وأتت دفعة كبيرة لهذه الوحدات البريطانية الجديدة وثأرت لفرقة ارتيا •

الا ان هذا الثأر جاء في وقت متأخر وكان ثمنه كبيرا • فان مدفعية روميل ذات التأثير الرهيب صمتت فجأة •• ان ذخيرتها نفذت •

يقول الجنرال فون ايربيك احد قواد روميل •

لو أدرك الانجليز هذا الموقف الخطير لمدفعيتنا لاستغلوه الى أبعد مدى ، ولكن الله أنقذنا في الدقيقة الاخيرة •

يقول هذا القائد الالماني ••

الا أن آلهة الصحراء منحت عونها اثناء الليلة القادمة حيث لم يكن العون منتظرا •• فقد وجد جنودنا في جوار أحد الابار ١٥٠٠ طلقة لمدافع ١٥٠ الطويلة •• وكانت هذه الذخائر الثمينة تلمع في كل مكان على طول انطريق الساحلية •

وبعد منتصف الليل وصلت الامداد من طبرق الى الميدان وأصبح التوازن موجودا •

ولكن روميل وهو يأمر بمواصلة الضغط على نقط الدفاع البريطانية لاختراقها ، كان يعلم مقدما ان هذا الاختراق وحده لن يؤدي الى النتيجة

بعدما صادفه من حقيقة التجمعات البريطانية وقوة النيران التي استطاعت ان تصيبها في هذا المعبر الضيق •• معبر عنق الزجاجة ••

اخرج روميل برقية موسوليني من جيبه ونظر اليها في حنق ثم مزقها قطعا صغيرة وجمع أركان حربه ليعطيهم تعليمات جديدة ••

ومن المقر المؤقت الذي أدار فيه روميل هذه الحركة الاولى من سلسلة تحركاته في العلمين والتي وصلت به الى الرويسات خرج القائد الكبير وقلبه مثقل •• ونظر الى ناحية البحر نظرة طويلة ••

كان القمر يسطع وضوؤه الفضي يغمر الصحراء والطلقات من الخطوط الامامية لا تكف لحظة عن إحداث هذا الدوي الرهيب الذي يمزق السكون •

كان روميل ينظر الى البحر وهمس لواحد من أعوانه كلمة غريبة •• قال له : انهم هناك في كريت •• ولم يستوضحه ضابط الاركان •• بل انتظر مزيدا من البيان ولكن البيان جاء في كلمة مقتضبة •• أصدروا الامر للقوات بالتحرك ، والوقوف عند الخط الذي أعددناه ••

وأراد الضابط أن يزيد الامر استيضاحا ، فسأل روميل :

هل نوقف الهجوم ••؟

يا •• فول •• (أي نعم) •

وحيا الضابط وانصرف مع زملائه للتنفيذ وترك روميل يردد من جديد: انهم هناك •• في كريت •

كان الالم يعصر قلب روميل وهو يأمر قواته بالانسحاب من هضبة الرويسات ، بعد أن اخترق الخط البريطاني في العلمين •• فقد قام بهجومه الاخير الخاطف ، وبحركته الجسورة تمكن من الاطباق على طبرق وابتلاعها وبسرعة البرق تتبع اثر الجنرال ريتشي وجيشه المنهار •• وأمام العلمين وجد استماتة البريطانيين بعد أن قصرت خطوطهم وهرعت لهم النجدات من كل مكان ••

ان كل ما كان يأتيه من مقر قيادة الفوهور وقيادة الدوتشي ان يتابع الزحف الى قناة السويس •• ولكن الشيء الوحيد الذي كان يريده هو البنزين والذخيرة والتموين •

أحس روميل في وقفته وهو ينظر الى البحر والى الافق البعيد من بعد

البحر بأن يدا توضع على كتفه •• ونظر فاذا المارشال كيسلرنج القائــــد العام الالماني بسلاح الطيران في الجبهــة الجنوبية بما فيها افريقية يقف الى جواره •

ولم ينتظر روميل حتى يرد تحية صاحبه فقد علم أنه قادم من مقرقيادة هتلر في روسيا على الفور •• قال روميل :

ــ قل لي بالله •• لماذا احتللنا جزيرة كريت والجزر القريبة منهــا وبذلنا تضحيات جسيمة ؟ ألم يكن القصد من احتلالها ان تكون مطــارات قريبة ننتفع بها في عملياتنا الحربية الآن ؟ قال كسلرنج :

ايروين •• اني أراك مهموما ، ولم أعهدك كذلك •

فرد روميل في عنف :

مهموما •• الا تقول لي ، أية استحالة تمنع من تنفيــذ ما طلبته مرارا وتكرارا خلال الاسبوع الماضي •• من قيام فرقة المظــلات من كريت تهبط على الاسكندرية والخطوط الخلفية للجيش الثامن فتسهل مهمتي ••

ثم اني اريــد أن أفهم •• لماذا لا تقوم هــذه الطائرات بنقــل المواد الضرورية التي اطلبها •• هل سمعت قصة مدفعيتنا ٨٨مم التي توقفت عــن الضرب لان ذخيرتها نفدت تماما ؟

فرد كسلرنج :

نقلت رغبتك الى الفوهور وسأؤكدها له اذا رغبت في ذلك ••

وهنا كان الغضب قد أخذ مأخذه من روميل فصاح :

وهل تظن اني أهزل •• اذن أخبر الفوهور «للفتواف» سلاح الطيران يستعمل كريت لسبب اخر •• ان طائراته تنقل صفائح زيت الزيتون والعنب المجفف من كريت الى المانيا •• أما انا فسياراتي ودباباتي تقف لانها لاتجد قطرات البنزين •• ومدينة الاسكندرية تتراءى امامي في الافق القريب •• كل ما أتلقاه رسائل من موسوليني ، وزيارات من الجنرال كافلييرو القائد العام •• اني شبعت من النصائــح واتخمت بالتمنيات •• وأريــد بنزينــا وذخيرة •• هل تسمعني ؟• لقد أمرت قواتي بالارتداد بعد أن اخترقت قلب الجيش الانجليزي في الرويسات • لان الوقود الذي لدي لا يحملني حتى الى برج العرب •

فطمأن كسلرنج زميله ، وقال انه سيطير فورا الى هتلر ، وسوف يطلب تدخل سلاح المظلات في المعركة ان كان قد حدد يوما جديدا للزحف ..

روميل يغادر الميدان :

وهنا سار القائدان الكبيران الى الدبابة البريطانية القريبة . وكان روميل قد أسرها واتخذها مقرا لقيادته ، وحفر بجانب الارض حفرة كبيرة نصب فيها خيمته ..

وأمام الخرائط شرح الموقف (لكسلرنج) واتفق معه على تحديد يوم ٩ يوليو سنة ١٩٤٢ لاستئناف الهجوم على الجيش الثامن في العلمين ، على أن يتلقى فجر هذا اليوم المعونة التي طلبها بالتفصيلات اللازمة ..

وبدأ زحف روميل الجديد واستمات الجنرال أوكنلك ضد روميل وكان يوجه هجومه المضاد للقوات الايطالية ولم تحتمل فرقة ثابراتا عنف الضربة فتبعثرت هذه الفرقة وغادرت موقعها وكانت تحتل المنطقة الساحلية.

واضطر روميل لسد الثغرة الشمالية بقوات متقدمة تحت قيادة الجنرال مارك الالماني ..

ووجد القائد الانجليزي ان خير ما يعمله هو ان يصطاد فرقة ايطالية أخرى ، فحشد قوته ضد فرقة بريشيا ثم فرقتي ترانتو وتريستا .. ولم تثبت هذه القوات للهجوم فسارع افراد منها الى الاسر وولى باقيها ..

وعلى الرغم من هذا فقد تقدم روميل حوالي عشرة كيلو مترات ـ واستمرت المعركة ستة أيام ، وهو ينتظر ان يفاجأ الانجليز من الخلف بالحركة الجوية المتفق عليها ..

ولكن شيئا من هذا لم يحدث .. وكل الذي حدث أن جاءه المارشال كيسلرنج والجنرال كامليرو الايطالي ومعهما جملة أخرى من الوعود والتمنيات ..

وعندها قرر روميل أن يتخذ موقف الدفاع .. وأوقف هذا الهجوم الثاني .

وفي الوقت الذي كانت القيادة البريطانية تحرق أوراقها وتشرشل يتأهب للقدوم الى القاهرة ليفاوض مصر في انتقال حكومتها الى الخرطوم

ويبدل قواده . في هذا الوقت بعث روميل برسالة يائسة الى قيادته العليا قال فيهـا :

لست أدري بعد هذا التريث الطويل أمام مواقع العلمين اذا كان من المناسب أن أقول الآن ان خسارة الحرب مؤكدة ..

وبلغ من شدة سخط روميل على تقاعس قيادته العليا في تلبيةطلباته ، ان طلب العودة الى المانيا محتجا بضعف صحته ..وسافر فعلا وأرسـل هتلر بدلا منه الجنرال شتوما ليحل محل روميل اثناء غيابه ..

والجنرال شتوما هو أحد قواد هتلر في روسيا ، كان قد نسب اليـه ان ياوره اضاع وثائق ثمينة وصلت الى الروس ، فأخلي من منصبه..وازاء هذه الحركة العنيفة من الاحتجاج التي قام بها روميل ، اضطرتروما وبرلين أن تعطي لفتة للفيلق الافريقي والمجهود الجبار الذي يبذله .

وبدأت سفن الوقود والتموين تقوم من الموانى الايطالية .

ولكن ظهر أن هناك تتبعا ومعرفة تامة بمواعيد قيام هذه السفن ، فلم يكن يصل منها الا نسبة ضئيلة جدا ..

ولم تعمد القيادة الالمانية الى انشاء مصعد جوي من الطيارات تكون قاعدته كريت كما أشار روميل .

ولم ينتبه قواد المحور الا متأخرين ان شفرتهم اصبحت معروفة لدى الانجليز .

لقد ذكرنا من قبل أن الشفرة الامريكية كانت معروفة لدى الالمان.

واليوم تسربت شفرة أخرى من المحور الى الانجليز .. كانت الشفرة الايطالية . وقيل أيضا أن الشفرة الالمانية التي كانت في حوزة الجاسوس ابلر وصلت الى الانجليز .

وقبل أن نروي كيف تسربت شفرة ابلر نذكر ان القيـادة الالمانية ارتكبت في هذه الفترة الحرجة من تاريـخ الحرب خطأ عظيما ، اذ أمـرت بسحب الجنود الذين أمضوا في الفيلق الافريقي عاما ونصف عام الى ليبيا وأبدلتهم بجنود جدد صغار السن وليست لديهم تجربة .

وكان عدد الذين سحبوا حوالي عشرين الف جندي ..

ولو أن روميل كان في مقر قيادته لما وافق على هذا الامر ولكن بديله

الجنرال شتوما نفذه وبذا سحب من امام الانجليز اكفأ جنود المانيا الذين تمرسوا بحرب الصحراء وأصبح الواحد منهم بألف كما يقولون •• وما أن وصل العدد الجديد حتى نقل على الفور الى المستشفيات لان جو يوليو واغسطس وسبتمبر في الصحراء لم يكن في وسعه احتماله ••

ابلــر •• يقابل تشرشل :

ان ما نرويه الآن منقول عن لسان ابلر رواه (أنور السادات) ذاكرا فيه السبب الذي من أجله افشي سر صلته به •• قال السيد أنور السادات في مذكراته ••(ظهرت لي الحقيقةكاملة عندما علمتبعد ذلك أن الجاسوسين قد أمسكا عن الكلام يوما كاملا ثم حملتهما المخابرات البريطانية حملا الى مستر تشرشل وكان يزور مصر في ذلك الوقت فلما مثلا أمامه ووعدهما بحياتهما اعترفا بكل شيء فجاءا بي وبحسن عزت الى السجن •

ولكن ابلر يروي في مذكراته قصصا خرافية عن محاولة الانجليز استجوابه حتى أفشى لهم اسراره ، فقد ذكر انهم حملوه الى طبيب ، زعم انه أراد ان يجرب فيه دواء حديثا مما يستعمل في الفيران لاختبار قوته على القتل •• وقبل أن ينفذ الطبيب وعده ، اقبل ضابطانبريطانيان ونهرا الطبيب زاعمين أن من غير اللائق أن تستعمل خطط الجستابو ••

وبهذه الوسائل : ارهاب ، ثم اغراء تمكنت المخابرات البريطانية منأن تنتزع اسرار ابلر من فمه •

والدليل على أن رواية ابلر للسيد أنور السادات هي الرواية الصحيحة ان جميع الذين اشتركوا مع ابلر قبض عليهم وفيهم أنور وزميله الطيار حسن عزت والفريق عزيز المصري والاستاذ عبد المغنى سعيد وكان هوالذي عرف ابلر أو حسين جعفر بأنور السادات كما قبض على اليهودي الذيكان يبدل العملة ثم اعترف عليه فيما بعد وقبض على السيد حسن جعفر الاخغير الشقيق لابلر •• وقبض أيضا على حكمت فهمي ••

هذه الحركة الواسعة من الاعتقالات لم تكن لتتم الا بثمن •

وكان الثمن هو الابقاء على حياة ابلر وزميله مونكاستر ولا يملك ان يعطي الوعد بالحياة الا شخص في مركز ونستون تشرشل •

اذن كانت المقابلة صحيحة مع رئيس الوزراء البريطاني ••

وكانت الخيانة أيضا صحيحة ..

وكانت سببا من الاسباب التي أدت الى نكبة الفيلق الافريقي أمام العلمين .. وان كان السبب الاكبر والاهم ، هو ما اجملناه في صدر هذه الحلقة من المذكرات .. وهو أن هتلر كان لا يلقي أهمية كبيرة للميدان الافريقي ، فقد ترك حركة رشيد الكيلاني تهوي ، وكان يمكن ان تؤدي الى نتائج خطيرة .. وترك الفيلق الافريقي يذبل أمام العلمين ، وكان يمكن ان يجتاز القناة الى دجلة والفرات ..

ومن يدري فربما كان هذا كله لامر يراد .. وقد مضى قضاء الله ووصلنا الآن بغير معونة الالمان الى تحقيق استقلالنا واعزاز قوميتنا بفضل جهودنا نحن وتضحياتنا نحن ..

بقي بعد هذا أن نذكر أن الجنرال شتوما قتل عند الهجوم البريطاني على مواقع الفيلق الافريقي وان هتلر أمر روميل بأن يعود الى مواقعه على الفور ولكنها كانت عودة أفضل منها البقاء ..

فما ان وصل روميل الى الميدان وراجع الموقف حتى قرر أن ينسحب انسحاباً سريعا الى السلوم ثم يكر راجعا على قوات الجنرال منتجومري ، ولكنه مالبث أن تلقى من هتلر برقية غريبة يقول فيها :

ان الشعب الالماني برمته يتتبع بطولتكم في هذه المعركة الدفاعية التي تخوضون غمارها في مصر وهو يثق في صفاتكم الحربية كقائد ، ويثق في الجيوش الالمانية والايطالية الباسلة التي تقودونها وأما بالنسبة للموقف الذي تجدونه الآن فلا مجال لاية حركة أخرى غير حركة المقاومة المطلقة.. وعدم التراجع خطوة واحدة والقاء كافة المحاربين والاسلحة التي تحت يدكم في المعركة وقد أرسلت لكم نجدات وفيرة من الطائرات عن طريق القائد العام للميدان الجنوبي كسلرنج والدوتشي والقيادة الايطالية وسيبذل أقصى مجهود لتقديم كافة المساعدات التي تمكنكم من مواصلة القتال .

وهنا لم يسع روميل الا أن يلغي أوامر الانسحاب التي قررها ، وأن يذكر لرجاله أن هذا أمر القيادة العليا هتلر .

اذا كنا قد عجلنا بذكر الموقف على حقيقته في معسكر روميل ، فان هذه الصورة لم تكن واضحة أمام القيادة البريطانية .. بل كانت في ذهنهم

صورة تختلف تماما .. أمامهم الفيلق الافريقي يهز عضلاته ، ويشمخ بأنفه، وينظم صفوفه استعدادا للوثبة القادمة وهدفه فيها القاهرة وقناة السويس..

وطار تشرشل الى القاهرة كما ذكرنا في الجزء الاول من هذا الكتاب.

كان عليه أن يلم شعث قواته المنهارة .. كان عليه أن يبث في أمر قيادة الجيش الثامن ، وكيف يتصرف في أمر الجنرال اوكنلك الذي كان قائدا عاما ، وكان يليه الجنرال ريتشي الذي نحي عن العمل .

ومتى بتّ تشرشل في هذه القيادة أصبح توفيقه في اختيار الرجل المناسب لها يعادل الجهود لكسب الحرب كلها .

الشرق الاوسط لا يعجب تشرشل :

أدت مداولات تشرشل في القاهرة الى اجراء دراسات جغرافية ،اشترك معه فيها بروكس رئيس أركان حرب الامبراطورية ، وسمطس رئيس وزراء جنوب افريقية !!

« أحس » تشرشل بأن كلمة الشرق الاوسط التي تطلق على مصر وفلسطين ولبنان وسورية وتركيا لا تعبر تعبيرا صحيحا عن طبيعة التقسيم الجغرافي ، أو الاستراتيجي للمنطقة .. وفضل أن يطلق عليها اسم « الشرق الادنى » .

أما الشرق الاوسط فقدخصه ببلاد أخرى هي ايران والعراق ..فقط .

وجاء دور الهند وبورما والملايو .. وهذه البلاد وجد تشرشل انها الشرق ..

فاذا ذهبت الى الصين واليابان ، فانت في الشرق الاقصى .

وبمقتضى هذا التقسيم الجديد وزع تشرشل اعباء القيادات .

عين الجنرال الكسندر قائدا عاما للشرق الادنى وجعل مقره في القاهرة، تاركا عمله وهو قيادة الشعلة تحت إمرة ايزنهاور .

وعين الجنرال مونتجمري مكانه قائدا عاما لعملية الشعلة ، وهي غزو اسبانيا وجنوب فرنسا من شمال افريقية التي كان قائدها الاعلى الجنرال أيزنهاور .

وعين الجنرال (جوت) قائدا للجيش الثامن يتبع قيادة الكسندر .

ونقل الجنرال أوكنلك قائدا عاما للشرق الاوسط (العراق وايران).

وعارض مجلس وزراء الحرب في لنـدن هذا التقسيم الذي فرضـه تشرشل ولكنّ تشرشل الح في اعتماده ، لان القواد الذين شاورهم، ومعهم سمطس وكيسي (وزير الدولة في القاهرة) وافقوه •

وجاء الاعتماد من لندن على كره من مجلس وزراء الحرب •

وفي اليوم التالي ــ ٧ أغسطس سنة ١٩٤٢ ــ بينما كان تشرشل يصعد سلم السفارة البريطانية في القاهرة ، قابله الكولونيل جاكوب ، وقال له :

ــ انه ظرف سيء « جوت » •

ــ ماذا حدث ؟

ــ كان يركب الطائرة في طريقه الى القاهرة ليتسلم منك عمله الجديد•

ــ هــــه ••

ــ ثم قابلت طائرته طائرة المانية فأسقطتها وقتل جوت ••

وكانت هذه معلومات ثمينة جدا بالنسبة لروميل لو انه استطاع أن يقف عليها ، فان القائد الذي تقرر أن ينازله قتل بعد ساعتين من إخطـاره باختياره قائدا للجيش الثامن •

ولم يكن أمام تشرشل الا أن يسد الثغرة فورا فقرر أن يتولى مونتجمري قيادة الجيش الثامن • وينسحب من قيادة ايزنهاور •

وكان مونتي قد ركب الطائرة في طريقه الى قيادة ايزنهاور فأبرق تشرشل الى نائب رئيس الوزراء أتلي يقول له :

هيئة أركان الحرب أوصت بتعيين مونتجمري قائدا للجيش الثـامن ، سمطس وإنا نحس بضرورة ملء هذا المركز فورا ، أرجو اعطاءه التعليمات ليستقل طائرة خاصة في أسرع لحظة • اخطروني بموعد وصوله •

وظل مجلس وزراء الحرب في لندن يتداول ست ساعات ثم اصـدر أمره لمونتجمري حيث هو ليستقل طائرة الى القاهرة بعد أن وجد المجلس ألا مناص من تلبية طلبات تشرشل •

وكانت هذه المعلومات التي أرسل روميل وراءها اثنين من الجواسيس « ابلر وصاحبه » ليحصل عليها ، وما كان في وسع هذين الرجلين أن يقولا شيئا عنها ، لانهما كانا في السجن ، وقت ملء هذه القيادة بعد الظروف الغريبة التي مرت بهـا •

وكان هناك رجل يشعر بأنه احرج احراجا يندر ان يصادف انسانا ••
كان هذا الرجل هو الجنرال ايزماي الذي كلفه تشرشل بأن يهرع الى ايزنهاور في مقر قيادته ويبرر له نقل الكسندر الى القاهرة ، ويعتذر عن هذا الانزعاج في خطط الشعلة ، وهي حرب شمال افريقية وغزو ايطاليا •

وقبل أن يفرغ ايزماي من القاء عباراته المهذبة لايزنهاور ، ويقدم القائد الجديد مونتي حتى جاءته تعليمات ، بأن يكرر الاعتذار للقائد الامريكي ، فان مونتجمري بدوره مطلوب لمهمة اخرى ، وهي قيادة الجيش الثامن •

لم يستطع ايزنهاور إزاء هذا الاضطراب الا أن يعبر عن رأيه في صراحة، فقد قال انه أصبح يعتقد أن الانجليز لا يأخذون عملية الشعلة مأخذ الجد!!

وبعد أن اجرى مونتجمري هذه التعديلات في « الجغرافيا » وفي القيادات، وقدم أقصى ما يمكن من الازعاج لايزنهاور ولأوكنلك الذي رفض قيادة الشرق الاوسط (العراق وايران) •قرر ان يسافر الى موسكو ليحاول تهدئة ستالين بعد أن وجه كل مجهود « الحلفاء » الى روميل تاركا عبء الهجوم الالماني يصل الى خمسين ميلا في موسكو ، والى مسافة أقل من الفولجا •

ذهب تشرشل ليخبر ستالين أن أمريكا بكل قوتها ، وانجلترا بكل ما لديها يجب أن تواجه شخصا واحدا اسمه روميل •

وحتى يجد تشرشل سندا أقوى لخططه ، وهو يدافع عنها أمام ستالين، طلب من روزفلت أن يرسل مبعوثه الخاص أفريل هاريمان ، لينضم اليه في موسكو •

وفي ١٢ اغسطس سنة ١٩٤٢ وصل تشرشل وأعوانه الى موسكو •

ليس جبهة ثانية :

وفي موسكو بسط تشرشل امام ستالين خرائط شمال افريقية من مصر الى تونس • وأخذ يبين أهمية هذا الميدان ، وانه « جبهة ثانية » بكل مافي هذه الكلمة من معنى ••

وظل ستالين جالسا كالتمثال يسمع من مترجمه ما يقوله تشرشل •فلما فرغ ، قال مامعناه ، ان كل ماسمعه كلام فارغ •• « فالميدان الثاني الذي

يريده هو الغرب في قفا هتلر بغزو فرنسا من الشمال والاسراع الى المانيا ، وأن يتم هذا الغزو خلال هذا العام ١٩٤٢ ، والا فانه (ستالين) لن يتحدث مع « حلفائه » في موضوع الجبهة الثانية بحال من الاحوال !

وطوى تشرشل خرائطه ، وجرب ان يلجأ الى اسلوب آخر ، فقال ان لديه كلاما آخر اتفق مع روزفلت عليه ، ويريد أن يتحدث معه على حدة..

وفي الجلسة الخاصة ، أخذ تشرشل يسر الى ستالين بتفاصيل عملية « الشعلة » وهي محاولة غزو اسبانيا ، التي لم تكن مشتركة في الحرب اطلاقا .. أو غزو جنوب فرنسا (فيشي) .. ولما بدا ان ستالين ظل على احتقاره لهذه العمليات الجانبية ، أضاف ايطاليا الى قائمة العمل .. وكل هذه الوعود ، كانت كلها مترتبة على هزيمة روميل وانتزاع شمال افريقية من قبضته .. انها كلها عمليات في البحر المتوسط ، أي في اطراف العمليات الحربية الكبرى الدائرة في روسيا بمنتهى الوحشية والقسوة . وكل ما أمله منها تشرشل هو أن تسحب اسراب من سلاح الطيران الالماني .. ومتى .. في غضون عام ١٩٤٣ .

وكان واضحا أن تشرشل يحاول أن يبقي الروس في ميدان الحرب أطول مدة ممكنة حتى يستنزفوا آخر قطرة من دماء المانيا العسكرية ، حتى اذا جاءت جولتهم كان الجهاز الحربي الالماني قد تصدع . أما لو حدث ما كان يخشاه الحلفاء ، وهو محاولة عقد صلح منفرد بين الالمان والروس فعندها تكون الطامة الكبرى على الحلفاء ..

ان ستالين كان يدافع عن بلاده .. وتشرشل كان ينظر اليه كمخلب قط . وكان « الطعم » الوحيد الذي حاول تشرشل ان يجذب به ستالين الى صفه ، هو تقديمه مشروعا عاما بأن ينشأ سلاح طيران قوي انجليزي أميركي لمساعدة الروس في ميدانهم الجنوبي ..

وقد استرعى هذا الاقتراح انتباه ستالين ، ورحب به ..

وهو اقتراح لم ينفذ بحال من الاحوال ، لان هتلر بعد اشهر قليلة كان يرتد عن ستالينجراد ولم تعد هناك حاجة لهذه المعونة ..

عاد تشرشل الى القاهرة في ١٧ اغسطس سنة ١٩٤٢ ، وفي هذه المرة قرر مع أركان حربه ان يدمر القاهرة ، وجميع المواصلات المؤدية اليها ،

وان يغرق الدلتا حتى يحول دون تقدم روميل الى قناة السويس •

وزار تشرشل الجبهة مرة ثانية ، وبناء على معلومات المخابرات وجد أن في وسع روميل أن يبدأ هجومه في أواخر هذا الشهر عندما يكون القمر بدرا ، والا فان الانتظار الى القمر التالي سوف يعطي الانجليز فرصةالهجوم بدلا من الدفاع ••

وخطرت لتشرشل فكرة اخرى وهي عمل خط ارتداد ثان عند العلمين لقواته فيما لو اخترق روميل خط العلمين أو طوقه ومضى ، وأمر فرقة الاحتياطي الـ ٥١ ، من قوات الهايلاندز ، بأن تحتل هذا الخط •

وفي ٢٣ اغسطس غادر تشرشل القاهرة ، عائدا الى لندن بعد أن تأكد من الجنرال ولسن ان القاهرة والطرق المؤدية لها سوف تنسف تنفيذا للخطط ، وكان مقر ولسن في الهرم وراء فندق ميناهاوس • وقد جعل هذه القيادة التدميرية مستقلة عن قيادة الجيش الثامن •• جعلها تحت امرة الجنرال الكسندر قائد الشرق الادنى مباشرة !!

وفي عودة تشرشل مر فوق اسبانيا •• التي كان يحلم بغزوها ،مساعدة لستالينجراد أو موسكو !!

وقبل أن يغادر تشرشل القاهرة كتب للجنرال الكسندر رسالة بخط يده على ورق السفارة البريطانية يطلب منه فيها ــ وقد تكاملت لديه قوة هائلة ــ ان يفرغ من أمر قوات المحور في شمال افريقية في أقرب وقت ممكن •

وقدم تقرير الى الملك فاروق عن مقابلة النحاس باشا رئيس الوزراء لتشرشل ، وما دار في المقابلة ، ونص التقرير كما يلي :

« بين المستر تشرشل ورفعة النحاس باشا »

يقال ان المستر تشرشل تقابل مع رفعة النحاس باشا وتباحثا سويا في النقط الآتية: تباحثا حول خطة الحكومة المصرية اذا حصل غزو حقيقي ودخل الالمان مصر وهل تقطع مصر العلاقات مع انجلترا فقال النحاس باشا انه لن يتعامل مع الالمان وانه لا يقطع العلاقات مع انجلترا لان مصر دولة محايدة • فقال المستر تشرشل • مادمتم لا تريدون الحرب ولا الدفاع عن بلادكم فلماذا تقومون بالاستيلاء على الكباري والمنشآت مادمتم لن تحاربوا والجيش المصري يتراجع من النقط التي يمكن أن يصيبها حرب

فقال النحاس باشا اننا سندافع عن الكباري والمنشآت لان الحياد لا يمنعنا من ذلك • وتطرق الحديث الى مسألة انتقال الحكومة الى جهة اخرى فرفض النحاس باشا ثم قال هذه مسألة متروكة للظروف ولرأي جلالة الملك والامة •

وتباحثا في مسألة البترول فقال النحاس باشا انه لا يوافق أبدا علـــى تدمير المنشآت الخاصة بالبترول لان ذلك معناه تخريب للبلد واضرار بالزراعة والصناعة • وتباحثا في مسألة النقد والذهب المصري ولم يتفقا على شيء في ذلك • وتباحثا في مسائل حربية وسياسية تتعلق برعايا امريكا وجيوشهـــا ورعايا الصين واعطاء الجيش الامريكي المزايا التي يتمتع بها الجيش البريطاني الخاصة باجراءات الجمارك والمحاكمة • وتناول الحديث مسائل استـــيراد المواد والضروريات الزراعية والصناعية والطبية فأظهر المستر تشرشل حسن نوايا انجلترا في هذه المسائل واعتذر بصعوبة النقل وطلب رفعة النحـــاس باشا اشتراك انجلترا وأمريكا في شراء محصول القطن أو نصفه فقال المستر تشرشل اننا مستعدون لشراء جميع القطن الطويل التيلة اما القصير فلا لزوم له عندنا لان المخزون في انجلترا والهند يزيد عن احتياجنا •

(١٩٤٢/٧/٦) احمد كامل

الحالة في الجيش :

ذكرنا من قبل أن الضباط الشبان في الجيش كانوا أشد ما يكونـــون يقظة وحمية • وأنهم رفضوا ان يسلموا اسلحتهم للانجليز وعصوا الاوامر الصادرة لهم ، وذلك عند نزولهم من مرسى مطروح ، ثم تأهبوا لمناجزة الانجليز ومنعهم من تنفيذ خطة تشرشل بنسف المرافق العامة ، التي كلف بها الجنرال ولسن ، وقد أدت بهم يقظتهم الى قتل ياور السفير البريطاني عندما كـــان مارا تحت احد الكباري ، خشية أن تكون ساعة النسف قد حانت •

كان ذلك عام ١٩٤٢ ••

فلما انتهت أزمة العلمين ، اجتهدت المخابرات المصريـــة ، والمخابرات البريطانية في تمزيق تكتل الضباط الشبان ، فاعتقلت بعضهم ، وشتت البعض الآخـــر •

وفي نفس الوقت حاولت الوزارة عن طريق وزير الدفاع ، أن توجـــد

لها جبهة موالية في داخل الجيش ، تقاوم جبهة اخرى كانت تعـادي وزارة « الدبابات » .

وكان نادي الجيش وانتخابات النادي تعكس صورة من هذه الحال.

وربما كانت هذه هي المرة الاولى التي حاول فاروق فيها أن يتقـرب من الضباط الشبان ، وأن يستعين بنادي ضباط الجيش ليوجه له جبهـة يقاوم بها حكم النحاس ..

كان يذهب الى النادي كثيرا ..

وكان يتقرب من الضباط الشبان ..

وأعد في ناديهم دفترا ليكتبوا له آخر الفكاهات التي تتردد بينهـم . ومنها فكاهات قد يكون هو موضوعها .. ولم يكن يرفض مثل هذه المداعبات تنفيذا لخطة موضوعة .

فلما تمكن فيما بعد من اقالة وزارة النحاس كف فجأة عن التردد على النادي ، بل وضعه تحت مراقبة شديدة ..

حياة المعتقلات :

ولكنني أود أن أختم هنا هذه المذكرات بأن حياتنا في المعتقلات لم تكن كلها ضيقا ومللا ، الا بعد أن تحولت الى انتقام من السلطة الحاكمة المصرية..

لقد كانت في أوائلها جهادا ، ونحن نعتقد أن الانجليز راغبون فـي اعتقالنا .. كنا نظن أننا نمثل روح المقاومة في هذه البلاد لحكمهم وعسفهم واستبدادهم .. ولكن بعد أن انتهت شهوة الانجليز من حبس حرياتنا وبعد أن انتصروا في الميدان الافريقي ، ثم في الميدان الاوربي ، لم يكن هنـاك معنى عندهم لاستمرار اعتقالنا .. ولهذا تركوا للحكومة المصرية التصرف في هذا الامر ..

والحكومة التي ختمت الحرب في أيامها ، لم تكن ترى هذا الرأي ..

كانت تحسب أن تعيين وزير (مثل امين عثمان) في الوزارة ، ينـادي بالزواج الكاثوليكي بين مصر وانجلترا خير ضمان لبقائها للحكم ، فلمـاذا لا تتقرب لهم باستمرار اعتقالنا ..

وهذا ما حدث فعلا ..

فلما اهتزت المقاعد تحت الوزارة النحاسية ، لخلافها مع القصر، وجدت

أن خير ما تعمله نكاية في الانجليز الذين فرطوا فيها ، هو أن تطلق سراحنا ..

ولقد تعددت حوادث الهرب من المعتقلات .. حاولها عزيز المصري وأنور السادات وأحمد حسين وحسن عزت وغيرهم ، ونجح بعضهم وأخفق البعض الآخر ..

ولكن ما قيمة الهرب من وجه الحكومة المصرية وقوات البوليس كلها تطارد الهارب ..

ان حياة التخفي هي أسوأ من حياة الاعتقال .

وينبغي هنا ان نشيد بوطنية عدد من رجال البوليس الذين وكل اليهم حراستنا اثناء هذه الاعتقالات . فقد كان بعضهم مثالا للوفاء لضمائرهم ولواجبهم .. كانوا يعلمون اننا فدية لمعنى عام . ولهذا خففوا عنا بعض متاعب الاعتقال في شتى صور التخفيف وفي نفس الوقت لم يخلوا بواجبهم الذي كان يقضي بأن نظل وراء الاسوار حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا .

ويكفي لكي أدلل على حسن الصلة وقوة العاطفة التي كانت تجمعنا مع فريق من هؤلاء الضباط ، اني عندما خرجت من المعتقل في نهاية الحرب عاونني قومندان المعتقل في ايجاد مسكن بعمارة يملكها والده ، وكان أندر شيء في القاهرة وقتها أن تجد مسكنا خاليا ..

واذا كانت جذوة الوطنية في فترة الحرب قد صادفتها نكسة الحرب، ونتائجها ، الا أنها مالبثت أن تأججت مرة أخرى ، وعلى أسس وقواعد جديدة تلائم العالم الذي ولدته معارك أربع سنين شملت معظم الدول .

ويكفي أن نذكر أن شباب ماقبل الحرب ، ودروس هذه الحرب وعبرها ، ولدت فكرة العمل الجماعي في داخل الجيش وبين الوطنيين من أبنائه ..

وفي صبر ما بعده صبر ، وترقب ما بعده ترقب ، وتنظيم لا يشبهه تنظيم ، أمكن جماعة الضباط الاحرار أن تقوم بثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ فكانت ختاما لآلام طويلة ، ودواء لجراح وندوب في النفوس تختلف عمقا..

وحسبنا انا كشفنا من خلال الاوراق والوثائق والحوادث عن بعض ما كان خافيا من أسرار تلك الايام .

الليل الطويل

ألا أيّها الليّل الطّويل ألا انجلي
بصُبْح ، ومَا الإصبَاح مِنكَ بأمثَل

محاكمات ... ومحاكمات

كانت أول محاكمة « مصرية » لعزيز المصري ، في أواخر عـام ١٩٤١، هي المحاكمة الثانية • فقد سبقتها محاكمة « تركية » أخـرى في استنبول تحدثنا عنها قبل • وكان سجن الاجانب هو المكان الذي حبس فيه عـزيز المصري على أثر حادث الطيارة ، ومحاولة الخروج من مصر • وقـد أزيل سجن الاجانب بعد ذلك ، وكان مقره قرب محطة القاهرة ، وكان يمثـل هذا السجن لسنوات طويلـة ، الفرق الهائل بين معاملة الاجانب السجناء ، ومعاملة المصريين •• كانت حجراته ـ ولا تسمى زنازين ـ مزودة بأسرة مريحة ، وأغطية نظيفة تتبدل باستمرار كما يحدث في الفنادق • والطعـام على النظام الاوروبي ، يقدم في آنية وأطباق نظيفة • وكما خبر هذا السجن مؤلف هذا الكتاب وعزيز المصري ـ موضوع هذا الكتاب ـ فقد نـزل فيه أيضا خلال فترة الحرب العالمية الثانية ، بعض الاسماء المعروفة ، امثال علي باشا ماهر ، والمثال عبد القادر رزق ، والاستاذ احمد حسين وكثير من شباب مصر الفتاة •••

في ٩ اكتوبر من العام المذكور بدأت أول محاكمة « مصرية » لعزيز المصري ، وكان المجلس العسكري الذي ألف لمحاكمته يرأسه لواء مـن الجيش ورتبته أقل من رتبة المتهم ، فهو فريق • وتقضي اللوائح بان يكون رئيس المحكمة أعلى رتبة •• قال عزيز المصري :

ـ « لا اعتراض لي على أحد من أعضاء هذا المجلس وما يهمني هو أن تكون المحاكمة في أيدي هيئة مصرية وطنية صادقة موثوق في عدالتها • سليمة في عقيدتها ، مؤمنة بالله ، سواء كانت مسلمة أو نصرانية • وتعرفون أنه يشترط في تأليف هذا المجلس أن يكون اعضاؤه اكبر رتبة مني • وانا شخصيا متنازل عن هذه النقطة • وأقبل حتى ان يحاكمني صف ضابط • فلا اعتراض لي على ذلك ، اذا كانت الهيئة مصرية وطنية صميمة » •

ونرى في هذا الموقف كيف ان عزيز المصري كان شديد الاعتزاز بالوطنية المصرية ، وانه دأب على استثاره كوامن العزة فيها ، حتى في المواقف الحرجة مثل هذه المحاكمة . وقد طلب اثناءها من المحامين الذين حضروا المحاكمة الا يتعبوا أنفسهم قائلا : « وطدت العزم على أن ادافع عن نفسي ، وأنا رجل درست القانون ، ودرست النظم العسكرية ،واستطيع أن أقول كل شيء ... »

وحتى نقيس بعدا جديدا من الابعاد النفسية لهذا الرجل الفذ ، فانا نقف مفكرين عند جملة ألقى بها في بدء هذه المحاكمة .. قال :

« اين هي الامة المصرية .. هل هؤلاء كل البلد ؟.. هل إنا متهم بسرقة بسكلت او طيارة كما يقولون ؟ انا اريد ان يمنح الدفاع نصف تذاكر الدعوة للجلسة الاتية على الاقل حتى يحضر الشعب الى هنا . ويعرف الناس هل انا رجل طيب أو شرير . ثم ارجو ان يمنح جزء من التذاكر لطلبة كلية الحقوق وطلبة كليتي البوليس والحربية .. ففي هذه القضية دروس قانونية مفيدة للكثيرين ..

ان عزيز المصري ، كان معلما ممتازا ، وكان يشع على من حوله المعرفة ، وحب الوطن ، ووفرة الاطلاع . وهذه اخص صفات الزعامة .

اسمع اليه يتحدث الى الطبيب الذي حاول الكشف عليه ليقرر انه صالح للمحاكمة صحيا قال :

« انا صالح للمحاكمة ، وقادر عليها . والمهم سلامة الرأس والفكر . فان المفكرين وكبار الكتاب والعلماء ، كانوا في القرون الوسطى ، وفيما مضى من الزمان ، يؤلف بعضهم كتبه ، أويضع نظرياته أو يدون رسائله ، وهو مصلوب على الجدران ، أو معلق في الاشجار ... »

واذا كان الرأي العام المصري ، قد تمكن من تحطيم سجن الاتراك ، وانقاذ عزيز المصري من الاعدام في تركيا . فانه ايضا تمكن من حركة مصممة ، وعازمة على انقاذ عزيز المصري من المحاكمة العسكرية التي كان يقف الانجليز وراءها . فقد دلتهم مخابراتهم على ان الاستمرار في هذه المهزلة ، لن ينتج الا شرا . فاذا كانت الرقابة العسكرية تمنع الصحافة من التوسع في النشر ، أو تمنع النشر نهائيا ، فان ستة محامين ، وعشرات من

الضباط والجنود كانوا يذيعون من انباء المحاكمة ، ما يملأ المجالس والندوات أحاديث ، ويحرك كوامن الغضب على الانجليز وأعوانهم ..

ودرءا لهذا الشر الذي لا تحمد عواقبه ، أوقفت المحاكمة فجأة .. فقد أثار المحامون عدم دستورية قانون الاحكام العسكرية الذي يحاكمون به عزيز المصري ، وكان الانجليز قد وضعوه بعد احتلالهم مصر بعامين (عام ١٨٨٤) ولم يعرض بعد ذلك على أي برلمان ليأخذ صفته الرسمية .

وعندما تولى النحاس باشا الحكم في فبراير سنة ١٩٤٢ ، قرر الافراج عن عزيز المصري ، وزميليه الضابطين عبد المنعم عبد الرؤوف وحسين ذو الفقار صبري . وقد استشاط الانجليز غضبا لافلات عزيز المصري من معتقله . وكانت أزمتهم الحربية على أشدها في العلمين . وباشروا على الحكومة المصرية ضغطا هائلا فأعيد اعتقال عزيز باشا في ١٣ اغسطس سنة ١٩٤٢ ، وذلك على أثر حادث العوامة الذي بسطناه في الفصول السابقة .

وطالت مدة اعتقاله هذه المرة فبلغت عامين وثلاثة أشهر . ولما تولى الحكم الدكتور احمد ماهر باشا صمم على الافراج عنه . وتم ذلك في ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٤٤ . وقد اشترط الانجليز ان تفرض عليه اقامة اجبارية في بيته بعين شمس وقد سره ان عاد الى حديقته التي هجرها هذه الشهور الطويلة (سبعة أفدنة ونصف فدان) ، وادخل على حديقته هواية تربية النحل ، وكان يقضي وقتا طويلا في مراقبة خلاياه ..

وأخذت السجون والمعتقلات تعيد الى الحرية الوطنيين الذين غيبتهم فيها سنوات . وكانت نهاية الحرب هي نهاية هذه الفترة المؤلمة الشاقة ..

من سنة ١٩١٩ الى سنة ١٩٤٥ :

فاجأت نهاية الحرب العالمية الاولى المصريين ، دون أن يكون هناك تنظيم وطني ، يتأهب لمناجزة الانجليز ، واستخلاص استقلال البلاد منهم . ولكن الشعب بجميع طبقاته كان يغلي بانتظار الشرارة تفجر كوامن غضبه . وكانت هذه الشرارة هي « سعد زغلول » الذي انعقدت له زعامة مصر على أثر اعتقال الانجليز له . وكانت ثورة مصر عام ١٩١٩ ثورة تلقائية لم يدبر لها تنظيم محكم . وان كانت لجان الوفد التي تألفت بعد ذلك بقيادة عبد الرحمن فهمي أدت دورا هاما في المواجهة السياسية للانجليز ، وفي

التدبيرات الثورية الارهابية للانجليز وبعض أعوانهم من المصريين • وقد أفادت هذه الثورة وقتها ، في انهاء الحماية ، على مصر ، واعلان استقلال مقيد لمصر ، وصدور الدستور وتولى أول وزارة وطنية برياسة سعد زغلول الحكم عام ١٩٢٤ • وسارت الحركة الوطنية من هذه الانطلاقة في خط متعثر ،لاصطدامها المستمر بسلطة القصر ،وبسطوةالقوات البريطانية المحتلة ، وبصراع الاحزاب الداخلي على الحكم •

وفي الثلاثينيات بدأت تحركات شبابية ثورية ، تحاول تعديل مسار الحركة الوطنية ، وكان أظهر العناصر حركة مصر الفتاة وحركة الاخوان المسلمين • وبضغط من الشباب ، ومن عناصر كثيرة في الرأي العام وفي داخل الاحزاب نفسها عقدت معاهدة تحالف مع الانجليز ١٩٣٦ حلت محل تصريح فبراير سنة ١٩٢٢ — وأدت هذه المعاهدة الى نتيجة طيبة بالغاء الامتيازات الاجنبية والبدء في تصفية المحاكم المختلطة • ولكن ضمير الامة كان يرفض أي قيد يربطه بالانجليز ، حتى لقد بذلت محاولة للاعتداء على حياة النحاس باشا ، تعبيراً عن الاحتجاج على بقاء أي قيد يربط مصر بانجلترا •

فلما جاءت الحرب العالمية الثانية ، كان الوعي الوطني متوثبا متنمرا ، ولم يجد الانجليز وسيلة لجر مصر الى دخول الحرب معهم ، وابتكرت صيغة تجنيب مصر ويلات الحرب • وكان الانجليز بين أمرين : فاما ان يكرهوا مصر على دخول الحرب ، وهو ماكان يسعى اليه سفيرهم اللورد كيلرن ، وكان هذا ممكنا مع مخاطره • أو أن يتسيطروا على امكانيات هذه البلاد دون اشراكها في الحرب ، وكان تشرشل من هذا الرأي ، فقد قدر أن مصر المحاربة معهم ، تعني تسليحها وتدريب قواتها ، وفي هذا ما فيه من الخطر على علاقتهم المقبلة بمصر ، فقد كانت سياستهم دائما ، بعد تصفية جيش عرابي ، الا يكون لمصر جيش قوي ، والا يكون لها سلاح ناجز ••

وكانت بذور التمرد ، والثورة المسلحة في الجيش على سلطة الانجليز ، قد أخذت تسري في كثير من الوحدات • وقد أشرنا الى ملامحها فيما مضى من احداث • ولا جدال في أن عزيز المصري كان صانع هذه الافكار ،

وصاحب وحيها .. ولا جدال أيضا في ان تلاميذه بين افراد القوات المسلحة ، كانوا أصلب العناصر وأقواها وطنية .

وثمت عناصر وطنية اخرى خارج القوات المسلحة كانت تعيش بالافكار الثورية ، وتعيش لها ، وكانت تتمثل في سياسة « الرفض » التام لكل ماهو انجليزي ، أو متصل بالانجليز ...

الرصاص يدوى

وبلبلة الافكار في هذه الفترة القلقة الحرجة أمر طبيعي ...

فمن عين شمس ــ مقر عزيز المصري ــ كانت تنطلق الافكار الوطنية وتدعو الى الحركة والعمل .

ومن داخل الاحزاب جميعا ، كانت تتحرك عوامل الحركة في بطء وترهل حينا ، كما كان الحال في الاحزاب التقليدية ، وفي عصبية وعنف حينا ، كما كان الحال في الاحزاب الشابة ..

وفجأة بدأ صوت الرصاص يدوي .. ففي فبراير سنة ١٩٤٥ ، كان رئيس الوزراء الدكتور احمد ماهر باشا يسير في ردهات البرلمان ليطلب من أعضائه الموافقة على اعلان مصر الحرب على المحور . وكانت الحرب قد انتهت فعلا بهزيمة المانيا . ولكن كان هذا الاعلان شرطا لانضمام مصر الى الامم المتحدة ، وسقط صريعا واحد من رجالات مصر العظماء ،وطنية ، وشجاعة ، وحسن ادراك .. وكان الشاب الذي أقدم على اغتياله من شباب الحزب الوطني الجديد . الا ان هذا الحزب لم يكن في برامجه ، ولا خططه مثل هذه الاعمال العنيفة ... وقد ادت الدراسة المدققة لظروف هذا الحادث على أن القاتل انما تأثر باتجاهات الاخوان المسلمين في ذلك الوقت، وكانت اجهزتهم السرية تتأهب لمثل هذه التصفيات .

وكان من أول الذين قبض عليهم على أثر هذا الحادث عزيز باشا المصري ، ومؤلف هذا الكتاب رغم علاقة الود التي كانت تربطه بالفقيد ، فقد عمل معه في جريدة كوكب الشرق اوائل الثلاثينيات . وقبض على كثير من رؤساء وأعضاء مصر الفتاة والحزب الوطني الجديد وغيرهم ..

وبعد التحقيق والتدقيق ، ظهر انه لم يكن لقاتل الدكتور ماهر شركاء ولم يظهر له محرضون . فافرج تباعا عن المعتقلين .

ورصاصة اخرى

وقبل مضي عام على هذا الحادث الفاجع ـ ٥ يناير سنة ١٩٤٦ ـ دوت رصاصة اخرى في مدخل احد المباني بشارع عدلي بالقاهرة ، ويسقط صريعا امين عثمان باشا الوزير السابق ، الذي كان رئيس لجماعة اسمها رابطة النهضة تسعى الى زواج « كاثوليكي » بين مصر وانجلترا ، أي زواج لا تنفصم عراه ابدا .. هكذا بكل قحة وجرأة ..

وعلى الرغم من ان اسلوب العنف بهذه الصورة بعيد عن الطبيعة المصرية الا ان عناصر كثيرة من الرأي العام المصري وجدت في هذا الحادث تعبيرا عن سخطها على كل من يتحدى إرادتها في طلب الاستقلال وتحطيم تبعية مصر للانجليز في أي صورة من الصور .

ومرة ثالثة قبض على عزيز المصري باشا ، للبحث عن صلة ما قد تكون بينه وبين الذين اغتالوا امين عثمان . وتصادف ان مؤلف هذا الكتاب ، كان وقتها في الخرطوم ، في رحلة صحفية ، فلم تشمله قائمة البوليس السياسي لمعتقلي هذا الحادث ، وهي قائمة ثابتة ، وضعوا على رأسها عزيز المصري ، يخرجونها كلما وقع حادث ما من حوادث العنف .

وكان عزيز المصري في الخامسة والستين من عمره عندما القي عليه القبض هذه المرة . وأخذ النائب يستجوبه .. وورد في محضر الاستجواب:

س ـ هل تنتمي الى حزب أو جماعة سياسية ؟

ج ـ لا

س ـ هل تتصل باحد المشتغلين بالمسائل السياسية ؟

ج ـ الهيئة الراقية الحكومية في مصر مشتغلة بالمسائل السياسية ومعارفي منهم .

س ـ الا يكون من رأيك تحبيذ استعمال وسائل العنف من الداخل للوصول الى تحقيق فكرتك في الاستقلال الداخلي للبلاد ؟

ج ـ كنت حبذتها وأنا شاب في الثورة القومية العثمانية حين كنت ضابطا في الجيش العثماني ، وكانت الثورة نتيجة عمل هذا الجيش . ومع ذلك فلم يعرف عني في ذلك الوقت اني سمحت لاحد اخواني أن يقتل أي رجل حتى من الذين كنا نعتبرهم

أعداء للوطن ، ومنهم قائد الحامية التي كنت فيها ، وكانت حجتي ان هذا الرجل قليل الادراك ، ولكن له ولد نابغة كان يدرس وقتها في استانبول وقلت ان الولد هو المستقبل • وقتل والده يضر بالمستقبل ••

س ـ وهل هذه آراؤك الحالية ؟

جـ ـ والى أن أموت

س ـ وهل هناك ممن تتصل بهم من يعتنقون هذه المبادىء ؟

جـ ـ لم أجد بعد في مصر فردا واحدا مؤمنا ايمانا حقا راسخا في أي مبدأ من المبادىء العامة ، بل وجدت في بعض الاوساط نبلا في الاخلاق وميلا الى الرقي وحبا شديدا للوطن وكراهية للاحتلال وآمالا عالية للاستقلال • ولكن لم أجد برنامجا عمليا أو شبه برنامج للوصول ، أو لرسم طريق تصل به البلاد الى تلك الاهداف •

س ـ ورد في التحقيق ان بعض الذين يريدون تحقيق اغراض سياسيه معينة اتجهوا الى الاتصال بك لمساعدتهم على تنفيذ أغراضهم •

جـ ـ انا معنديش حزب اساعد بيه احد ومفيش عندي غير إرشادات •• والزيارات متوالية عندي من يوم خروجي من الاعتقال ، ومنهم شيب ومنهم شبان وأكثرهم لا أعرفهم •• وانا دائما كنت ابدأ حديثي معهم بأن نصفهم من القلم السياسي ونصفهم ثوريون •• فكيف تنتظرون أن اعطي مثل هذه الطوائف اسرارا أو آراء شاذة مثل قتل أحمد ماهر أو اتجاهات عنيفة أيا كانت ، بل بالعكس حصل كثيرا ان اعطيت جماعات توسمت فيهم الذكاء والفطنة كتبا لتلخيصها بعد فهمها وابداء آرائهم فيها ، وهي من كتب التاريخ والادب •

س ـ هل من تذكر حضورهم لك اكانوا يحضرون بصفتهم افرادا أو اعضاء لجماعات ؟

جـ ـ لا دول ناس ميعرفوش بعض ••

س ـ هل لم تكن تتحرى ان تكون من بين هؤلاء أو غيرهم جماعة أو جماعات لتنفيذ اغراض معينة ؟

جـ ـ لا .

وتوالى الرصاص

وفي هذه المرحلة نجد الاجهزة السرية للاخوان المسلمين تنشط ، وتسفر عن وجهها قليلا . فقد كانت هناك قضية تنظر امام محكمة الجنايات عن ضبط اسلحة وذخائر لدى فريق من هذه الجماعة . وحتى يأخذ القضاء حذره ، فلا يصدر أحكاما رادعة على من يقبض عليه منهم ، دبر في حلوان حادث اغتيال رئيس هذه المحكمة المرحوم الخازندار ، وكان من أفاضل قضاة مصر .

وروعت مصر من هذا الحادث ترويعا شديدا . فقد كان القضاء حصنها وملجأها . وكان سند الحركة الوطنية في أحلك الساعات .. ويذكر كاتب هذه السطور بفخر واعزاز انه قدم في الثلاثينيات اربع عشرة مرة لمحكمة الجنايات بتهمة التحريض على كراهية دولة صديقة !! (انجلترا) . وفي جميع هذه القضايا برأه القضاء ، وصنع هذا مع عشرات من الكتاب الذين شرعوا اقلامهم لاستثارة الهمم ضد الاستعمار .

وعندما ينطلق الارهاب من عقاله ، فلا حد لما يمكن ان يحدث .وكان الملك السابق فاروق من اكثر الناس خوفا على حياته من ان تطالها اجهزة الاخوان ..

وفي سنة ١٩٤٨ كان محمود فهمي النقراشي باشا رئيسا للوزراء وتحت ضغط الرأي العام ، وعدم تحرك العلاقة بين الانجليز ومصر بعد الحرب عما كانت عليه قبلها ، واخفاق كل مفاوضة جرت معهم حتى مشروع معاهدة صدقي ـ بيفن على عيوبه ، وقد تم سنة ١٩٤٦ ، مزقه الانجليز قبل ان يجف مداده .

.. نقول تحت ضغط الرأي العام ، قرر عرض جلاء الانجليز عن مصر على مجلس الامن ، وسافر بنفسه الى هناك على رأس وفد ،واسمع الانجليز مالم يكن يخطر على بالهم ، تعبيرا عن سخط مصر على بقاء جنودهم

فيها •• وكانت عبارته : « أيها القراصنة اخرجوا من بلادنا » ترى في كل مكان ويتحرك بها كل لسان •

وفي عودته ، وقع حادث اسمي حادث السيارة الجيب • فقد ضبطت سيارة جيب محملة بالاسلحة مع أوراق كثيرة عن تنظيمات الاجهزة السرية• ولم يجد النقراشي بدا من اصدار قرار بحل جماعة الاخوان المسلمين •

وكان صدور هذا القرار في ٨ ديسمبر سنة ١٩٤٨ •

وبعد عشرين يوما بالضبط تم تدبير حادث اغتيال النقراشي باشا في فناء وزارة الداخلية قام به طالب طب ارتدى زي ضابط بوليس •

ومرة اخرى قبض على عزيز المصري باشا ليحقق معه أيضا في هذا الحادث وطبعا لم تثبت له صلة به •••

وردا على هذا الحادث الفاجع ، دوت رصاصات أمام جمعية الشبان المسلمين •• لقد اغتيل الشيخ حسن البنا رئيس الاخوان المسلمين • وظل الناس جميعا يظنون ان جماعة من الهيئة السعدية ، ، هي التي دبرت اغتيال المرشد العام للاخوان ، انتقاما لرئيسها القتيل • ولكن ظهر بعد ذلك بأعوام ان الملك السابق فاروق هو الذي كان وراء الحادث ، وان تنفيذه تم باشراف مدير جرجا ومدير الامن العام في ذلك الوقت •

حرب فلسطين سنة ١٩٤٨

وبينما كانت هذه الدماء تراق ، ويسقط رجال كبار من المصريين صرعى ، الرصاص ، كانت المؤامرة الاستعمارية الكبرى تدبر ، لاغتيال فلسطين ، وزرع الدولة الصهيونية فيها •

واتجهت انظار كثير من المناضلين العرب الى عزيز المصري ، ليكون قائد المقاومة • وجاء الى مصر للقائه المناضل الفلسطيني فوزي القاوقجي (انظر صورة الرجلين) وتنظيم عمل جماعي • وسئل عزيز المصري عن الوسائل التي يجب التذرع بها في هذا الظرف العصيب فقال :

« ان واجبات الامة العربية نحو فلسطين ومصر وكافة الشرق واحدة ••• وللقيام بهذه الواجبات يلزم انتقاء الاشخاص الاكفاء الذين عرفوا بماضيهم الناصع النزيه ••• وهؤلاء هم الذين يناط بهم وضع القواعد لبناء شرق عظيم •• فاذا وفقنا لجمع هؤلاء الاشخاص الاكفاء المعدودين

من الرجال القدامى المجربين مع نخبة تختار من شباب الامة المناضلين جمعنا بين الماضي والمستقبل وتكونت هيئة من هؤلاء تضع البرامج وترسم الخطط ..

هذا هو رأيي .. وبدون الاخذ به لن يتغير الحال .. »

وبدأ عمل جاد لتنظيم عمليات عسكرية في فلسطين ضد جيش الهاجناه اليهودي ، واستجاب عدد من الضباط البواسل في الجيش المصري لنداء الواجب ، وعلى رأسهم تلميذ عزيز المصري الشهيد (فيما بعد) احمد عبد العزيز ، وكمال الدين حسين . ونظمت الهيئات كتائب السفر الى الميدان الفلسطيني ، وعلى رأسها كتائب مصر الفتاة ، والاخوان المسلمين .

وفي ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ ، وهو يوم انتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين ، اعلن بن جوريون قيام دولة اسرائيل ، وكانت اول دولة اعترفت بها هي الولايات المتحدة ، وثاني دولة هي الاتحاد السوفياتي ..

وصدر أمر من الملك السابق فاروق ، بان تتحرك القوة المصرية ، المعسكرة في العريش برياسة اللواء المواوي ، لتأديب «العصابات الصهيونية» وطردها من فلسطين .. وقد أدى بحثنا المدقق عن السبب في تحريك هذه القوة النظامية ، فوجدنا ان اتصالا قام به الامير عبد الاله العراقي ، عن طريق كريم ثابت مستشار القصر الصحفي ، « لكي تدخل قوة عسكرية مصرية الى فلسطين ، حتى يحصل فاروق على جزء من فلسطين !! » ، يوسع بها ملكه .

وبديهي أنه ماكان يمكن لعبدالاله ان يقوم بهذا المسعى ، والانجليز لا يعلمون به . وقد اتضحت خطة الانجليز بعد ذلك .. فقد كانوا يعسكرون في قناة السويس ، وكانوا يعلمون ان بوادر شر بالنسبة لهم تتحرك في أوساط الجيش المصري ، وكانوا يعلمون مدى تسليح اليهود وقوتهم الحقيقية في فلسطين ، فهم الذين مكنوهم منها منذ سنة ١٩١٧ وطوال ثلاثين سنة متعاقبة . فاذا ضرب الجيش المصري في فلسطين فلن يتحرك ضدهم في مصر الا بعد فترة طويلة من الزمن .. كما أن في وسع الانجليز ، باقامتهم في القناة أن يحدوا من تدفق أي قوات مصرية تكون خطرا حقيقيا على يهود فلسطين .

كانت هذه هي المؤامرة الانجليزية .. يساعد على تنفيذها ان القيادة

للجيش الاردني كانت في يد ضابط انجليزي هو « جلوب » •
ولكن حدث ان القوات المصرية رغم اسلحتها الفاسدة ، كادت تصل الى تل ابيب لولا قرارات مجلس الامن التي كانت توقف القتال مرة بعد مرة • وأدى انسحاب القوات الاردنية من اللد والرملة الى كشف جناح القوة المصرية في هذا الخط ، مما مكن اليهود من شل حركتها ، وحصارها في الفالوجة •••
وكان عزيز المصري يرى في نكبة فلسطين ، وفي الفساد الداخلي ، ثمرة مرة للاحتلال الانجليزي لمصر • وانه لا سبيل لاي نجاح أو تقدم الا ، بتركيز كل الجهود لطرد الاستعمار من منطقة القنال • وانه مهما بلغت الجهود في مجلس الامن من قوة اداء ، فلا مناص من الكفاح المسلح لمواجهة الاستعمار باسلحته • ولا فائدة من ان يقتل المصريون بعضهم بعضا •• وان الرصاصة التي يملكها مصري ، يجب ان يوجهها لهؤلاء المحتلين على ضفاف القنال •
سألت احدى الصحف عزيز المصري السؤال التالي
س ــ هل انت راض عما قدمته لبلادك من خدمات وطنية • فأجاب :
« لقد كانت حياتي كلها وقفا على خدمة بلادي منذ ايام الصبا المبكرة بل ان ذهابي الى تركيا كان لفكرة خدمة الجامعة الشرقية ثم تطورت بعد أن رأيت ما رأيت وعانيت ما عانيت الى خدمة الجامعة العربية التي يسعدني أنه كان لي جهد متواضع في اخراجها الى الوجود فقد ألفت « جمعية العهد » التي ضمت كل زعماء العرب في الوقت الحاضر وفي كل عمل قمت به قصدت به وجه الله وانهاض العالم العربي والاسلامي فمن ذلك نصيبي المتواضع في ابرام المعاهدة في تركيا واليمن والتي وضعت حدا لسلسلة متصلة الحلقات من الحروب والمذابح الدامية بين شعبين اسلاميين •
وفي طرابلس كان هدفي وجهادي يرمي الى انقاذ هذا الشعب العربي وصيانة استقلاله •• ففي كل مكان حللت فيه عملت جاهدا على اقالة العرب والمسلمين في غمرتهم وانهاضهم من كبوتهم ••
وعندما عدت الى مصر قمت بواجبي قدر الاستطاعة في الحدود الضيقة التي ترك لي فيها حرية العمل وأظن اني لست مسئولا امام الشعب المصري

اذا أبقيت أكثر مما انتجت بكثير إذ كان المانع دائما هو هـذا الظـرف البائس الذي تعيش فيه البلاد وهو محاربة الاستعمار ورجال الاستعمار من المصريين لكل عمل اعتقد انه كان ينفع هذه البلاد جداً • واني اتحدى اي حكومة ان تتركني أقول امام اية محكمة عادلة عمّا عملته من اعمـال ايجابية نافعة لبلادي • وما نلته من تقدير وجزاء من الحكومة ليس سوى الجزاء السلبي ولم أنل أيّ جزاء ايجابي من هذه الحكومة •

س ــ لو سلمت سعادتكم مقاليد الحكم في مصر فماذا أنت صانع ؟

جـ ــ لا يمكنني ولا يتيسر لاي شخص مهما علت رسالته ان يعمـل شيئا نافعا للبلاد في ظل الاحتلال الانجليزي في بضع سنين الى درجة تحسدها عليها امم راقية في أوربا • وأما ما هي الطريقة وما هو البرنامج فهذا موكول الى الظروف » •

الحركة الوطنية المصرية تجدد شبابها :

تولد من هزيمة القومية العربية في فلسطين، وقيام دولة البغي والعدوان ــ اسرائيل ــ نوع من المرارة اللاذعة ، ملأت قلوب العرب، وقلوب المصريين جميعا • وكانت الكثرة الصامتة في مصر ترقب الاحداث ، وتكوّن لها يقينا مجددا ، وليس جديدا ، وهو ان الاستعمار البريطـاني ، هو سبب كـل هزيمة ، وانه لم يعد هناك « شماعه » نعلق عليه اخطاءنا ، كما كان البعض يقولون لصرف النظر عن وجوده •• لقد كان هو الخطأ ، وهو الخطيئة •

ان انقضاء خمس سنوات على نهاية الحرب العالمية الثانية ، والتلويح بمفاوضات الجلاء ، ثم سحب الارض من تحت اقدام المفاوضين ، والخديعة الكبرى في حرب فلسطين ، كل ذلك عبأ الشعور القومي في موجة صاعدة من الغضب • وما بدأت انتخابات برلمانية جديدة ، حتى حصل حزب الوفد على اغلبية ساحقة • وكان العهد بين حكم الوفد برياسة النحاس باشـا ، وجموع الشعب ، ان يركز العمل الوطني كله ضد الاحتلال البريطاني••• وفي محاولة من رئيس الحكومة وحركة التفاف حول الملك السابق فاروق، أمكن الحصول على موافقته لالغاء معاهدة التحالف مع بريطانيا ، التـي عقدت عام ١٩٣٦ • وبهذا يصبح الوجود البريطاني في منطقة القنـال غير شرعي ••

وقد دققنا في محاولة العثور على السر في موافقة فاروق على الغاء المعاهدة وتوقيع قانونها ، حتى عثرنا عليه عند رئيس ديوان الملك في ذلك الوقت • وملخص هذه القصة ، ان الشوارع وقتها كانت تموج بالمظاهرة الصاخبة العنيفة ضد الملك ، تدعوه الى مغادرة البلاد ، والذهاب الى حيث جاء جده الكبير محمد علي • وكانت حكومة النحاس تغمض عينيها عن هذه المظاهرات ، لاضعاف مركز الملك والملكية بصفة عامة • فلما ظهرت فكرة الغاء المعاهدة رحب بها الملك ، عسى ان تنصرف المظاهرات عن تناوله ، وتناول أفراد اسرته ، وموظفي ديوانه ، الى التعرض للانجليز • والانجليز قادرون على احتمال السباب ، باعصاب باردة •• يضاف الى ذلك انه كان للانجليز عميلان في القصر هما كريم ثابت ــ المستشار الصحفي ــ والياس اندراوس ــ المستشار الاقتصادي ــ وقد عجزا تماما عن معرفة ماكان يدبر سرا بين الملك والوفد وكان الوسيط هو حسن يوسف رئيس الديوان الملكي بالنيابة •

وفي هذه الفترة ، كانت حركة مصر الفتاة ، قد عدلت من اتجاهها ، وتبنّت دعوة اشتراكية حادة عنيفة • وصدرت مجلة تحمل هذا الاسم • وكانت تصب جام غضبها على الملك ، وتهافت الشعب على شرائها • ولم يكن النحاس باشا يقرأ الصحف فلما دعاه الملك وعرض عليه اعداد المجلة ، أخذ يقرأها في دهشة • وقال للملك انه سيخرج من عنده ويتخذ إجراء حاسما في التو واللحظة •

وحسب فاروق ان رئيس الحكومة سوف يفتح أبواب السجون ، ويزج فيها بهؤلاء الاشتراكيين ، ويعقد المحاكم العاجلة التي تصفي هذا العدوان على « السدة الملكية » وتسحقه سحقا •• ابتسم فاروق ابتسامة الاطمئنان وقال للنحاس باشا :

ــ حتعمل ايه لاحمد حسين وجماعته ؟ فرد النحاس على الفور :

ــ سأبلغ النيابة ! فصاح فاروق في دهشة :

ــ تبلغ النيابة •• امال السجون فين ؟ فأجاب النحاس :

ــ يا مولاي •• لا استطيع ان ارسل أحدا للسجن ، ولا بد من أمر النيابة والقضاء • ان مأمور أي سجن يرفض اطاعة امري ، حتى لو كان

الامر كتابيا •• وراح فاروق يتمشى في قاعة عرشه وهو يردد :
ــ النيابة •• النيابة قال !

لم يهدأ التيار المعادي للملك والملكية وان كان الانجليز قد اصيبوا بخيبة أمل بالغة ، لان جواسيسهم لم يخبروهم مقدما بحركة الغاءالمعاهدة• كما ان فاروق انتهى في نظرهم كواجهة امامية لاخفاء وجودهم وسلطانهم • بل راح رسلهم يطوفون بالاحزاب ، يجسون نبضها عما يمكن انيحدث ، فيما اذا خلع فاروق ، كما حدث لعباس الثاني عند قيام الحرب العالمية الاولى ••

مصر أو الباكستان

في هذه الفترة ــ اكتوبر ١٩٥١ ــ كانت دولة الباكستان الجديدة، دائمة الاتصال بعزيز المصري ، ليسافر الى كراتشي ، ويتولى تكوينجيشها الجديد بوصفه اكبر رجل عسكري مسلم في الشرق ••

وقبل عزيز المصري العرض ، وحزم حقائبه استعدادا للسفر • ولكن الغاء المعاهدة ، جعل مصر تغلي كالاتون المتقد ، وبدأت تتألف كتائب المجاهدين لتدمير الوجود البريطاني في منطقة القنال • وعندما دعي العمال المصريون للانسحاب من قواعد الانجليز هناك ، غادروها على الرغم من الاجور المغرية التي كانوا يتقاضونها • ورفض المتعهدون المصريون فيمدن القنال امداد الانجليز بحاجاتهم على الرغم من الارباح الطائلة التي كانوا يجنونها • وبدت القاعدة بمنشآتها الهائلة ، وكأنها مدن اشباح ، على الرغم من ثمانين ألف جندي بريطاني كانوا يقيمون فيها •• تراكمتالنفايات والاقذار في كل مكان ، وكان الفدائيون المصريون يتسربون الى مكان وينسفون ويدمرون ، والقناصة يغتالون • وحاول الانجليز ان يحضروا عمالا من قبرص ومالطة وغيرها ، ولكن هذا التدبير فشل تماما ••

وفي وسط هذه الحركة النبيلة ، ماكان يمكن لوطني عظيم ان يغادر بلاده ، مهما كان الاغراء الخارجي للباكستان ، وهي دولة عزيزة علينا ، أو لغيرها •• وتجمع حول عزيز المصري آلاف من الشباب ، وابنائه الضباط ، وراح يبث فيهم الحمية ، ويتولى تعبئة قواهم ، وتوجيههم •• وأحس عزيز أن شبابه عاد ،وأمل حياته يوشك ان يتحقق ، وراح مع

الموثوق بهـم من ابنائـه الضباط ، وأركان الحركـة الوطنيـة يرسم الخطط •• والحقائب التي كان أعدها للرحلة الى الشرق الاقصى فتحت ، وأخذ كل شيء مكانه •

واذا ذكرنا ما اضاءه على حركة الكفاح المتجهة الى القنال ، دور عزيز المصري ، مع الاشتراكيين (مصر الفتاة) والاخوان ، وشباب الوفـد ، وجماعات الضباط الاحرار في الجيش المصري ، وضباط وجنود البوليس المصري ، فمن الانصاف ان نذكر بالفضل العظيم دور فؤاد باشا سراج الدين ، وعبد الفتاح باشا حسن ••

أما أولهما فكان وزيرا للداخلية ، وكان يذهب في أعماق الليل الـى مخازن البوليس ويملأ السيارات من بنادقها وذخيرتها وقنابلها ويسلمهـا لمن يثق فيهم من المناضلين ــ وبعضهم مـن الاشتراكيين الذين كـانوا يخاصمونه سياسيا ــ كما كان يمدهم بالمال من جيبه الخاص ، وهو مـن الاثرياء ، وألوف الجنيهات من اجل هذا العمل الوطني لم تكن عنده شيئا مذكورا •

أما عبد الفتاح حسن فكان وزيرا للشئون الاجتماعية ، وكان هو الرجل المسئول عن تدبير أعمال لعشرات الالوف من العمال الذين غادروا منطقـة القنال ، وكانت بطاقة عملهم في القواعد البريطانية هي جواز مرورهم الى الشركات التي كلفها باستيعابهم • وعندما قيل له ان تجارة جديدة نشـأت وهي تزييف بطاقات العمل لدى الانجليز ، لم يعبأ بهذا الرأي ، فقد كـان يفضل ان يتسرب الف عاطل الى الاعمال الجديدة على ان يحرم عاملا واحدا من الذين غادروا العمل لدى لانجليز • والجميع على كل حال من ابنـاء مصر ، والعمل حق لهم جميعا !•

التفكير والتدبير

وذهل الانجليز لعنف الحركات التي عبر بها المصريون عن كراهيتهم لهم • وبدأ تفكيرهم في الوسيلة التي يحولون بها هذا التيار عنهم •

والانجليز تقليديون • يراجعون تاريخهم جيدا ، ويستفيدون منـه فائدة كبيرة وكان التدبير الذي نجح معهم ، وأدى الى احتلال مصر عـام

١٨٨٢ هو حريق في الاسكندرية ، تمتد آثاره ، ويحدث اخلالا كبيرا بالامن ، تتدخل على أثره قواتهم !

وكانت للانجليز بقايا عملاء تخلفوا من الحرب العالمية الثانية ، ومنها جماعة كان اسمها « اخوان الحرية » . وقد هرع أركان هذه الجماعة من الخارج والداخل . ووكل اليهم انتظار مناسبة واشعال حريق كبير في القاهرة ، يشغل المصريين عنهم ويمكنهم من اسقاط حكومة النحاس .

وجاءت المناسبة عندما هاجم الانجليز في ٢٥ يناير مركز البوليس في الاسماعيلية لاحتلاله وتسلم سلاح جنوده ، فقد رفض قائد المركزالتعليمات وأمره وزير الداخلية ــ سراج الدين ــ من القاهرة بالمقاومة . وطبعاحدثت مذبحة كان رد فعلها عنيفا جدا في القاهرة . فقد انضم البوليس لجموع الشعب والشباب في مظاهرات عاتية .. وسط هذا الجو الرهيب ، اندس « عملاء الحرية » لا اخوانها ، واشعلوا الشرارات الاولى ، التي توالت بعدها حرائق تلقائية كثيرة . واعتداءات على الانجليز في ناديهم وعلى بنوكهم ، وعلى أماكن اخرى كثيرة .. وكانت جريدة الاشتراكية قد نشرت قوائم بأماكن دعت الى مقاطعتها تعزيزا لحركة المقاومة ، فكانت هذه القوائم دليلا للمظاهرات .

وانسحب اخوان الحرية في هدوء ، وسافر في الليل رئيسهم الانجليزي ، مغادرا القاهرة الى القاعدة المصرية ، بعد أن تم تنفيذ المؤامرة .. وقد رفض الملك فاروق ان يستجيب لطلب وزير الداخلية بان ينزل الجيش المصري الي الشوارع في وقت مبكر ، لانه كان يقيم وليمة غداء لجميع ضباط الجيش احتفالا بولي عهده (مثل هذه الولائم تكون على العشاء !!)

ومن وسط الحرائق التي شوهت وجه العاصمة الجميلة ، وبعد أن خبت نارها ، وتبقى رمادها ، أخذت تبين الخطة .. فقد صدر قرار باقالة حكومة النحاس ، التي تبنت هذه الحركة الوطنية العظيمة ، وتولى الحكم علي باشا ماهر الذي فرض عليه وزير داخلية هو مرتضى المراغي من رجال القصر والانجليز المعروفين ...

وكان أول قرار اصدره المراغي هو القبض على جميع الفدائيين الذين يعملون في منطقة القنال . وتصفية قياداتهم ، ومصادرة سلاحهم ..

وسوف يسأل التاريخ لامد طويل : من الذي حرق القاهرة في ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ •• والجواب :

ــ الذين حرقوا القاهرة هم الذين استفادوا من هذه الجريمة •• انهم الانجليــز ••

وانتهز فاروق هذه الفرصة ليتخلص من أقوى اعدائه في هذا الوقت وهو احمد حسين وحزبه الاشتراكي ، فقبض عليه ووجهت اليه تهمةالحريق مع أعوانه ، ولفقت لهم التهم • وحتى علي ماهر رئيس الوزراء ، كــان بشترك في هذه المؤامرة الخسيسة • فعلى الرغم من انه كان دائم الاتصال التلفوني بأحمد حسين في ذلك اليوم ، الا أنه راح أثناء الادلاء بشهادتــه يراوغ ، ويلقي الريب ، زلفى للانجليز ، وللقصر ، وكان هذا شأنه دائما••

قيام الثورة

وحسب فاروق وأعوانه في القصر ، حماقــة منهم وقصــر نظر ، ان الجو راق من حولهم وان الثورة خمدت ، والسلطة البوليسية عادت تحكم قبضتها على البلاد •• فراح يولي الوزارات ، ويسقطها ، وأخذت اثمــان المناصب الوزارية تعرض صفقات لمن يدفــع اكثر ، وفاحت رائحة هــذا الفساد كما لم يحدث في يوم من الايام ••

وكانت حركة الضباط الاحرار بزعامة جمال عبدالناصر ، قد نمــا ساعدها وتكامل تشكيلها • وراحت توجه لضباط الجيش منشورات وطنية وتدعوهم الى ان يكونوا مع الشعب ، وضد اعدائه •

وفي انتقال الحكومة مع الملك الى الاسكندرية ، قرر هذا التشيكل أن يتحرك في القاهرة ، ويستولي على مرافقها ، وقد خدم الحظ الحركة ، فوقعت قيادات الجيش في يد الثوار بأسهل اسلوب • وبالاستيلاء على شبكة تلفونات القيادة ، أمكن السيطرة على وحدات الجيش في القاهرة ، ثــم الاسكندرية •• وكان ذلك في منتصف ليل ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ وفجــر اليوم التالي •

ولم يكن هناك مناص ، وقد انتقلت القوة المسلحة الى جانب الشعب، ان يسقط فاروق وحكمه • وحاول ان يستعــين بالانجليز ، ثم يستعــين بالامريكان • ولكن الانجليز كانوا قد قرروا الانتهاء من فاروق منذ وقع

على الغاء المعاهدة دون علمهم . واما الامريكان فكل الذي عملوه انهم تدخلوا لدى الثوار لضمان حياته (ومنهم عناصر كانت تريد اعدامه) . وفي ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٢ . غادر آخر ملوك مصر الاسكندرية على السفينة المحروسة التي نقلت قبل ٨٤ سنة جده اسماعيل الى نفس المنفى .

وقامت الثورة :

وقامت الثورة ، لتحقق أملا عاش من أجله عزيز المصري طوال حياته .. الامل الذي جذبه الى مصر ، وقد رفض من أجله عرشا في اليمن ، وأمنية عرش في العراق دعاه له أعز أصدقائه هناك ، وأخيرا انشاء وقيادة جيش الباكستان أكبر الدول الاسلامية .. أمله ، كان قيام حكم وطني خالص في مصر ، يركز جهوده كلها لاجلاء الانجليز ، ثم ينطلق في عملية تعمير داخلي ضخمة ، تشيع الرخاء في البلاد ، مع تمكين المواطنين من المشاركة في الحكم على أسس ديمقراطية سليمة ، حتى يحس كل فرد بمعنى المواطنة ، والاعتزاز بمصريته ، ثم بعروبته ..

هذه هي الامال التي تجسمت فجأة في خاطر عزيز المصري ،والاذاعة تردد بيان الثورة الاول الذي اذاعة انور السادات ، والذي ميزه من صوته ، وهو أقرب تلاميذه له ..

ومضت الايام ، لتخوض ثورة الضباط الاحرار معاركها الداخلية ضد الاحزاب ، ثم ضد الاخوان ، ثم تتأهب في نفس الوقت للمهمة الكبرى ، وهي مواجهة الانجليز لاجلائهم ، ومن ورائهم عبر الحدود الاسرائيليون يتربصون بها ، ويحشدون السلاح ، ويتجاوزون خطوط الهدنة الى ما وراءها ، ويعتدون على حدودنا ، ويقتلون جنودنا ، ويوفدون عملاءهم لبث القنابل والمفرقعات في مراكز التمثيل السياسي الاجنبي ، حتى يشيع في العالم ان الحكم الثوري الجديد ،غير قادر على صيانة الامن .

وقد رأت حكومة الثورة ، ان تستفيد من طاقة عزيز المصري باشا ، فعرضت عليه ان يمثل مصر الثورة ، في بلد جديد ، علاقاتنا به يشوبها غموض شديد تخلف عن العهد الملكي ، ونعني به الاتحاد السوفياتي .. والساسة هناك في موسكو ، لا بد لديهم ملف كامل عن عزيزالمصري .

فهو ليس من الشخصيات التي اظهرتها حادثة من الحوادث ، ولكنه تاريخ كامل لتطور المنطقة العربية من التبعية العثمانية الى عصر الكفاح الجاد ضد الاستعمار .

وقد وجد عزيز المصري عند وصوله الى موسكو تقديرا لشخصيته، ربما شابه شيء من الحذر ، لما يعرفونه من علاقاته العميقة الوثيقة بالالمان . وهي علاقات غير مذهبية ، ولكنها تنتمي الى الثقافة أولا ، ثم تنتمي الى العسكرية البروسية الاصيلة ، وليست عسكرية « الجاويش » هتلر ، كما كان دائما يسميه ..

الا أن حيوية عزيز المصري ، وقوة شخصيته أذابت هذا الجليد ، وغيره ، وبدأ التفهم السوفياتي لثورة مصر ، وطموحها والافاق الواسعة التي تحقق احلامها ..

ولكن الظروف الصحية ، وربما الحياة المذهبية للسوفيات ، لم تكن تريحه ، وان كان قد تفهم برحابة فكر وسعةصدر الكفاحالهائل الذيكافحه الشعب الروسي ، لصد الغارة المدمرة الحمقاء التي شنها « الجاويش » هتلر على هذه البلاد الهائلة ... ان اجتثاث ١٦٠٠ مدينة روسية أزيلت منفوق ظهر الارض ، هو عمل رهيب ، والعمل على تعميرها هو عمل أكثر رهبة..

راقب عزيز المصري هذا الكفاح عن كثب ، وذهنه وخواطره كلها ، موجهة الى مصر ، يتابع ما يحدث فيها ، ويتمنى أن يكون له دوره ، الذي فاته في العهد الملكي ، وفي عهد الاحزاب ... ولعل شيئا طاف بذهنه ، وهو يرى الحزبية تنتهي من مصر ... تذكر أن عناصر معينة فيبريطانيا ، تعرف بها أثناء مصاحبته لولي العهد فاروق كرائد له في انجلترا ، وهذه العناصر كانت تعرف له دقائق تاريخه ، أكثر مما يعرفه المصريون . هذه العناصر ، طلبت من السفير البريطاني ــ ما يلز لامبسون ــ ان ينضم عزيز باشا الى وفد المفاوضة في معاهدة سنة ١٩٣٦ . فما كان من هذا السفير المتعجرف ، الا ان أوعز الى رؤساء الاحزاب المصرية ، أن يرفضوا انضمام عزيز المصري لهم .. انه كان بالنسبة للاحزاب شخصا خطرا . فهو مجاهد قديم أصيل ، نصيبه منالقدراتالزعامية أو فى نصيب . وانكان له اصدقاء في كل حزب ، الا أنها صداقة لا ترقى الى مستوى العمل الجاد معه ..

لقد انتهى هذا كله . ووجد عزيز المصري أن واجبه يقضي بأن يكون في مصر ، لا يحاصره جليد روسيا ، ولا ينبض قلبه بعنف كلما تلقى على البعد ، دفعة من ابنائها ..

عاد عزيز المصري من المهمة الدبلوماسية . عاد الى القاهرة الحبيبة ، والى التلاميذ والاصدقاء والاحباء ..

الحيـاة الهادئة :

اذا استثنينا الزيارات التي لا تنقطع لعزيز المصري من أصدقائه المصريين والاجانب ، فانه كان يعيش عيشة هادئة في حدود المعاش الذي قررته له وزارة اسماعيل صدقي من عشرين سنة وهو ٧٩ جنيها في الشهر .. ووجد ان حديقة عين شمس لا تغل له دخلا مناسبا فباعها لتكون مع مسكنه هناك مدرسة واشترى بثمنها اسهما في شركة الغزل والنسيج بالمحلة ، ولكن جزءا من هذه الاسهم أمم في عام ١٩٦١ .. وكان عزيز المصري يسأل في دهشة : لمن يكون الاستثناء ، اذا لم يكن لي ؟

وعندما رفع معاش الفريق المتقاعد الى ٢٠٠ جنيه في الشهر ، لم يفكر أحد في تطبيقه على عزيز المصري ، على الرغم من ان تقدمه في السن كان يحتاج الى كثير من الدواء ، وكثير من العناية الطبية ..

سافر مرة الى الاقصر اتجاعا لشمس الصعيد في الشتاء . ونزل في فندق ونتر بالاس . وجاء جماعة من السائحين من بلاد شتى يتحدثون معه ، وقد حسبوه أجنبيا مثلهم .. روى تلميذه المقدم عبدالله صادق ، وكان هناك اثناء هذه الرحلة ، أنه اخذ يتحدث مع كل سائح بلغته ، فاذا هو يحدث الايطالي كأنه من ابناء ايطاليا ، والفرنسي بلغة فرنسية رائعة ، والانجليزي وكأنه لا يعرف الا الانجليزية ، والاسباني والالماني وهكذا .. وكانت عذوبة الحديث وطرافته وتنوعه ، داعية الى ان تحيط به حلقات السياحة في دهشة ، وكأنه معبد الكرنك .. وكل ذلك في عذوبة منطق ، وسماحة نفس ، واعتزاز بمصريته . وعندما ذكر اسمه لهم ، كان بعض المثقفين منهم يعرفونه من قراءاتهم ، فازدادوا بصحبته فخرا ، وقال بعضهم: لو لم نلق في مصر الا المارشال عزيز لكفانا هذا .

وعندما حدثت وقائع العدوان الثلاثي ، في أواخر عام ١٩٥٦ ، هرع

اليه بعض تلاميذه من كبار المسئولين يستشيرونـه في الموقف العسكري ، فأشار بسحب القوات التي كانت تعبر القنال وقتها انطلاقا الى الجبهـة ، وأشار بسحب القوات الموجودة في سينا ، مع حرب مؤخرة تعيق تقـدم اليهود حتى تصل الوحدات من سينا سليمة ، وبهذا يتوحد خط القتال ، ولا يصطاد الانجليز والفرنسيون الجيش المصري في كماشة هم طرفها الغربي واليهود طرفها الشرقي •• وهو ما اسمى وقتها بتوحيد الجبهة •• وقـد اخذت القيادة بهذه المشورة السليمة • ونجت قواتنا من الفخ الذي كان يدبر لها ••• وأمكن مع سلامة القـوات ، ايقاف الزحف الانجليـزي الفرنسي من بورسعيد الى الاسماعيلية والسويس • وهي الخطة التي كان مقدرا لانجازها ٤٨ ساعة ، واخفق العدوان الثلاثي ، كما نعلم جميعا •

اقتربت النهاية :

وأخيرا اقتربت النهاية ثم حلت ساعة الرحيل •

ففي يوم ١٥ يونيـو سنة ١٩٦٥ ، آن للروح الثـائـرة أن تكف عن ثورتها ، وتبدأ رحلتها الى الرفيق الاعلى •

وعلى الرغم من أنّ عزيز المصري ترك بصماته في قلوب وعقول آلاف من الكبار والصغار ، لم نجد جريدة أو مجلة في مصر ، أدت له حقه بعـد وفاته ، اللهم الا تلميذه الوفي الاستاذ احمد حسين ، فقد رثاه رثاء لانجد أصدق منه ، بل لا نجد غيره للتعريف بالرجل البطل ••

كتب احمد حسين : (١)

« البقاء لله » •

زيـارة اسبوعية :

كنت أتهيأ للعودة الى بيتي الذي كنت متغيبا عنه بعد ظهر الثـلاثاء ١٥ يونيه سنة ١٩٦٥ وذلك استعـدادا للقيام بالواجب الاسبوعي الـذي فرضته على نفسي آنذاك وهو أن أزور عزيز المصري كل أربعاء • وفجأة دق جرس التليفون وأبلغني أخي المقـدم عبدالله صادق وقد أخذ منـه

---

(١) نشر هذا المقال في كتاب انسانيات ــ طبعته دار الارشاد في بيروت

التأثر كل مبلغ ، نبأ وفاة عزيز المصري ، وكان ذلك بعد الساعة الرابعة مساء بقليل . ولم أفاجأ بالنبأ ، ولم أسأله متى ولا كيف ، فقد كنت أعرف اجابة ذلك كله ولقد تلقيت الخبر في هدوء وسكينة باعتباره أمرا محتوما ، بل لقد تلقيته بشعور من الراحة ، فقد كان هذا ما أصبحت أتمناه للرجل العظيم الذي أحببته وعاصرته خمسا وثلاثين سنة ، فما كنت أحب لهذا البطل الذي رأيته في عنفوانه ، أن يعيش عاجزا أو ذليل المرض . ان عزيز المصري الذي عاش بطلا محاربا ، الذي عاش أمة بمفرده ، عزيز المصري مدوخ الطغاة والمستعمرين ، المحارب في الجبال والصحاري والوديان من اجل ما يعتقده حقا يجب ان يذهب عن الدنيا كما عاش دائما رافع الرأس موفور الكرامة ، مسموع الكلمة ، مرهوب الشخصية ، ولذلك فطالما تمنيت له في الاسابيع الاخيرة وأنا أرى ضوء حياته يخبو بالتدريج ، وأنا أرى ماء الحياة يجف من أطرافه ، وأنا أرى الاختلاط يدب الى تفكيره ، ان يضمه الله اليه في رفق ، فلما ان تبينت ان النهاية قد جاءت بهذه السرعة اعتبرت ذلك كرامة تضم الى كرامات الرجل التي امتلأت بها حياته ،وعناية من الله الذي كان يردد في الآونة الاخيرة أنه يعيش في ظله ومعه .

لقد ذهب عزيز المصري ولم تغشه غيبوبة الموت الا أربعا وعشرين ساعة ، أما قبل ذلك فقد ظل كما كان يجب أن يكون ، وكما اتخذ منه شعارا فرضه على مدرسة البوليس عندما كان مديرا لها ، وهو طائر الصقر .. أجل ظل عزيز المصري حتى اخر يوم من حياته صقرا جاثما يرتاد بعينيه الثاقبتين الجو من حوله ، حقا ان الصقر كان مقصوص الجناح ، ولكنه ظل جاثما بكل حيويته وطاقته الكامنة بين فروع الشجر ، يحدّق ببصره الحاد في كل ما يحيط به .. في السماء ، في الارض ، في الله والناس ، حتى اذا حم القضاء وغشيت العينين الغواشي ، فلم تعودا ترتادان وتحدّقان هنا وهناك .. كانت النهاية السريعة ، حتى لا يعيش عزيز المصري في الظلام ، وهو الذي عاش أبدا في النور .. نور الحق ، واليقين ، والجهاد فيسبيل الخير والناس أجمعين .

وعلى ذكر الصقر وعينيه النافذتين ، فما زلت أذكر كيف أهلني عزيز المصري في احدى زياراتي الاخيرة له ، عندما سألته اذا كان يطالع الصحف،

فاذا به يجيبني على الفور : طبعا • فحاولت أن أمتحنه لكي اطمئن حقا لمطالعته الصحف وأفرح لذلك ، فعرضت عليه جريدة الاهرام وطلبت منه مطالعة العناوين الكبيرة ، فاذا به يمسك الجريدة ويقلبها ثم يطالع المنشور فيها تحت عنوان « حظك اليوم » وهو القسم الذي يكتب بأدق حروف في الجريدة ، ولم أستطع بطبيعة الحال أن أتابع هذا الذي قرأ الا بعد أن لبست نظارتي ••• فاذا ما طالعه بعينيه المجردتين كان في منتهى الدقة•• ولك ان تتصور مقدار ذهولي من هذه المفاجأة فرحت أردد •• الله اكبر •• الله أكبر •• سبحان الله •

زيارة أسبوعية

وكان اخر عهدي بعزيز المصري هو يوم الاربعاء السابق على يوم جنازته ، حيث شهدت أخر ومضة من ومضات عزيمته وقوة ارادته ، فقد أبى الا أن ينزل عن الفراش وان يجلس على المقعد تجاهنا ، وأشفق عليه من عواقب ذلك رفيقه الامين اللواء سعيد الالفي الذي كان ينوب عن مصر كلها في الاشراف على حياته في هذه المرحلة ويعترض ، ولكني أقف الى جوار عزيز المصري في أن يحقق ارادته ، ويقاوم المرض والضعف وملازمة الفراش ، بل وأبديت استعدادي اذا رغب في أن آخذ ثأري منه في لعب الطاولة ، فقد كان هزمني في الاسبوع السابق ، ويومىء برأسه موافقا وقد لمعت عيناه بروح النضال •

حتى اذا جلس حيث أراد ، بعيدا عن سرير المرض ، وأحس بنشوة الانتصار راح ينشدنا ما اعتاد ان ينشدنا اياه من معلقة امريء القيس ، كآخر ما بقى في ذاكرته من حصيلة تسعين سنة عاشها نهما الى المعرفة ، دؤوبا على القراءة والمطالعة ، ذواقا لكل فنون الادب والشعر والجمال • ويروح يترنم بالابيات الستة ، ويتمايل طربا مع كل بيت وكل حرف من حروفها ، ولا يفتأ يشرح لنا في كل مرة المعنى المقصود بكل بيت ويشخص معانيه بيديه وذراعه ورأسه ، وتشيع البهجة في نفسه ، بحيث اصبح تكرارها هو مقياس اطمئناني لصحته ومزاجه ، فاذا سكت عنها في مرة من المرات أبادر فأسأله ان يسمعنا اياها ، فيتأجج بالنشاط والحيوية ويروح يردد الابيات الخالدة :

وليل كموج البحر أرخى سدولـه علي بأنواع الهمـوم ليبتلي
فقلت لـه لمـا تمطـى بصلبـه وأردف اعجازا وناء بكلكـل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجـل بصبح وما الا صباح منك بأمثل
فيالك من ليـل كأن نجومـه بأمراس كتان الى صم جندل
وقد اغتدى والطير في وكناتهـا بمنجرد قيد الاوابـد هيكـل
مكر مفر مقبـل مدبر معـا كجلمود صخر حطه السيل من عل

وأحمد الله ان وفق المقدم عبدالله صادق بتسجيل هذه الابيات بصوت عزيز المصري لتحفظ للتاريخ هذه الناحية من حياته واعتدت أن أقول لـه كلما اسمعني هذه الابيات :

ــ بـلا شك

ــ كأن هذه هي ذروة الشعر العربي .

فأتابع سؤاله مكررا ما سبق أن قاله لي من قبل :

فكأن هؤلاء العرب في الجاهلية كانوا ذوي فهم وادراك واحسـاس بالجمـال .

فيبادر قائلا وقد لمعت عيناه :

ــ بلا شك

وأطمئن اذ نتبادل هذا الحديث أن عزيز المصـري لا يزال يستمتـع بالترف الذهني الذي عاش فيه طول حياته ، فقد كان لكثرة ما قرأ وطالع يعيش في ترف ذهني .

الوداع الاخـير :

وكانت هذه الابيات هي آخر ما سمعته منه بعد أن تـرك الفـراش وجاهد ليجلس على المقعد وأحسست أنه قد يكون في حاجة الى الوحـدة فقلت لـه :

ــ سنتركك ياباشا لترتاح .

ــ أجل أنا محتاج بالفعل للراحة ، ولثقتي أنكم أولادي ، فلا حرج عليَّ أن أقول ذلك .

وقبلته وعانقته كما اعتدت أن أفعـل وخرجت وأنا أدعو الله ، ان لا يجعله يذوي اكثر من ذلك .

وجاش في نفسي بعد أن علمت بنبأ الوفاة ، أن لا أذهب الى البيت فلست أعرف لماذا تصورت أنه سيكون مزدحما بالذين سيمضون الى البيت عند سماع النبأ ، ولم يقو عزمي للذهاب الا بمصاحبة أخي ابراهيم شكري، وكان البيت على خلاف ما أتوقع ، يغشاه الهدوء كما هو الشأن في حياة عزيز المصري ، وكان هناك هذا النفر الامين الذي اعتدت أن أراه ، اللواء سعيد الالفي والمقدم عبدالله صادق وكان هناك صديقه الطبيب اللواء أحمد الناقة الذي ذهب لزيارته فقابله الخبر ••• كما كان هناك المهندس كمال منسى وبعض رجال الراحل •

وكان أخشى ما أخشاه أن تكون « ست زينب » مديرة بيته وحارسة حياته في ثلثها الاخير والتي ترهبت في خدمته ، وكرست حياتها لتمريضه ، قد انهارت اعصابها ، وأفلت زمامها ولكني وجدتها جديرة بالموقف العظيم، وجدتها ثابتة الجنان هادئة النفس ، وان مصيبتها بوفاة الرجل عظيمة ، كأعظم ما تكون المصيبة فقد كانت وهي ابنة الشعب البسيطة تعيش في كنفه موضع ثقته واعتزازه ، محاطة بالكرامة والاحترام اللذين يضفيهما عليها خدمتها للرجل العظيم •

وكان آخر حركة للرجل في الدنيا على ما حدثني عبدالله صادق الذي كان شاهدا لها أن عزيز المصري بعد أن تناول آخر عشاء له في هذه الدنيا، وكأنه أحس بأنه مفارقها بعد قليل هم بتقبيل يد زينب كعلامة على شكره لها ، ففزعت واستغفرت الله ، وانهالت تقبل يد الرجل وتقول :

ـ أنت رب نعمتي وصاحب الفضل علي ، في ظلك عرفت الكرامة والاحترام ، وقابلت أعظم الرجال ، مما يجعلني افخر على الكثيرين والكثيرات ، فأنت رب نعمتي وأنا مدينة لك بكل شيء •• مدينة لك بحياتي •

وابتسم الرجل ابتسامة واهنة وأغمض عينيه وبدأ رحلته الاخيرة نحو الابدية •• فراح في غيبوبة نهايته •

فكنت أتصور هذا شأن زينب ، وقد انهد ركنها بوفاة عزيز المصري، أن أراها منهارة ، ولكني وجدتها حيث أحب لها أن تكون ، وجدتها هادئة

صابرة راضية بقضاء الله ، وهكذا تمثلت في هذه المرأة فضائل شعبنا ، واعتبرتها رمزا لهذا الشعب .

ودخلت الى حجرة عزيز المصري أودعه الوداع الاخير ، فكان المنظر المألوف في مثل هذه الحالات جسد مسجى فوق الفراش ومغطى بملاءة بيضاء ورفعت الملاءة عن وجه الرجل ولم تكن براثن الموت قد نالت منه ، ولولا امتقاع خفيف لما كان هناك شيء غير عادي ، ولكني عندما انحنيت على الجبهة الشماء الذي كان آخر عهدي بها حارة متوقدة ، احسست ببرودتها تحت شفتي وأنا أقبلها .

ووجدتني أقول لعزيز المصري . عما قريب سنلحق بك .. أنتم السابقون ونحن اللاحقون .

اسابيع عزيز المصري الاخيرة :

وخرجت من البيت واشتدت بي أعراض برد ألم بظهري فلم أستطع السير في جنازته ، فضلا عن الذهاب معه الى مستقره الاخير ، وهكذا ستظل آخر صورة لعزيز المصري في رأسي هي هذه الصورة التي اعتدتها في هذه الاسابيع الاخيرة ، عندما كان يأبى كلما ذهبت اليه يوم الاربعاء من كل اسبوع ، الا ان يستقبلني في الصالون ، وأن يحمل اليه حملا بعد أن أصبحت ساقاه عاجزتين عن حمله ، ولا يكاد يستوي على مقعده ،ويرتاح من الجهد الذي بذل حتى يقبل ، فأرى أمامي عزيز المصري كما اعتدت ان أراه منذ ثلاثين سنة صاحب الشخصية القوية الغلابة والوجه المشرق بالجلال والبهاء .

ويتحدث عزيز المصري عن ذكرياته ، ذكريات صباه وشبابه ، ولم يكن باستطاعته أن يفعل غير ذلك والحياة توشك أن تنصرم ، ولم تبق له الايام الا الذكريات .

لقد ظل الى بضعة شهور سابقة على وفاته ، يتنزه من حين لاخر في سيارته ، ويتردد على النادي المواجه لبيته (نادي الجزيرة) حيث يذهل من يلتفون حوله ، بما بقي لديه من آثار القوة والحيوية . وفي احدى المرات أذهل رواد نادي الصيد عندما يصيب الهدف وهو جالس بطريقة معجزة بالنسبة لسنه وظروفه .

ولكنني عندما بدأت أزوره ، كان هذا العهد قد انتهى ، وكف عن الخروج والتنزه ، وما أكثر ما حاولنا ان نستحثه على الخروج ،فكان يعد ، حتى اذا جاء أوان التنفيذ زهد ، وهكذا قضى على الاسد أن يمضي الشهور الاخيرة حبيس بيته ، وقضي على الصقر أن تقص أجنحته فلم يبق لديه الا دنيا الذكريات ، ذكريات الصبا والشباب • والعجيب أن ذاكرة عزيز المصري ووعيه كادا أن يفقدا نهائيا في هذه الاسابيع الاخيرة ، فلا يكاد يعرف من قابل بالامس ، وربما نظر الى بعض من يترددون عليه وسأله عن اسمه ، أما عندما يرجع الى الماضي البعيد ، الى ذكريات الصبا والشباب فهنا تنحل العقدة ، وتنشط الذاكرة وتبعث ، وينطلق اللسان كما اعتاد أن ينطلق هنا وتنبسط نفسه ويلوح الانشراح على محياه ، ولذلك فقد كنا نستزيده من هذه الذكريات بالرغم من أننا أصبحنا نحفظها عن ظهر قلب لكثرة ما كررها وسمعناها من قبل ، ولكن حديثه عنها أصبح هو سلوتنا الوحيدة للاطمئنان عليه •

والد عزيز المصري والفلاحين :

ويحدثنا عن أبيه الشركسي الذي مات وهو بعد صغير ، وكيف كان طويلا يصل الى قمة الباب ويشير لنا في كل مرة على الباب ويرنو ببصره الى القمة ، وليس يعجب ان يذكر عن سيرة أبيه الا حادثة واحدة ، عندما زجر ناظر عزبته ، لانه لم يحضر للفلاحين كراسي ليجلسوا عليها ، وعندما تهيب الفلاحون أنفسهم الجلوس على الكراسي في حضرته ، راح يلقي عليهم درسا في الكرامة الانسانية وأنهم وهو سواء بسواء •

ويمضي عزيز في سرد ذكرياته : كان والدي يأخذني معه الى مزرعتنا الصغيرة في دمنهور ، وكان يقول لي تعلم دائما يا عزيز ان تحب الفلاحين وتكرمهم ، انهم سر نعمة هذه البلاد •

عزيز المصري ويحيى حميد الدين :

ولقد طالعنا في كتب التاريخ الحديث ، دور عزيز المصري في اليمن ، وكيف نجح في احلال السلام في اليمن بين الجيوش العثمانية والقبائل اليمنية بعد ان ظلت مشكلة مستعصية على الحل عشرات السنين ، ولكن

هذا التاريخ الطويل الذي طالما سمعناه منه من قبل قد تلخص وتركز في صورة واحدة هي التي بقيت عالقة بذاكرته •• صورته عندما ذهب لاول مرة ليقابل يحيى حميد الدين امام اليمن في ذلك الوقت ، وكان من عادة الضباط الاتراك المتغطرسين اذا ذهبوا لمقابلته ، أن يطأوا بأحذيتهم السجاجيد التي يجلس عليها ، أما عزيز المصري ، فقد خلع حذاءه قبل أن يدخل ويطأ السجاجيد ، فما كان من يحيى حميد الدين الا أن خف لاستقباله ومعانقته هاتفا في أتباعه أن عزيز المصري ابنه •

الوميض المتقطع :

وكان وعي عزيز المصري في هذه الفترة الاخيرة من حياته ، يشبه مصباحا كهربائيا انقطعت الاسلاك الموصلة اليه ، ولكنها ظلت متصلة تومض حينا وتعتم حينا آخر ، فبينا تراه نفاذ الفكر يحيط بالماضي والحاضر ويتحدث عن المستقبل ، ويضحك على النكتة ، ويلعب النرد ، ويتحرى عن بعض الاشخاص ، اذا به فجأة وعلى غير انتظار قد فارقه الوعي،وانقطع عن الحاضر الذي يعيش فيه ، ولا يبقى امامه الا أن يعود الى البحر الذي لا ينفد ، بحر الذكريات فيغترف منه • كيف تشاجر في احدى المرات وهو لا يزال طالبا في كلية الحرب باستنبول ، مع عصمت اينونو رئيس جمهورية تركيا بعد ذلك ، وكيف ضربه لكمة في أنفه فسال منها الدم ، فصاح فيه عزيز بالتركية أن يذهب الى الحنفيات ليغسل وجهه • ويكرر عزيز المصري الالفاظ التركية كما نطق بها منذ ستين سنة ، ويمضي في استعادة صور هذا الموقف بعد ان دخلا الى الفصل ، وعصمت يشير اليه محركا يديه في عتاب •

وحدث أن قلت له عقب موت فاروق :

ــ لقد مات فاروق •

فرد علي قائلا :

ــ ولقد مات حسنين كذلك •

ويحركه حديث الموت فيشير الى صورة رجل بالقرب منه ويقول :

ــ وهذا الرجل أيضا مات •• ولكنه رجل طيب •

ويبهجني ثناؤه على هذا الرجل الطيب ، فقد قدر لي ان أعرفه في

أحلك اللحظات وأن ألمس عميق اخلاصه وشجاعته • والرجل الذي يعنيه عزيز المصري هو أحمد حلمي باشا ، رئيس حكومة فلسطين ، وتجره صورة أحمد حلمي باشا الى بقية الصور التي تحيط به ، فيروح يشرح لنا كل واحدة منها فهذه صورة ابنه عمر وهو يحمل بين يديه حفيد عزيز المصري ، وهذه صورة زوجته ، لقد جاءا الى مصر وزاراه ، وهذه صورتهما الى جواره ، أما هذه فصورة عمر بعد أن ربى شاربه فأصبح كثا غليظا ويضحك عزيز المصري ويقول : انها « المودة » في أمريكا ، ولست أظن أن ابنه قال له ذلك ليفسر هذا الشذوذ ، الذي لا تفسير له عندي الا أن روح الاجداد القوقازيين قد غلبت على عمر عزيز المصري بالرغم من أنه يتعلم في احدى الجامعات الامريكية ، فجعلته ينمي شاربه بهذه الغزارة غير الطبيعية • وتلمع عينا عزيز المصري ، ويحدق طويلا امام احدى الصور ، ويأبى في كل مرة الا ان تحمل اليه ويروح يشرح لنا محتوياتها •

انها صورة جماعية ، حيث يؤلف عزيز المصري واسطة العقد فيها ، وهو في شرخ الشباب ، والنفر الذي يحيط به من الضباط الاتراك ، وقد ارتدوا جميعا ملابس البلغار ليكونوا أقدر على التخفي ، والاقتراب منهم ومحاربتهم (١) •

جدود عزيز المصري الاقدمون :

وتبتعث الصور والذكريات من مراقدها ، وما بين مئات الذكريات المتناثرة ، فقد اختلّت ثلاث صور منها مكان الصدارة فكانت تلح عليه أبدا ، ولا تفتأ تعاوده فيكررها في الجلسة الواحدة أكثر من مرة •

فأما أولى هذه الصور فلم تكن من تجاربه الشخصية ، وانما رويت له ونقلت اليه ، ومن هنا فقد كانت تجيء دائما مهزوزة مختلطة ، وتدور هذه الصورة حول جدوده الاقدمين والعائلة الشركسية التي انحدر منها ، والتي كانت تنتمي الى قبيلة مشهورة في القوقاز تسمى « شاه بلو » أي الله يضيء وقد قاد أحد أجداده (وأحيانا عمه) هذه القبيلة في حرب ناجحة

---

(١) كانت بلغاريا حتى سنة ١٩٠٩ امارة تحت حماية الدولة العثمانية منذ قرون وكانت العصابات البلغارية تقلق الامن احيانا •

ضد القياصرة حتى استطاع أن يهزم جيوشهم وأن يطاردهم حتى لحق بهم في بطرسبرج (لننجراد حاليا) وفي بطرسبرج عقد القيصر الصلح مع هـذا الجد (أو هو العم) وقرر ان يخطب وده فبعث اليه بولي العهد زائـرا ومبرما واياه عقدا من الصداقة فما كان من جدعزيز المصري الا أن أعلـن قبوله لهذه الصداقة شريطة ان ينظف الروس أنفسهم ، فهم لايتطهرون عقب قضائهم الحاجة ، وراح يعلّم ولي العهد قواعد (الاستنجاء) كما يمارسها المسلمون .

وتقف القصة عند هذا القدر ويضحك ونضحك ، باعتبارها نكتـة ! ثم يتحدث عن هجرة هذه القبيلة الى الاناضول وزواج بعض أفرادها من بنات السلطان وتزوج السلطان واحدة منهم .. ولكنها لا تلبث ان تضطرب ويشوبها الغموض لانها كما قلت مما رويت له وليست من تجاربه ، وقد كان مولده في مصر وحبه الشديد لها قد طمس معالم هذا التاريخ في نفسـه ، ولذلك فلم أستطع تتبع هذه القصة بأكثر مما رويت لك .

حبـه العذرى لمترو :

أما القصة الثانية التي سمعتها منه منذ السنوات الاولى لمعرفتي بـه وظلت عالقة بذاكرته حتى اللحظة الاخيرة ، ولخص فيها كل تاريخ مغـامرته في بلاد البلغار ، فهي قصة غرامه العذري بفتاة من بلغاريا باسلة تـدعى مترو ، وكانت الدولة العثمانية قد عهدت اليه بالقضاء على ثورة البلغار في بعض المناطق ، فنجح في مهمته نجاحا منقطع النظير ، وأحبه البلغار وأحبهم، وكان سبيله الى كسب قلوبهم ، هو ما تميّز به عن كل من سبقه من الضباط الاتراك ، حيث عف عن نساء البلغار ، فلم يعتد على أي منهن ، بل لم يمارس الغرام مع أي أمرأة بلغارية من أي نوع كان . وكان اذا ضاق به الامـر (على حد قوله) ذهب الى مدينة سلانيك اليونانية ، ليمارس الغرام بعيدا عن مقر عمله ، فكان لهذه الاستقامة والعفة غير المألوفة ، أثرها في نفـوس البلغاريين ، كما استطاع أن يحصل على احترامهم من خلال جسارته ، فقد كانوا يفاجأون به وهم مدججون بالسلاح يقف بمفرده في وسطهم . حتى لقد بلغ من اعجابهم به الى حد ان عرضوا عليه الزواج بابنة أحد امرائهـم السابقين والمناداة به ملكا علـى البلغار . هذه الحيـاة المثيرة والحافلـة

بالمغامرات والوقائع ، قد تلخصت كلها وتركزت في صورة واحدة ، ظلت تلح عليه ولا يفتأ يكررها ، ويكررها •

فقد اهتاجه الشوق‌ذات يوم لرؤية مترو هذه الفتاة البلغارية التي أسرت لبه بجمالها النادر وشجاعتها غير المعقولة ، واذ كان يعلم انها تسكن في قرية فوق قمة الجبل ، فقد راح يصعد الى هذا الجبل بمفرده حتى‌وصل الى بيت أبيها ، الذي كان يجلس في ذلك الوقت الى جوار النار ، ولم تكد عينا الرجل تقع على عزيز المصري حتى هب مذعورا من جلسته ووقف‌يحملق في هذا القادم ، فما كان من عزيز الا ان أقعد الرجل كما كان الى جوار النار وطلب منه أن يطمئن ولا يخاف شيئا •

فقال له الرجل :

ــ أنا اعرف لماذا جئت ، انك جئت من أجل مترو ، ومترو ليست‌هنا ، لقد ذهبت لتزور صويحباتها ، وبينما كانا يتجاذبان الكلام اذ جاءت‌مترو•

وتنقطع الصورة وتهتز في ختامها ، بل قد تهتز في بدايتها ، ولكن هذا القسم الخاص بنهوض والد مترو وفزعه من عزيز المصري واعادته من‌جديد الى الجلوس الى جوار النار وقوله لعزيز المصري أنه يعرف لماذا جاء •• الخ ماذكرت • هذا القسم يظل عزيز المصري يكرره ويكرره في غيراضطراب وفي دقة عجيبة ، ويضيف عزيز المصري في كثير من الاحيان ، انه لم يمس مترو • وأنها تعلقت به من أجل ذلك ، حتى وصل الامر ببعض مواطنيها الى قتلها •

وتدمع عينا عزيز ويقول :

ــ فليرحمها الله •

وأقول :

ــ آمين

وهكذا يؤكد عزيز المصري قول الشاعر : ما الحب الا للحبيب الاول، فما أكثر ما امتد العمر بعزيز المصري بعد ايام البلغار ، وما أكثر ما عرف من جميلات ، وما عرضت عليه من‌زوجات • ثم اختار حبيبة قلبه الامريكية وتزوجها بالفعل ، ولكنه وهو في أيامه الاخيرة كان يعود دائما بذاكرته الى مترو الى حبه العذري ، الى قولة أبيها : أنا أعرف انك تريد أن ترى

مترو ، لقد ذهبت مترو لصويحباتها •• ثم تجيء مترو وتنقطع الصورة لتبدأ من جـــديد •

ملك العــراق :

وعلى ذكر عرض بعض البلغاريين عليه أن يكون ملكا ، فقد تكـــرر هذا العرض على عزيز المصري أكثر من مرة في أكثر من بلد •

فقد حدث أن استدعاه ياسين الهاشمي بعد أن اصبح رئيسا لوزراء العراق ، وكان يعتبر نفسه تلميذا لعزيز المصري ويحمل له أقصى الحــب والولاء منذ أسس عزيز جمعية العهد والجمعية القحطانية باستنبول التـــي تدعو الى توحيد العرب واعادة مجدهم القديم •

ولبى عزيز المصري دعوة زميله القديم في السلاح وسافر الى بغداد ، ولكنه قبل أن يستقر به المقام طلب من ياسين الهاشمي ان يساعده على زيارة ايران فهو شديد الشوق لزيارة معالمها والوقوف على آثارها ، فما كان من ياسين الهاشمي الا ان صرخ في وجه عزيز قائلا :

ــ ما هذا يارجل !؟ أأشد مليك هنا الى بغداد لاجعل منك ملكا وأنت تفكر في زيارة ايران • وتقف قصة عزيز المصري عند هذا القدر •

رؤية عزيز في شبابه المبكر لسيدنا محمد :

على أن الصورة التي كانت تعلو بقية الصور في ذاكرته ، والتي لم يكن يمل من تكرارها ، بل لا يكاد يفرغ منها حتى يعود لسردها ، هي رؤيتـــه لسيدنا محمد في المنام ، وكان ذلك في شبابه المبكر عقب تخرجـــه من كلية أركان الحرب •

ولقد سمعت منه هذه القصة عند بدء تعارفنا عليه ، ولكنها لم تترك فيّ كبير اثر ، فقد كان يرويها فيما يروي من عديد الحوادث والذكريات•••

أما في هذه الفترة الاخيرة ، فقـــد كان حديثه عن هذه الرؤيا يزلزل نفسه زلزالا في كل مرة يقصها ، وأشهد انه كان يقص الرؤيا كما لو كان شريطا مسجلا ، لاحرف زيادة أو نقص ، حتى الحركات والايماءات التي تصاحب القصة لا تتغير أو تتبدل •

وتبدأ الرؤيا خلال نومه عقب تخرجه من كلية أركان الحرب فـــي

استنبول ، فرأى فيما يرى النائم أنه يقصد محلا مشهورا في صنع الجيلاتي (الداندورما) وهو يقع قرب مسجد أياصوفيا ، وبينما كان يحاول اجتياز الطريق ، اذ شاهد على الرصيف المقابل خمسة نفر يحيط أربعة منهم بخامس يمثل البهاء الانساني والكمال البشري ، وهتف هاتف : محمد واصحابه جاؤا يحيون عزيز المصري •

ويذهل عزيز المصري ويرتج عليه ، فينظر الى السماء مستغيثا بالله ويصرخ قائلا مخاطبا الله :

ــ هذا كثير علي •• كثير علي ، والان قل لي ماذا أفعل •• كيف أتصرف •• أأقبل يديه أم أقبل قدميه •• أم أقبل الارض تحت نعليه •• هذا كثير علي •• كثير علي •

ويهيأ له كما يهيأ للنائم أن الله يضحك منه ، ويقول هذا هو عزيز المجنون وتقف الرؤيا عند هذا الحد ، بينما يمضي عزيز المصري في حديثه عن سيدنا محمد انه أكمل انسان في الوجود وأعظم من عرفت البشرية • انه الجمال والبهاء •

ثم يردد الحديث الشريف : « من رآني في النوم فقد رآني حقا » ،ومن ذلك الى أن يوصينا بالتمسك بحبل الله المتين ، وأنه لن يكون للفرد أو الجماعة نجاح ، الا في الايمان بالله الواحد الاحد ومحمد رسولا ، وبالقرآن نبراسا ومنهاجا •

ويمضي عزيز المصري وقد تهدج صوته قائلا :

ــ يجب ان يتحاب الناس ويتعاونوا ، يجب ان ينزعوا من قلوبهم الغل والحقد والحسد والغيرة والانانية • يجب ان يتحابوا ، يجب ان يتحابوا ولا سبيل الى ذلك الا من خلال الايمان •

هذه كلمات عزيز المصري وتلك وصيته فسلام عليه في الخالدين ، سلام عليه يوم ولد ويوم مات ويوم يبعث حيا •

أما بعــد :

فنحسب ان الله تباركت آياته ، اختار عزيز المصري الى جواره ، قبل حرب يونيو (حزيران) سنة ١٩٦٧ بعامين . والا لكانت الهزيمة قداعتصرته، وأماتته أسيفا كظيما . وهذا من فضل الله عليه ...

واذا كان في أيامه الاخيرة ، قد فارقته ابتسامته العذبة ، وذاكرتــه الحادة ، فان عبء السنين كان فادحا عليه ، الا ان اشراقة نفسه كانت تعاوده كثيرا فيفيض على من حوله على مأثور عادته . واذا كان في ظروف الحياة المصرية ، خلال هذه الفترة الاخيرة ، ما آلمه وشق عليه ، الا انه كان دائما متفائلا ، واثقا أن مصر ، وان الامة العربية سوف تتغلب على عثراتها .

واعتقد ان صدور هذا الكتاب ، وصدور طبعته الاولى في بـيروت بالذات ، يحقق راحة لروح هذا الرجل العظيم ، الذي عمل من أجل القومية العربية . عمل ، وحمل مشعلها عاليا وهاجا قرابة ستين عاما .

وفي الهزيع الاخير من حياة هذا الرجل العظيم ، تنبه الى أنه لا يملــك مدفنا ، يؤوي رفاته بعد وفاته . فخاطب في هذا الشأن احد تلاميذه ،السيد صلاح الدسوقي محافظ القاهرة وقتها ، الذي سارع بتقديم قطعة صغـيرة من الارض (٦٠ مترا) في مقابر الخفير بالقاهرة ، فأقام عزيز المصري عليها مدفنا متواضعا ، وفي جانب منه على يسار الداخل الى الضريح انشأ أيضـا مدفنا لخادمته زينب ..

وكنت أظن ان بعض الحكومات العربية ، التي تعرف لعزيز المصري ، قدره وتستوعب تاريخه وحسن بلائه من اجل قومه ، سوف تطلق اسمــه على بعض المنشآت العامة (كليات حربية .. أو طرق .. الخ) وهذه تحية

تكريم نراها تبذل لاشخاص ، يدهش الانسان اذ يبحث لهم في تاريخ قومهم عن أثر ، أو شبه أثر ، فلا يعثر على شيء .. لا يعثر على شيء اطلاقا .

ولعل هذا التقصير في حق بطولة عربية قامت بيننا ، ولن يطويهـــا النسيان ، كما تمنى البعض ، يزول ، ومن حكام البلدان العربية ، تــلاميذ لعزيز المصري ، من أهم خلائقهم الوفاء .

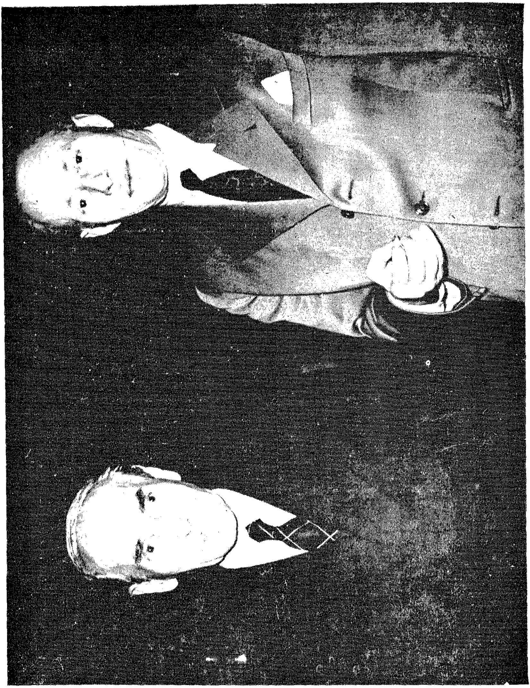
وعسى الله أن يتقبل دعاءنا لعزيز المصري ، ان يبره في آخرته كما كان برا بوطنه الكبير وان يكرم مثواه ، كما يكرم مثوى الشهداء والصديقين .

بيروت ــ والقاهرة في اكتوبر سنة ١٩٧١

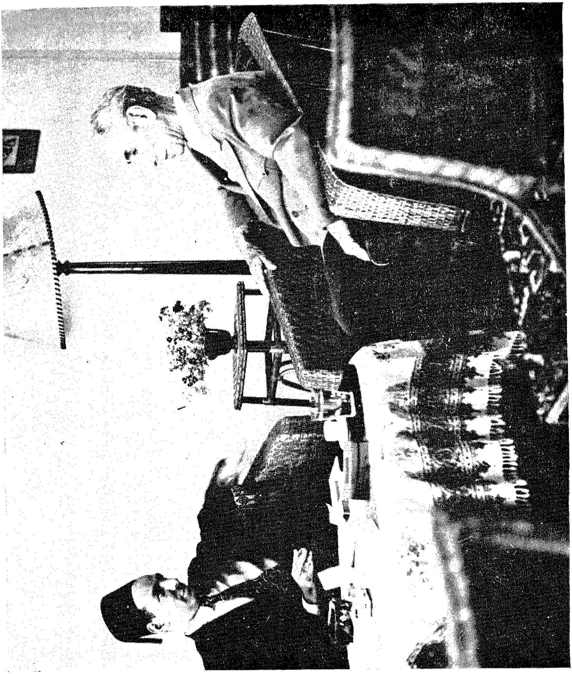
محمد صبيــح



الشهيدة مدام صبيح – الفريق عزيز المصري – محمد صبيح



عزيز المصري مع المناضل فوزي القاوقجي ١٩٤٧

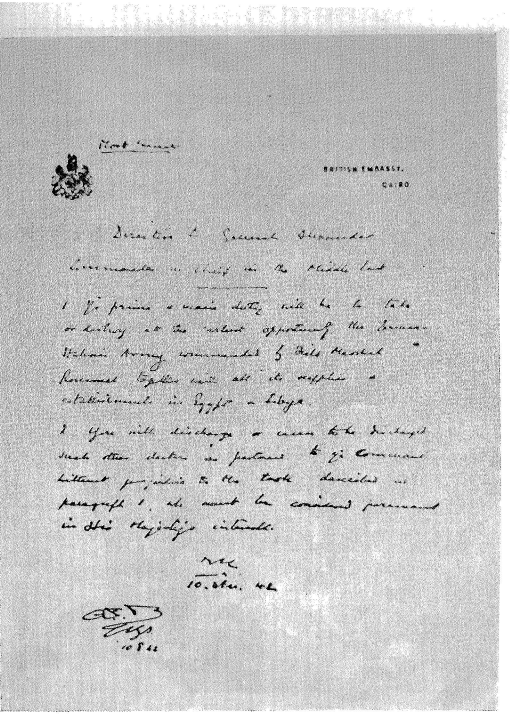


عزيز المصري في صالون منزله بعين شمس (القاهرة)

مع المؤلف الاستاذ محمد صبيح



عزيز المصري في حديقة منزله بعين شمس مع المؤلف محمد صبيح


Most Secret

BRITISH EMBASSY,
CAIRO

Directive to General Alexander
Commander-in-Chief in the Middle East

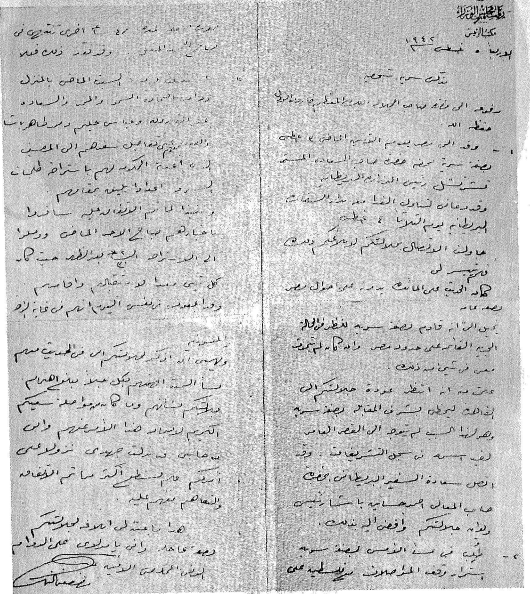
1. Your prime and main duty will be to take or destroy at the earliest opportunity the German-Italian Army commanded by Field Marshal Rommel together with all its supplies and establishments in Egypt and Libya.

2. You will discharge or cause to be discharged such other duties as pertain to your Command without prejudice to the task described in paragraph 1, which must be considered paramount in His Majesty's interests.

WSC
10. Aug. 42

10 8 42

رسالة خطية لتشرشل الى الجنرال الكسندر القائد العام لقوات الحلفاء
قبيل معركة العلمين وتاريخها ١٩٤٢/٨/١٠ وكتب عليها ((سري جدا))



رياسة مجلس الوزراء
مكتب الرئيس
[illegible] ٥ [illegible] ١٩٤٢

تقرير سري شخصي

مرفوع الى مقام صاحب الجلالة الملك المعظم [illegible]
حفظه الله

١ - [illegible] الى مصر [illegible] الماضي [illegible]
بصفة سرية [illegible] حضرة صاحب السعادة المستر
[illegible] رئيس الوزارة البريطانية
وقد دعاني لتناول الغداء معه بدار السفارة
البريطانية يوم الثلاثاء ٤ [illegible]
حاولت الاتصال بجلالتكم لابلاغكم ذلك
فلم يتيسر لي .
[illegible] الحديث على المائدة [illegible] عن احوال مصر
بصفة عامة
[illegible] انه قادم بصفة سرية للنظر في الحالة
[illegible] على حدود مصر وانه كان لم [illegible]
[illegible] شيء من ذلك .
[illegible] انتظر عودة جلالتكم الى
[illegible] بصفة سرية
[illegible] الى القصر العامر
[illegible] التشريفات . وقد
اتصل سعادة السفير البريطاني [illegible]
صاحب المعالي [illegible] باشا رئيس
ديوان جلالتكم وافضى اليه بذلك .

٢ - [illegible] الامس بصفة سرية
[illegible] المذكور [illegible] على

[illegible] اخرى [illegible]
[illegible] وقد [illegible] ذلك فعلا

٣ - [illegible] الماضي بالمنزل
[illegible] السعادة
[illegible] وعباس حليم [illegible] باشا
[illegible] الى [illegible]
[illegible] باستقالة [illegible]
[illegible]
[illegible] سافروا
[illegible] صباح الاحد الماضي [illegible]
الى [illegible] حيث كان
كل شيء [illegible] واقامتهم
[illegible] في غاية [illegible]
[illegible]
ولا يسعني الا ان اؤكد لجلالتكم ان في الحديث معهم
[illegible] بكل [illegible]
جلالتكم [illegible]
الكريم [illegible] هذا الامر عنهم واني
[illegible] في ذلك جهدي [illegible]
[illegible] التفاهم
[illegible] عليه

هذا [illegible] لجلالتكم
[illegible] واني [illegible] على الدوام
[illegible]

نسخة اخرى من رسالة النحاس باشا السرية للملك فاروق وهي بخطه



السلطان عبد الحميد في أوائل عهده بالحكم

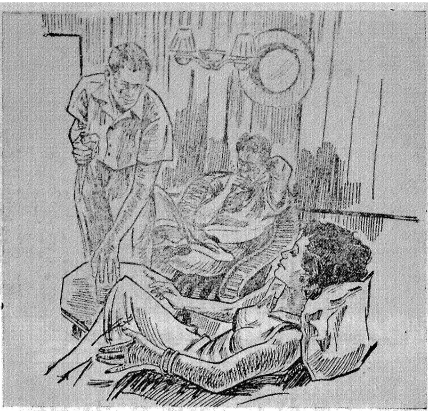


السلطان عبد الحميد في شيخوخته
توفي سنة ١٩١٨



انور بك

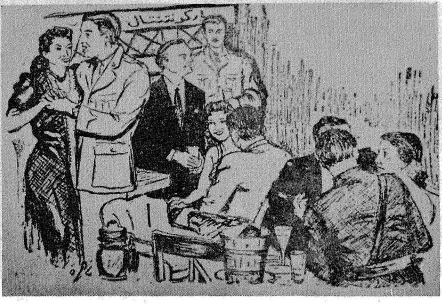
توفي في بخارى سنة ١٩٢٢



في العوامة الجاسوسة الصهيونية مع الجاسوسين الالمانيين



الجاسوسة اليهودية وابلر وصاحبه في العوامة



المارشال تيدر قائد القوات الجوية البريطانية يراقص حكمت فهمي



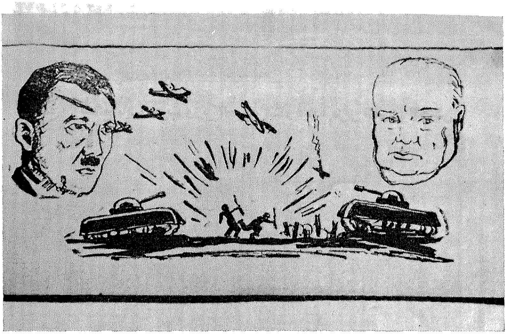
كانت البارات والمراقص ساحة صراع بين الجواسيس



صالح باشا حرب وزير الحرب اثناء قيادة عزيز المصري للجيش



فيروتشي الايطالي وازمة في القصر بسببه



هتلـر وتشرشـل



زي لامير تـركي



زي تركي يلبس في البلاط السلطاني



ضابط تركي

القرن ١٧



حامل سيف



ترجمان عثماني

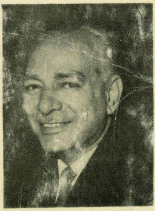


زي بحار تركي من الاسطول العثماني



تاجر عثماني باستنبول

فهرس



عزيز علي المصري عَلمٌ من أعلام النهضة العربية الحديثة، وبطل من أبطال الثورة العربية التي انبثق فجرها منذ مطلع هذا القرن في العهد العثماني الذي كانت ترزح تحت وطأتـه جميع الأقطار العربية .

كان أحـد أولئك الشبان العرب الأبرار الذين تفتحت عيونهم في الآستانة ، وهم يطلبون العلم ، على مظالم الترك ، وهضمهم حقوق العرب ، وتصميمهم على قمع كل حركة تحررية تلوح تباشيرها في أي قطر من أقطارهم .

انتسب الى أكثر الجمعيات السرية ، لا بل أسس بعضها ، فعمل وجاهد وعرّض حياته لأفدح الأخطار . ولم يقتصر في جهاده على مقاومة الترك فحسب بل قاوم الاستعمار البريطاني في مصر ، وحارب الغزاة الطليان في طرابلس الغرب ، ولم يتراجع إلا بعد أن خذله الترك ، وقدموا البلاد غنيمة للغزاة .

ولا نعدو الصواب اذا قلنا إنه كان أول مصري في العصر الحديث ترّفع عن الاقليمية الضيقة ، وفتح قلبه للعرب جميعاً ، مؤمناً بانهم سَواء في المصلحة والمصير ، وعمل باسمهم غير متوانٍ عن معالجة مشكلاتهم التي حسبنا أن نذكر منها مشكلة اليمن مع الأتراك .

ولا نذهب بعيداً في تعداد مآثر هذا البطل الكبير ، والتنويه بعبقريته العسكرية ، وبراعته في محاربة كل من كان يضمر العداء للامة العربية ، ففي هذا الكتاب الذي ملأ به مؤلفه الفاضل فراغاً كبيراً ، يجد القارىء تفصيلاً وافياً لاطوار حياته ، ومواهبه ، وجهاده الفريد الذي يجدر بالشباب العربي أن يطلع عليه ، ويقتدي به .

الثمن : ٨٠٠ ق. ل. أو ما يعادلها